شوشا جوبى

فتاة فى باريس

لقاء فارسى بالغرب

ترجمة

هالة صلاح الدين

المركز القومى للترجمة



1759

سلسلة الإبداع القصصى

فتاة فى باريس

لقاء فارسى بالغرب

تـأليف: شـوشا جوبى
ترجمة: هالة صلاح الدين

2014

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور

مدير المركز: رشا إسماعيل

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 1759
- فتاة فى باريس: لقاء فارسى بالغرب
- شوشا جوبى
- هالة صلاح الدين
- الطبعة الأولى 2014

هذه ترجمة:

A Girl in Paris: A Persian Encounter with the West

By: Shusha Guppy

Published by arrangement with I. B. Tauris & Co. Ltd. London

نشرت هذه الترجمة بالتعاون مع آى. بى. توريس لندن، والتى نشرت الطبعة الإنجليزية عام ٢٠٠٧ تحت عنوان " فتاة فى باريس: لقاء فارسى بالغرب"

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤

El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

جوبى، شوشا .

فتاة من باريس: (لقاء فارس بالغرب)/ شوشا
جوبى. ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب،
٢٠١٣.

٤٠٨ص؛ ٢٠ سم.

تدمك ٨ ٦١٢ ٤٤٨ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ـ القصص الفرنسية القصيرة.

ب ـ العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ١٩٠٣٠/ ٢٠١٣

I. S. B. N 978 - 977 - 448 - 612 - 8

ديوى ٨٤٣,٠١

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى، وتعريفه بها. والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز.

المحتويات

كلمة المترجمة

تركت شوشا جوبى إيران وأسرتها فى سن السابعة عشرة كى تدرس فى جامعة السوربون بباريس، واندفعت شوشا إلى المجهول ـ عالم من حريات غير متخيَّلة وآفاق غير مكتشَفة ـ وانهمكت فى الحياة الفنية النابضة بالحيوية للضفة اليسرى من نهر السين فى باريس، وهناك التقت صامويل بيكيت وسيدنى بيكيت وألبير كامو، وشجعها جاك بريفير على الكتابة وتسجيل أغانيها الأولى.

كانت محررة مجلة باريس ريفيو في لندن، وكانت صحفية ذائعة الصيت، وموسيقية ومؤلفة، نالت الجوائز عن كتابها **الحصان معصوب العينين**، وكتاب سر الضحك، وفى نفس ثراء الشعر والموسيقى الفارسية وغنائيتهما ـ وهما جانبان لا يستهان بهما من إرثها ـ تُعتبر المذكرات المتألقة لشوشا جوبى ـ تتمة كتابها المحتفى به «**الحصان معصوب العينين**» فى ذلك الوقت ـ صورةً مشرقة لباريس إبان العقد السادس من القرن العشرين، وتصويرًا ذكيا كل الذكاء للمواجهة بين الشرق والغرب، وسردا مثيرا لوجع النفى.

"إن مذكرات شوشا جوبى فى باريس مثيرة للأحاسيس، تتميز بالبساطة والشجاعة، تذكرنا بأن الهجرة بمقدورها أن تخلق مساحة لا أهمية فيها لقيود الجنسيات والجندر والطبقات والعقائد".

آذار نفيسى

"مذكرات رقيقة الحاشية مبهجة الوقع لمثالية الشباب ورقة مشاعرهم".

كولين ثوبرون

"كانت دقيقة الملاحظة، ثاقبة النظر، ذات ذاكرة تأتينا بها كما الهدية، تحيك انطباعاتها بكمال، تنساب الحكاية الواحدة بسلاسة ونعومة مع الأخرى، تشعر وكأنها صديقتك، تحكى بحماسة ما بعدها حماسة أحداث اليوم المجيدة، تتخلل حكايتها جدائل من ألوان فارسية وقصائد شهوانية - تعلمتها فى صغرها - وتصوف، وقبل كل شىء آخر بمقدور جوبى أن تصحبنا إلى باريس التى اكتشفَتها وعاشت لتحبها، لا يسع القارئ نسيان رسمها بالكلمات للحى اللاتينى، للنشاط الصاخب، لبراءة الحياة وعجرفتها فى الضفة اليسرى من نهر السين".

جريدة صانداى تايمز

"لا بد أن يصادق الجميع شخصا كشوشا جوبى، شخصا نهل من الحياة نهلا، تتمتع بموهبة المراسل فى الملاحظة ومهارة الروائى فى الحكى... إنها الكتابة فى أجمل حالاتها وأكثرها استدعاءً للزمن والمكان والعاطفة".

بولى سامسون، مجلة ديلى ميل

"إن أسلوب جوبى النثرى الرائع يعزز قصة حياتها البوهيمية خير تعزيز... إنها مذكرات تذوب سحرا".

مجلة تايم أوت

"إنه كتاب ممتع يفتن الألباب، تَقبلّه القراء بكل سرور... تمتزج به كل من الفكاهة والسوداوية".

مجلة فاينانشال تايمز

"تكتب بقلم مفعم بالحيوية يتصف بالبساطة وكأن شيئا لم يغب عن ذاكرتها".

أنجيلا لامبرت، جريدة ذى إندبيندنت

"يكمن سحر الكتاب فى أنه قد يضم الحياة الباريسية التى تثير أعين أى طالب أجنبى تقريبا إبان ستينيات القرن العشرين، بالإضافة إلى سحر ذكريات فارس التى تبزغ عند كل منعطف".

جريدة صانداى تليجراف

"تحلت سنواتها فى باريس بالسحر، وماثل سردها كأسا من الشمبانيا، خفيفا، مرحا، منعشا".

جريدة ميل أون صانداى

"ما فاتها أن تسبر وتؤرخ إلا أقل القليل من الحياة الفرنسية والمغتربين الأجانب، تنعم بعين سريعة تلتقط التفاصيل المفشية، وحس فكاهة لا مزيد عليه على ما يبدو... كتاب فى منتهى الإمتاع".

كارولين مورهيد، مجلة نيو ستيتسمان

"صورة رقيقة لباريس فى ستينيات القرن الماضى، كتاب يترع بشخصيات لا تمحى من الذاكرة، لا يخلو من جمل غنائية".

كريستى هيكمان، مجلة ويمانز جورنال

"فصيحة القلم، ذكية الكلمات، ساحرة الوصف، متقدة العاطفة..."

أنطونى رادولف، مجلة جويش كورتيرلى

"يستدعى الكتاب بجمل مجيدة إثارة متقدة يَقدر عليها المرء فى تلك السن، شوشا جوبى دليل مقدام يمحو الذات تواضعا".

جريدة كاثوليك هيرالد

المترجمة:

هالة صلاح الدين

إلى ابنىَّ داريوس وكونستانتين

وأبيهما نيكولاس

شكر وعرفان

بودى أن أعبِّر عن امتنانى لهؤلاء الأصدقاء الذين ساعدونى أثناء كتابة هذا الكتاب، ولا سيما يانيك بيلون وأوب بريتون لحسن ضيافتهم فى فرنسا، ولوليه بيلون وكلود روى لدعمهما لى طيلة الوقت، وساندرا كالدر - ديفيدسون، وجيلون إيتكين، وهيلين فريزر، ولآخرين فى دار نشر ويليام هاين - مان، أتوجه أيضا بالشكر إلى نيكولاس جوبى لإرشاده لى عبر السنين، وإلى أنطونى سميث دائما.

مقدمة

كثيرا ما استعادت فرنسا من خلال الفنون هيمنة خسرتها من جراء السلاح، وعلى الرغم من الهزائم المفاجئة العنيفة فى أعوام ١٨١٥ و١٨٧٠ و١٩٤٠ من فارس إلى بيرو، ظلت اللغة الفرنسية لغة المعاملات التجارية والتواصل العالمى، وكذا لغة الأدب والموضة والفنون. بحثت العديد من الدول عن التعليم والأناقة والحداثة، لا عند لندن أو نيويورك أو موسكو، وإنما عند باريس. تكتب شوشا جوبى فى هذه المذكرات الفارسية الباريسية الرائعة أنهم فى طهران فى العقد السادس من القرن العشرين "نظروا إلى مفهوم المترو باعتباره مرادفا للتطور والتقدم الصناعى." لقد أصبحت منطقة سان جيرمان دى برى فى باريس، حيث عاش وعمل سارتر وكامو وسيمون دو بوفوار، "مساحة عقلية أكثر منها منطقة جغرافية". رمزت أمجاد الوجودية ـ هكذا شعر الكثيرون وقتذاك ـ إلى انتصار روح فرنسا، ومحت عار الهزيمة عام ١٩٤٠.

لو أن هناك منطقة واحدة فى العالم وجدت فى باريس وفرنسا واللغة الفرنسية جاذبية خاصة فهى الشرق الأوسط؛ باتت اللغة الفرنسية إبان الإمبراطورية العثمانية فى العقد الرابع من القرن التاسع عشر اللغة

الثانية للطبقات الحاكمة، وبحلول العقد السادس من القرن التاسع عشر كتب أحد الشعراء العثمانيين:

اذهب إلى باريس يا سيدى الشاب لو لديك أية أمنية؛

إن لم تزر باريس، فأنت لم تأتِ إلى العالم.

لقد بدلت الثقافة الفرنسية أيديولوجية النخبة العثمانية الحديثة وقوانينها وأزياءها وعاداتها فى الحياة، كما صارت ـ فى خلال تطبيق النظام العلمانى على سبيل المثال ـ أساس العديد من الإصلاحات التى أجراها أول رئيس للجمهورية التركية، مصطفى كمال (كان قد زار فرنسا وكان يتكلم الفرنسية) فى العقدين الثالث والرابع من القرن العشرين.

وفى فارس أيضا كانت اللغة الفرنسية لغة التعليم منذ نهاية القرن التاسع عشر، بل إن العديد من الإيرانيين ـ بما فيهم والد شوشا جوبى ـ درَسوا فى باريس قبل الثورة الدستورية التى جرت من عام ١٩٠٦ إلى عام ١٩٠٩ . ثمة العديد من الكلمات الفرنسية فى الفارسية. كلمة "farang" مثلا تعنى "فرنسيا" وكذلك "أوروبيا"، وقد اعتمد نظام التعليم الحديث الذى أسسه رضا شاه بعد ١٩٢٥ على النماذج الفرنسية وليس الإنجليزية، وتعلم أطفال شاه الفرنسية قبل تعلم الإنجليزية.

كثيرا ما كتب الأجانب ـ عدد مماثل منهم تقريبا للفرنسيين ـ كتبا تحكى سنواتهم فى باريس (هاينه، وهنرى جيمس، وهيمنجواى). لقد احتفى الأتراك والمصريون بدور باريس بوصفها منارة للتحديث والحرية، كما فى كتاب ذهب باريس مثلا بقلم رفاعة الطهطاوى، أول وزير مصرى للتعليم، الذى كان فردا من أفراد أول بعثة تعليمية ترسل شبانا مصريين إلى باريس عام ١٨٢٦، والسيرة الذاتية للكاتب المصرى الضرير طه

حسين. الجانب الفريد فى سيرة شوشا جوبى هو أنها أول سيرة عن باريس بقلم فارسى أو فارسية، والوحيدة حتى الآن.

وُلدت لعائلة مسلمة مستنيرة؛ كان أبوها "مجتهدا" تقليديا أو فقيها وفيلسوفا يُدرس فى جامعة طهران، تكتب شوشا جوبى أنها "أضمرت كراهية مريرة للقواعد الأسرية والاجتماعية والدينية" التى شكلت قيدا على "مطامح الروح"، ثمة ما هو أكثر من الكتب والأفلام ملأها بشهوة إلى العالم الخارجى، وبث فيها إصرارا على الدراسة فى باريس. تكاد المدينة التى وصلت إليها عام ١٩٥٤ تبدو أكثر بعدا اليوم عن باريس فى العقد الرابع أو العقد الثالث من القرن التاسع عشر، فقد كانت مدينة فقيرة فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، ويكاد يكون من المستحيل العثور على محل للإقامة، وكان الحمَّام رفاهية. من الممكن أن تطرد صاحبة منزل إحدى الفتيات لارتدائها بنطالا أسود من القطيفة، وفى دور إقامة النساء لم تتمكن الفتيات من استقبال الزوار فى غرفهن؛ اضطررن إلى لقائهم فى حجرة انتظار بالدور الأرضى، حجرة مثلها مثل السجن. هيمنت الشيوعية باعتبارها قوة سياسية وثقافية، وظلت مهيمنة حتى ما بعد الثورات الطلابية عام ١٩٦٨ . لم يكن من طبع شوشا جوبى الامتثال للأعراف والتقاليد، بيد أنها وجدت نفسها فى الشارع تبيع مرة كل أسبوع لومانيته، الصحيفة الناطقة بلسان الحزب الشيوعى الفرنسى، وفى باريس صارت عضوا سريا فى الحزب الشيوعى الإيرانى.

إن كتاب فتاة فى باريس ليس مجرد استدعاء لفترة من الفترات، فهو يبرهن أن الحضارتين الغربية والشرقية ـ وهما حضارتان لا يمكن أن تنسجما معا ـ بإمكانهما أن تقويا بعضهما البعض. وعلى الرغم من ـ أو بسبب ـ خلفية شوشا جوبى الدينية الفارسية، فقد وقعت فى غرام

الثقافة الفرنسية (مع أنها تؤثر الكتابة بالإنجليزية). وكما هو الحال مع طالبة إيرانية أخرى فى باريس فى العقد السادس من القرن العشرين، كانت فرح ديبا ـ زوجة الشاه الثالثة فى فترة لاحقة ـ مدينة لتعليمها فى باريس بتقديرها للرسم والتطريز الإيرانى التقليدى، وعليه تعلمت شوشا جوبى المبادئ الإسلامية من مدرسَينْ التقت بهما فى باريس، لوى ماسينيون وهنرى كوربين. ما أقصت باريس إيران، الحق أن الطبعة الكاملة الأولى من الملحمة الفارسية القومية، كتاب الملوك، بقلم الفردوسى، صدرت فى باريس فى سبعة مجلدات ما بين عامى ١٨٣٨ و١٨٧٨ على نفقة الحكومة الفرنسية، تصاحبها ترجمة فرنسية بقلم جول مول، مترجم ألمانى بات أستاذا فى الفارسية فى باريس.

يُعتبر كتاب **فتاة فى باريس** أيضا استثنائيا فى تنوع اهتماماته؛ أحبت شوشا جوبى الغناء والمسرح وكذلك الأدب والفلسفة، صدحت بالأغانى الفارسية فى حفلات باريس، وكانت أول من سجلها فى الغرب. وقد وجدت الشاعر جاك بريفير ـ وليس الكاتب الشيوعى لوى أراجون الذى ألفت حاشيته كريهة ـ "مثالا للفنان الأصيل، منسجما مع فنه، يمثل نموذجا يستعصى على المرء تحقيقه، كما يندر عليه ملاقاته."

كذلك يتناول **فتاة فى باريس** "إحساس الشباب بالوحدة العميقة"، وألم الاغتراب ومنبهاته، عن باريس مدينة المغتربين كما كان القرن العشرون قرن المغتربين، وفى اشتياق شوشا جوبى إلى فارس انجذبت إلى مغتربى روسيا البيضاء والجمهوريين الإسبان، مثل الشاعر خوسيه بيرجامن، "الملتحمين بالحنين والحيرة والأسف"، و"المتصلين بالماضى والتواقين إلى عودة نهائيا إلى أوطانهم". أخبرها بيرجامن ذات يوم: "الاغتراب أبشع المآزق... وكلما تقدمت فى السن، كلما تفاقم الحال

سوءا"، وقد فضّلت من بين الكتاب ونماذج مغتربة أخرى، كاتبة خبرت باريس جيدا وكتبت بالإنجليزية رغم أنها لم تكن لغتها الأولى، ألا وهى كارين بليكسن، ومع ذلك تبين لنا شوشا جوبى أن روابط المدينة بالنسبة لبعض المقيمين الأجانب قد تفوق فى قيمتها الروابط القومية. تشير إلى أن الطلبة الأجانب سرعان ما يتحولون إلى باريسيين، و"يبحرون فى خضم الأمواج الهائجة للمدينة الكبيرة لمصلحتهم الخاصة"، يقيم الآن فى باريس المزيد من الإيرانيين المنفيين من الجمهورية الإيرانية أكثر من أى وقت مضى.

تعد هذه التقدمة لدور باريس المدينة العالمية تذكرة جاءت فى الوقت المناسب، فى غضون العصر الحالى للتفوق الأنجلوساكسونى، تذكرة بأن فرنسا، شأن بريطانيا والولايات المتحدة على الأقل، أسهمت فى صنع العالم الحديث، ولا شك أنها سوف تواصل الإسهام فيه.

فيليب مانسيل

٢٥ أغسطس ٢٠٠٦

١ - الحمامة البنية

تقع غرفتى فى الطابق العلوى من مبنى مؤلف من سبعة طوابق على السد، تطل على سد الضفة اليسرى. هناك تسع غرف مثلها، تمتد أسفل السقف على طول ممر ضيق على شكل حرف L، ضيقة الأركان متناثرة الأثاث، سرير واحد، ومائدة بجانب السرير ينهض عليها مصباح خشبى بمظلة وردية حائلة، وحامل للملابس تتدلى منه عدة مشاجب، ومكتب بالقرب من النافذة الناتئة العريضة، وخزانة ضخمة عتيقة ذات أدراج تبدو فى غير محلها وسط مثل هذا المسكن المتواضع.

ينحدر السقف المنخفض فى اتجاه النافذة الوحيدة، وتشرف هذه النافذة على الجانب الخلفى من المبنى بما يحويه من كتل متشابكة من أفاريز معدنية سوداء، ومزاريب وأنابيب تنزل متعرجة إلى فناء مربع تعمه الظلمة، ولكنك لا تبصرها إلا إذا ملت إلى الخارج. عدا ذلك يمتد المشهد فوق الجزء العلوى الأخضر لأشجار تحد نهر السين نحو الأسطح الوامضة للضفة اليمنى، إلى أبعد ما يمكن للبصر أن يصل إليه. تبرز معالم شهيرة وتعاون على تحديد المسافات، المسلة فى ميدان الكونكورد، كنيسة مادلين، وقصر تويلرى، وفى يوم صحو قد ترى القبة البيضاء لكاتدرائية ساكر كور. يمكنك من خلال الأغصان المتمايلة فى المقدمة أن

تلمح النهر، يكاد تياره الضارب إلى الخضرة يَظهر بين التدفق المطرد لحركة السفن على ضفتيه، وزوارق بطيئة ترسل أصوات انفجارات قصيرة خافتة، وقوارب المتعة المترعة بالمرح، والمنحنى الأنيق لجسوره كرياضيين يقفزون كل فترة فاصلة، بعيدا عند نهاية النهر صوب كاتدرائية نوتردام وجزيرة إيل دو لا سيتى.

تضاء فى الغسق أضواء متعددة الألوان تنبعث من رصيف ممتد فى البحر يجاور جسر ألما، فينقلب السد أرضا للمعارض. تروح القوارب المكشوفة وتجىء بأنوارها المتلألئة، تُحمل حمولتها من السياح والمستمتعين أو تفرغها. تستطيع عينك المتفرسة أن تتبعهم من مسافة ميل إلى ميلين أسفل النهر، تنفخ تنانين هائلة الحجم صوب المياه المظلمة ألسنة لهب من مصابيحها الأمامية، تتوقف عند انتهاء الرحلة، ثم تستدير وتعود أدراجها ببطء. وعند منتصف الليل تقريبا، حين يعود آخر قارب ويغادر السياح الرصيف، تنطفئ الأضواء تاركة فقط أنوار السيارات الأشبه بحشرة سراج الليل، تومض عبر أوراق النباتات، وبإمكانك أن تشعر بعملاق المدينة النائم يتنفس بانتظام حتى بزوغ الفجر.

تأوى الأشجار عددًا ضخمًا من حمام يطير عاليا ليجثم على الأفاريز وعتبات النوافذ وأطناف مبانى السدود، تقول صديقتى فيوليت التى استأجرت منها هذه الغرفة إنه من المميت إطعامه أو تشجيعه، فسرعان ما سيغزو الغرفة ويستحيل كما الوباء. يغص به الهواء فى خلال النهار برفرفة أجنحته وتزاوجه وسجعه الثرثار، وعندما يسدل الليل أستاره يتقوس ليستحيل إلى كرات من الريش تظهر كالنقاط على الأفاريز والأطناف أو فوق الأغصان. أين يمضى حين تمطر السماء؟ البادى أنهم

يختفون، ولكنهم يعودون بمجرد أن تصحو السماء وكأن أحدهم يستحضرهم.

وعلى الرغم من تحذير فيوليت صادقت حمامة تجلس وحيدة خارج نافذتى، منعزلة عن كل الحمام الآخر المحتشد بعيدا فى أزواج أو تجمعات، تراءت أصغر منه، والوحيدة الملونة بألوان مختلفة، فبدلا من الرمادى المعتاد الضارب إلى الأزرق، كان ريشها بنيا تتخلله هنا وهناك خطوط بيضاء رفيعة.

تثب بعيدا عن متناول يدى بمجرد أن أمد يدى لألمسها، بيد أنها تتناول كسرات أحيانا ما أتركها فوق إفريز عتبة النافذة. "هى؟" فقط لأن "حمامة" la colombe فى الفرنسية كلمة مؤنثة، ثمة شىء فى ألوانها الغامقة وقوامها النحيل وانعزالها الخجول مس وترًا فى قلبى.

أفضت إلى هذه الغرف الصغيرة سلالم ضيقة، وحوت صنبورا مشاعا يصب ماءً باردًا عند منعطف الممر، وحمّاما واحدا فى نهايته القصية. سكن هذه الغرف فى الماضى خادمات عائلات ثرية شغلت الشقق الفسيحة الأركان فى هذه المبانى السكنية. وحين عجز الناس عن دفع تكلفة خدم مقيمين تحولت الغرف بالتدريج إلى غرف للضيوف، أو استأجرها الطلاب والفنانون والمنعزلون المفلسون.

بل إن الفنادق حولتها حاليا إلى غرف إضافية للمقيمين لأمد طويل، يعوض انعزالها ما تفتقر إليه من راحة، تدخل المبنى من باب "الخدم" وتصعد السلالم دون أن يلحظك البواب أو السكان، وهناك المنظر الشامل المشرف على كل الاتجاهات، وعليه عندما عرضت فيوليت

استضافتى اخترت غرفة الخدم Chambre de Bonne مفضلة إياها على غرفة داخل شقتها.

لن أتذكر موقعا أفضل من هذا الموقع، أقمت ذات مرة فى مثل هذه الغرفة، منذ عهد طويل، عندما وصلت فى البدء إلى باريس من إيران. منذ متى؟ بعد ربع قرن أو أكثر، حالت ألوان الحياة، ظهرت حدودها باهتة، بل إن الذاكرة باتت لينة العريكة. غالبا ما أتذكر الآن من باريس شبابى، كما هو حال تذكرى من إيران طفولتى(*)، الطعوم الحلوة رغم أنى أعلم كيف كانت الحياة فى أكثرها باردة كئيبة وحيدة. كانت فترة تجوال واغتراب لطفت من حدتها لقاءات تمت اتفاقا، وعلاقات تشكلت ثم تشتتت أسبابها، وأحلام جميلة ولحظات إيقاظ لا تعدم الفظاظة، وأخطاء فادحة وفرص محظوظة، منعطفان شديدا الأهمية.

لذا اصطفيت أمورا كثيرة لتسكين وطأة الحنين بدلا من انتقاده شر الانتقاد، ثمة ما يكفى فى الوقت الحاضر لشغل بال المرء وتعذيبه. ما يلى من حديثى ليس مرتبا ترتيبا زمنيا، بل مجموعة من قصص وتيارات تتعرج صوب الجدول، "الحياة كما هى"، أو كما كانت، تسقط متذكَّرة من حوض النسيان.

(*) انظر كتاب "الحصان معصوب العينين ـ ذكريات طفولة فارسية (منيرفا)".

٢- الرحلة

إن الحياة فى مكان آخر

آرثر رامبو

لم تغادر أيامها إلا طائرة أو اثنتان يوميا متجهة إلى أوروبا أو أمريكا، كان مطار طهران فى العقد السادس من القرن العشرين أشبه بحلبة ترابية تحيط بها برية مستوية تسفعها أشعة الشمس، يشقها مهبط طويل ضيق معبَّد بالإسفلت. تكونت الصالة الجوية من مبنى قصير عريض سطحه من الصفيح، ينقسم إلى صالة للوصول وصالة للمغادرة، وهناك أقسام للجمارك وفحص جوازات السفر، كان المطار الدولى الضخم الذى بات الأنشط فى الشرق الأوسط فى العقد السابع والثامن لا يزال وقتها بريقا فى عينى الشاه.

كانت طائرتنا ذات الأربعة محركات تابعة لشركة إير فرانس، استقرت وحدها على بعد قليل من مبنى الركاب، على حين قمنا بإجراءات المغادرة وتشنجات الوداع، وفى النهاية اصطحبتنا على متن الطائرة مضيفة طيران شقراء الشعر أنيقة الزى وحددت لنا مقاعدنا.

كانت طائرتنا صغيرة الحجم مقارنة بطائرات اليوم النفاثة الضخمة، تكتظ أغلب مقاعدها بالركاب الذكور. سافرت مع بارى، صديقة من صديقات المدرسة، كانت تقصد جامعة ألمانية، وقد استقلت طائرة أخرى

فى باريس. كنا ـ وفقا لذاكرتى ـ الطالبتين الوحيدتين بين الركاب، رائدتين لعدد هائل من الطائرات التى تقل عشرات الآلاف من الطلبة الإيرانيين إلى أوروبا وأمريكا فيما تلا من عقود.

كان الالتحاق بجامعة غربية شرفا أى شرف بالنسبة إلينا، شرفا لا يتاح إلا لقلة من الطلبة ولا سيما للفتيات. حالفنا الحظ، ينبغى أن ننعم بالسرور، ومع ذلك كنا ننتحب انتحابا، وكنت لأضحى بنصف عمرى كى أبقى.

اتخذت مجلسى بجوار النافذة، وحاولت أن أميز هيئة أمى وأفراد آخرين من منزلنا ممن صاحبونى إلى المطار، ولكنهم كانوا بعيدين للغاية، تائهين بين الحشد. اشتغلت المحركات أخيرا وطفقت الطائرة تتحرك على طول الممر، سرعان ما ارتفعنا فى الهواء لنعلو فوق جبال تحدُّ المدينة، وقد خططت قممها العلوية ثلوج الخريف الأولى، تلتمع فى الشمس. سرعان ما اتجهنا إلى الجنوب الغربى فوق النجد الإيرانى الفسيح الشاغر، تبددت المدينة مثلها مثل كائن خرافى، وبدت الأرض كأمواج بنية مائلة إلى الصفرة، منقطة بواحات صغيرة ـ صف من خشب الحَوْر يحد بحيرة لونها أخضر مائل إلى الأزرق، وعدة مواعز، وتجمع من أكواخ مسطحة الأسطح. لم أر فى أغلب الأحيان إلا ظل الطائرة يميل فوق الأرض المتوجة، شأن طائرة ورقية وسماء زرقاء لا تشوبها شائبة فوقنا. نال منى إنهاك القلق والبكاء فشعرتُ برغبة فى النوم، استيقظتُ على غروب الشمس، على أفق من الانفعالات اللونية، ذهبى، أحمر وأرجوانى، تعمقت متحولة إلى الأسود، ثم حل الظلام، ورحنا نسافر بين النجوم.

لم أمض ليلة بعيدا عن بيتى وأسرتى طوال حياتى القصيرة كلها، بل إننى فى الصيف، عندما انتقلنا من منزل المدينة إلى الريف، شجعنا الأهل أن نطلب من أصدقائنا البقاء معنا بدلا من المضى إلى بيوتهم، مما ضمن أن شخصا بالغا يصاحبنا على الدوام كى لا نقع تحت أى "تأثيرات سيئة." تأثيرات خافت منها أمى المنتبهة دوما إلى عفافنا. وأمام خلفية صلبة من الحماية نسجت كل أحلامى بالمغامرة والرومانسية وزخرفتها، وتفاقمت كل مآسى الحياة الصغيرة، واستمتعت بها ممزوجة بحدة المراهقة.

غير أن الحقيقة اختلفت الآن، ترامت أمامى أيام وشهور، بل وسنوات، وأنا وحيدة، بمنأى عن كل أحبابى، ولا يمكن لأى بشير بسعادة وإنجاز فى المستقبل أن يعوضنى عن الخسارة. ماذا فعلت؟ كيف وسعنى أن أتركهم جميعا؟ غمرنى شعور بالذعر والندم، وأخذت دموع اليأس تسيل مجددا لتتدفق فوق وجهى.

"لو واصلت البكاء، سيركبنى الغضب!" لكزتنى بارى، صرفتُ وجهى عن النافذة نحوها، وقبلت وجنتىّ. "فكِّرى فيما حالفنا من حظ، فكِّرى فى أصدقاء عديدين سيضحون بكل غال ليحلوا محلك! لا أسلم أنا الأخرى من شعور بالحزن، ولكنى أعلم أننا سنعتاد الوضع وننعم بحياة طيبة، هلمى، فلنذهب ونغسل وجهينا ونضع أحمر شفاه!"

أحمر شفاه! لم يسمح الأهل لنا ـ أنا وأختى الكبيرة ـ بوضع مساحيق التجميل أو ارتداء أكمام قصيرة أو جوارب رقيقة أو حتى التعطر، خشية أن يفسر الآخرون تصرفاتنا برغبتنا فى اجتذاب الرجال! لعل مثل هذه المحرمات والمحظورات تافهة فى ذاتها، ولكن فرضها من طرف خارجى

جعلها جزءا من فقدان السيادة الشخصية، فقدان أعلنت تمردى عليه. أكننت بغضا مريرا للقواعد الأسرية والاجتماعية والدينية وقاومتها، قواعد أعاقت التدفق الطبيعى للحياة. لقد كيَّف جيل أمى من النساء ـ فضلا عن كل الأجيال السابقة عليه ـ نفسه على هذه القيود، ولكننى وصديقاتى قرأنا الكتب والمجلات، وشاهدنا الصور، والأهم تفرجنا على الأفلام، ووقفنا على الاحتمالات الأخرى للحياة، عالَم تتراءى فيه النساء فى مثل حرية الرجال فى تشكيل مصائرهن، يستطعن اختيار شركائهن وتطوير مواهبهن، لم نجد أى تعارض بين الحرية والفضيلة.

لم أجد طريقة للتحرر إلا بمغادرة البلد، الحق أنى حلمت منذ نعومة أظفارى بأن أقيم فى مكان آخر، وقد عنى لى ذلك السفر إلى أوروبا، وتحديدا باريس. وأخيرا بات "المكان الآخر" فى متناول يدى، ومع ذلك تولانى شعور بالحرمان، ودمرنى الحنين إلى وطنى، متمنية أن أنزل بالمظلة فوق واحدة من تلك الواحات الكائنة فى الصحراء، وأمتنع تماما عن الحلم بالفرار مرة أخرى! سوف أنفق نصف عمرى حتى أعى أن "المكان الآخر" عصىٌّ على الإحراز وأنه يتراجع كلما دنوتَ منه، ومتى ظننتَ أنك بلغته أخيرا، يمضى إلى "مكان آخر".

أستحضر تلك الساعات القليلة الأولى من رحلتنا وكأنها البارحة، هكذا بلغت حدة المشاعر، كنت أعلم بعقلى اللاواعى أن أيًّا كان ما يخبئه المستقبل فلن يصير أبدًا مؤلما إلى هذه الدرجة، وأن بقية حياتى سوف تنطوى فى خلفية هذا التمزق الأول غير القابل للإصلاح.

قصدنا مؤخرة الطائرة وغسلنا وجوهنا، ثم أخرجتْ بارى من حقيبتها

أحمر شفاه ووضعت منه على شفتيها ثم على شفتىَّ، تطلعت إلى المرآة لأرى النتيجة الغريبة المبهرجة، ولكننى لم أهتم بمسحه خشية أن أبث فيها شيئا من الضيق، عدنا إلى الكابينة والخجل يستولى علىَّ حتى إنى أخفيت فمى بيدى وأنا أسير فى الممر، وكأن كل العيون تتسلط علىّ فى استهجان، المدهش أنى لم أضع شيئًا كثيرًا من مساحيق التجميل، بل الكاد لمست أحمر شفاه بعد أن زالت جدة التجربة.

ولكن دعونى الآن أنهى إليكم قصة بارى.

التحقتْ بارى بمدرستنا «الأميرة» أثناء سنتى الأخيرة كى تتهيأ للحصول على شهادة البكالوريا. كان عددنا قليلا فى الفصل لأن جُلَّ الفتيات انقطعن عن الدراسة بعد امتحان الدبلوم، من أجل الزواج وإنجاب الأطفال فى الغالب. (سَنَّ رضا شاه عام ١٩٣٢ قانونًا يقضى برفع السن القانونى للزواج إلى السادسة عشرة، غير أن العديد من الآباء حدَّثوا شهادات ميلاد بناتهم كى يتمكنَّ من الزواج فى سن الخامسة عشرة، بل وأقل من هذه السن). لم يلبث في السنة الإضافية إلا مَن يخططن للالتحاق بالجامعة كى يُعدِدْن أنفسهن لامتحانات القبول، أمكنهن أن يخترن الرياضيات أو العلوم الطبيعية أو الأدب والفلسفة. ونظرا لأن المدارس الثانوية لا تمتلك جميعها المرافق اللازمة لكل هذه الأقسام، ولا التطبيقات الكافية للسماح بتأسيسها، أتت بارى من مدرستها إلى مدرستنا.

كنا فصلا محدود العدد مكونا من نحو عشرين فتاة يَدرسن للحصول على شهادة البكالوريا في الأدب، وقد شكَّلت ست طالبات منا مجموعة تحركت معا فى ثلة، والتقت أيضا خارج المدرسة. رنونا جميعا إلى بارى

بعين الإعجاب، فهى لم تكن فقط أنضج منا وأرقى، بل "مختلفة"؛ فقد كانت لقيطة، سر تصونه بكل أمانة صديقاتها المقربات، ولا تعلم به حتى المدرسات أو مديرة المدرسة.

كان والدا بارى بالتبنى طبيبا كهلا وزوجته، حاق بهم اليأس من إنجاب أطفال من صلبهما فبحثا عن رضيع للتبنى، لم يكن البحث سهلا، فقد خلت البلد من وكالات للتبنى، وعليه اضطرا إلى سؤال الأهل والأصدقاء، والمصادر السرية فى الحمامات العامة hammam، والتجار فى الأسواق المحلية، من النادر أن يَقبل الأبوان، مهما بلغ فقرهما وعوزهما، أن يفترقا عن أطفالهما. "مَن يتخل عن مقلة عينه يتخلَّ عن عيشه،" استشهدوا بقول الشاعر واضعين ثقتهم بالعناية الإلهية كى تقيم أود ذريتهم، مهما بلغ عددها، كان الأطفال غير الشرعيين غير موجودين تقريبا؛ نظرا للبنية الأسرية التقليدية والإشراف الحازم على النساء، وغالبا ما كان جزاء "الخطيئة" هو الموت للفتاة والرجل غاويها. ويمكن أن يقتل أبوها، وكثيرا ما يكون أخوها، المنتهِك ثأرا لشرفها ثم يفلتان من العقوبة، علاوة على أن أحدا لا يرغب فى الاحتفاظ بطفل حملت به المرأة خارج إطار الزواج، طفل سوف - يصير من غير ريب - لصا أو قاتلا. سرت قصص مريعة تحكى حوادث قتل الرضع غير الشرعيين، أقحموا أوتادًا فى يوافيخهم، أو لفوهم فى خرق ورموهم فى حفر الزبالة والمراحيض العامة، بل ودفنوهم أحياء. المذهل أن هذه المهمة قامت بها فى الغالب عجوز تَقدر أن تكتم السر؛ لذا فالأرجح أن الطفل المتبنى النادر يكون يتيما، كما هو الحال مع بارى. لم يعلم أحد هوية والديها الحقيقيين وكيفية تبنيها، فلم يطلعها أحد على القصة، ولم تناقش الأمر قط مع والديها، ما علمنا إلا أن بارى لقيطة، مما أضفى عليها المزيد من

السحر. كنا نسويات ناشئات avant la lettre قبل صياغة مصطلح النسوية، فأضمرنا أمنية أن تكون "طفلة حب"، حملت بها أمها فى عناق متقد بالعاطفة، طفلة كذَّب بقاؤها على قيد الحياة وازدهارها المعتقدات الخرافية الشائعة، لا عجب أن اسمها كان بارى ـ فيرى(*).

من حسن حظ والديها أن بارى أصبحت فتاة صغيرة تذوب فتنة؛ جميلة المحيًا، ذكية العقل، مفعمة بالعاطفة، تمتعت بملامح رقيقة وقامة طويلة رشيقة وروح دعابة. أقصتها أمراض الطفولة عن المدرسة لمدة عام، أى أنها كانت أكبر قليلا من بقيتنا، وقد بدت أنضج عقلاً، ربما لأن أبويها بالتبنى المتساهلين سمحا لها بحريات بسيطة حُرمنا نحن إياها، كانت ترتدى تنورات قصيرة وفساتين ضيقة تتفتح أعناقها بجرأة لتكشف جيدها الطويل وقوامها الجميل، أحيانا ما تبينا فى وجهها آثارا خفيفة لمستحضرات تجميل تحلت بها فى حفلة الأمسية السابقة، ظل خدود وردى ناعم يُجمل وجها شاحبا لولاه، خط ضارب إلى القرنفلى يشدد على حدود شفتيها، تجاوزت كل تلك الأشياء مجموعة من السلوكيات الصارمة التزمنا نحن بها.

أكَنَّ والدا بارى لها حبا أى حب، وقد كرست لهما نفسها، وفى السنوات التالية ضحت بحياتها فى سبيل سعادتهما، فبعد قضاء سنة فى ألمانيا كى تتعلم اللغة التحقت "بجامعة توبين" كى تقرأ فى علم النفس، غير أنها هجرت دراستها على الفور حتى تعود إلى إيران وتعتنى بوالدها الهرِم الذى حاق به المرض. كانت تلك الفترة أوج الاكتشافات البترولية، ومع ما نتج من تطورات اقتصادية اجتذبت العديد من الشركات الأجنبية

* فيرى Fairy: كلمة إنجليزية وتعنى "جنيَّة". (المترجمة)

إلى إيران، اضطلعت بارى بوظيفة فى شركة تجارة ألمانية. أقامت فى بيتها ورعت والديها حتى وافتهما المنية فى غضون سنوات قليلة. بلَغت بارى بحلول ذلك الوقت الثلاثين، ولم تتزوج، صعُب إرضاؤها ولم تقبل التنازلات، لذا رفضت العديد من عروض الزواج المواتية، مفضلة أن تتبع أهواء قلبها. أسرَّت إلىَّ ذات مرة أنها خاضت قلة من "العلاقات الغرامية" لم تفض إلى علاقات دائمة، ولكنها اتصفت بحياء بالغ لم أتأكد معه من صدق حديثها.

أعجبنا ببارى لسبب آخر، وهو أنها مارست ما دعت إليه دون أن نجرؤ نحن على ذلك، بينما أطفأنا أشواق المراهقة بأحلام عن نجوم السينما، صاحبت حبيبا حقيقيا، صبيا من المدرسة الأمريكية، كان تلاميذ المدارس الثانوية الذكور وكلية الآداب المجاورة يمرون بمدرسة "الأميرة" كى يتفرجوا علينا ونحن خارجات عند نهاية اليوم الدراسى. أبقوا بيننا وبينهم مسافة تنم عن الاحترام، غير أنهم قيَّمونا بأعينهم، واصطفوا منا المفضلات لديهم كى ينتبهوا إليهن انتباها خاصا، كان الحبيب يتتبع بارى حتى بيتها كل يوم لفترة طويلة، وفى يوم من الأيام تَشجع بابتسامة ندت عنها واقترب منها ليحادثها، ومنذ حينها ظل يلحق بها كل أصيل، وبمجرد أن يغادرا منطقة المدرسة كان يسايرها حتى بيتها، أحيانا ما كانا يتوقفان عند أحد المقاهى لاحتساء الشاى والفطائر، بل إنهما تمكنا مرة أو اثنتين من الذهاب إلى السينما معا. بلغت متعتنا - التى نعمنا بها من خلال الاستماع إليها لا مباشرة التجربة بأنفسنا - بمغامرتها الغرامية ذروتها حين أفضت إلينا أنها سمحت له بتقبيلها قبلة المساء، وعندها وقعا فى حب جنونى، وشاركنا - نحن صديقاتها المقربات - سرها المبهج وصُنَّاه بمنتهى الحرص، فلو وصل الخبر إلى سلطات

المدرسة، سوف تطرد ولا شك من المدرسة؛ فيلحق بها وبوالديها الخزى والعار.

لِم إذن يرحل الاثنان عن البلد، بارى متجهة إلى أوروبا وحبيبها إلى أمريكا، بدلا من الانطلاق صوب غروب الشمس والحياة معا فى سعادة إلى الأبد؟ لأن القرار اتخذه الآباء، كانت هى فى السابعة عشرة وهو فى الثامنة عشرة، لذا أُرغما على الطاعة، بيد أنهما تعاهدا على الإخلاص الأبدى، وسوف ينتظر كل منهما الآخر، مهما طالت سنوات انفصالهما.

أخبرتنى بارى فى غضون رحلة إلى إيران بعد عدة سنوات أنه كف عن الكتابة إليها بعد بضع رسائل متقدة العاطفة، وانقطع الاتصال بينهما. علمت بعد فترة أنه تزوج بفتاة أمريكية واستقر به العيش فى مكان ما من منطقة الغرب الأوسط الأمريكى، ما عاد إلى وطنه قط، إلا أن وعده بالحب ولم الشمل فى النهاية دعم بارى أثناء رحيلنا، لذا لم ينفطر قلبها مثلما انفطر قلبى.

وبعدها فقدت الاتصال بها كما جرى مع أغلب أفراد مجموعتنا، ولكن تناهى إلىَّ أنها غادرت إيران بعد أحداث ١٩٧٩ متجهة إلى ألمانيا حيث تقيم الآن وتعمل.

لم تحط أمى علما بأى من هذه الأمور الخاصة برفيقة الرحلة، وإلا لكانت منعتنى من رؤيتها خوفا من إفساد أخلاقى، كيف بحق السماء حسبتْ أنى سأكون محصنة من هذه "التأثيرات" وأنا وحدى فى باريس؟ اتكلت على "جديتى" وما غرسته فينا من احتشام، وآمنت - قبل كل شىء - بأن دعواتها ودعوات أبى سوف تخلق حولى ستارا سيحمى حياتى واستقامتى.

وعندما أتطلع إلى الماضى، إلى ما عاصرته من منعطفات مفاجئة خلال تلك السنوات، أميل إلى الاعتقاد بأن دعواتهما ربما حمتنى بالفعل. وإن لم تحمنى، فما الذى حمانى إذن؟

٣ ـ الوصول

لا تتعاركوا

بل ساعدوا بعضكم بعضا

فى سبيلكم

أعزائى الطيور المهاجرة

أيسو ـ هايكو(*)

تراءى مطار أورلى من السماء بحرا من الأنوار وكأن علاء الدين فتح صدره الحاوى للجواهر ونشر محتوياته فوق ظلمة مغلَّفة بالمخمل، قادتنا المضيفة إلى مبنى الوصول الضخم المنير، مبنى بدا فى فخامة القصر مقارنة بكوخ غادرناه. تزينت الجدران بصور ملونة للمواقع التاريخية وأماكن طبيعية تشى بالجمال فى فرنسا؛ عرضت النوافذ أحدث إبداعات الأزياء والحلى؛ واعتنى الموظفون ذوو الملابس الرسمية بالركاب. قابلنا السيد رحيم، مستشار فى السفارة الإيرانية كان صديقا·وزميلا

(*) هايكو: نوع من أنواع الشِّعر اليابانى يتألف من عدد محدد من السطور (ثلاثة سطور فى الغالب)، ويتناول موضوعات حياتية ويومية متنوعة، لكن الشاعر يقدمها فى خبرة جديدة مثيرة للتأمل والدهشة. (المترجمة)

أعلى مقاما لأخى الأكبر، سمعت عنه من عدة أفراد من عائلتى وفدوا إلى منزلنا، ولكننى لم أقابله لأنه كان دوما مسافرا إلى الخارج. بث وجوده فى المطار الآن الاطمئنان فى قلبى، صلة بعالم خلفته ورائى، ونظرا لأنه دبلوماسى تم السماح له بلقائنا قبل اجتياز الإجراءات الرسمية الخاصة بالجوازات والهجرة كى يمهد لنا العبور. طالما اعتبرت هذه الامتيازات أمرا مُسلَّما به دون أن أعلم أنها سرعان ما ستختفى لأصبح طالبة أجنبية أخرى وحيدة بين الآلاف من الطلبة.

بيَّن لنا السيد رحيم أنه حجز لنا غرفة فى فندق فخم إلى حد ما لقضاء الليلة، ولكن عندما نغادر بارى فى الصباح، سوف يصحبنى إلى فندق أصغر يقع بالقرب من بيته إلى أن يجد لى إقامة دائمة. ما يلبث فى ذاكرتى عن الرحلة إلى وسط باريس هو مشهد دائم التغير من الأنوار الساطعة والمبانى العالية السوداء وشوارع عريضة تصطف بها الأشجار، مشاهد ميزتها تمييزا مبهما عبر متاهة من الإنهاك الجسدى والعاطفى. تستغرق الرحلة اليوم خمس ساعات على حين استغرقت آنذاك اثنتى عشرة ساعة، نزل بنا الإرهاق من جراء الحزن والقلق حتى إننا لم نلمس طعام الطائرة الغريب.

لاح مدخل الفندق الفسيح المضاء بثريات هائلة من البلور كالمرتعش ارتعاش قصر من قصور الجان، سجَّل السيد رحيم اسمينا وودعنا بعد أن عهد بحقائبنا إلى بواب صحبنا إلى غرفتنا فى الطابق الثالث. كانت غرفة ضخمة بسقف مرتفع ونوافذ طويلة تطل على الشارع، تلون الجدران والأثاث بلون وردى عتيق ولون أبيض كما اللبن، وأشرق بدرجات الزجاج الملون المنتمى إلى مدرسة الفن الحديث مما أحدث جوا من الدفء، خلعنا ملابسنا سريعا وأدركنا النوم، لم يدم النوم، فبمجرد أن

خفَّ التعب استيقظت من النوم وقد نال منى الذعر لِما فعلته، مفكرة فى حيلة تنقذ ماء وجهى حتى أستطيع معها أن أعود إلى بيتى فى أقرب فرصة ممكنة. سوف يتطلب كل شىء يمكننى فعله سنة على الأقل، وفى غضون تلك الفترة كنت موقنة أنى سأموت من فرط الأسى. أرسلت بارى أنفاسا رقيقة فى الفراش المجاور ولم أُبدِ حراكا خشية إيقاظها، وما كان منى إلا أن بكيت بكاء مرا أعادنى إلى النوم فى صمت.

أيقظنا فى نحو الثامنة نادل يجر صينية عليها قهوة ساخنة وكرواسون. أتذكر إفطارنا فى البيت، تجمعنا جميعا حول إناء يحوى شايا يخرخر فى حجرة أمى، مائدة فاتحة للشهية، يعلوها جبن الماعز والزبد وتشكيلة من مربى أعددناها فى البيت وخبز مسطح دافئ، أغذية أقسم كثيرا ألا أتناولها خوفا من السمنة. لم أفكر البتة فى وزنى فى السنوات التالية، فقد كانت المشكلة التى تواجهنى ـ كما هو حال أغلب الطالبات ـ أن أجد الطعام لا أن أتجنبه! لقد أتى تهذيب العقل والروح قبل التغذية. كرست مواردى الشحيحة ووقتى للكتب والأفلام والمسرحيات والأوبرا والمقاهى، وسرعان ما كرستها للملابس الجذابة والإكسسوارات المغرية، كل شىء عدا الطعام العادى معدوم الرومانسية!

"نمتُ نوم الموتى". أنهت بارى إلىَّ: "هل نمتِ جيدا؟"

"أجل".

هيَّأنا أنفسنا وفتحنا النافذة ودلفنا إلى الشرفة، كنتُ قد رأيت أجزاء من باريس فى الأفلام الفرنسية أو فى "الشهرفرنك" Shahre Farang، صندوق سحرى بداخله صور متحركة طاف به ساحر متجول فى شوارع طهران كى يسلِّى الأطفال، وقد قرأت وصفا لها فى الروايات الفرنسية

الصادرة فى القرن التاسع عشر، ومن هذه المواد شيدت باريس من خيالى. والآن ترامت المدينة الحقيقية أمام عينىّ المتفرستين لتبدد تلك الصور الواهية، تدلت سماء بلون الرصاص فى مستوى منخفض، رشحت ضوءا أصفر باهتا فوق أرصفة تلألأت بمطر هطل حديثا، التفّت الأوراق الساقطة مع النسيم، تجمع الحمَام حول امرأة عجوز تقف فى الميدان بالأسفل وهى ترمى لهم بكسرات الخبز، وفى أحد الأركان أشارت لوحة من الحديد المطاوع إلى مدخل مترو Métro الأنفاق، وقد وجدنا فكرة المترو نفسها مرادفة للتطور والتقدم الصناعى.

سرعان ما توقف عند المدخل شاب وشابة كانا يسيران متشابكى الأذرع نحو المترو، وتعانقا فى قبلة طويلة محمومة العاطفة، تماما كما يجرى فى الأفلام، ولكن المنظر كان هناك أمام أعيننا، علانية! inpublic لا بد أن وجنتىَّ توردتا لأن بارى سخرت منى؛ مما دلَّ على أنها أنضج وأكثر خبرة.

لم تنقطع ثلتى من الصديقات المتشربات بالأفكار التقدمية عن مناقشة محرمات حكمت حيواتنا، وقد نبذنها كلية، كنت أكثر حماسة فى تمردى من صديقاتى، ربما لأنى أنحدر من جذور دينية، ولم أتمتع بمثل الحريات التى نعمن بها، إلا أن كل هذه الأفكار كانت نظرية وتُشكل جانبا من انهماكنا السياسى الأكبر. عند اندلاع الثورة سيتحرر الجميع، وسيسود العلاقات بين الرجل والمرأة التناغم وتقوم على المساواة.

"ياه! ولِم لا يُقَبل أحدهما الآخر؟ ولِم ينبغى أن يستترا؟ لا عيب فيما يفعلان!" هزت بارى كتفيها، ودخلنا الغرفة.

عرج علينا فى التاسعة السيد رحيم يرافقه زميل من السفارة سوف يقل بارى إلى مطار أورلى، وعليه تبادلنا القبلات بأعين دامعة، وتواعدنا

على تبادل الرسائل كثيرا. ليتها تستطيع البقاء معى - دار ببالى - كى يؤازر بعضنا بعضا حتى نعتاد محيطنا الجديد، ثم نعود فى النهاية إلى وطننا. ومع رحيلها انقطعت آخر صلة بالعالم المعهود لدىَّ، سوف يكون من واجبى أن أتكيف وأستفيد من الظروف خير استفادة.

فى عالم اليوم الموسوم بالتواصل الفورى، حيث تربطك بضغطة زر هواتف الاتصال المباشر بالجانب الآخر من الكرة الأرضية، وترسل أجهزة الفاكس رسائلك والخطابات الغرامية فى غضون دقائق، بينما تمكنك طائرات الكونكورد من الذهاب إلى أمريكا يوميا، من العسير تخيل ما خامرنا من ألم مبرح من جراء الحنين إلى الوطن والانفصال عنه. كان الاتصال بدولة أوروبية أخرى فى تلك الأيام عملا معقدا أيما تعقيد، ناهيك عن الاتصال بدولة آسيوية نائية مثل إيران، كان عليك أن تحجز المكالمة فى اليوم السابق ثم تنتظر ساعات، على حين يحاول موظف الاتصالات ربطك بالمتلقى، وبعد أن تنفق ثلاث دقائق هى المخصصة لك فى الصياح "آلو؟ آلو؟ هل تسمعنى؟" ينقطع الاتصال وتناشد الموظف أن يعيد الاتصال، وسوف تبتلع تكلفة هذا "الاتصال" المحبِط نصف مصروفك الشهرى.

عندما انطلقت سيارة السيد رحيم، مددت بصرى إلى فندقنا ولافتته المنيرة، أوتيل لوتيشيا. "Hôtel Lutétia" إنه اسم أطلقه الرومان على باريس" أخبرنى السيد رحيم، لا يزال الفندق ناهضا عند تقاطع جادة راسباى وشارع سيفرى، غير بعيد عن محل إقامتى فى النهاية.

"لا شىء مكتوب". اعتاد أبى أن يقول، رافضا الاعتقاد الإيرانى القديم بأن قدر المرء "مكتوب" على جبهته بواسطة ملاك عند الولادة، وأن لا شىء يمكن أبدًا أن يبدله، وكل محاولات البشر لعكس القدر لا

طائل تحتها. "إننا نكتب أقدارنا ونحن نتقدم فى الحياة، ضمن حدود معَينة"، مثلما قال لى. "إننا نختار هويتنا وأفعالنا، وإلا فلا فضيلة فى فعل الخير ولا خطيئة فى فعل الشر". "الحدود" عبارة عن الظروف والعناية الإلهية، إن حدود الحرية الإنسانية فى يد التخطيط الأعلى للخالق. وافقته، حسبت أنى أستطيع الاضطلاع بمسئولية ما أتوق إليه من حرية، مهما بلَغ الثمن، بيد أنى لم أكن نسخة أنثوية من شخصية بلزاك الروائية راستيناك. على العكس منه لم أضمر طموحات شخصية، لا شىء سوى مثل عليا مراهقة، وفيما كنا نقود نحو "الأمر بينى وبينك الآن يا باريس" Anous deux,Paris كررت جملتى البائسة "الأمر بينى وبينك الآن يا حريتى!"Anous deux,Liberté

مضيت إلى باريس بعد انصرام سنوات لتسجيل برنامج تليفزيونى نظمته شركة التسجيلات التى أتعامل معها، وأقمت فى فندق أوتيل لوتيشيا. ورغم أن الواجهة بشرفاتها والدرابزين المصنوع من الحديد المطروق ومظلات الزينة لم تتغير، تجددت الردهة وغرف الاستقبال وظهرت فى مظهر أكثر بهجة. ضج المقهى المطل على الجادة بغمغمة نزلاء يحتسون شاى الأصيل، وأُلحق بالفندق حانات ومطاعم جديدة, أضفوا الجاذبية على جناحى بوضع الزهور وسلة فاكهة وشمبانيا مثلجة. كانت مناسبة سعيدة، سوف نطلق أسطوانتى الجديدة إلى الأسواق، وقد تم ترتيب لقاءات صحفية وإذاعية، وعاملنى الجميع بكل حب، غير أنى استحضرت ـ وأنا وحدى فى الغرفة ليلة وصولى إلى باريس ـ فغمرتنى موجة من الكآبة خلَّفتنى منهكة من فرط الحنين إلى الماضى، ثم فتحت النافذة وخطوت إلى الشرفة. كان الفصل ربيعا والسماء زرقاء باهتة تخططها سحب أشبه بحلوى غزل البنات تتقوس عاليا فوق المدينة، تدفق

فى الميدان نور ساطع مريح للعين فى شرائط ذهبية من خلال الأغصان، تجمع الحمام حول المقاعد كى يطعمه المحسنون من كبار السن... وتراءت كل المبانى التى تنظفها المدينة الثرية دوريا أقل كآبة وتهديدا.

انقضت عشرون عاما، عثرت على ما هو أشبه بالبيت وأخذت بأسباب حياة، بطريقة أو بأخرى، tant bien que mal ومع ذلك تذكرت كل تفصيلة من تفاصيل لقائى بباريس, وكأن اللقاء تم البارحة ليس إلا. يشترك البشر فى موهبة عظيمة، ألا وهى القدرة على النسيان, ينقضى الأسى والفرح على حد سواء، فى مثل سرعة البرق مثلما يقولون. بيد أن لا شىء يضيع، كل شىء مختزن فى مكان ما؛ يستدر المحظوظون والحكماء من هذا المخزون بحكمة، فيما يخوض بقيتنا فيه على غير هدى أو حنكة، ها أنا كنت فى السابعة عشرة، لم أزل مراهقة تائهة يحفل قلبها بالآمال والهواجس.

٤ ـ فندق صوفيا

اِرأف بهم، أطفالى، إنهم بعيدون

عن وطنهم، ولا أحد يَعرفهم

المُعلم إكهارت

كانت شقة السيد رحيم تقع فى الطابق الرابع من مبنى فى حديقة شام دو مار، (ساحة إله الحرب)، وقد سميت بهذا الاسم بسبب استعراضات عسكرية جرت هناك فى القرن الثامن عشر. تستطيع أن تلمح من نافذة غرفة المعيشة برج إيفل فى الأفق وقمته المدببة تخترق السحاب، على حين أطلت غرفة الطعام على الشارع واللافتة المنيرة لفندق صوفيا، فندق من نجمتين حُجزت إحدى غرفه لأقيم فيها.

وبينما قاد السيد رحيم سيارته متجها إليه فى ذلك اليوم الأول، شرح لى أن المنطقة تغطى مساحة ميل مربع بين نهر السين بحوار برج إيفل والأكاديمية العسكرية التى شيدها لويس الخامس عشر، بناء على نصيحة عشيقته المحبوبة مدام بومبادور، لتزويد النبلاء بالتعليم العسكرى، ومن بين خريجيها كان نابليون المدفون قريبا فى مجمع المبانى

المسمى بإنفاليد. سلكنا منعطفا قصيرا على طول الجسر كي نراه، نُصب غامق عند نهاية أرض مستوية طويلة عريضة، قبته تشبه تاجا بيزنطيا موضوعا على حاجب متفكر يتأمل غدر التاريخ. وقعت عيناى ذات مرة على مجموعة من السياح الإنجليز يسيرون فى المتنزه فى اتجاه النصب، ونمى إلى سمعى صبى صغير يسأل أباه: "ما هذا المبنى يا بابا؟" رد عليه: "إنه قبر الجندى المجهول، يسعك أن تسمع نابليون يتقلب فى مرقده!".

اتصف فندق صوفيا بمنتهى التواضع مقارنةً بفندق لوتيشيا الفخم، ما حوى إلا ست عشرة غرفة وصالة استقبال صغيرة، حيث اتخذ المالك أو المدير مجلسه خلف مكتب ليراقب الغادى والرائح. نهض من مجلسه ليلقى علىَّ التحية، وتبادل المجاملات مع السيد رحيم، ثم أعطانا مفتاح الغرفة رقم ١٥، استقللنا المصعد إلى الطابق الرابع عشر، وصعدنا طابقا آخر إلى القمة، حيث تحولت الغرف القديمة الراقية Chambres de bonne إلى أماكن أقل تكلفة لإقامة النزلاء. كانت غرفتى واسعة إلى حد ما، السقف مائل ينتهى إلى نافذة أشرفت على عدد هائل من الأسطح المثلمة والمداخن، كانت عيناى قد اعتادت على شمس الجبل المبهرة، صعُب عليهما التكيف مع ضوء مكبوت أتى غير مباشر من الثقب ليسقط على الفراش فى شريط عريض، تكون باقى الأثاث من مصباح يستقر فوق مائدة بجوار السرير، وخزانة ضخمة ذات أدراج تعلوها مرآة.

تركنى السيد رحيم كى أستقر فى الغرفة وأنضم فى وقت لاحق إليه هو وابنته مريام لتناول الغذاء فى بيتهما, فتحت حقيبة السفر على مضض؛ فإفراغ محتوياتها يعنى البقاء على حين لم أرغب إلا فى الذهاب إلى المطار مباشرة والسفر إلى وطنى. كنت قد أخذت ملابس قليلة وإلا

لأصبحت كجالب التمر إلى هَجَر، كانت أمى قد طفقت تمنحنى مصروفا لشراء الملابس فى الرابعة عشرة كى "أتعلم الاقتصاد"، بيد أنى أنفقته كله فى شراء الكتب والأسطوانات وارتياد المقاهى بصحبة أصدقائى. استعرت فساتين أختى لحضور الحفلات الاستثنائية بمجرد أن بلغ حجمى حجمها، وإلى جانب الملابس الأساسية جلبت معى مجلدا مصغرا من قصائد حافظ الشيرازى، Ghazals وصورة صغيرة فى إطار تحوى لوحة من القرن التاسع عشر بفرشاة فنان رومانتيكى أعطانى إيَّاها صديق، وعلقتها فوق سريرى فى بلدى. صورت مشهدا طبيعيا لغسق ألمت به العواصف ـ الأشجار تنحنى بفعل الريح الهوجاء، وجدول يتدفق أسفل جسر مقنطر، وكوخ سقفه من القش توهجت نوافذه من جراء المصابيح المعلقة فى الداخل، وامرأة وحيدة فى رداء طويل تتصل به قلنسوة، تَحمل سلة بين ذارعيها وتكافح كى تقطع السبيل صوب الملجأ. كنت قد نسجت قصصا لا حصر لها حول المرأة، وعليه تعلقت بالصورة عاطفيا، ولأن إطارا مسطحا رفيعا يحيط بزجاجها، ولأن وزنها خفيف، أخذتها معى حتى تذكرنى ببيتى، والآن اتكأت على الحائط فوق خزانة الأدراج.

"لن أبقى!" قررت، حتى أرفع روحى المعنوية وأتمكن من تكلف تعابير مفعمة بالمرح أمام السيد رحيم، "سوف أتعلم الفرنسية بما يسعنى من سرعة ثم سأعود إلى وطنى". علمت بعدها أن كل الطلاب الأجانبْ ـ ومن بينهم فى الواقع الطلبة الفرنسيون القادمون من الأقاليم ـ يكابدون نفس الإحساس عند الوصول، ومع ذلك لم يغادر أحد باريس على الإطلاق

طوعا فى النهاية. صارت المدينة حالة ذهنية أضمرتَها بقية حياتك، إنك تندمج مع اغترابك واستئصالك من جذورك، يبدأ النفى الحقيقى عندما تكف عن الاشتياق إلى "وطنك"، عندما تفقده إلى الأبد، يندفن فى أعماق النفّس، ويغدو وطنك الوحيد هو الذاكرة.

جلست وكتبت إلى أختى رسالة طويلة تمنيت أن تقرأها على والدىَّ وبقية أفراد المنزل أيضا، حكيت لها عن رحلتى ووصولى، قلت لها إنى رأيت أقل القليل من باريس متظاهرة بالرضا التام. "يسبغ القلب الحزين الأسى على الجمع بأكمله"، "إياك والشكوى وإلا ستخسر احترام الناس"، إلى آخره... كثيرا ما كانت العمة أشراف (حكيمة منزلنا) تردد هذه المقولات، وقد كانت ينبوعا لا ينضب مغروسا غرسا فى نفسى، حتى إنى لم أجرؤ على أن أفضى إليهم بمدى تعاستى خشية إزعاج أسرتى.

نزلت إلى الطابق السفلى عند منتصف النهار، وسلَّمت مفتاحى إلى المدير الناظر إلىَّ بعين التقييم. مضيت إلى شقة السيد رحيم الكائنة فى الجانب المقابل من الشارع، فتحت مريام الباب ورحبت بى بكل حرارة، اتسمت الشقة ذات الأثاث البسيط ببهجة لا تخلو من راحة، زخرت الشقة بالمصابيح وأوانى الورود وزهور الأقحوان، امتدت غرفة الجلوس أو الطعام المفتوحة بعرض المبنى، انفتحت نوافذها من الجانبين لتسمح بدخول أقصى درجة من الضوء. العبق المألوف للمطبخ الإيرانى، انتشرت رائحة مزيج الأرز بالزعفران واللحم والخضراوات فى الهواء وبث فىَّ إحساسا بالدوار من فرط الحنين إلى الوطن.

كان السيد رحيم فى نهاية العقد الخامس من العمر، نحيف الجسم، متوسط الطول، مرح القسمات، كان وجهه مستديرا ووجنتاه ممتلئتين،

وشاربه يتدلى فوق شفتيه ليخفى فمه تماما لدرجة أنك لا ترى من أين خرج حديثه إلا إذا ابتسم، ولكنه كان يبتسم كثيرا فتشع عيناه السوداء سواد عنب الكشمش. ما كان يتحلى بالوسامة إلا أنه نعِم بالجاذبية لِما تمتع به من حس فكاهة وجاذبية، بالإضافة إلى الملابس الأنيقة والسلوك النبيل.

انتسبت عائلته إلى قطاع من المجتمع أطلق عليه الكاردينال ريشيلو "الأرستقراطية الإكليركية،" ملالى ذوو قامة اجتماعية، ظلت سلطتهم وتأثيرهم لا يمسسها التغيير فى إيران لمدة قرنين، وقد لعبت مبادئها التقدمية دورا أساسيا فى نجاح الثورة الدستورية فى عامى ١٩٠٥ و١٩٠٦ عندما تقلد رضا شاه مقاليد الحكم عام ١٩٢٥ أخضع رجال الدين وأرغمهم على أن يعطوا "لقيصر ما لقيصر"... وإلا سيهلكون. تجردوا من السلطة، وفقدوا مكانتهم الاجتماعية، ونبذ أبناؤهم زيهم التقليدى ـ العباءة والعمامة ـ لصالح الملابس الغربية والقبعات، وبدلا من الالتحاق بالكليات الدينية التى تعلم فيها آباؤهم، التحقوا بالجامعات الغربية، ومنها عادوا ليديروا البلد ومؤسساتها الحديثة.

كان أبو السيد رحيم الملا رئيسًا لإحدى المقاطعات الجنوبية ومالكا للأراضى، كانت عادة قديمة من عادات عائلته أن يتزاوجوا من بعضهم بعضًا بقدر الإمكان، مستشهدين بالمقولة القديمة: "إن زواج أبناء العمومة يُعقَد فى الجنة". الحق أن العادة لا تتصل بالتدخل الإلهى قدر ما تتصل بالحفاظ على الملكية؛ فقوانين الميراث الإسلامية لا تعترف بحق البكر فى الميراث بأكمله، وعندما يتم توزيع الأراضى بين عدة أبناء تكون عرضة للتشظى، وعليه أبقى زواج الأقارب فى السلالات الحاكمة كل الملكيات فى الإطار العائلى. ومما يؤسف له أن مثل ذلك التزاوج الداخلى

أثر سلبا على عائلة السيد رحيم، فعقب عدة أجيال من التزاوج العائلى، ولد بعض أطفالهم "غريبين،" بنقص فى السمات الجسمانية والعقلية، وقد انتهى واحد منهم أو اثنان إلى المصحات العقلية، وكان العديد منهم، إن جاز القول... معدومى الجاذبية.

أُجبر السيد رحيم فى التاسعة عشرة على الزواج بابنة عم أصغر منه بخمس سنوات، كانت تعيش فى بلدة أخرى، ولم تقع عليها عيناه قط، ولكنه وثق بشهادة قريباته بأنها جذابة. وفى ليلة الزفاف، عندما قادوه إلى حجرة الزواج وتركوه مع العروس، رفع برقعها بيد رقيقة آملا أن يصعقه جمالها، بيد أنه جابه امرأة بشعة أى بشاعة! alooloo أطلق لهاثا وأسقط برقعها ثم اتخذ مجلسه ليتأمل الموقف. كانت فكرة أن هذه المرأة كثيرة الشعر المشوهة ببثور الجدرى باعثة على الغثيان والاشمئزاز. الأدهى والأمرُّ هو أنه سرعان ما أدرك أنها ليست كاملة العقل، ومع ذلك تغلب على نفوره كى ينقذ كرامته، وأدى الواجب المفروض عليه، وظهرت النتيجة بعد تسعة أشهر، مريام.

البطلة فى مثل هذه السيناريوهات هى العروس، هى مكتشفة أن زوجها أكبر سنا من أبيها أو قبيح المنظر أو أبله العقل، بعيد كل البعد عن أمير أحلامها، أحيانا ما كان يجرى هذا الموقف للرجال، ولكن بينما لا تجد النساء مفرا ويرغمن على قبول نصيبهن بقية العمر، تتفتح العديد من طرق الهرب أمام الرجال؛ سرعان ما رحل السيد رحيم بعد زفافه عن بلدته ومسقط رأسه ليلتحق بالجامعة فى طهران تاركا زوجته فى عهدة والديه، ولم يعد إلى البلدة قط. وعند التخرج انضم إلى السلك الدبلوماسى وتم تعيينه على الفور فى خارج البلد، وكلما عاد أدراجه إلى إيران، يزور بيت والديه زيارة خاطفة كى يرى ابنته، بيد أنه لم يُلقِ نظرة

أخرى على زوجته، وقد أدى رفضه التام لها إلى جعلها أكثر "خبلا". عندما وافت المنية والدى السيد رحيم، ورثت أخته زوجته، مثلما ترث قطعة أثاث ضخمة يستعصى استخدامها أو رميها. أتذكرها، فقد أتت إلى منزلنا مرة أو مرتين بصحبة أخت السيد رحيم التى كانت إحدى صديقات أمى، بدت عليها علامات الانشداه، ونادرا ما نطقت بحرف. وعندما تكلمت، تكلمت كلاما لا يتصل بالحوار، وبين الحين والآخر تعالى منها الضحك فى لحظات غير ملائمة، وكأنها تعيش عالمها الخاص، تحملت مصيرها كما الوصمة.

للأسف لم تتحل مريام هى الأخرى بلمحة جمال رغم فوائد المساعدات الحديثة كمساحيق التجميل والحمية والملابس الأنيقة... وفى مجتمع يثمِّن الجمال بثمن يفوق كل مزايا المرأة الأخرى، كانت المرأة العاطلة منه تواجه العوائق. وكذلك لم تهبها الطبيعة صفات أخرى قد تعوض غياب الجمال، كالجاذبية أو الموهبة أو حس الدعابة، ونمَّ سلوكها هى الأخرى عن القليل من الغرابة والشذوذ. كابدت صعوبة فى التعلم المدرسى، ولم يتمكن إلا سلسلة من المدرسين الخصوصيين من تأهيلها للحصول على الشهادة، ثم تخلى أبوها عن أية آمال فى التعليم الأكاديمى، ومع ذلك تمنى لو تزوج بها شاب طموح كى تحوز مكانة أسرتها ودعمها، ولكن هذا لم يحدث؛ إذ صارت أشبه بطائر بحرى بالنسبة لأبيها الملاح العتيق وهو يبحر حول العالم من مركز دبلوماسى إلى آخر، والتصقت به التصاق المضيفة والرفيقة.

لماذا لم يتزوج السيد رحيم قط؟ بعد انقضاء العديد من السنوات طلق - أخيرا- زوجته "ليحررها". ("أين زوجة الأب التى ستتحملها؟" كان يسأل أصدقاءه المقربين قاصدا مريام)، سرت شائعة بأنه رافق عشيقة

أجنبية إلا أن الأعين لم تقع عليه بالفعل برفقة امرأة. انتهى به الأمر سفيرا فى دولة من دول أوروبا الشرقية، وقبيل ثورة ١٩٧٩ أدركه الموت بغتة من جراًّء أزمة قلبية. اكتشفت مريام وديعة صغيرة مُرضية فى سويسرا، مكنتها من الأخذ بأسباب حياة مريحة راحة معتدلة فى أى مكان شاءته. تناهت إلىَّ أخبار مؤخرا بأنها تقيم فى كاليفورنيا ضمن جالية ضخمة من المهاجرين الإيرانيين، باتت لينة العريكة يحتملها أصدقاؤها ويولونها بالرعاية، ليست بالنهاية التعسة كلية مع الأخذ فى الاعتبار أشياء أسوأ بكثير ربما أصابتها.

اضطر السيد رحيم إلى العودة إلى السفارة عقب الغذاء فتركنى فى رعاية ابنته "سوف تأخذك مريام لتتمشيا وتُريكِ بضعة أماكن". كان أصيلا باردا كثير الغيوم من أيام نوفمبر، سرنا بنشاط لنستدفئ فى اتجاه برج إيفل، قام بالقرب من النهر مثله مثل برج مراقبة عملاق فقزَّم المبانى الأصفر المحيطة به، من خلال شبكته المعقدة ارتفع مصعد مائل محمل بالسياح.

"إلى الطابق الثانى فقط، بسبب الضباب"، صرح إعلان بجانب شباك التذاكر. "سوف آخذك إلى أعلى فى يوم آخر" أنهت مريام إلىَّ. "لا يستحق صعودُ نصف المسافة الوقوفَ فى الطابور". المدهش أن طيلة سنوات فى باريس أحيانا ما مررت ببرج إيفل أو عبرت تحته، ولكن لم يخطر ببالى أن أقف فى الصف وأبتاع تذكرة وأصعد؛ كان عملا يفعله السياح، لا نحن الباريسيين! انقضت سنوات ثم اصطحبت ابنىَّ الصغيرين إلى باريس لقضاء عدة أيام، وأرادا أن يصعدا إلى قمة برج إيفل. كان أبريل قد انتصف وترامى ستار وامض بلون العسل فوق المدينة. برزت المعالم الشهيرة من امتداد مدنى فسيح نحو الأفق النائى،

التقطت الموقع التقريبى لفندق صوفيا وشقة السيد رحيم والأماكن القليلة الأخرى التى أقمت فيها، نقاط على خريطة الذاكرة.

قادتنى مريام فى ذلك الأصيل الأول إلى ما بعد برج إيفل على طول السد، وبعدها اعتلينا الجسر إلى ميدان الكونكورد والمسلة الناهضة فى المنتصف. تجولت عيناى المحدقتان لا يعترضهما معترض فوق ضخامة الميدان على طول شارع الشانزلزيه وصولا إلى نُصب قوس النصر على أحد الجانبين وقصر تويلرى على الجانب الآخر، كل الأماكن التى قرأت عنها أو رأيتها فى البطاقات البريدية. كان "المكان الآخر" متعذر البلوغ ailleurs هناك، مكان طالما اشتقت إليه طويلا، ولكنه كان يتراجع بالفعل عن بؤرة التركيز لينتقل إلى مكان آخر، ما تبقى إلا تاريخ منحوت فى الحجر، يحيط به إطار من الصور الذهنية ويهمس فى الينابيع.

"هيا، أريد أن أريكِ المتاجر". جذبتنى مريام فأيقظتنى من أحلام اليقظة، فقد كانت مهتمة بالأزياء لا التاريخ، كان مقصدها مركزا تجاريا بالقرب من كنيسة ماديلين، وصلنا إليه بعد مسيرة خمس دقائق أخرى. كانت إيران خالية وقتذاك من المراكز التجارية والملابس الجاهزة، فقد كنا نشترى القماش ويخيطه الخياط، لم يفطن أصحاب الأعمال إلى إمكانية النجاح التجارى للمراكز التجارية إلا فى سنوات الازدهار الاقتصادى فى العقد السابع من القرن العشرين والثامن منه، أسسوا عدة مراكز على حين افتتحت سيدات المجتمع محال الأغراض النسائية ليبعن لبعضهن بعضًا ملابس غربية لكبار المصممين.

دلفنا من باب دوّار إلى عالم من العجائب هجم على كل حواسى، أنوار مبهرة، وعطور تدير الرءوس، وجواهر تتلألأ، وتماثيل لعرض الأزياء

تلوح جذابة من قواعدها. كانت صديقات أمى المتزوجات بدبلوماسيين يعدن بين الفينة والأخرى من أوروبا ويزرن منزلنا وهن يلبسن أزياء جميلة، وكنت أعتقد أن العيش فى باريس يضمن سهولة امتلاك كنوز مماثلة. ولكنى أدركت عند ذاك أن أسعارها ليست فى متناول الأيدى، شأنها شأن شيء موجود على سطح القمر. إلا أن أمى أعطتنى أموالا قليلة "لنفسى"، ونظرا لأنى لا أقدر على شراء شيء ذى قيمة، فكرت فى شراء عطر ـ فاكهة محرمة فى وطنى. اشترت صديقة ذات مرة لأمى زجاجة "سوار دو بارى"، وقد حمَل عبقها الناعم المحير وعدا لى برومانسية لا حد لها ومكث فى ذاكرة أنفى. لم تستخدمه قط، بل منحته لخادمة هدية زفاف؛ إذ اعتبرت الروائح الأوروبية "غير طاهرة" لأنها تحوى كحولا، فكانت تستخدم روح الورد المنتَج عادة فى منطقة ينمو فيها الورد فى إيران. سألت الآن عن زجاجة صغيرة من عطر "سوار دو بارى" فقيل لى إنه لم يعد موضة وتوقف إنتاجه من فترة طويلة، وبعد تجربة عدة عطور أخرى استقررت على عطر ذى رائحة مشابهة، وتبقى معى ما يكفى من نقود لشراء بيريه أحمر، سوف تعتبره أيضا أمى "جذابا" زيادة عن اللازم وممنوعا.

وفى طريق العودة عرجنا على مقهى فى الجادة لتناول الشاى والكعك، تكلمت مريام بدون انقطاع لتطرق حديث الأزياء وألوان الموسم ومصممى الأزياء المشاهير، كانت تصرح بأسماء المشاهير كمن تخلع ثيابها قطعة قطعة، وعدا "ديور" الذى استحضرته بصعوبة لم أسمع عن أى من هؤلاء المصممين. ما انفكت تعلن أنها محبوبة بين سيدات السفارة، يسعين إلى صحبتها ونصيحتها فى أمور الذوق والترفيه، حلقت عاليا عاليا فى عالم من الأوهام لا يمكن إلا لمراهقة أن تتبعها إليه،

أشارت إلى أعداد لا حصر لها من طالبى الزواج منها، كل واحد منهم بدا هجينا من "أينشتاين" و"كلارك جيبل". "ولكن أرفض دائما! كيف أترك أبى المسكين وحده؟".

تولتنى الحيرة، لقد نشأت فى مجتمع تقاس فيه رغبة طالبى الزواج فى الفتاة بمظهرها وحده، ولم أستطع أن أستوعب كل هذا الطلب عليها، أحيانا ما يؤثر المهر الكبير فى عيون الناظرين، ولكنى كنت أعلم أن السيد رحيم ليس بالثرى. إن مبادئ الجمال التقليدية كما يشدو بها الشعراء وتصورها المنمنمات تتحداها تغيرات معاصرة تنقلها الأفلام والمجلات الغربية، ولكن لا خلاف فى معايير معينة، كانت مريام قصيرة زائدة فى الوزن، لم يتحل وجهها بتناغم وتناسق يرتبط فى العادة بالجمال، ولم تسهم مستحضرات التجميل إلا فى جذب الانتباه إلى ملامحها غير المصقولة، وجه ممتلئ، وعينان صغيرتان، وأنف ضخم، وأسنان غير مستوية، بينما شددت الملابس الضيقة على مناطق من اللحم الزائد فى قوامها، علاوة على أنها اقتربت من سن الثلاثين، وعليه كانت وفقا للمقاييس الإيرانية "فاتها القطار". تمردت رافضة بكل حماسة كل هذه الأفكار، لا بد أن تختفى، وقد كنت واثقة أن الثورة سوف تحرص على اختفائها، سوف تتساوى النساء بعدها مع الرجال، مقدّرات لجمال أرواحهن وعقولهن، كما كان يحدث فى الاتحاد السوفيتى مثلما قيل لنا، ولكن لعل الأحوال مختلفة بالفعل فى أوروبا أيضا لو صدق حديث مريام.

وبعدها، ذات مساء، حدثت واقعة جعلتنى أفهم مريام فهما أعمق، وفى نفس الوقت أضفت الواقعة إلى معرفتى وخبراتى.

٥ ـ كأس جمشيد

أياً كان ما يصبُّه الحبيب فى كأسنا سوف نحتسيه،

سواء كان نبيذ الفردوس أو أرخص قحط

حافظ الشيرازى

ارتدى السيد رحيم بذلة داكنة، وعطَّر نفسه بعبق ماء الكولونيا، وغادر الشقة كى يَحضر حفل عشاء رسميا لا يحضره إلا الرجال، وتركنى أنا ومريام معا لتناول وجبة خفيفة. بدت عليها علامات القلق وهى تعنى بمظهر أبيها عند الباب، تنظف ياقته بالفرشاة وتضبط وشاحه وهى ممسكة بمعطفه رغم ضيقه الواضح. ربما تساءلت إن كانت "السهرة الدبلوماسية" التى أقصيت عنها حيلة للقاء بعشيقته الخيالية؟ فمن العالِم؟ الفرنسيات مغريات ماكرات، وقد يَحملن أى رجل بدهائهن على الزواج بهن، وماذا سيحدث لها فى هذه الحالة؟

"يكره أبى قبول هذه الدعوات بدونى، ولكن ما باليد حيلة، إنها جزء من وظيفته." نقلت مريام إلىَّ وهى تقدم لنا بقايا العشاء، ولكن بدلا من المياه المعدنية المعتادة جلبت زجاجة من النبيذ الأحمر: "احتسى هذا النبيذ، وسرعان ما ستنسين إيران وكل شىء آخر!"

ترعرعتُ فى منزل مسلم، وعليه لم تقع عيناى قط على النبيذ، ناهيك عن احتسائه، بل إن زوارنا الغربيين كانوا أدرى من أن يتوقعوا أى كحوليات. وبدلا من الكحوليات قدمنا إليهم شرباتًا لذيذا محلى بنكهات معينة، روح الفاكهة والورود صنعناه فى البيت وخففناه بالمياه. تجنبنا كلمة "كحول" نفسها، وأشار الناس إليها بكلمة "الدواء"، فيرثون لحال فاطيما قائلين: "فاطيما المسكينة، زوجها يشرب الدواء!"

يعتمد التحريم الإسلامى للكحول على موضعين قرآنيين (الآية رقم ٢١٩ من السورة رقم ٢، والآيتين رقم ٩٠و ٩١ من السورة رقم ٥)(*) غير أن القرآن يعد المتقين أكثر من مرة بنبيذ لا حد له فى الجنة، وعليه حوله إلى شراب مقدس.

سألت ذات مرة فقيها فى الإسلام "كيف تجيز اليهودية النبيذ وتعده المسيحية جزءا من القربان المقدس على حين يعتبره الإسلام "شيئا بغيضا" محرمًا، إن كان مصدر كل الديانات الثلاث الوحى الإلهى نفسه؟" فجاء رده: "من المفترض أن تذوق نبيذ القربان ما هو إلا تذوق مبدئى للنبيذ الذى ستتذوقينه فى الجنة، إنه ليس رخصة لانغماس المرء فى رغباته".

لعلّ هذه الطبيعة المقدسة المرتبطة بالجنة هى التى جعلت النبيذ

(*) في الأصل: الآية ٢١٦ من السورة ٢ والآية ٩٢من السورة ٥، والصواب الآية ٢١٩ من سورة البقرة(٢) ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا . . .﴾والآيتان ٩٠ و٩١ من سورة المائدة(٥): ﴿...إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ . .﴾ حسب المصحف المتداول برواية حفص عن عاصم، وغيره. (التحرير)

رمزا للنشوة الإلهية بالنسبة للمتصوفين المسلمين، ويزخر الشعر الإيرانى بإشارات إلى النبيذ، من عمر الخيام إلى حافظ، وبينهما عدد هائل من الأسماء الأقل شهرة، فقد تغنى الشعراء بمديح النبيذ فى القصائد الغنائية والقصائد المؤلفة من أربعة عشر بيتا وأناشيد التسبيح. إن النبيذ شراب سماوى يفتح أبواب الإدراك الحسى ويخفف من بلايا الحب، ويسكن ألم الفراق عن الحبيب ويلطف من الشوق إلى الاتحاد. بينما يلح الملا المنافق على خوف الله فى الجوامع، يسكر المتصوف بنبيذ الحب فى الحانة، وفيما يجمع الملا ثروته بابتعاده عن السكر، يرهن المتصوف ملابسه البالية مقابل كأس من النبيذ. يستحيل النبيذ إلى استعارة عن الخط الفاصل دوما بين رجل الكنيسة والمتصوف، الشخص المتاجر فى السلطة والآخر المتاجر فى الحب:

طرقت الملائكة باب الحانة الليلة السابقة

عجنت صلصال آدم وحولته إلى كأس...

تقول الميثولوجيا الفارسية إن مخترع النبيذ هو جمشيد، الفيلسوف الملك، الحلقة الثانية من تلك السلسلة من الملوك التى تربط تاريخ البلاد بما قبل التاريخ، كان جمشيد يمتلك كأسا خاصا يسعه أن يرى المستقبل فيه. مكنه من الانتصار فى المعارك وإقامة العدل. يشير الشعراء المتصوفون إلى أن كأس جمشيد ملىء بشراب يهب بصيرة باطنية فيما يشيرون إلى الملك نفسه باعتباره الحاكم المثالى.

استشهد أفراد منزلنا بمثل هذه الأبيات الشعرية وتلوها وغنوها، ولكن قيل لنا إن النبيذ موضوع القصائد يرمز إلى السكر الإلهى، وأن الحب المشار إليه هو حب الله، ولا يمكن لأى تفسير آخر أن يصح؛ حيث

إن الشعراء كلهم كانوا مسلمين ورعين. وقد لخص الرومى ـ أعظم الشعراء المتصوفين والقديس الشفيع للمتصوفين والدراويش ـ الأمر فى إحدى قصائده:

لسنا فى حاجة إلى احتساء الخمر كى نسكر فى الحب الإلهى.

وعليه فالممارسة تعلن أن الالتزام الدينى الصارم يحول دون استهلاك الكحول.

خامرنا نحن الشبان التقدميين الشك فى مثل هذه التفاسير، اعتبرنا التدين وما يصدره من تحريم عوائق أمام التطور والليبرالية فرفضناهما، كيف يتسنى للشاعر أن يصف آثار النبيذ بمثل هذه التفاصيل المضبوطة الملموسة إن لم يكن قد جرب الخمر مرة على الأقل؟! كيف يتأتى له أن يصف حبيبته بهذا الوصف الدقيق المحب إن لم يعشق امرأة قط؟!

ها هى فرصتى لتجربة النبيذ للمرة الأولى واختبار كل تلك المتع التى قرأت عنها! قبلت كأسا قدمته مريام إلىَّ ورشفت رشفة، اعترانى نفور من الطعم والرائحة أى نفور، حتى إنى بصقته فى منديلى والتوت قسمات وجهى التواء، مما جعل مريام تغرق فى الضحك: "يا لك من طفلة! الكل يبغض الطعم فى البداية، ولكن واظبى عليه وستحبين تأثيره، أغلقى أنفك وتجرعيه بسرعة شأن الدواء". وقد فعلت، لم أكن معتادة الكحول، لذا لم أحتس إلا كأسين حتى سكرت تمام السكر، أخذت الغرفة تلف بى فدب فى نفسى الذعر، كنت فى بؤرة دوامة تغوص بى إلى أعمق وأعمق، باتت الحدود ضبابية أمام عينىَّ، والتمعت الأضواء، وأتى صوت مريام من قاع بئر، أردت أن أنهض وأفر، ولكن... آه! ألمِس زجاجا بيد

رقيقة وسوف ينكسر! التصقت بغراء فى مقعدى، ورأسى ينبض، ومعدتى تجيش، ومريئى يحترق، ماذا أفعل؟ هل هذا أساس كل هذه القصائد والأناشيد؟ بوسعهم الاحتفاظ بنشوتهم، سواء إلهية أم لا! هل أبدو مثل حبيبة حافظ،

شعر غير مصفف، شفتان متفرقتان من الضحك، سكرانة بالحب!

جاءت وايقظتنى من النوم فى منتصف الليل...؟

أشك كل الشك، ألقيت لمحة مختلسة إلى المرآة المعلَّقة على الحائط المواجه فزالت أوهامى بهذا الصدد، تموجت ملامح وجهى بلا شكل أو منظر فى كل الاتجاهات، وكأنى أقف أمام مرآة فى الملاهى تشوه الأوجه.

لم أعدم بعض القوة كى أرفض أى كئوس أخرى آملة، أن يتناقص التأثير بالتدريج قريبا، وعلى العكس منى واصلت مريام الضحك والشرب فى صحة الجميع حتى فرغت الزجاجة، وعند ذاك غابت دقيقة ثم عادت بزجاجة أخرى.

"لا يمكن أن تعيشى فى فرنسا بدون أن تحتسى الخمر!" جاهرت. "يبتاع أبى أفضل أنواع النبيذ من خلال السفارة، ولكنى لا أشرب أبدا، اليوم مختلف، رغبتُ فى أن أحتفل بقدومك وألقنك مبادئ النبيذ، أراهن أنك جاهلة برقصة التشا تشا تشا!"

جهلتها بالفعل، وضعت أسطوانة وارتدت سترة وكأنها شريكى فى الرقص، وبدأت تشرح لى. كنت أعرف فقط رقصة التانجو والفالس، فبدت التواءات مريام الجسدية غريبة الشكل، كانت تتذبذب بحركات دائرة متحمسة وهى تشرح وتفسر كفاءتها للشرقية الساذجة القادمة

لتوها من الأرياف، ثم فجأة على الأريكة المجاورة لى وقد نال منها الإعياء كل منال وجاشت عواطفها، سالت الدموع فوق وجهها لترتسم عليه خطوط الماسكرا لتتراءى كأنهار على أرض من النباتات المتحللة. علا نحيبها وصياحها باعترافات تشى باليأس لم أحثها عليها، باحت أنها لن تجد زوجا أبدا، وسترتحل من دولة أجنبية إلى الأخرى، مدبرة منزل مبجَّلة لأبيها، ولن يحبها أحد أبدًا.

يا للمسكينة! ترقرقت عيناى بدموع العطف، ولكن ماذا بيدى فعله؟ شاهدت طيلة حياتى سيدات تعانين من حولى، وإن سردن قصصهن على حدة سوف تملأ مجلدات. تم إلغاء الحجاب عام ١٩٣٦، وولدت فى مجتمع أكثر حرية، وعليه كنت جالسة فى غرفة معيشة باريسية أنيقة، سكرانة كل السكر! وفى خلال جيل واحد كانت نسبة كبيرة من الأطباء والمدرسين والمحامين فى إيران من النساء، ولكنهن بحكم القانون لم يزلن مواطنات من الدرجة الثانية فى إيران، تقهرهن قرون من العادات. وقد أسبغت الإصلاحات القانونية التى اتخذها الشاه الأخير فى نهاية عام ١٩٦٦ بعض المساواة فى المكانة مع الرجل، الحق فى التصويت والانتخاب فى البرلمان، والحق فى الإدلاء بآرائهن فى مسائل الطلاق والوصاية على الأطفال، ولكن نشر بعض القوانين أيسر من تبديل العقلية الجمعية للأفراد مثلما تبين عام ١٩٧٩ عندما تدفقت النساء فى الشوارع فى براقع سوداء!

لا أود أن أوحى هنا أن الرجال تحصنوا ضد المعاناة، فالجميع فى أى مجتمع غير متوازن ضحايا، ويستحقون ذات العطف والشفقة. ولكن البادى لى أن النساء تفوقن على الرجال فى حدة عواطفهن وعمق

يأسهن، ولم ينلن تعويضات أو يمتلكن بدائل مثل الرجال، كثيرا ما دفعن ثمن حريتهن بنكران الذات وتضحية بالنفس. كانت الكثيرات من حولى عوانس أو مطلقات أو مهجورات، طارد المجتمع أخريات ونبذهن تحت زعم اقترافهن لتجاوزات جنسية، بما فيهن مُدرسة أو اثنتان من مَدرستنا. والآن بعد الأخذ بأسباب حياة أمضيتها فى مجتمع ينعم بالمزيد من الحرية والعدل لم تغير تجربتى ذلك الانطباع المراهق، لا تزال النساء يدفعن ثمنا غاليا مقابل الحصول على حريتهن النسبية، والاختلاف هو العُملة فقط لا غير.

أمسكت بيد مريام وواسيتها ما أمكننى من مواساة بناء على درجة تمردى وكبريائى، اقترحت عليها أن ترحل وتعود إلى إيران لتعمل مترجمة فورية أو سكرتيرة أو أى شىء بدلا من هذا البؤس. سمحت لنفسها أن تهدأ ثم تولاها غضب مباغت وانقلبت علىّ: "من السهل عليك أن تتحدثى مثل هذا الحديث! انظرى إلى روحك! وانظرى إلىّ! لو عندى نصف إمكانياتك..." ما جال ببالى قط أنى أمتلك أية إمكانيات وإن تلهفت على امتلاك بعضها، وقد روعنى ما أبدته من جيشان عاطفى. لا أتذكر كيف عدت إلى بيتى، حل بى الغثيان طيلة الليل واستيقظت على صداع يشق الرأس.

استحضرت الليلة الفائتة فخامرنى القلق أن تشعر مريام بأى خجل وتندم على انفجارها العاطفى وهجومها علىّ. ولا أى شىء؛ فقد انمحت الواقعة من ذاكرتها أو تظاهرت بنسيانها، ولكنها بدت أهدأ وأقل إسرافا فى التعبير عن عواطفها، شأن الناس حين يكشفون الأقنعة عن أوجههم أو يبوحون بأسرارهم. وبالنسبة إلىّ جربت النبيذ مرة أخرى، وبعدها

الويسكى والفودكا بناء على إصرار الأصدقاء، كانت النتيجة دوما الشىء نفسه. الجلى أن لدىَّ حساسية من الكحوليات، انتهيت إلى القرار: لا يروقنى المذاق ولا التأثير. نتيجة طيبة، فإن راقتنى، من يَعلم؟ ربما أفضت بى إلى الانغماس فيها، علَّ الشعراء قصدوا حقا السكر الإلهى.

٦ ـ غرفة فى الحى اللاتينى

إن المدينة الكبيرة انعكاس للهاوية؛ الحرية الإنسانية

ج. ب. سارتر

كانت أصعب مشكلة تجابه طالبا يصل إلى باريس فى العقد السادس من القرن العشرين هى أن يجد مكانا للإقامة؛ كان هناك نقص حاد فى الشقق، وما لم تولد فى إحدى الشقق أو تنعم ببالغ الثراء، كان العثور على شقة أشبه بالمعجزة، فقد كان على الطلبة المتدفقين إلى باريس من الدول الأخرى أو الأقاليم الأخرى التنافس على عدد محدود للغاية من الشقق المستأجرة.

نبعت تلك الكارثة السكانية من عدة أسباب، السبب الرئيسى هو أن أحدا لم يحاول حلها على امتداد السنوات، هناك فى البداية الحرب والاحتلال، فترة توقف فيها كل شىء تمام التوقف، وما كادت البلد تستعيد عافيتها من هذه الصدمات حتى اندلعت الحرب مع جزر الهند الصينية Indochina. انتهت الحرب بهزيمة فرنسا فى معركة ديان بيان فو فى ٧ مايو ١٩٥٤، وخسارة مستعمراتها فى جنوب شرقى آسيا. ولكن

قبل أن تتنهد فرنسا تنهد الارتياح ثارت الجزائر بالسلاح مطالبة بالاستقلال، وما لبث الصراع أن تصاعد لينتهى إلى حرب تستنزف موارد فرنسا وتقسم الرأى العام الفرنسى حتى حصلت الجزائر فى نهاية العقد على الاستقلال.

لذا على الرغم من أن فرنسا وضعت أساسا اقتصاديا لفرنسا جديدة ترفل فى الرخاء فى العقد السادس، لم تبدأ الأوضاع فى التحسن إلا مع عودة شارل دى جول إلى السلطة عام ١٩٥٨ ومجىء الجمهورية الخامسة.

وأين أعيش أنا فى غضون ذلك؟ مكث الطلبة الباريسيون مع عائلاتهم، على حين اعتمد القادمون من الأقاليم على كرم الأقارب والأصدقاء أو مساعدتهم على توفير مكان من خلال صلاتهم الشخصية، أمَّا الطلبة الأجانب فقد اعتمدوا على الحظ والأموال.

لو لم تكن الأموال مشكلة بإمكانك أن تستأجر استوديو مؤثثا مقابل ثمن باهظ، أو غرفة فى شقة خاصة بالمناطق السكنية الكائنة فى الضفة اليمنى، فالعديد من الأرامل المنتسبات إلى الطبقة الغنية اللاتى كبر أبناؤهن يؤجرن الغرف فى شققهن الضخمة الكئيبة فى الأغلب ليربحن دخلا إضافيا يوازى دخل شركة. ولكن بعيدا عن السعر كان افتقاد الخصوصية أمرا معيبا، علاوة على أن أحدا لن يرغب فى الإقامة فى الضفة الغربية بعيدا عن الجامعة والمكتبات العامة ومتاجر الكتب والمقاهى والأصدقاء.

وبالنسبة لشخص لا يمتلك إلا موارد مالية محدودة، كانت الإمكانية الملائمة الوحيدة هى غرفة فى المدينة الجامعية، حرم خاص بالكلية يقع

بجانب إحدى البوابات القديمة لباريس، بوابة أورليان، وعلى الرغم من أنها بعيدة قليلا عن الحى اللاتينى، اتصلت به بخط مترو مباشر. أُسست المدينة لتوفير إقامة مناسبة للطلبة الأجانب، وقد اشترى العديد من الدول أراضى وشيدت "منازل" هناك لتمنح الأولوية للطلبة من جنسياتها (كان المنزل السويسرى واحدا من مبانى المعمارى "لوكوربوزيه" الشهيرة)، وآثر الجميع العيش فيها، غير أنه كان منَ المستحيل تقريبا دخولها.

كانت الصعوبة مضاعفة أن يعثر الطلبة الإيرانيون على إقامة فى المدينة، لأن إيران لم تشيد مبنى هناك، ومع ذلك عاش العديد ممن أصبحوا أصدقائى فى منازل مختلفة من منازل المدينة، كما عشت أنا أيضا فى مرحلة لاحقة.

ضمت المدينة مطعما متنقلا ومسرحا أو قاعة احتفالات واستوديوهات لتدريب طلبة الموسيقى، وبين المبانى امتدت المروج والحدائق حيث يمكنك أن تستلقى أو تجلس تحت أشعة الشمس فى الجو الدافئ. الأمر الوحيد المزعج ـ بعيدا عن الصعوبة الشديدة فى الحصول على غرفة ـ هو فصل الطلبة الذكور عن الإناث، سواء فى مبان مختلفة أو فى جزأين مختلفين من المنازل نفسها. اشتملت بعض المنازل على الطلبة الذكور فقط، استطاعوا أن يستضيفوا الضيوف فى غرفهم، ولكن لم يكن مسموحا لهم بالمبيت.

كان أغلب الطلبة يفضلون بقدر الإمكان غرفة فى الحى اللاتينى أو فى منطقة سان جيرمان دى برى، كان هناك مكتب لتسكين الطلبة بالقرب من جامعة السوربون، قصدت المكتب مرة بصحبة صديق يبحث

عن غرفة. كان مكتبا قذرا صغيرا فى أعلى مبنى طويل، لو أن أحدهم يهبط السلالم المنحدرة المتقلقلة وأنت تصعدها، يجب أن تسطِّح جسمك لصق الحائط كى تدعه يمر، يا لضيق السلالم. ثم تنضم إلى الطابور الواقف على المنبسط وتنتظر أحيانا ساعات حتى يحين دورك لدخول المكتب. وفى الداخل لا تتسع حجرة المكتب الصغيرة إلا لمكتب ومقعد وطاولة أشبه بالحاجز، أضاءتها لمبة واحدة تتدلى من السقف. ثمة امرأة منهكة القوى معتلة المزاج فى خريف العمر، وجهها ممتقع من فرط الإجهاد مثلها مثل قطعة من الورق، أعطتك نموذجا لتملأه وتشرح فيها مطلبك، وبعد أن تفحصته بعينين منهكتين، تناولك مجموعة من الكروت تحوى أسماء صاحبات فنادق وعناوينهن وأرقام هواتفهن، ما قابلت قط أحدا عثر على بيت مُرضٍ من خلال المكتب.

الحق أنك عندما تنطلق إلى أقرب مقهى وتتصل بالأرقام التى كتبتها، دائما ما يكون آخرون قد استأجروا أى شىء مثير للاهتمام، وعليك أن تبدأ الكرَّة من جديد، السلالم المترنحة والصف والغرفة والمكتب والسيدة التى سوف يصبح مزاجها هذه المرة أكثر اعتلالا. وفى أبعد الاحتمالات، حين تجد غرفة شاغرة وتستأجرها سرعان ما ستكتشف أن هناك شركا فى الأمر، سوف تفطن إلى أن صاحبة المنزل "مخبولة" toquée مثلما يقولون، وهم يديرون إصبعا فى صدغهم للدلالة على الجنون، مسعورة دينيا أو فى حالة من الحالات ذئبة جنسية. لا شك أن هناك مئات من الطلاب تمتعوا بصاحبات منازل أشبه بالملائكة، ولكنهم قد وجدوا دوما غرفهم من خلال الأصدقاء وظلوا فيها حتى نهاية الدراسة، وبعدها يتركونها لصديق آخر مقرب، ما سمعتُ إلا عن طلبة لم يحالفهم الحظ. عثرت فتاة من معارفى على غرفة بالفعل عن طريق مكتب تسكين الطلبة

فى شقة فاخرة تمتلكها أرملة جنرال، اتسمت الشقة بالرحابة والأثاث الجميل، ما وسعها أن تصدق حظها. ولكن بعد انقضاء عدة أيام رمتها مدام الجنرال Madame la Générale فى الشارع لأنها ارتدت بنطالا أسود من القطيفة اعتبرته قمة الانحراف، "أنا عارفة نوعيتك! " صرخت قائلة لها: "أيتها المنحرفات! إنك لمنحرفة حقا! أيتها الفاسقات! " Débauchées ثم طردتها بمنتهى الفظاظة. شاب آخر طاردته فى الفراش عند منتصف الليل صاحبة منزله المهووسة بالجنس وهى ترتدى قميص نوم أحمر من الساتان، سيدة عدها ملاك التقوى والعطف.

أقام العديد من الطلبة اليائسين فى فنادق متواضعة أجرت غرفها بالشهر، ولكن لا تسمح لكلمة "فندق" بأن توهمك بالضوء والدفء والراحة؛ فهذه الفنادق تكون فى الغالب أماكن متهالكة وقذرة ومعتمة تغزوها البراغيث وبق الفراش، يشغل غرفها الضَيقة حلقة غاز لأغراض الطهى البدائى، وحوض ودولاب ورف للكتب. واليوم، حتى عندما تم إصلاح أرخص الفنادق فى باريس وتجديدها بكل وسائل الراحة الحديثة، من الصعب تخيل حالتها القذرة المزعجة فى تلك الأيام.

عرفت طالبة إيرانية واحدة سكنت فى هذه الفنادق، كانت السيدة تاباى مُدرسة من مدرسات المدارس الثانوية، غاية فى الجاذبية، مطلقة مرتين، فى نهاية العقد الرابع من العمر. رحلت عن إيران قبل سنتين كى تَدرس للحصول على شهادة الدكتوراه فى التاريخ من جامعة السوربون، سرت شائعة بأن الكلية فصلتها على إثر فضيحة. اتخذت جورج صاند قدوة وعبًرت عن أفكار نسوية وسلكت سلوكا "حرا"، كانت "تجعل الرجال يقعون فى غرامها"، وفتنت تلاميذها بالتبشير بإنجيل المساواة بين الجنسين. اشتكى بعض الآباء لمديرة المَدرسة بشأن تأثيرها الشائن على

بناتهم، وعليه طلبت من السيدة تاباى أن تترك وظيفتها. ها هى، تفرغ من أطروحتها وتستعد للعودة إلى طهران، حيث تأمل أن تجد وظيفة إدارية فى وزارة التعليم. ترددت إلى منزلنا عدة مرات برفقة عمتها، صديقة من صديقات أمى، وقد أسرت لُبِّى أنا الأخرى.

كانت السيدة تاباى تمتلك كل ما يمكن أن تنعم به القدوة، الجمال والذكاء والأفكار التقدمية، أضمرت لها الإعجاب "لسمعتها السيئة" وجرأتها على ممارسة ما نادت به، ومناداتها بما لم تجرؤ ربما على ممارسته، وهكذا بعد أن أمضيت شهرين فى باريس ذهبت لألتقى بها ذات أصيل معتم فى الشتاء. وبمجرد أن دخلت من الباب الأمامى استوقفت أنفى رائحة رطبة تتألف من زيت طهى بائت وتبغ ردىء ونبيذ حامض وثوم. أدت بضع خطوات إلى منبسط، ومنه صعد سلم لولبى ضيق نحو مناطق مظلمة، كسا السلم سجاد عتيق بال للغاية لدرجة أنه بات جزءا من الخشب أسفله. كان مكتب الاستقبال عبارة عن طاولة نصف دائرية ينتأ من الحائط، كان الكرسى خلفها فارغا، ولكن زمجر من خلال باب غرفة نصف مفتوح صوت بلا هيئة، صوت أنثى شبيه بصوت ابن عرس:

ماذا تريدين؟

السيدة تاباى من فضلك؟

الطابق الثالث، يسارا، رقم خمسة.

اعتليت السلالم، ولكن قبيل المنبسط الأول انطفأ الضوء وغاص المكان بأكمله فى الظلام، وبينما تحسست الحائط بيدين مرتبكتين بحثا عن مفتاح النور، أتى النور، ضغط شخص ما من مكان ما على الزر.

انطفأ مجددا عند منبسط الطابق الثالث، إلا أن نورا خافتا تسلل من نافذة صغيرة تشرف على فناء، ومكنتنى من العثور على المفتاح. أضاء النور فأبصرت شابا يقترب عبر الممر، وبابتسامة الراحة على شفتىَّ سألته عن الغرفة رقم خمسة.

"إنها هنا يسارا يا آنسة، اسمحى لى أن أريكِ".

أشار إلىَّ كى أتبعه فى ممر خليق بالكهف، ولكن قبل أن أتمكن من السير قبض علىّ بإحكام وحاول تقبيلى، دفعته بعنف والرعب يسودنى وهممت بالصراخ، ولكنه تركنى على الفور ونزل السلالم بكل لا مبالاة وهو يقول ساخرا: "الخسارة خسارتك".

"ما بالك؟" سألت السيدة تاباى حين فتحت بابها. "إنك فى شحوب الورقة البيضاء". حكيت لها الواقعة، فبدرت منها ابتسامة "لا بد أنك ابتسمت له، الأرجح أنه اعتبرها دليلا على الموافقة. هل لاحظت أن الفرنسيات لا يبتسمن إلا إذا كن يعرفنك أو يرغبن فى الظهور بمظهر جذاب؟"

استدعيت ملحوظة السيدة تاباى عندما أطلق الرئيس ديجول فى العقد السابع "حملة الابتسامات" كى يحمل الفرنسيات على سلك سلوكيات مقبولة تجاه السياح الأجانب.

فى الداخل بدت غرفتها ضيقة الأركان مكتظة بحياة استمرت سنتين، صناديق وحقائب مكدسة وصولا إلى السقف، دولاب بمرايا يزخر بالملابس، كتب تتناثر فوق كل الأسطح، جلسنا على سرير كبير محشور لصق الحائط كى نتحدث أثناء احتساء فنجان من الشاى.

عقب عوز الحرب ومهانة الهزيمة اتسم الفرنسيون بقدر من السخرية، ومن بمقدوره لومهم؟ يسعون إلى نيل ما يَقدرون عليه من الحياة قبل أن تأخذ نكبة أخرى كل شىء منهم مجددا. إنهم محقون؛ لو سمحت للحياة بالنيل منك سوف تجر لقمة العيش من حلقك! نحن الإيرانيين ماسوشيون؛ نتمرغ فى التضحية بالذات ونكرات الذات والأسى، ينبغى علينا أن ننسى كل شىء ونستمتع بالحياة، ليتنى أتيت هنا فى سن أصغر.

عندما غادرتها يومذاك، تأملت فى كلماتها. وعلى الرغم من أنى لم أعترض على كلامها من قبيل الاحترام، لم أتفق معها. كنت ثورية - جال فى ذهنى - والالتزام بسلوك شخصى لا تشوبه شائبة كان أمرا حيويا لجعل أهدافنا فعالة. لو مارسنا الحرية الجنسية ونحن ننادى بها، فى مجتمع كان منذ وقت قريب يرجم الزانيات حتى الموت، ويقتل العرائس غير العذارى، فى حصانة من العقاب، سوف يفسرها المجتمع بأنها رخصة، وفى مثل تلك الظروف كان نكران الذات ثمنا مستحقا يجب دفعه.

علمت فى وقت لاحق أن فندقها كان فندقا فاخرا مقارنة بفنادق أخرى عديدة أقام فيها الأجانب، وكذا فى الواقع بعض العمال الفرنسيين.

وعلى النقيض كان المسكن المثالى هو غرفة الخادمة، غرفة نادرة يصعب الحصول عليها، تلك العِلّية الواقعة chambre de bonne تحت السطح التى مثلت حياة البوهيمى La vie de bohéme وزودت المرء بأقصى درجة من درجات الحرية. قد يكون سلم الخدم المفضى إليها

منحدرا مجردا من أى زينة، ولكنه كان على الأقل مختفيا عن أعين بوابين متطفلين عيّابين، لا يسلمون فى العادة من الوقاحة. وما هى المشقة فى صعود ستة طوابق وأنت فى العشرين، وعقلك وقلبك متقدان؟ باستطاعتك تزيينها وجعلها مريحة بالستائر والملصقات المشرقة، وبعدها تستطيع أن تسهر ليلا لتقرأ وتكتب وتستمع إلى الموسيقى أو تستقبل الأصدقاء وتحل كل مشاكل العالم.

عانيت كل هذا فى وقت لاحق، ولكن وقتها كان هناك نقص كبير فى المساكن، لدرجة أن أزواجا، بل وأسرا بأكملها، شغلت غرف الخادمات. زرت ذات يوم مؤلفا شابا حولته مسرحيته الأولى ـ التى لعب بطولتها جيرار فيليب، أحب ممثلى فرنسا ـ إلى شخص شهير بين عشية وضحاها، حتى هو أقام مع زوجته وطفله فى مثل هذه العلية، استغل كل بوصة بمنتهى البراعة، ولكن من الصعب الإقامة والعمل فى مثل هذه الظروف الضيقة. عثر له ناشروه ذوو النفوذ على شقة صغيرة، ولكن بحلول ذلك الوقت كانت ظروف إقامته قد حطمت زواجه، ورحل مع ممثلة شهيرة تمتلك، خمن ماذا تمتلك؟ ـ شقة فخمة فسيحة الأركان! لم أره قط ثانية، ولكنى تذكرت زيارتى عندما طالعت ملحوظة كامو: "خمسة عشر جنيها فى الشهر، عمل فى المصانع، وعندها لن يجد تريستان (الرجل) أى كلمة ليوجهها إلى (إيسولدا!)"

كان أقل المساكن شيوعا وسط الطالبات هو بيت الطالبات foyer، كان فى الأغلب ديرا سابقا ترعاه مؤسسة خيرية لتوفير السكن "للطالبات المنتميات إلى أسر محترمة"، وقد فرضوا قواعد صارمة على الطالبات. وعلى الرغم من أن تكلفتها لم تكن باهظة فقد كان من العسير على الطالبات الأجنبيات الإقامة، فيها لأن الطالبات الفرنسيات

يتمتعن بالأولوية. إلا أن السيدة تاباى التقت مصادفة بمديرة directrice أحد هذه البيوت، وحين طلب منها السيد رحيم المساعدة فى إيجاد غرفة، عرضت أن تقدمنى إليها قالت: "أشك أن هناك أماكن شاغرة، ولكن الأمر يستحق المحاولة".

"تصورتِ أنك ستعيشين على الحب والمياه الباردة L'amour et l'eau Fraîche، أليس كذلك؟" لوَّن السيد رحيم تعليقه بلهجة توحى بالتهكم، بعد أن نال منه الضيق لتورطه فى مشاكلى.

ذهبت فى اليوم التالى مع السيد رحيم والسيدة تاباى لمقابلة السيدة جيرو، مديرة بيت الراهبات البنديكتيات للطالبات، وقع البيت فى شارع جانبى قصير متفرع من شارع سان-جاك، أحد الشرايين الرئيسية للحى اللاتينى. المدهش هو أن أحدهم ألغى إقامته فى آخر لحظة، ومع أن هناك قائمة انتظار طويلة وللفرنسيات الأولوية، عرضت السيدة جيرو الغرفة بعد أن تبينت ـ على حد ظنى ـ مدى حداثة سنى وذُعرى الجَلِى، ولكنى اكتشفت أنها حساسة عاطفيا تجاه الرجال الجذابين وأن سحر السيد رحيم فعل فعله.

"بمقدورها الانتقال بعد غد". أعلنت وهى تلتفت إلىَّ بابتسامة مطمئنة تعلقت بها كمن تتعلق بقشة فى بحر هائج.

تنهيدات الارتياح من حولى، أنفقت كل أموالى على فاتورة الفندق، ولم يتبق لدىَّ الآن سوى مصروف شهرى هزيل لن يغطى تكاليف إقامة أكثر من أسبوع آخر فى فندق صوفيا، وهكذا انتقلت إلى بيت الراهبات البنديكتيات حيث عشت قرابة ثلاثة أعوام، أثرت تأثيرا عظيما فى تكوينى.

كان النهار مظلما باردا نديا، هبطت أمطار خفيفة فى هدوء على

النافذة الناتئة الصغيرة فى حجرتى وأنا أعبئ حقيبة سفرى. بعد أن وضعت ملابسى مضيت لأجلب صورتى الصغيرة المصوِّرة للمنظر الطبيعى، تعثرت قدماى وارتطمت بالخزانة التى استقرت عليها الصورة مما تسبب فى اهتزازها، وسقطت الصورة خلفها وتحطمت تحطيما. كانت الخزانة ثقيلة للغاية حتى إنى لم أستطع تحريكها، وقطع الزجاج كثيرة للغاية مما يصعب علىَّ جمعها، فقررت أن أتركها. سوف أعثر بالتأكيد فى النهاية على الصورة الأصلية فى أحد المتاحف، وأقف على الفنان وأتمكن من شراء نسخة أكبر بالألوان. ومع ذلك وخزنى ألم حاد وكأن الزجاج المكسور كرر أصداء كسر فى نفسى، وفى النهاية وضعت فى حقيبتى كتاب حافظ الصغير.

يمكن للرائى أن يجد دائما كتابين فى كل منزل إيرانى مهما بلغ تواضعه؛ القرآن الكريم وديوان حافظ، أحب شعراء إيران الكلاسيكيين. إن حماسته الصوفية وشعره الغنائى الرقيق يمسان وترا حساسا فى نفس الأمة، مما جعله يمثلها مثلما مثَّل شكسبير إنجلترا ودانتى إيطاليا وجوته ألمانيا. بل إن أبياته يستشهد بها غير المتعلمين من الفلاحين ورجال القبائل، كى يحسموا الجدل، وينقلوا الحكمة، ويسبغوا الحيوية على الحوارات، ويُعبروا عن العاطفة. يُستخدم ديوانه ـ كتاب السونيتات ـ فى التنبؤ بالمستقبل. تغلق عينيك وتتمنى أمنية وتنطق: "آه، يا حافظ الشيرازى، إنك العالِم بسر كل قلب، قل لى إن..." وحينما تفتح الكتاب كيفما اتفق، سوف تجد إجابتك فى الصفحة اليمنى من السونيتة. يلعب الشبان هذه اللعبة ليعلموا إن كانت رغباتهم سوف تتحقق، وبينما كنت أضعه فى حقيبتى، أرخيت جفنىَّ وفتحتهما على أى صفحة، كانت

السطور الافتتاحية للقصيدة هى:

سوف يعود يوسف التائه إلى كنعان، فلا تبتئس،

سوف يصير مقر البوم حديقة من الزهور مجددا،

لا تبتئس،

سوف يصبح القلب الحزين مبتهجا... والعقل القلق

هادئا من جديد، لا تبتئس...

ابتهجت أساريرى، لم أعتقد بالنبوءة فقد كانت لعبة، غير أننى لم أفقد قط عاطفة الشاعر المهدئة ولن أفقدها أبدًا.

٧ ـ الراهبات البنيديكتيات

لم نكن أغرابا بأى مكان كما كنا فى فرنسا

جوليا كريستيفا

كان شارع الرهبان البنيديكتيين ـ المسمى باسم دير للبنيديكتيين الذى ازدهر هناك فى القرن التاسع عشر ـ شارعا قصيرا متفرعا من شارع سان-جاك فى قلب الحى اللاتينى، ويبعد نحو ثمانمئة ياردة عن نهر السين. كان بيت الراهبات البنيديكتيات يقع فى مبنى مشيد من الطوب الأحمر ومؤلف من خمسة أدوار، يغطى البيت نصف مساحة المبنى. شُيد المبنى فى العقد الثالث من القرن العشرين على أسس الدير القديم لتوفير مساكن "للرجال المحترمين" الذين وفدوا إلى باريس بحثا عن عمل، وأرادوا أن يعيشوا فى بيئة تؤمن لهم الحماية. كان المبنى يتبع الآن جمعية خيرية، مما يفسر أسعار الإقامة المعقولة.

أعلنت لوحة مثبتة فى منتصف الواجهة فوق الباب الأمامى أن فيكتور هوجو العظيم عاش فى الدير من عام ١٨٠٩ إلى عام ١٨١٣، من سن السابعة إلى الحادية عشرة. الحق أن المعجبين به بمقدورهم الاستشهاد

بإشارة إلى الدير فى واحدة من قصائده المعبرة عن سيرته الذاتية، كانت هذه الصلة هى السبيل الوحيد كى يدعى البيت أى مجد؛ فالمبنى الباهت الحالى يعدم ما يمكنه التفاخر به.

كان الباب الأمامى الأصلى السميك المصنوع من خشب البلوط الحائل البالى، بمطرقته الثقيلة ومقبضه اللذين سودهما الزمن، لا يزال هناك. انفتح على مدخل ارتفعت فيه بعض السلالم الحجرية لتفضى إلى منبسط يحتل مكتب جانبا منه وغرفة انتظار الجانب الآخر، فصل بين الغرفتين باب يعلوه لوح من الزجاج. كان يؤدى إلى المبنى كى لا يستطيع أحد أن يدخل بدون رقابة.

تضمنت غرفة المكتب مكتبا فى المنتصف جلست إليه إحدى موظفات الاستقبال، مساعدات السيدة جيرو العديدات اللاتى كن يعملن بنصف دوام ويرصدن القادمات والرائحات. استقرت فى خلفية غرفة المكتب مائدة صغيرة وكرسى حيث كانت موظفة الاستقبال تتناول غداءها ظهرا وهى تواصل مراقبة الأمور.

كان هناك خمسون صندوقا صغيرا تقريبا تواجه المكتب على الحائط، حوت الصناديق مفاتيح الفتيات وخطاباتهن ورسائل الهاتف، رمقت الصناديق بعين اللهفة لفترة طويلة كلما دخلت البيت على أمل أن أجد خطابا من الوطن.

لم يكن مسموحا للفتيات باستقبال الزوار فى غرفهن، لذا كان يتم استدعاؤهن لمقابلة القادمين فى غرفة الاستقبال. كانت الغرفة أشبه بغرفة استقبال فى السجن، ما حوت إلا بضعة كراسٍ خشبية، وخلت من السجاجيد والزينة. كانت المقيمة والزائر يقفان على مرأى كامل من

موظفة الاستقبال، مما يحرمهما من أى خصوصية ولا يشجعهما على التباطؤ. كانت موظفة الاستقبال تقف فى أسفل السلالم وتدق الجرس مرة، أومرتين، أوثلاث مرات، وفقا للطابق الذى تستدعيه. وعند سماعها كنا نستمع إلى صوتها وهى تهمس برقم الغرفة، ولو تناهى إلى إحدانا رقم غرفتها لجرت جريا على السلالم.

ولكن لو زارنا أكثر من فرد واحد أو أتتنا أكثر من مكالمة واحدة فى اليوم، كانت تتذمر بكلمات مؤكدة: "عندى مهام أخرى لتوليها يا آنسة mademoiselle غير الرد على مكالمتك!" الواقع أن موظفات الاستقبال لم يشغلهن أى شىء على الإطلاق لأن السيدة جيرو اضطلعت بنفسها بأعمال الإدارة البسيطة التى تطلبها إدارة المكان. ما كان منهن إلا الجلوس وقراءة الجرائد أو القيام بأشغال التريكو، بلغوا جميعا "سنا معينة"، يعشن على معاش من أزواجهن الراحلين ويكملن دخلهن من خلال "العمل" بضع ساعات إضافية كل أسبوع. الاستثناء الوحيد كان آنسة فى خريف العمر تدعى مورى، كانت كاتبة بدوام كامل خلال النهار، وفى الأمسيات، بين السابعة والثانية عشرة، كانت موظفة استقبال ليلية فى مقابل الإقامة فى غرفة كانت معدة لتخزين الصناديق فى الطابق العلوى، وقد عاشت فيها سنوات طويلة لا يعلم أحد عددها.

وإلى ما وراء المنبسط اتخذ سلم عريض بدرابزين من الحديد المطاوع سبيلا لولبيا تقوس تقوسا مهيبا. كانت غرفتى رقم ٦، واحدة من ثمانٍ غرف انتظمت عبر ممر الطابق الأول. كانت كبيرة إلى حد ما، أو بدت لعينىَّ كبيرة لقلة أثاثها؛ سرير حديدى واحد، ومائدة، وكرسيان، وحامل للملابس تحت رف للكتب. كان ملمح الرفاهية الوحيد بها حوض ضخم بمياه ساخنة دائمة. لم تغط النافذة الطويلة المشرفة على الشارع أى

ستائر من القماش، لا شىء سوى مصاريع معدنية. كان عليك أن تغلق هذه المصاريع عند ارتداء الملابس أو خلعها وإلا سيراك سكان المبنى المقابل. تعلق من السقف مصباح واحد منخفض، تغطيه مظلة بلا لون تشبه الكوز، وامتد أنبوب على طول النافذة فوق الأرضية بقدم لتدفئة الغرفة تدفئة مركزية فى الشتاء.

"يمكنك تزيين غرفتك بأى طريقة تريدينها". أنهت السيدة جيرو عندما صحبتنى إلى غرفتى، وأرتنى على سبيل المثال طابقين تاليين، مثلها مثل وكيلة عقارات تعرض شقة جديدة بالعرض.

"يا للجمال!" هتفت وقد خامرنى انبهار حقيقى ببراعة المالكات، ستائر من مربعات حمراء وبيضاء ومفارش للموائد وملصقات على الحوائط وزينة وأوانٍ للزهور... ظننت أنى لن أفعل الشىء نفسه أبدا، لا لعدم معرفتى بهذه الأشياء فقط، ولكن لأن أى شىء يوحى بالاستقرار ضاعف من إحساسى بالقلق والاشتياق للعودة إلى بيتى. لذا هيأت لنفسى نموذجا لكل محال إقامتى، أن تكون مؤقتة ليس إلا، وقد عشت على الدوام وكأن بمقدورى أن أرفع المرساة وأبحر فى أى لحظة. كنت فى الغالب أستعير الكتب والأسطوانات وأعيدها بعد الاستخدام، ابتعت ملابس قليلة غير معتادة لا تمت للموضة بصلة كى أرتديها طويلا، كانت الغرفة مستأجرة أتركها فى الميعاد المحدد.

علَّ هذا الموقف يتعلق بجذورى، فقد تألف معظم سكان إيران من قبائل بدوية حتى وقت قريب، كما راقنى التجرد الرهبانى للغرفة رغم أنى شعرت بالحنين الرومانسى إلى "الأسقف الفخمة، والمرايا العميقة، والأبهة الشرقية، كل شىء سوف يتحدث هناك. إلى النفس سرا..." Les

riches plafonds, Les miroirs profonds, la splendeur orientale
Tout y parlerait, al'âme en secret

لا ينفصل سعى المنفى اختياريا إلى الحرية عن حنين المرء إلى الوطن، يتواصل الانقسام طوال الحياة مهما حجبه اللاوعى. بل إننى عندما وجدت مكانا أشبه بالوطن، فى حينه ساورنى العجب من تأصل بعض أصدقائى العميق فى تراب بلادهم وأسلافهم وأسرتهم؛ لا بد أنهم يشعرون بأمان كامل! ولكن هل يشعرون حقا بهذا الأمان؟ أتساءل فى قرارة نفسى. على أية حال لم أفعل أى شىء فى تلك الغرفة، على أن رف الكتب حفل فى الوقت الملائم بالقواميس والشعر وكتب وقّعها كُتّابها الذين التقيت بهم... لم أؤسس بيتا إلا بعد مضى سنوات، عندما ألفيت نفسى وحدى بصحبة طفلين صغيرين، بيتا يجدون فيه الراحة، ونرحب فيه بأصدقائهم وأصدقائى. كنت عن نفسى راضية أن أعيش بحقيبة سفرى ـ أو بالأحرى بصندوق الجيتار ـ وأغنى أثناء التجول فى العالم، إن لم تكن مأدبة متحركة، فعلى الأقل كانت "مكانا آخر" ailleurs متحركا.

المذهل أن هذا الصرح المشيد فى الماضى فى العقد الثالث والرابع من القرن العشرين ـ بيت الطالبات ـ لم يشتمل على غرفة واحدة للاستحمام. لو أردنا أن نستحم كنا نقصد حمامات البلدية الواقعة على بعد نصف ميل، وندفع ١٠٠ فرنك (فرنك واحد جديد)، فيعطوننا قرابة عشرين دقيقة داخل غرفة ضئيلة الحجم للغاية، تضم دشا ومساحة لارتداء الملابس، لم أمانع من هذا الترتيب لأنى كنت معتادة الذهاب إلى

الحمامات العامة فى إيران(*)، وعليه كنت أصحو فى الفجر لأسير فى الشارع ثم أستحم وأرجع فى الوقت الملائم للمضى إلى المحاضرات. اكتفت أغلب الفتيات فى البيت بأحواض الاستحمام، كن يملأن الأحواض ثم يفرغنها باستعمال الشامبو وقماشة للاستحمام عدة مرات، وهو ما يُسميه الإنجليز " استحمام البَغِىّ"! نشأت فى منزل مسلم يرى شعائر النظافة جزءا لا يتجزأ من الالتزام الدينى، مما يعنى ماء جاريا أو حوض استحمام عميق، لا كميات بسيطة من السوائل، لذا لم أقبل هذا الأسلوب إلا بعد فترة طويلة، إلا أن الحمامات كانت فى فرنسا وسيلة من وسائل الترف، لا تتزود بها إلا شقق المناطق السكنية الغنية والفنادق.

"تتبدى الإيرانيات دوما وكأنهن خرجن لتوهن من الحمام، نضرات ومعطرات ومهندمات"، عقبت السيدة تاباى عندما عبرت عن دهشتى من نقص الحمامات فى البيت. "لا يوجد إلا ثلاثة حمامات فى فندقى، وينبغى أن تحجزيه قبل فترة طويلة من استعماله، على حين أن روما..."

تركونى بمفردى فى غرفتى الجديدة، أفرغت حقيبة السفر وأقحمتها أسفل السرير، سوف أستهل غدا منهجا لتعلم اللغة الفرنسية، وربما ألتقى ببعض طالبات البيت اللاتى اقترحت السيدة جيرو أن تعرفنى إليهن. وحتى هذا الحين اتخذت مجلسى بالقرب من أنبوبة المياه الساخنة بالقرب من النافذة كى أستدفئ وأتفرج على منظر الشارع، سوف تصبح هذه البقعة هى بقعتى المفضلة، دافئة شتاء وباردة صيفا عند فتح النافذة.

(*) راجع كتاب الحصان معصوب العينين، ذكريات من طفولة إيرانية (منيرفا).

كان شارع الرهبان البنيديكتيين شارعا قصيرا متقاطعا، لذا لم تقطعه الكثير من السيارات، إلا أنه تمتع ببعض السمات المنتظمة. يأتى تاجر الملابس المستعملة مرة فى الأسبوع وهو يدفع عربة يد محملة بحمل زائد، ويصيح بكلمات غير مفهومة. ولم يبع ولم يشتر أحد شيئا منه البتة، ولم تبد عليه علامات الاهتمام، كان كلعبة أوتوماتيكية تدور ذراعها كى تتحرك ثم تتوقف حين تلف الذراع لفتها. زارتنا فى فترات أقل انتظاما مغنية الشارع، امرأة سكرانة هائلة الحجم يصاحبها رجل ضئيل الحجم يمسك بذراعها أثناء السير، وكان يتنحى جانبا كى يصبح جمهورها وهى تغنى، ويرنو إليها فى صمت منتشيًا، وسعك أن تسمع رجفة صوتها الجدير بصوت الماعز، وما يصدر عنها من أصوات الراء المتموجة بمجرد أن تنعطف إلى الشارع ـ أطياف من إديث بياف التى غنت أغانيها. اعتمدت على شهرتها الأسطورية مغنية فى الشارع لاستدرار العطف والكرم، وحينما تبلغ منتصف الطريق أسفل نافذتى، تتوقف وترفع صوتها بالغناء:

"عندما يأخذنى بين ذراعيه، يكلمنى بكل رقة،

عندها أرى الحياة وردية".

Quand il me prrrrendend dans ses brrrras, qu'il me parrrrle tout bas, je vois la vie en ro-o-o-ose وعند انتهاء الأغنية تهتف قائلة: "شكرا جزيلا سيداتى آنساتى، شكرا جزيلا". تتفتح النوافذ وتبدأ العملات فى الهطول، لا الكثير من العملات، ولكن بما يكفى كى يهرع رفيق المغنية ليلتقطها ويضعها فى قبعته، ثم يأخذ ذراع المغنية الأولى ويواصلان المسير وهى تشرع فى غناء أغنية أخرى، يخبو صوتها المرتجف والمنعطف يغيبها.

قام فى مواجهة بيت الطالبات متجر صغير للبقالة ملىء بالسلع، امتلكه زوجان شابان عاشا فى شقة صغيرة خلف المتجر، كانا من قرية بالقرب من أورليان، وهما أول فردين فى عائلتيهما يتركان أرضهما بحثا عن "حياة أفضل" فى المدينة. كانت تتمتع ببشرة خليقة بحالبات الأبقار، وابتسامة صريحة، وارتدت نظارة سميكة جعلت عينيها تبدوان للناظر خنفساوين صغيرتين. كان هو قصير القامة ممتلئ الجسم، ذا شعر غامق يلمعه بالزيت، وشارب قصير، تراءى أشبه بأعضاء المافيا، وليس شابا من الريف. عمل الاثنان فى المتجر، هى تقدم السلع، وهو ينقل البضائع ويرتبها فوق الرفوف، ستة أيام فى الأسبوع، بدءا من الصباح الباكر حتى الثامنة مساء، ويغلقان المتجر أيام الاثنين فقط لا غير.

بدا أن لا حياة لديهما خارج المتجر، حتى فى أيام الإجازات يمكنك أن تبصر ضوءا من خلال شقوق الباب، وتسمع وقع أقدامهما وأصواتهما وهما يسدان النقص فى الرفوف وينظفان ويضعان كل شىء فى مكانه الصحيح. وفى أغسطس، عندما تغلق باريس كلها أبوابها بمناسبة الإجازات الصيفية، يعود البقالان إلى قريتهما لمدة أسبوعين ثم يعودان وقد تجلت فى شكلهما الصحة والسعادة. وعندما انقضت سنة وأنجبا صبيا، سنداه باللُعب فى سريره، لاحت عليه آيات السعادة وهو يرد على تحيات الزبائن وعبارات الإعزاز بابتسامات مفعمة بالابتهاج. ابتاعت فتيات بيت الطالبات حاجاتهن البسيطة من متجر البقالة، لم تكن بالحاجات الكثيرة نظرا لأننا تناولنا الوجبات الرئيسية فى كافيتريا الطلاب وأى شىء زائد فى المقاهى.

وقع مقهانا المحلى عند زاوية الشارع، معتم الإضاءة، كئيب المنظر، يختلف إليه فى الأغلب الحرفيون؛ فقد آثر الطلاب والشبان المقاهى

النيرة الأكبر الأكثر ابتهاجا، الكائنة فى الشوارع العريضة. كان مالكها الكهل مكفهر الوجه قليل الكلام، كان يطبع على وجهه عبوسا دائما لا يزول، وكانت زوجته الشقراء ريانة الجسم تدير المقهى معه. كانت تفرط فى الثرثرة، كوّنا ومعا عرضا أشبه بعرض العرائس المتحركة "بانش وزوجته جودى"، ولكن بدون تبادل الضربات! كانا يفتحان المقهى فى ساعة مبكرة من الصباح عندما يتوقف الزبائن عند الطاولة ليحتسوا قهوة "إسبريسو" سريعة أو كأسا من البراندى فى طريقهم إلى العمل. كان المقهى يظل مفتوح الأبواب حتى ما بعد منتصف الليل، لا يمكن بأى حال أن يناما أكثر من خمس ساعات ليلا، فى ست ليال أسبوعيا، وعلى العكس من البقالين، لم يتحليا بطاقة الشباب. لا عجب أن مزاجه معتل، وأنها ثرثارة، ومَن لا يكون على هذا النحو؟

نادرا ما ترددت إلى المقهى عدا مرات قليلة لإجراء مكالمة هاتفية أو لدفع ما اشتريته عند الطاولة، غير أنى كنت أشترى الفاكهة والجبن من متجر البقالة، وسرعان ما ربط الود بينى وبين المالكين، ولا سيما عن طريق رضيعهما. أسرّا إلىَّ أنهما يجتهدان فى العمل لأنهما يرغبان فى توفير الأموال لتأجير مقهى. كم من الوقت ستتطلب هذه الخطة؟ ألا تستلزم إدارة مقهى بساعاتها اللا متناهية عملا أكثر؟ آه! ولكنه أكثر ربحًا وأقل إزعاجا، لا أخذ للبضائع ولا نقل للسلع ولا اختيار بين الماركات المختلفة.

اليوم يقيم كل صاحب متجر فى باريس فى مسكن ملائم، ويعمل ساعات عمل قصيرة، ويمتلك سيارة، ويذهب إلى معسكرات التخييم فى العطلات الأسبوعية. من العسير تخيل ما عاشه أغلبية الناس العاديين

وقتذاك من حياة قاسية لا ترحم، قال البعض إن الحال أسوأ من حالهم تحت الاحتلال.

نشب نوع من الحرب الأهلية الصامتة بين الأحزاب السياسية المختلفة التى تتمسك بأفكار متعارضة حول الوسيلة المثلى للتعامل مع هذه المشكلات ومشكلات البلاد الأخرى، وفى غضون ذلك لم ينقطع الجميع عن الشكوى، وكانت الجملة الشهيرة هى "الحياة شاقة!"، وفى نفس الوقت كانت خطط مونيه ومارشال تمهد السبيل لاقتصاد معافى مختلط سوف يثمر فى وقت لاحق من المستقبل.

كنت ذات يوم - بعد انقضاء سنوات فى باريس - أسير فى جادة مونبارناس، غير بعيد عن شارع الرهبان البنديكتيين. وقع بصرى على مقهى جيد الإضاءة يشع بالحياة فى ركن الشارع، كانت شرفته شبه الدائرية تعج بالسياح. دخلت كى أجرى مكالمة هاتفية، وهناك، خلف الطاولة، رأيت البقال وزوجته! كانا يقدمان الطلبات إلى الزبائن بنفس ما تذكرته من كفاءة سريعة وروح مرحة يغلفها الهدوء، كانا أشبه بممثلين يلوحان أكبر سنا بين مشهدين مختلفين، دلالة على مرور الزمن. كان شعر صدغه رماديا وقد عمقت تجاعيد وجهه، كانت هى أكثر امتلاء، وقد صبغت شعرها بدرجة لون أفتح من لونه البنى الباهت الأصلى. عرفانى باعتبارى واحدة من فتيات بيت الطالبات، وعرضا علىَّ فنجانا من القهوة عند الطاولة، بل إنها كفَّت عن العمل لتتحدث إلىَّ عدة دقائق، على حين واصل هو العمل ووجه إلىَّ الابتسامات بين الفينة والأخرى:

متى تركا متجر البقالة؟ جمعا بعد خمسة أعوام نقودا كافية لدفع عربون المقهى، وجدَّداه بأسطح من الفورمايكا والألواح الزجاجية وسكاكين للمائدة من الفولاذ وأنوار نيون، كدحا فى العمل ساعات طويلة،

وأخيرا حوَّلاه إلى تجارة ناجحة. يمكنهما الآن تحمل تكلفة نادلين وخادمة لتنظيف الشقة فى الطابق العلوى وطهى وجباتهما، امتلكا سيارة ماركة سيتروين وذهبا للتخييم فى عطلات الأسبوع بصحبة ابنهما البالغ عندها من العمر الرابعة عشرة، تلميذ فى المدرسة الثانوية المحلية. لا، لم يرغبا فى المزيد من الأطفال، فى البداية لأنهما كدَّا فى العمل دون أن يتوفر لهما المزيد من الوقت، وبعدها فات أوان إنجاب المزيد. ولكنى فكرت أن الصبى سوف ينهض ولا شك بالعمل فى الوقت الملائم، قالت وكأنها تقرأ خواطرى: "إنه يحب الريف، يحلم بشراء مزرعة صغيرة فى مكان ما بالقرب من أورليان ويربى الماشية. أليس هذا الموقف عجيبا؟ أهلكنا روحينا كى نبتعد عن الأرض والنجاح فى باريس بينما يرغب هو الآن فى أن يرجع إليها! ماذا باليد من حيلة؟ لا يتبع أطفال اليوم إلا عقولهم!"

شكرتها على القهوة وانصرفت، وفيما كنت فى سبيلى إلى الخارج ترامى إلىَّ صوت امرأة تغنى من صندوق الموسيقى:

أهكذا يعيش الرجال؟

وأحلامهم تتبعهم من بعيد...

عندما تنعطف فى زاوية شارعنا الهادئ نسبيا، يتبدل المشهد، جادة سان-جاك، أحد شرايين الحى اللاتينى الطويلة التى صعدت التل من السد فى اتجاه جادة مونبارناس، غاصة بالناس فى مستوانا. هرع حشود من الطلبة على الأرصفة الضيقة من السوربون وإليها، على بعد خمسمائة ياردة، أسرعت السيارات وأبواقها ترتفع وفراملها تُكبح كى تتحاشى سابلة متهورين يتدفقون على الطريق المعبد بالحجارة، والدراجات تشق طرقا متمعجة عبر السيارات.

قامت فى منتصف صف المبانى كنيسة سان بينديكت، مبنى بسيط يرجع إلى القرن الثامن عشر، واجهته سوّدها الزمن. تعالى رنين أجراسها أيام الآحاد، وفتحت أبوابها الثقيلة لتستقبل حشدا من المتعبدين، أزواج فى خريف العمر بصحبة أبناء يرتدون أزهى الثياب يوم الأحد، تتشبث أياديهم المغطاة بالقفازات بكتاب القداس، سيدات فى سن الكهولة فى قبعات عتيقة الطراز يمسكن بأذرع أزواج عجزة مثلهن تماما، بضعة طلبة. تغلق الكنيسة فى خلال الأسبوع بابها الرئيسى، وفى أوقات عرضية من النهار لا يسعك إلا أن ترى واحدا أو اثنين من "المرتادين المنتظمين" يدخلان من المدخل الجانبى الصغير، شاحبى البشرة، حزينى العيون، حجاج منعزلون لا يكترثون لشئون الآخرين، أغلبهم من النساء، فى حاجة إلى الصلاة أو الاعتراف. انتشرت فى الجو البارد رائحة البخور والشمع، تسلل الضوء بين القناطر من حلية فولاذية وردية الشكل لتخفف من درجة الغموض، على حين احترقت فى سكون بضع شموع ممتدة أسفل تمثال للسيدة العذراء فى تجويف خلق دائرة من نور القمر حول قدميها. لم تحو كنيسة سان بينديكت أعمالا فنية شهيرة، غير أنها اشتملت على لوحات تصور "مراحل الصلب" على الحائط الأيسر، وشمعدانات للزينة وأوعية معروضة فوق مائدة تحت الصليب.

كانت أول كنيسة زرتها، وقد اعترتنى كل الرهبة لرؤيتها، شد ما اختلفت عن تجرد مسجدنا المحلى فى وطنى! بل إن المساجد الكبيرة فى أصفهان وشيراز بقراميدها الملونة المترفة وتناسقها المعمارى كانت خالية من الداخل عدا سجاجيد رثة تنبسط على الأرضية، لا شىء ينبغى أن يصرف أذهان المصلين عن الصلاة. خلقت الصور والزخارف هنا جوا مفضيا إلى المشاركة الروحية، منهجان مختلفان يستهدفان نفس الغرض،

غالبا ما كنت أعرج عليها فى طريقى إلى البيت التماسا لعدة دقائق من التأمل الهادئ.

وقعت واحدة من أفضل المدارس الثانوية للصم والبكم فى هذه المنطقة، فى شارع جانبى صغير بجانب الكنيسة، كانوا يتدفقون فى نهاية اليوم بجادة سان - جاك، ويسيرون فى مجموعات وهم يتخاطبون فى حماسة بلغة الإشارات ويضحكون ويزعقون. رأيت فى تعابير وجوههم السعادة التامة، وقد شعرت عند رؤيتهم وكأنى فقدت السمع، أو أن حاجزا صوتيا يفصلنى عنهم.

ولكن شكّل صف المتاجر الصغيرة المكتظة فى كلا الجانبين من الشارع خلفية هذه التكوينات البشرية الأشبه بالمشكالات، ومد سكان المنطقة بحاجاتهم اليومية. قام فى مواجهة الكنيسة محل الجرائد، محل يشبه ممرا مظلما كما الكهف، جلست المالكة فى نهايته، فى ثياب سوداء على الدوام، رأسها مغطى بوشاح أخضر داكن، وعيناها مسلطتان على المدخل. وفى الخارج انطوت شتى الصحف اليومية واندست فى صناديق على لوح من الخشب، تأخذ صحيفة ثم تدخل لتدفع ثمنها. أحيانا ما كان الأطفال يحاولون سرقة صحيفة، لا لشىء إلا ليروا إن كانت العجوز الشمطاء المختفية فى نهاية عرينها المظلم ستلاحظ. لم تخفق مرة فى ملاحظتهم، حتى لو كانت مشغولة مع زبون آخر، تصرخ مثلها مثل فقمة مجروحة، مما يدفع الأوغاد إلى الهرب فى الطريق. كانت تبيع أيضا الأدوات المكتبية والحلوى، ولكن على العكس من معظم أصحاب المتاجر الآخرين ظلت بكل إصرار صموتة متجهمة الوجه، وكأن إدارة المتجر هى عقابها على الوجود.

وقع بالقرب من محل الجرائد محل جزار، نتأ رأس حصان بحجم حقيقى من بابه وانكتبت الكلمات التالية تحته: "جزارة الأحصنة" Boucherie Chavaline تساءلت لم بدت أضلع الحيوانات المعلقة من الخطاطيف فى الداخل أكبر بكثير مما رأيت فى حياتى، قيل لى إنه يبيع لحم الأحصنة الذى كان أرخص بكثير من أنواع اللحم الأشهى الأخرى مثل لحم البقر والحمل. اختفى جزارو لحم الأحصنة تماما تقريبا مع تحسن الحالة المعيشية للناس، إلا أن المتجر ازدهرت تجارته وقتها، وقيل لى إن لحم الأحصنة إن تم طهيه طريا يمكن أن يكون لذيذا، وإن كان طعمه ألذ من لحم البقر. قدم لى أحد الأصدقاء ذات مرة شريحة من لحم الحصان، كان الصديق شاعرا معدما وطباخا ماهرا، قدم الشريحة مع صلصة متبلة أخفت أى طعم غير مألوف قد يمتزج به، وبالنسبة لحاسة تذوق مراهقة جائعة كان اللحم لذيذا.

وعلى بعد عدة ياردات يسار الكنيسة قام مطعم صغير رخيص الأسعار، اتخذ اسما شامخا "حدائق خبراء المأكولات"، كان يقدم طبق اليوم ـ فى الغالب شريحة من اللحم وبطاطس محمرة ـ مقابل سعر يزيد قليلا عن كافيتريا الطلاب. كنا أحيانا فى مستهل الشهر ننغمس فى هذا الترف. كانت حجرة مربعة بسيطة تتضمن بضع موائد لجلوس شخصين أو أربعة، يعلوها مفرش من مربعات زرقاء وبيضاء. كانوا يفردون فوقه صفحة جديدة من الورق عند جلوس كل زبون جديد، كانت الحوائط عارية خالية من الزينة وأى ملصقات تعكس روح المرح. نهضت طاولة صغيرة شبه دائرية بالقرب من الباب، ومن خلفها باب أفقى ينفتح على مطبخ صغير، صرح المالك بالطلبات عبر هذه الفتحة وبرزت أطباق الطعام منها بعد مضى عدة دقائق.

كان المالك والنادلة يديران "حدائق خبراء المأكولات"، اعتاد الجلوس على مقعد بدون ذراعين خلف الطاولة، ويستلم الطلبات من النادلة، ويكتب الفواتير ويجمع النقود، بينما تخدم هى الموائد. وعندما يكتظ المكان على نحو غير معتاد، أحيانا ما يترك مكانه السامى ويعاون فى تقديم الطلبات. كان رجلا ضخم الحجم مترهل الجسم فى حوالى الخمسين، أصلع عدا عدة خصلات من شعر بنى باهت أزاحه ناعما عن جبهته. كان يعرج بشدة حتى إن جسمه بالكامل مال مسافة قدم إلى اليمين كلما خطا خطوة. تحسبه يميل عليك ولكنه يعتدل مجددا ليخطو خطوة أخرى ثم يهبط من جديد شأن مركب فى بحر متلاطم الأمواج. المفترض أنه كان من جرحى الحرب مثله مثل معاقين عديدين رأيناهم فى تلك الأيام، بأطراف مفقودة، جروح من جراء الرصاص، وأوجه لا تعدم الندوب. كانت النادلة ضخمة الحجم هى الأخرى، بدون شكل يذكر، وإنما شابة، حملنا وجه الشبه الجسدى بينها وبين المالك إلى الاعتقاد بأنها ابنته. علَّ الطباخة التى أبصرنا يديها تدفع الأطباق عبر الباب الأفقى هى أمها؟ كانت العادة أن تدير الأسر المطاعم الصغيرة والحانات الصغيرة، وكان أفرادها المختلفون يتقاسمون المهام، ولكن عندما ظهر رضيع فى وقت لاحق (بدون تغير واضح على خصر النادلة!) أدركنا أنها الزوج، وأن ما جمع بينها وبين المالك من شبه سببه التناضح! ولكن لِم تزوجت برجل فى سن أبيها ومعاق؟ جرت هذه الزيجات الغريبة فى إيران لأن النساء لم يكن لهن رأى فى مصائرهن، ولكن هذا هو الغرب، قِبلة(*) الحرية والمساواة، "زوج، ووظيفة، وطفل، وطعام كافٍ، ومأوى، لو

(*) في الأصل Mecca. (التحرير)

رفضتْ يده لعدمت كل هذه الأشياء". علقت السيدة تاباى: "ومن يَعلم، ربما يعوضها عن سنه بأمور أخرى..."

جاورتنا صيدلية يبرز من واجهتها صليب أخضر إشارة إلى المهنة، ومخبزان وخردواتى وبائع للقبعات النسائية... عندما تمر بالمخبزين فى الصباح الباكر أو فى ساعة متأخرة من الأصيل تشم رائحة الخبز المخبوز للتو، يفوح فى الشارع كما النعمة، على حين عرضت النوافذ تشكيلة لا تقاوم من الفطائر والكعك.

بعيدا عن هذه المحال الدائمة، يقام مرة فى الأسبوع أيام الأربعاء، سوق فى الشارع على طول امتداد الطريق بين الكنيسة وشارع الرهبان البنديكتيين، حيث اتسع الرصيف وظهر على شكل الهلال. كان الباعة ينصبون الحوامل فى الفجر ويغطونها بالفاكهة والخضراوات ومنتجات الألبان والدجاج والمعلبات والسمك... كانت الوليمة الغنية متنوعة الألوان مثيرة للشهية، وحفل الهواء بروائح الأعشاب الطازجة والأسماك البحرية. بحلول الثامنة كان الشارع يعج بالمتسوقين، ويسود الهرج والمرج لتصل الضوضاء إلينا فى بيت الطالبات من خلال النوافذ المفتوحة. سرعان ما تنتظم الطوابير أمام الأكشاك، حيث يقوم الباعة والنساء بأدوارهم المعتادة، يدعون السيدات والسادة إلى تذوق المنتجات وشرائها، يزِنون ويحصون بصوت عالٍ ويتبادلون المجاملات مع الزبائن. وقف الرجال خلف الحوامل أسفل الظلة المؤقتة، بينما تحركت النساء فى المقدمة ليأخذن الطلبات ويسلمن العلب ويضعن الأموال فى جيوبهن.

كانت السيدة مارى ملكة السوق، وهى بائعة الجبن والدجاج ومالكة الكشك الوحيدة المعروفة باسمها، أدارت مع زوجها أكبر الأكشاك خارج متجر لحوم الأحصنة. كانت قصيرة البنية ممتلئة الجسم حولاء العينين

فى منتصف العمر، على حين كان زوجها قصير القامة نحيل الجسم فى سن الشباب، يتباهى بشارب رفيع جدير بأبطال الأفلام فى العقد الثالث. كانت ترتدى فى الصيف فستانا بشعا مطبوعا بالزهور، وفى الشتاء معطفا ثقيلا بنى اللون فاتحه، ودائما مريلة عريضة رمادية بجيب فسيح فى المنتصف. حاولت لملمة شعرها الغامق الذى تتخلله خصلات فضية فى كعكة إلا أن معظم خصلات شعرها هربت منها. ما كفت قط عن الكلام، تغرى الزبائن بنصائحها حادة الصوت، وبإطرائها على منتجاتها، تدوّن الطلبات، وتنقلها إلى زوجها، وتسلم العلب، وتضع الأموال فى جيب مريلتها، واحتفظت بيد فى جيبها الأمامى كى تستدفئ وتحمى أموالها. وعلى العكس منها لم يفه هو بحرف، عدا أنه كان يصفر بين الحين والآخر بجزء من إحدى الأغنيات الشهيرة.

ومثلها مثل الملكة المطلعة على معاونيها، كانت ماري تعلم أسماء زبائنها وتتبادل بضع كلمات مع كل زبون حول أسرهم وأمراضهم ومهنهم، وعلى استعداد دائم لترد بإجابة بارعة أو نكتة خليعة: "إننى أدفئ يدى فى أسخن منطقة لدىّ!" اعتادت أن تقول عاليا وهى تحرك يدها داخل جيبها الأمامى، تضحك بصوت متقطع مثل أوزة تختنق بجوزة الكستناء، لتكشف عن صف من الأسنان الصفراء المعوجة، ويرسم زوجها على وجهه ابتسامة مائلة وكأنه يسمع النكتة للمرة الأولى.

كانت السيدة مارى تكن إعجابا بالطلبة والشبان، وأحيانا ما أعطتهم قدرا إضافيا من الجبن. كنت أبتاع جبن الماعز منها من حين لآخر محاولة ألا أستثير فحشها، وإنما دون جدوى: "ها أنت! الفتاة الإيرانية الصغيرة! هاك قطعة صغيرة من الجبن الأبيض المملح من أجل ابتسامتك، إنك فتاة للأسف، ليس لديك ما لدى الرجال من شىء صغير!

وإلا لخطفتك وأغريتك!" يتورد وجهى بالكامل، على حين يرتفع ضحك كل من وسعه السمع، فتقهقه السيدة مارى.

وذات يوم توارى السوق عن الأنظار، علمنا أنهم وجدوا مكانا أفضل فى جادة راسباى، ولا يزال السوق يشغل هذه الجادة حتى اليوم. فاتت السنوات ثم قصدت باريس، اتفق أن مررت بنفس المكان، رنوت إلى شاغلى الأكشاك فى محاولة منى للتعرف بالوجوه التى أتذكرها. لاح وجه أو اثنان مألوفان على نحو غامض، وإن تقدم بهما العمر كثيرا، لكننى لم أجد السيدة مارى، إذ وافتها المنية فى السنة الماضية.

اصطفَّت المقاهى الصغيرة على طول شارع سان ـ جاك، غير أننا فضلنا المقاهى الأكبر الأكثر إنارة الكائنة فى جادة سان ـ ميشيل، بالقرب من السوربون. لم أجرؤ فى البداية أن أغادر حجرتى إلا بالكاد، لغرض الذهاب إلى الدورات الدراسية، بيد أنى صادقت الأصدقاء وغدوت أكثر جرأة، ففضلت العمل فى المكتبات العامة والمقاهى. استغرق منى وقتا طويلا كى أغامر بالخوض فى العالم الخارجى، إلى سان ـ جيرمان دى برى، فقط بضع مئات من الياردات، وقد بات فى السنوات التالية مستقرى ومكانى. تحولت الآن المقاهى على طول جادة سان ـ ميشيل إلى مطاعم للوجبات السريعة، مطاعم رخيصة لبيع الهامبورجر والخدمة الذاتية، ولكن فى كل مرة أزور فيها باريس أقصد نفس المقاهى الواقعة فى جادة سان-جيرمان، وأمضى اليوم فى العمل ولقاء الأصدقاء وإجراء المكالمات، وكأن السنوات الماضية مجرد حلم ليس إلا، حتى آن أوان العودة إلى الوطن.

ولكن ماذا عن الحياة داخل بيت الطالبات؟

٨ ـ الموقد والقلب

إن البقاء وحيدا لمدة عام

فى غرفة حقيرة يُعلم الرجل أكثر من...

أربعين عاما من "الحياة الباريسية"

ألبير كامو

بالنسبة إلينا نحن المراهقات والواقفات على عتبات العقد الثالث من العمر وجدنا السيدة جيرو عجوزا للغاية رغم أنها كانت فى نحو الخمسين ولم تزل فى منتهى الجاذبية. نعمت ببشرة فى مثل جمال زهرة شجرة التفاح جمَّلتها بلمسة من أحمر الخدود على العظمتين العلويتين لوجنتيها وملامح متناسقة. صبغت شعرها بلونه الأصلى ـ بنى كستنائى، أطَّر وجهها البيضاوى ولملمته إلى الوراء بأمشاط صغيرة ومشابك لم تختلف قط. كان قوامها ممتلئا قليلا، جسم كبحه الكورسيه والملابس الرزينة، لم يزل بذراعيها وساقيها قدر من الجمال والنحافة. كانت بين الطلبة تتصرف بشىء من التبجيل، بل والتحفظ المهذب، ولكن عندما يظهر فى الأفق رجل غير الطلبة المهلهلين، مثل السيد رحيم، فإنها تذوب

فى بحر من السحر الأنثوى، تكشف ابتسامة خليقة بالفتيات عن طقم أسنان منتظم ناصع البياض، وتضيق عيناها المشتاقتان الملونتان بالأخضر الضارب إلى الرمادى لتبدى تعبيرا مفعما بالعاطفة: "مسيو؟ Monsieur مثلما تشاء؟" Vous desirez.

لم توجد السيدة جيرو فى الغالب فى المكتب أوغرفة الاستقبال، إذ فضلت أن تتجز عملها فى شقتها أو الطابق الأرضى خلف السلالم. ما جرؤنا أن نطرق بابها الأمامى مهما كان الأمر طارئا، ولكننا تركنا مع موظفة الاستقبال طلبا للقائها، وفى الوقت الملائم كانت تستدعينا. ولأنها تمتعت بسلطة طردنا فى أية لحظة، تولانا الخوف منها، ولم ننتهك القواعد بوجه عام.

كانت السيدة جيرو أرملة، كانت "فى منتهى السعادة" مع زوجها، ضابط فى الجيش وافته المنية عقب الحرب مباشرة. لم تعمل قط وهو حى، ولكن بعد موته تولت هذه الوظيفة، لا عن حاجة، إنما لتخفيف الوحدة، فهى لم تنجب أطفالا. راقتها "الفتيات" اللاتى اعتبرتهن ذكيات، "جادات" فى الغالب، لم يبد أيضا أنها تصادق الكثيرات، فنادرا ما خرجت فى الأمسيات، وبالكاد استقبلت أى شخص فى شقتها، ولكنها احتفظت بصديق كان يعودها بصورة منتظمة، مرتين أسبوعيا. غالبا ما كانا يجلسان فى نهاية المكتب ليثرثرا وهما يحتسيان فنجانا من القهوة أو كأسا من النبيذ الأبيض، لو دلفت إلى غرفة الاستقبال لأخذ المفتاح و"الرائد" هناك، سوف تراها تضحك وهو يتحدث ثم تميل عليه لتفشى سرا. لم تكن فى تلك اللحظات مديرة البيت الصارمة، فقد تبينا الفتاة المراهقة الجميلة التى أدارت رأس ضابط شاب منذ ثلاثين عاما.

فقد الرائد ساقا فى مستهل الحرب، "ليتك رأيت تلك الدبابات الألمانية! يا إلهى!" O làlà كذلك فقد زوجته فى نهاية الحرب؛ تزوج ابناه وغادرا البيت، وعاش عند ذاك بمفرده فى مكان غير بعيد عن بيت الطالبات، وجاء ليزور زوجة صديق السابق فى الفوج العسكرى.

وقفت على كل هذه المعلومات من السيدة مونيك، القائمة على النظافة اليومية. اعتقدت بوجود "تفاهم" بين الاثنين، وقد تجاوزا الانهماك فى تذكر زوجها الراحل. لم نصدقها، إذ كان الرائد ضخم الحجم ومترهل الجسم، وكذلك أصلع الرأس، كيف لها أن تنجذب إليه؟ "أى رجل أفضل من لا شىء بالنسبة لبعض النساء". كانت مونيك تجيب بشخير ينم عن احتقار، ظللت ميالة إلى الشك فى حديثها لأنه من المستحيل أن يدخل الرائد شقة السيدة جيرو ويخرج منها دون أن يراه أحد، وقد كان منظر شخص أخرق معاق برجل اصطناعية يتسلق عبر نافذة ضيقة لا يمكن تخيلها، إلا أن السيدة مونيك أكدت أنهما عثرا على وسيلة: "دائما ما يعثرون على وسيلة".

بدّل الرائد طرفه الغائب بأداة غريبة الشكل انتهت إلى قرص مستدير من المعدن. وعندما كان يدخل البيت، كنا نسمع الضربات اللحنية لعصا المشى ورجله الاصطناعية على المدخل الحجرى، ويتبع الضربات تحيته الجهيرة: "صباح الخير يا مدام! كيف حالك اليوم؟" Bonjaur, madame! How are you today? يجاهر بصوت مدوٍّ فى وجه موظفة الاستقبال، فتحث الخطى لإعلام السيدة جيرو.

خلدت إلى الفراش ذات ليلة لإصابتى بالبرد، واستيقظت مرتفعة الحرارة. كان هناك مصباح خافت متروك فى كل طابق بعد انطفاء النور

فى حال رغبنا فى استخدام المراحيض فى نهاية الممر. ورد إلىَّ إيقاع مألوف أعلن عن حضور الرائد من الطابق السفلى. خلت فى البداية أن الصوت من بنات رأسى المحموم، ولكنى أنصتُّ فلاح لى الصوت جليا للآذان. ضربة، ضربة، ضربة... ضربات يتراجع صوتها فى الفناء خلف المبنى ليضمحل فى الليل...

"يجد القلب طريقا إلى القلب"، على حد قول المثل الإيرانى.

نهضت السيدة مونيك بمسئولية تنظيف السلالم والممرات وغرفة المكتب وحجرة الانتظار بينما تولت الفتيات مهمة تنظيف غرفهن، وصلت فى الثامنة وبدأت بالطابق السفلى ثم صعدت إلى السطح الذى بلغته فى وقت ما بعد الظهر ثم غادرت فى نحو الرابعة. كانت تستعمل أدوات قديمة - دلوًا وملابس وفرشاة ومنفضة وتجثو على أطرافها الأربعة، تمسك عن العمل عند الظهر تقريبا، وتتخذ مجلسها على السلالم لتلتهم شطيرة وقهوة جلبتهما معها. طلبت منها فتاة أو اثنتان أن تعاونهما لمدة ساعة فى الأسبوع فى ترتيب غرفهما وتنظيفها، وهو ما فعلته، تفضلا منها عليهما، لا لما منحتاها من نقود. الحق أنها أبدت احتقارا أى احتقار للأموال، ودائما ما كانت تأخذها وقد رسمت على وجهها تعبيرا من الاشمئزاز المتعالى وكأنها وسخت يدها. طلبت منها أنا الأخرى أن تساعدنى مرة فى الأسبوع، وقد وافقت، كانت تدق بابى فى الثالثة من أيام الخميس أو تدخل بنفسها باستخدام مفتاحى إن كنت غائبة. تدور بمنفضتها ومقشتها ثم تنصرف، ولكنى لو كنت موجودة فإنها تتحدث بلا توقف وهى تعمل، وكانت أحيانا تجلس هنيهة بعد التنظيف كى تستريح وتثرثر. حين اتفق أن أخبرتها يوما أنى انضممت إلى حزب الشباب الشيوعى فى المدرسة الثانوية فى إيران، ارتفعت أسهمى لديها وخففت

من تحفظها وطفقت تحكى عن حياتها.

جاءت السيدة مونيك من المنطقة الشرقية من سلسلة جبال بيرينيز، وداخل صوتها رنين جبالها العالية وإيقاعها، عالية الصوتو، ذات لهجة واضحة. بدرت منها حروف الراء بصوت يماثل صوت عربة اليد على الحجارة، بإيقاعات درامية. إبان الحرب الأهلية الإسبانية عاونت اللاجئين الجمهوريين عبر التلال الحدودية وتعلمت بعض لغة كاتالونيا. كان العديد من أصدقائها من المنفيين الإسبان، وقد لعنت فرانكو و"كل الفاشيين فى فرنسا المساندين له" لما نزل بهم من مأزق عصيب.

تزوجت فى سن صغير وانتقلت إلى باريس برفقة زوجها بحثا عن عمل، كان قد وجد وظيفة فى أحد المصانع حيث مكث بها بقية حياته على حين تولت هى التنظيف، ظلا على إخلاصهما حتى أودت به أزمة قلبية مع نهاية الحرب. انضما فى شبابهما إلى الحزب الشيوعى، وكانا لا يتزعزعان عن إيمانهما، كانا خلال الحرب أول شيوعيين ينضمان إلى المقاومة، فى فترة مبكرة من عام ١٩٤٢، وكاد الجستابو يلقى القبض عليهما عدة مرات.

لم تزل السيدة مونيك عضوا فاعلا، وأضمرت إعجابا بقائد الحزب، موريس توريز: "عامل منجم، ابن عامل منجم، حفيد عامل منجم، لم يكن برجوازيا!" نطقت الاسم بكل ما أمكنها حشده من غضب واشمئزاز وكراهية. تتبعت خطى الحزب فى كل المنعطفات والتطورات غير المتوقعة، ـ ميثاق هتلر ـ ستالين، المحاكمات الظالمة، والتخلص من الأعضاء غير المرغوب فيهم، إلى آخره... أزاحت أى تهديدات لإيمانها الوفى معتقدة أنها "أكاذيب أكاذيب، أكاذيب!" مكائد أمريكية وبرجوازية.

حين تسرب تقرير خروشوف إلى الاجتماع العشرين للحزب السوفيتى عام ١٩٥٦، اعتبرته اختلاقا شيطانيا آخر؛ "الرفيق خروشوف واحد من مخططى المعجزة السوفيتية، كيف يمكن أن يقول مثل هذه العبارات؟ لماذا لم يصرح بشىء وستالين على قيد الحياة؟" لم يكن هناك جدوى من إخبارها أنه سيرمى بالرصاص مثل الآخرين، ما كانت ستصدق. عندما سحقت الدبابات السوفيتية الثورة المجرية عام ١٩٥٦ وقتلت آلاف العمال، اعتقدت أنها "مكيدة" دبرها ثوريون مضادون عملاء لأمريكا. استثمرت كل رأس مالها العاطفى والدينى هى وزوجها فى الحزب، فكيف لها أن تتخلى عنه إذن؟ سوف تحول تلك الخطة حياتها إلى حياة لا مغزى لها. عززت السيدة مونيك معتقدها بقراءة جريدة "الإنسانية،" الجريدة الناطقة باسم الحزب، كل يوم، من الغلاف إلى الغلاف. كانت تستوعب محتواها بالكامل شأن مسلمة ورعة تتلو صلاتها اليومية أو مسيحية تذهب إلى القداس كل يوم أحد. أدركت من خلالها معنى "الإيمان الأعمى"، فقد واجهته فى السنوات التالية من خلال العديد من الأشخاص الملتزمين أيديولوجيا.

المرة الوحيدة التى أظهرت فيها السيدة مونيك ملامح ضعف هى عندما حكت لى عن وفاة زوجها، ذاب القناع القاسى الغاضب الذى بات جزءا منها، وترقرقت عيناها بالدموع، وانسابت ابتسامة ضعيفة فوق شفتيها مثل ظل سحابة يعلو السهل. أدركه الموت فجأة عند الفجر وهو يستيقظ للذهاب إلى عمله تاركا إياها إلى الأبد بصحبة الليل، أنفقت كل ما لديها واستأجرت له قبرا لمدة عشر سنوات فى مقبرة بير لاشيز، ومنذ وقتها تمضى كل أحد بلا استثناء "لزيارته"، حاملة باقة من الزهور. ارتسمت فى مخيلتى وهى تنزع الأوراق الميتة، تتواصل معه فى صمت،

تحاول أن تجلب إليه نوعا من الحياة.

"لم تذهبين إلى قبره يا مدام مونيك؟ لن يَعلم بمجيئك، وبما أنك ملحدة لا تؤمنين ببقاء الروح أو الحياة الآخرة، فلا أحد تتواصلين معه هناك، إلا فى الذاكرة، وهو ما يمكنك فعله فى غرفتك؟"

"أذهب إلى هناك من أجلى، أتحدث إليه، فأشعر بالراحة"

"ماذا سيحدث عند انتهاء مدة الإيجار؟".

"لو كنتُ على قيد الحياة سأجدده عشر سنوات مقبلة، ولو كنتُ فى عداد الموتى، سينتهى الأمر!"

ريما تبتاعه أرملة أخرى، فكرت، لتدفن زوجها وتقصد قبره أيام الآحاد وهى تحمل باقة من النرجس البرى أو البنفسج ...

"للقلب مبررات لا يعهدها العقل".

جلست مساعدات السيدة جيرو فى غرفة المكتب خلال النهار، كُنَّ غير مؤذيات مطلقا، إلا أن موظفة الاستقبال الليلية، الآنسة مورى، كانت "حالة". اعتادت السيدة جيرو أن تقول وهى تقلب حدقتى عينيها نحو السماء: "آه، إنها حالة!" عاشت فى بيت الطالبات منذ أمد طويل لا يذكره أحد، فى الطابق العلوى حيث قسمت الحواجز النحيفة الغرف إلى ما أسموه "صناديق"، مستخدمين فى ذلك الكلمة الإنجليزية. لم ينجح أحد فى مصادقتها، كانت تستجيب للابتسامات والتحيات بوجه خالٍ من أى تعابير، وكأن الآخرين يخاطبون شخصا آخر. ولكونها اشتغلت طيلة النهار فى أحد المكاتب وأصبحت موظفة الاستقبال فى البيت فى الأمسيات والآحاد، ما ذهبت إلى غرفتها إلا للنوم. أحيانا ما انبعثت من

"صندوقها" أصوات غريبة فى منتصف الليل، عزت جاراتها الأصوات إلى الكوابيس، وكثيرا ما كانت تشخر شخيرا مرتفعا مما حال دون أن ينمن. ولأن الحواجز ارتفعت من الأرضية إلى مسافة قدم أسفل السقف، صعدت ذات مرة فتاتان فضوليتان الكراسى والموائد وتسلقت واحدة منهما كتف الأخرى مثل بهلوانات السيرك كى تسترقا النظر إلى غرفتها. وجدتاها مكدسة بسنوات من التراكم: صناديق من الكرتون، وملابس مهلهلة، وأشياء متباينة، هجين من كشك يبيع سلعًا متفرقة فى سوق الملابس المستعملة وكوخ بغى، وهناك عاشت وجودها كمن تؤدى كفارة عن خطيئة رهيبة.

كانت الآنسة مورى متوسطة الطول نحيفة القد لا شكل لجسمها، عاطلة من أى ظواهر أنثوية. برز شعرها ـ القصير الرمادى كما الأسلاك ـ من فروة رأسها، وأسبغ عليها شكل القنفذ، مما ضاعف من عدم ثقتها بنفسها. كانت عيناها فى صغر عيون الطيور، لا تَحمل أى تعبير من أى نوع، وبشرتها فى لون مصل اللبن. وبصفتها موظفة الاستقبال الليلية نهضت بمسئولية إطفاء الأنوار وإغلاق الأبواب عند منتصف الليل بالضبط، وفى الثانية عشرة إلا خمس دقائق كانت تشعل شمعة وتدسها فى طبق مشقوق، وبمجرد أن تدق ساعة مستشفى فال ـ دود ـ جراس، المستشفى العسكرى القريب، منتصف الليل، تطفئ كابل الكهرباء الرئيسى وتوصد الباب الأمامى، وعندما تتردد اثنتا عشرة ضربة فى المنطقة الهادئة تكون قد اعتلت نصف درجات السلم. كانت أحيانا تنتظر خلف الباب، وتقحم المفتاح فى القفل، ثم تدير بيد حاسمة حين تحس أن الساعة سوف تدق كى تتزامن حركتها مع الضربة الأولى. شابه ذلك المفتاح الوحيد الطويل المصنوع من الحديد مفاتيح القلاع

المصورة فى حكايات الجن، وقد منحها سلطة هائلة علينا، لأننا لو تأخرنا عشر ثوان ليس إلا نحبس فى الخارج بقية الليل.

فكرت فى مرة من المرات فى سرقة المفتاح وصنع نسخة منه، ولكن ثبت أنه من المستحيل اختراق غرفتها والعثور عليه، وعلى أية حال أخبرتنى صديقاتى أنى شاهدت أكثر مما ينبغى من أفلام العصابات! قد لا يبدو حظر التجول غير معقول إلا عندما تأخذ فى الاعتبار أن كل العروض تقريبا ـ المسرح والأوبرا والحفلات الموسيقية، بل والاجتماعات السياسية ـ تنتهى عند منتصف الليل تقريبا، ولأن خط المترو كان يعمل حتى الواحدة صباحا لم نجد صعوبة فى الوصول إلى البيت، ولكن حتى الانصراف فى الساعة الحادية عشرة والنصف والركض طيلة الطريق من المحطة إلى البيت كان محفوفا بالمخاطر، وعليه فقد فاتتنا فصول أخيرة لا عد لها وإعادات للمقاطع الموسيقية والفقرات الأخيرة من الحفلات خشية أن نهيم على وجهنا فى الشارع.

وإن أخفقتَ فى الالتزام بحظر التجول، بمقدورك أن تجلس فى المقاهى حتى الثانية أو الثالثة، وهو موعد إغلاق أبوابها فى العادة، ثم تسير حتى الخامسة أو السادسة عندما تفتح مقاهٍ أخرى، ولكن كان من الخطر على الفتيات أن يتجولن فى الشوارع بمفردهن. فتحت بعض المقاهى أبوابها طيلة الليل، كانت فى الغالب بالقرب من المحطات الرئيسية، غير أنها لم تكن أماكن محترمة فى ساعات الصباح الأولى، وفتاة بمفردها (أو فتاتان أو ثلاث) مصيرها التحرش بها. تلقينا تحذيرات مستمرة من "عملاء التجنيد" العاملين فى تجارة الرقيق الأبيض، مناهجهم فى الإقناع والإجبار، حيلهم الغريبة، تستر الشرطة على أنشطتهم. سرت قصص مريعة حول فتيات اختفين فجأة بعد أن

فقدن الوعى بحقنة مخدرة فى دار سينما أو حافلة شاغرة، ثم تم اختطافهن. وحين يستعدن الوعى، يكن فى سبيلهن إلى أحد المواخير فى إفريقيا لخدمة الفيالق! ما كانت أى من هذه القصص صحيحة بالطبع، ولكن أخافتنا خوفا شديدا، فتجنبنا المواقف الخطرة، وتجنبنا رجالا أشرارًا اقتربوا منا دوما بعروض "لعرض الأزياء" و"العروض السينمائية"، من الأفضل أن يفوتنا العرض من أن نخاطر بأنفسنا.

كانت غرفتى فوق المدخل، وكثيرا ما تناهى إلىّ صوت فتيات يقرعن الباب ويناشدن الآنسة مورى أن تفتح الباب وتدخلهن، بما أنها كانت لا تزال هناك، وبإمكانهن سماعها. كانت تطقطق المفتاح بلا رحمة وتستدير لتصعد السلالم ببطء، فى يدها شمعة كما هو خليق بشبح يؤدى مهمة قضاها القضاء والقدر. ترامى إلىّ فى إحدى الليالى فتاة تقرع الباب وتهتف بالتوسلات، خرجت إلى المنبسط وواجهت الآنسة مورى، ناشدتها أن تدعنى أنزل وأفتح لها الباب، رمقتنى بعين جامدة الشعور وواصلت صعود السلم كمن تسير وهى نائمة. لاحظت ظلا لابتسامة حقود على شفتيها النحيفتين الجافتين، وددت لو أضربها وأنتزع المفتاح بالقوة، ولكنى تسمرت فى الأرض. عدت إلى غرفتى وأطللت من النافذة وناقشت مع الفتاة طرقا لرفعها إلى غرفتى، ولكنه كان أمرا مستحيلا بدون سلم طويل، قررنا فى النهاية أن الحل الوحيد هو أن تستقل آخر مترو ذاهب إلى منزل صديقاتها، حيث قضت ليلتها بعد أن تملكها الإحراج لإيقاظهم من النوم.

فاتحنا السيدة جيرو مرات عديدة بالتماسات لتمديد حظر التجول ساعة واحدة، ولكنها تميزت بعند أى عند؛ أرادت أن تُعلمنا أن بيت الطالبات ليس فندقا، وإنما هو بيتٌ محترمٌ "للفتيات الشابات القادمات من عائلات محترمة". Jeunes filles de bonnes familles الحقيقة أنها

لم ترغب فى دفع الأموال مقابل الوقت الإضافى، كذلك لم تكن الآنسة مورى مستعدة لتقبل الترتيب الجديد.

تغيرت العادات الجنسية كثيرا منذ الحرب فى فرنسا، على الرغم من ضيق الجيل الأكبر الذى بذل جهده لكبح المد المقترب لما يشار إليه الآن "ب الستينيات المتساهلة". كانت فى البداية مقصورة على الفنانين والمفكرين، فى حياة البوهيمى La vie de bohéme، وهو ما كان موجودا على الدوام، غير أن التراخى انتشر الآن فى صورة نوع من التيار المضاد الجارى تحت السطح. إلا أن أغلبية الناس عاشت طبقا للعادات والقيود القديمة، وفقا للمبادئ الدينية، وعزف معظم الشبان عن ممارسة الجنس قبل الزواج. بل إن الشيوعيين الذى شجبوا "الزواج البرجوازى" باعتباره "دعارة قانونية" استنكروا "الانحلال"، وأيدوا الالتزام بزوجة واحدة. كانت الأمثلة الأبرز هى الأمين العام للحزب موريس توريز و"رفيقته" وفقا لاسمها الرسمى. عاشا معا سنوات، وأنجبا العديد من الأطفال دون الخوض فى شعائر قانونية و"برجوازية". تحدٍّ اجتماعىٌ بالإضافة إلى مذهب التطهرية، لم يكتف بعض المفكرين الشيوعيين المعروفين ورفقاء طريقهم بزوجاتهم، مما جعل كازانوفا والراقص الهولندى ماتا هارى بالمقارنة عفيفين، لم يكن ذلك معروفا على مستوى الأفراد العاديين ممن لم يروا إلا الزيجات السعيدة الظاهرية.

لم تزل الفتيات بالنسبة للسيدة جيرو، كما هو الحال بالنسبة لمعظم الناس، إمَّا "جادات" وإمَّا "طائشات"، Légére وهى لم توافق على الطائشات منهن. "إلا أن القواعد الصارمة المخصصة للحفاظ على عفة الفتيات أثمرت نتيجة عكسية، وأسهمت فى "سقوطهن"؛ فقدت الكثيرات من طالبات البيت عذريتهن لأنهن تأخرن عدة ثوان، عرض عليها حبيبها

أن يستضيفها ليلتها فى بيته، بيت لم يكن فى الغالب إلا غرفة صغيرة وسريرا واحدا، ثم يحدث المحتوم. أحيانا ما كان الحبيبان يخططان الظروف بأنفسهما: يجريان فى منتصف الليل ليبلغا الباب قبل منتصف الليل بعدة دقائق، يتمهلان وهما يتبادلان قبلة الفراق على بعد عدة ياردات من الباب، تقع عليهما عيناك يلتصقان بالحائط فى المدخل وأنت تمر سريعا بهما، فتستدعى أغنية بريفير:

أطفال مغرمون

يتبادلون القبل واقفين

أمام بوابات الليل

كانا يسمعان المفتاح وقد التف فى القفل، ينفصل أحدهما عن الآخر ثم يهرعان... بسرعة! بسرعة! فات الأوان، ترتطم خطوات الآنسة مورى المكتومة فى المدخل مثلها مثل تكات ساعة القدر.

ها نحن!

أحيانا ما كانت النتيجة بعيدة المدى، بدأت جارتى - طالبة علم من مدينة تولوز - تزيد فى الوزن، إنجاز نادر نظرا لضآلة طعام الكافيتريا. سرعان ما اتضح أنها حامل. كانت السيدة جيرو على مستوى الحدث، إذ تعاملت معه بعقل متفتح غير معتاد. استدعتها إلى شقتها وناقشت معها المسألة قبل الاتصال بوالديها، انتهت الحادثة نهاية محترمة؛ انتهت بالزواج. ولكن لم تكن تلك دوما النتيجة، إذ كان محترفو الإجهاض السريون ينهضون بتجارة مزدهرة، وقد قام الموسرون برحلات قصيرة إلى عيادات الإجهاض فى سويسرا. صادقت بعد سنتين سيدة متزوجة

ثرية ورفيق دربها الشيوعى، وقد لاحظت أنها كانت تستقل الطائرات إلى جينيف مرات عديدة تساوى مرات ركوبى المترو، افترضت أن لديها قريبا أو صديقا قديما عزيزا تود زيارته. سألتها ذات يوم عن رحلتها وحال صديقها، فتحت لى قلبها وصارحتنى بأن زواجها توقف عن "العمل" بعد سنتين من حفل زفافها، وأنها لا تزال صديقة لزوجها، ولديهما ابن يحبانه كل الحب، ولكنها أصغر من التخلى عن الجنس، وعليه سلسلة من العشاق وحوادث حمل غير مرغوب فيها ورحلات إلى سويسرا.

قضت أغلب فتيات بيت الطالبات سنوات الدراسة دون أى حوادث درامية، يخطبهن طلاب الزواج ثم يتزوجن وينتقلن إلى بيوتهن، ولكن قبل أن أكون مثل أولئك الصديقات، كان علىَّ أن أحصل على تأشيرة طويلة الأمد.

٩ ـ بطاقات الهوية

كيف يمكن للمرء أن يكون إيرانيا؟

مونتسكيو (خطابات إيرانية)

كانت السلطات تمنح الطالب الأجنبى تأشيرة قصيرة عند وصوله إلى فرنسا، ولكى تنال إقامة لمدة عام وبطاقة هوية ينبغى أن تملأ بنفسك طلبا فى قسم الشرطة وتقدم وثائق تثبت قبولك فى الجامعة، يجب أن تتكرر هذه العملية كل سنة إلى أن تفرغ من دراستك وتعود إلى بيتك، كانت الصور مطلوبة من أجل البطاقات العديدة التى يجب أن يحملها الطلاب، وكان هناك مصور بالقرب من الجامعة يصدرها فى خلال يوم.

"آه! كيف يمكن للمرء أن يكون إيرانيا؟" Ah! Comment peut-on être Persan سأل المصور هزيل الحجم وهو يبتسم، لمعرفته الواسعة حين أخبرته أنى إيرانية. الحق أنى كلما سألنى شخص عن جنسيتى، يكون رد الفعل نفس الاستشهاد من رواية مونتسكيو خطابات إيرانية Lettres Persanes . أصدرها عام ١٧٢١ لتكشف النقاب عن مظالم المجتمع الفرنسى عبر خطابات الرحالة الإيرانيين، وقد بينت بداية

"الاستشراق" وتأثير الثقافة الإيرانية. استلهم جوته كتابه الديوان الشرقى Orietal Divan من الترجمة الألمانية لسونيتات حافظ، وفى كتاب الفلوت السحرى The Magic flute لموتسارت من المفترض أن شخصية ساراسترو تعتمد على المعلم الإيرانى زورواستر؛ ووصولا إلى كتاب نيتشه هكذا تكلم زرادشت، Thus Spake zarathustra وعدد كبير من الكتب الأقل أهمية. وقد أثبتت جميعها فكرة إيران المثالية الممثلة للخيال، ومع ذلك استمر التحامل وسوء الفهم؛ عقِب الاستشهاد بمونتسكيو يسألنى الناس فى الغالب عن عدد زوجات أبى، أو إذا كان يضرب أمى كما يفترض أن يفعل المسلمون!

انطلقت فى الصباح التالى إلى قسم الشرطة بصحبة سكرتيرة السيد رحيم الفرنسية، التى عرضت بكل كرم أن ترافقنى فى حال كنت فى حاجة إلى معاونة، قادنا شرطى عند البوابة إلى قسم الإقامة، ردهة طويلة تعج بالدخان شبيهة بغرفة انتظار فى محطة سكة حديد محلية، شديدة الرطوبة وتتطاير منها رائحة التبغ البائت والعرق البشرى. عج المكان بالناس، والكراسى الوحيدة كانت مقاعد خشبية قليلة أمام الحائط، يشغلها جميعا مقدمو الطلبات من كبار السن. امتدت ثلاثة طوابير طويلة من الممر إلى المكاتب المستقرة فى النهاية القصية للغرفة، انضممنا إلى الصف الأول. تألف الحشد من أعراق وجنسيات مختلفة، أسود وبنى وأصفر، ومن شمال إفريقيا ومن آسيا. بدا قليلون منهم طلابا، كانوا فى الأغلب عمالا مهاجرين. لاحظت أن المواطنين الأوروبيين والأمريكيين يتم توجيههم إلى مكتب مختلف أمام مكتبنا، حيث لا يوجد صف. كانوا يدخلون ثم يخرجون فى غضون بضع دقائق، مثلما جرى اليوم فى مطار لندن، إذ كان المواطنون البريطانيون والأوروبيون يتم

توجيههم إلى أبواب خاصة للخروج. ظهر الفرق مرة أخرى من خلال التغيير الطفيف فى معاملة الشرطى فى الردهة وهو يوجه الناس إلى المكتب المناسب، فقد كان من الجلى أنه أكثر تهذبا مع المجموعة الغربية، بينما عبرت ملامح وجهه عن اللامبالاة والملل من الباقى. انتظرنا نحن الإيرانيين مع "الآخرين"، غير الأوروبيين، أفراد "العالم الثالث"، رغم أن التعبير لم يكن شائعا نفس شيوعه فى الوقت الحاضر.

نشأ تعبير "العالم الثالث" فى أبريل ١٩٥٥ فى مؤتمر باندونج الذى حضره زعماء تسع وعشرين دولة من الدول الإفريقية والآسيوية، بما فيهم نجوم من أمثال نهرو وشواين لاى وعبد الناصر... وقد عينت النتائج العالمية لهذا التجمع دخول العالم الثالث إلى الميدان السياسى العالمى باعتباره قوة لا يستهان بها. نشر إيه. سوفى A.Sauvy كاتب فرنسى بعد نحو ثمانية عشر شهرا، مقالة فى جريدة لوموند Le Monde تحت عنوان "**العالم الثالث، التخلف والتطور**"، عرَّف سوفى فى المقالة تعبيرا صاغه هو نفسه قبلها بسنتين: "أخيرا يود هذا العالم الثالث، المتجاهَل، المستغَل، المحتقَر مثل الجمهورية الثالثة Tiers Etat(قبل الثورة الفرنسية) أن يكون شيئا"، ثبت التعبير فى الأذهان هذه المرة.

ما كان ليخطر ببالى أن أضع إيران فى هذه الفئة ـ حيث تنتمى ولا شك اليوم ـ لأن النسخة الإيرانية، كالمفكرين الروس فى القرن التاسع عشر، تميزت بالليبرالية والانفتاح على الغرب. انطبع فى أذهاننا فى المدرسة بحس من الفخر "تاريخ من ستة آلاف سنة" لإمبراطورية امتدت من نهر الأندوس إلى البحر الأبيض المتوسط، وأخرج أول دستور لحقوق

الإنسان، وخدمة البريد والشعر العظيم والفن، إلى آخره... ولكننا، جيل ما بعد الحرب، تشربنا بالأفكار الدولية المثالية، ومع رؤية الحالة المتخلفة لبلدنا خالجنا الشك فى مثل تلك الادعاءات، وسخرنا من العبارات الفخمة الطنانة التى سمعناها من معلمينا.

الواضح أن التاريخ ـ الذى اخترعه الإيرانيون وفقا لنيتشه ـ خلفنا وراءه، وأردنا نحن أن نلحق به سريعا، وفى ذلك الوقت كنت هنا، واقفة فى صف العالم الثالث، ولا يوجد أى كم من السخط أو التلويح بالمنمنمات أو السجاجيد أو السونيتات الصوفية سوف يُحدث أقل الفرق.

تأملت بعد انقضاء السنوات، تلك الأيام، ففطنت إلى أن الناس من العالم الثالث حين ينتقلون إلى العالم الأول أو الثانى، لا يصبحون مستأصَلى déracinés الجذر فحسب، بل وتنخفض مكانتهم déclassés أيضا؛ تنتزع منهم جذورهم وتقل أيضا مكانتهم الاجتماعية. سافرت فى العقد الثامن من القرن العشرين مع قبائل بختيارى البدوية التى تعيش فى جنوب إيران فى هجرتها الربيعية، نزلت ضيفة على زعيم القبيلة، رجل طويل القامة، وسيم المحيا، ذكى العقل، قاد نصف فرقة عسكرية مكونة من ثلاثين ألفا من الأفراد. وعلى العكس من أغلبية رجال القبائل كان ثريا ويمتلك قطعانا ضخمة من الخرفان والماعز، وبينما تحدث قومه لهجتهم فقط لا غير، كان يتكلم الإيرانية ويَعرف الكتابة والقراءة. ارتدى فى الجبال الزى القبلى ـ سترة طويلة فوق بنطال فضفاض وقبعة من اللباد ـ يمسك سوطا متباهيا، ويركب حصانه الأسود المهيب بكل أناقة. عامله قومه باحترام تشوبه الرهبة، ونيابة عنهم تفاوض مع موظفى

الحكومة فى البلدات، ومتى توقفنا فى الطريق en route، اتخذ مجلسه فى خيمته مجالسا جمهور المستمعين، يستمع إلى شكاوى أبناء القبيلة، ويوجه النصائح ويفصل فى النزاعات ويوزع الهبات.

حينما وصلنا أصفهان عقب رحلة منهكة دامت ستة أسابيع، سلمنى سالمة إلى حاكم المدينة وعهد إليه برعايتى. ومن أجل زيارة منزل الحاكم، بدَّل الزى القبلى بملابس مدنية، بذلة رخيصة سوداء اشتراها من أحد الأسواق الشرقية، بدون قبعة. أنتجت هذه التغييرات البسيطة تحولا جذريا، وكأن صورة تتبدد لتُظهر أخرى على شاشة السينما؛ انكمشت قامته، واستحال سلوكه الملكى متواضعا وتصرفاته خانعة. كان أميرا فى جباله وهو يرتدى ملابس القبيلة ويحيط به رجاله، ولكنه كان هنا مجرد "رجل جبلى" فظ بدائى، يُعامل معاملة التابع.

بلغت فى النهاية المكتب وقدمت أوراقى فصدرت لى بطاقة هوية، كيف يمكن للمرء أن يكون إيرانيا؟ Cmment peut-on être Persan ابتسم الموظف وهو يناولها إلىَّ. وجدت مؤخرا تلك البطاقة الفرنسية فى صندوق قديم فنزعت منها الصورة الصغيرة لأريها لابنىَّ، قالا: "تبدين بالفعل مختلفة الشكل!" صحيح؛ إنها صورة فتاة حالمة فى مقتبل العمر بها شىء من الحزن، فتاة لا تشبهنى فى شىء على الإطلاق، هوية مختلفة!

١٠ ـ الحِلف

القوة التى تدفع الزهرة عبر الفتيل الأخضر

تدفع عمرى الأخضر

ديلان توماس

لم أكن أتحدث الفرنسية حين وصلت إلى باريس، باستطاعة تلاميذ المدارس الثانوية فى إيران اختيار تعلم الإنجليزية أو الفرنسية لغة أجنبية، وقد اختار أغلبيتهم قبل قيام الحرب الفرنسية ـ لغة القضاء والدبلوماسية، قالوا: "الثقافة فرنسية"، وقد استلزم الحصول على التعليم الإلمام المسبق باللغة الفرنسية والأدب الفرنسى.

تغير الموقف بعد الحرب، إختار كل التلاميذ تقريبا الإنجليزية، إذ اعتبروها أسهل وأفيد، وتقلصت فصول الفرنسية فى العدد إلى نصف دستة من غرباء الأطوار. شرعت فى تعلم الإنجليزية قبل أن ألتحق بالمدرسة الثانوية، ربما على أمل فهم الأفلام الأمريكية، كانت مُدرستى تدعى السيدة سوراتجار، امرأة إنجليزية متزوجة بشاعر من أصدقاء أبى كان يُدرس فى الجامعة، تلقيت على يدها درسا واحدا فى الأسبوع بدون

مقابل، ونهلتُ فى الوقت الباقى بمفردى من الكتب والقواميس، ولكن لم تتسن لى الفرصة للحديث إلا خلال الدرس، وعليه استطعت فى النهاية أن أستمتع بشكسبير وديكنز، على حين عجزت عن طلب فنجان من القهوة أو فهم كلمة تصدر من هيدى لامار وروبرت تيلور قبل أن يتعانقا.

أمًّا بالنسبة للفرنسية، فطالما وددت أن أذهب إلى فرنسا، وظننت أنى سوف أتعلم الفرنسية بمجرد أن أكون هناك، بسرعة ما بعدها سرعة! كان هذا الوهم أول ما تحطم فور وصولى إلى باريس. اكتشفت أن تنفس هواء دولة لا يفضى بالضرورة إلى تعلم لغتها، وأن اللغة لا بد من تعلمها مثل أى شىء آخر، باجتهاد ومثابرة، وإن ساعد سماع اللغة من حولى ووجود آخرين للتكلم معهم على تعلم اللغة. كما أننى لم أجد نفسى واحدة من هؤلاء اللغويين بالفطرة، الذين يلتقطون ببساطة لسانا جديدا كما يفعل الأطفال، ما وسعنى التعلم إلا عن طريق استيعاب القواعد النحوية التى تحدد كيفية تكون اللغة.

بدأت هذه المهمة عند وصولى، وأعطيت لنفسى ستة أشهر، كلما أسرعت بإتقان الفرنسية كلما أسرعت بالعودة إلى وطنى ببعض "الأفكار". وهكذا أدرج السيد رحيم اسمى فى "الحِلف الفرنسى"، مدرسة لغات للطلبة الأجانب ترعاها وزارة الثقافة، مدرسة مشابهة للمجلس البريطانى. كان علىَّ أن أحضر بعد ثلاثة أسابيع وأجلس لأجرى اختبارا لتحديد الفصل الذى سوف ألتحق به، وفى غضون ذلك ابتعت كتيبا بالإنجليزية والفرنسية للتعليم الذاتى، وشرعت فى دراسته. وفى خلال أسبوعين أقمت فيهما بفندق صوفيا، لم أنقطع عن دراسة الكتيب، وبذلك نأيت بنفسى عن الاشتياق إلى بلدى، وحفظت الكتاب بأكمله عن ظهر قلب. العقل الشاب يتعلم سريعا، وقد جعلت دراستى السابقة للغة

أجنبية أخرى عقلى مرنا بما يكفى لتسهيل دراسة لغة ثانية، وحينما دخلت امتحان الحلف تمكنت من تخطى الفصول التمهيدية، وبدأت منهجا لائقا لتعليم اللغة، وما لبثت أن أدركت المبادئ بسرعة كانت كافية للتواصل مع الناس.

يبدو لى اليوم أنى كنت أتكلم الفرنسية دائما كواحدة من بناتها، بدون لهجة أجنبية، وعندما أرجع بالذاكرة إلى تلك الشهور الأولى، شهور أعيها وعيا غامضا من خلال سحابة متنقلة من الحيرة والأسى، بالكاد يسعنى أن أتذكر وقتا لم أفهم فيه الفرنسية بطريقة أو بأخرى أو أعجز عن التحدث بها، إلا أن عقلى ينهى إلىَّ أن هذه النتيجة نشأت فى الواقع من عمل شاق لا يخلو من العناد طوال فترة طويلة من الوقت.

إن المغتربين المغادرين لبلادهم فى منتصف العمر فى أعقاب الثورات السياسية والاجتماعية أقل حظا من الطلبة صغار السن، لأن أذهانهم مزدحمة بالهموم، وأوقاتهم مستهلَكة فى كسب العيش. وقد اتضح لى هذا عندما زرت السيدة تاباى فى شقتها الصغيرة الجديدة، غرفتان من غرف الخادمات حولَّتهما إلى شقة فى منطقة مونبارناس، استعرتها من صديق سافر إلى الخارج، خالجها السرور لمغادرة فندقها الحقير آخر عدة أشهر من إقامتها فى باريس وكتابة أطروحتها فى سلام.

كانت السيدة لوبيا جارتها، أرملة روسية فى العقد الثامن من عمرها، تركت روسيا عقب ثورة ١٩١٧، كان زوجها ضابطا ينتمى إلى الضباط المحافظين، أهلك الشيوعيون فوجه بالكامل. جال فى البلد فترة من الفترات وهو يخفى هويته، ثم هرب إلى برلين حيث التقى لوبيا وتزوج بها. جاءا فى النهاية إلى باريس عام ١٩٢٣، عثر لهما صديق مهاجر على

غرفة من غرف الخادمات فى قمة هذا المبنى الطويل الضيق، كان من المفترض أن يكون سكنا مؤقتا إلا أنها تجاوزت وقتذاك الثلاثين. وافت المنية زوجها، وتزوج ابنها الوحيد بامرأة فرنسية وانتقل إلى إقليم من الأقاليم، وقلما رأته.

لم تكن السيدة لوبيا تتحدث الفرنسية خلا كلمات قليلة لا تتصل بحروف جر قد تحولها إلى عبارات، بيد أنها تغلبت على عجزها عن الإفصاح بدفء العاطفة، نصف دستة الكلمات الفرنسية التى تعرفها كانت بغرض التدليل، وقد أسرفت فى توجيهها لأى شخص جوارها، كان الكل حمامة وأرنبا وعزيزى الصغير Colombe, Lapin, petit chau. كانت بمفردها تماما فى العالم؛ "الكل ميت فى مثل سنى". بدت أكبر من سنها كثيرا، عيناها تنزّان مخاطا، وبشرتها ملطخة بالبقع، وظهرها منحنٍ. كانت تعانى وحدة أى وحدة؛ حتى إنها كانت تفتح بابها وتقحم رأسها من الباب بابتسامة عريضة بمجرد أن تسمع وقع أقدام على السلالم، وإن لم يكن قلبك حجرا تتوقف وتتبادل معها بضع كلمات. نادرا ما خرجت، عالمها بأسره ضمته هذه الغرفة المظلمة الضيقة، متخمة بملحقات للحياة لا يستخدمها أحد.

عاملتها السيدة تاباى بالعطف، وعلمت بالضبط كيف تتعامل معها، كانت أحيانا تدعوها إلى شقتها الفسيحة ذات الأثاث الحميم وتُقدم إليها فنجانا من الشاى الروسى ـ شاى خفيف بشريحة من الليمون ـ وتترك لها الفرصة لتثرثر بكلمات مبهمة فى مزيج من الروسية والفرنسية، بمجرد أن تنتهى من فنجان الشاى، تقودها السيدة تاباى بكل رقة إلى الباب وتقبلها قبلة الوداع. حتى بعد غلق الباب كانت السيدة

لوبيا تواصل الكلام على أمل أن تغرى السيدة تاباى بالدخول والاستماع إلى المزيد من حديثها.

كانت هناك مرة أو مرتين عندما مضيت لزيارة السيدة تاباى، تابعت سرد قصة حياتها على الرغم من أن مضيفتنا سمعتها عدة مرات من قبل، أفضت إلينا أنها تنتظر أن "يرحل هؤلاء البلاشفة البشعون" كى تتمكن من العودة إلى روسيا. مثل مسرحية تشيكوف ثلاث اخوات Three Sisters أنفقت حياتها مشتاقة لبلدتها مسقط رأسها، مقتنعة بأن البلشفية سوف تضمحل، كالحمى شديدة الخطورة، وأن روسيا سوف تستعيد عافيتها من هذا المرض المعدى الكابوسى.

مسكينة السيدة لوبيا! أدركها الموت فى تلك الغرفة الصغيرة بعد مرور عدة سنوات، أمّا وقد اختفى البلاشفة تقريبا، لا بد أنها ترسم ابتسامة من مرقدها السماوى، موسكو خاصة بكل مغترب حيث يتحقق التوق إلى العودة إلى الوطن.

كانت مدرسة الحلف الفرنسى تقع فى جادة راسباى، استطعت أن أسير إليها فى خلال عشرين دقيقة باختصار الطريق عبر حدائق لوكسمبورج. أنطلق كل صباح الساعة الثامنة والنصف وأدخل الحديقة من الباب الرئيسى الواقع فى الجادة لأمشى فى الحارة الرئيسة العريضة، ثم أسلك سبيلا مائلا على طول ممرات أشجار جوز الكستناء، وأخرج بالقرب من وجهتى. وبين الحين والآخر كنت أبدل خط السير أثناء عودتى كى أستكشف أجزاء مختلفة من الحديقة، أسير بحذاء ركن الأطفال ودوامة الخيل، والحديقة الإنجليزية، وأتريث بجوار البركة أو أجلس هنيهة بجانب نافورة ميديسى. كنت قد رأيت فى إيران بطاقات

بريدية لحدائق لوكسمبورج، بطاقات قديمة تلبس فيها النساء فساتين طويلة وقبعات ضخمة ويحملن مظلات خفيفة، ويلبس الرجال سترات سوداء طويلة وقبعات سوداء عالية وعصى، وبطاقات حديثة أرسلها الأصدقاء. كنت قد لمحتها فى الأفلام الفرنسية، وقرأت عنها فى الروايات. انثالت على مخيلتى الفتاة كوزيت فى رواية البؤساء Les Misérable وهى جالسة على أحد المقاعد الخشبية، وجافروش يثب مرحا وقبعته Képi تميل بأناقة إلى الوراء. شعراء مثل فيكتور هوجو وفينييه وفيرلين وموسيه يمشون الهوينى بمحاذاة سبل تظللها الأشجار برفقة عرائس الشعر، الحقيقيات منهن والمتخيلات. تخيلت أشباحهم تنتاب الأركان المعتمة إلى الأبد، النسيم يهمس بقصائدهم، تماثيلهم تنبعث فيها الحياة ليلا كى تهيم بين مزاهر ومروج ينيرها نور القمر.

استحضرت كل هذا وأنا أسير فى ذلك الصباح الأول الغائم من شهر نوفمبر، أقفرت الحدائق من الناس عدا بضعة طلاب يهرعون نحو عدة كليات فى المنطقة، وهنا وهناك عامل من عمال المتنزه استيقظ مبكرا يكنس بلا حماسة آخر الأوراق الذاوية ويجرفها إلى عجلة اليد. تعرت الأشجار بالفعل، أغصانها رسوم من الفحم على خلفية من سماء بلون اللبن، فى خلال الشهور التالية سرتُ عبر الحدائق يوميا وشهدتُ تغيرات نزلت بها لتعكس كل فصل من الفصول ودورة الموت والبعث فى الطبيعة. ما لبث أن كست الثلوج الأولى الأرض فانقلبت الأغصان الجرداء إلى أغصان مزهرة مرجانية اللون كما البلور، ذابت بعد فترة لتكشف النقاب عن زهرات اللبن الثلجية والزعفران الساقطة على الأرض وبراعم الأشجار. وذات يوم أهلَّ الصيف فجأة وتوهجت الأغصان بالزهور.

"سوف أعود إلى بلدى فى الوقت المناسب للذهاب إلى الريف"، دار بيالى.

زرت بعدها متنزهات أخرى، فى باريس وحولها، العديد منها، مثل حديقة فرساى، أفخم وأجمل، ولكن كلما أمضى إلى باريس يشدنى خيط سوداوى غير مرئى من خيوط الذاكرة إلى حدائق لوكسمبورج.

كانت السيدة بالارد تعتبر واحدة من أفضل مدرسى الحلف، معلمة مهنية، أدركت بغريزتها كيفية لفت انتباه كل طالب. أطلقت علىَّ بعد عدة أيام "الحالمة الصغيرة"، وجلبت لى قصائد لأقرأها. كانت القصائد قصيرة وبسيطة فى البداية، ثم زاد طولها وتعقدت حبكتها مع توالى الحصص. كانت تتحدث عنها وظروف كتابتها بطريقة تفتن لب أقل الطلاب ميلا إلى الشعر، مما جعل المفردات والقواعد النحوية أكثر إمتاعا فى تعلمها. سرعان ما تعلقت بالشعر وحفظت الكثير منه عن ظهر قلب، كما حدث مع القصائد الإيرانية. بث هذا البهجة فى نفس السيدة بالارد التى اعترفت فى وقت لاحق أنها كانت تكتب الشعر، بل ونشرت بعض القصائد فى مختلف الدوريات المغمورة، بيد أنها لم تُرِنى أيًا من هذه القصائد، رغم أنى عبَّرت عن اهتمام حقيقى بالاطلاع عليها.

كانت السيدة بالارد فى بداية العقد السادس من العمر، كان شعرها قصير الطول رمادى اللون، عيناها زرقاوان وبشرتها شاحبة. كانت تضع فى الفصل نظارة للقراءة تجثم على أرنبة أنفها، مما جعلها تبدو فى مظهر أكبر سنا وأكثر جدية. ما تنازلت للأناقة إلا عن شىء واحد، أحمر شفاه براق مثل ضربة فرشاة عرضية على قماش «كنفا» أسمر مصفر. لاحت عليها دوما علامات الإنهاك والاستعجال، كانت تصل متأخرة

دقيقة، محملة بالكتب، وتغادر على الفور مع انتهاء الفصل بعد أن تلمح ساعتها عدة مرات قبل النهاية. بينما تريث مدرسون آخرون فى الردهة ليخاطبوا طلبتهم ويتبادلوا النكات، بل ومضوا معهم إلى المقاهى المحلية، اندفعت السيدة بالارد خارجا قبل أن يتسنى لك توجيه الدعوة. أحيانا ما كنت أسايرها إلى محطة المترو القريبة، وتوقفنا حقا مرة أو مرتين عند مقهى فى إحدى الزوايا لاحتساء فنجان من القهوة، وهكذا علمت شيئا عن حياتها.

تزوجت فى سن صغيرة، بزميل مدرس، وأنجبت ابنا وابنة، كانت الابنة مدرسة هى الأخرى فى إحدى المدارس الثانوية، Lycée إلا أن الابن قُتل فى حادث سيارة منذ عدة سنوات فى سن العشرين. أقحمت خسارته زوجها فى حالة اكتئاب حادة لم يتعاف منها قط، تخلى عن عمله وأحجم عن الخروج من المنزل. كان وقتها أفضل حالا قليلا، يطلع على الترجمة من الألمانية، ويقرأ كثيرا ويكتب قليلا، ولكنه لا يزال... كانت السيدة بالارد عند ذاك تعولهما بدون أى امتعاض، كما كانت تضيف إلى مرتبها من الحلف بإعطاء الدروس الخصوصية، ومن ثم بدا عليها سيماء الإنهاك والاستعجال.

فى مناخ فرنسا المشحون سياسيا فى تلك الأيام انحرفت المحادثات دائما تقريبا نحو السياسة، وقد اعترت قناعات الكل العواطف المتقدة، كانت السيدة بالارد اشتراكية ومناهضة متحمسة للشيوعية، كانت تعتقد أن الحزب الشيوعى الفرنسى موال لأفكار ستالين وخانع للاتحاد السوفيتى. كان عقلى لا ينفك ممتلئا بكتب بسيطة قرأتها فى إيران عندما انضممت إلى منظمة الشباب الشيوعية فى المدرسة الثانوية، Lycée قيل لى إنها تضم كل الإجابات. كان الاتحاد السوفيتى هو الدولة

الاشتراكية الرائدة والحليف الطبيعى لكل الشعوب المقهورة ضد الإمبريالية، فما هو العيب إذن فى مجاراته؟

وافقتنى السيدة بالارد تمام الموافقة فيما يخص الرعب والمحاكمات الظالمة وعمليات الترحيل والقتل الجماعى... كل التاريخ الروسى عقب ١٩١٧ ما علمت إلا الرواية الرسمية وما صدقت غيرها، قالت إنى ينبغى أن أقرأ رواية آرثر كيستلِر الظلام فى الظهيرة Darkness at Noon.

لو كنت مراهقا، وذكيا على نحو معقول وبريئا شديد البراءة، المعتاد أن يحاول الناس كسبك إلى جانبهم. شيوعيون، واشتراكيون، وكاثوليك، وفوضويون، وجد كل أصدقائى فى تلك السنوات المبكرة فى عقلى المتقد أرضا خصبة لبذر بذورهم الأيديولوجية. لكن المدهش أنى لم أكن سهلة الاستمالة، وقد سلك تطورى الروحى والعقلى سبيلا مستقلا، لذا اعتقدت وقتذاك أن السيدة بالارد ضحية للدعاية المناهضة للسوفيت، بينما اعتقدت أنى تعرضت لعملية غسيل مخ، وسوف أكتشف الحقيقة سريعا.

اشتغلت وقرأت فى تلك السنة الأكاديمية، لا شىء أكثر إرضاء لمدرس سوى طالب متوقد الذكاء، وقد أولتنى السيدة بالارد اهتماما دافئا، وحرصت على ألا أضل طريقى قبل أن أتعلم الطرق السريعة والطرق الفرعية لأفضل الشعر والنثر الفرنسى. حاولت أن تغرس فى نفسى اللغة الفرنسية بحس نقدى كى توازن ردود أفعالى المتحمسة والانفعالية، كانت تحذف كل صيغ أفعل التفضيل العليا من المقالات قائلة بسخرية: "ينخرط الشرقيون طلبا لرحلات من الهوى والولع، قد يليق هذا فى الشعر إلا أن تحليل نص يحتاج إلى المنطق".

صادقت العديد من الأشخاص الجيدين بحلول الصيف، وقل إحساسى الحاد بالوحدة. دعانى أخى الأكبر إلى ألمانيا لقضاء العطلة، وأقنعنى باتباع خطتى الأصلية، الالتحاق بالجامعة لقراءة الكلاسيكى من النصوص العربية والفارسية كى تكون مقدمة للفلسفة الإسلامية. قدمت أوراقى حينها إلى جامعة السوربون والتحقت بها، كنت وقتها أحب الموسيقى والغناء والمسرح والسينما، كل الأشياء التى حرمت منها فى بلدى، ويمكننى الآن السعى إليها فى إطار من حريتى الباريسية.

كنت ذات يوم أخرج من الفصل فوجدت حشدا صغيرا يحيط بامرأة شابة جالسة إلى مائدة فى منتصف الردهة، كانت تحمل كراسات وملصقات وكروتا وتشرح لهم مهمة "الموسيقيين الشبان" La Jeunesse Musicale، منظمة أسسها بيير بوليز عام ١٩٥٠ كى يُبسط الموسيقى المعاصرة ويعزز الحياة الموسيقية بوجه عام فى باريس. يمكنك أن تصير عضوا فى "الموسيقيين الشباب" the Jeunesse مقابل اشتراك شهرى بسيط، وبمقدورك أن تبتاع تذاكر للحفلات الموسيقية والأوبرا وحفلات البالية بأسعار مخفضة. كان هناك امتيازات للطلبة فى المسارح أيضا، ويمكن للطلبة المعدمين عموما أن يستمتعوا بحياة ثقافية كاملة لو شاءوا. كنت وقتها قد كونت بعض الصداقات، صداقات إيرانية وفرنسية ومن جنسيات متنوعة، وبدونهم ما كنت لأستغل هذا الزاد الفنى، فقد كنت خجولة خجلا حال دون أن أذهب إلى العروض بمفردى، و ما مضيت إلا لأتمشى فترات طويلة بمفردى وأزور الصالات الفنية ومتحف اللوفر، تعلمت طوبوغرافيا الضفة الغربية حتى عرفتها بالتفصيل، مثلها مثل

تجاعيد وجه مألوف، ولكننى كنت وقتها أكثر جرأة فاستخرجت بطاقة عضوية.

"لقد وُلدت فرنسية، ولكنك أصبحت إيرانية" . ما وقفت قط على هوية قائل هذه الجملة إلا أنها صحيحة، لا يلبث الطلبة الأجانب أن يصبحوا باريسيين ويجتازوا الأمواج العاتية بالمدينة العظيمة لصالحهم.

ساعدت الحياة فى الضفة اليسرى على تكوين الصداقات، إذ يقابل المرءُ الطلبة الزملاء من شتى الجنسيات ويتكلم معهم ويتبادل الملحوظات والكتب، وإن أعجب الواحد بالآخر يُكونان صداقة. كانت العلاقات عفوية تعتمد على التعاطف المشترك، لا تلوثها الاعتبارات الاجتماعية أو المهنية، كما يحدث لاحقا فى الحياة. وعلى الرغم من أنه لا شىء استطاع مداواة التمزق الروحى الذى سببه الرحيل عن إيران أو تسكين وحدة الشباب العميقة، فعلى الأقل لم أعد مرغمة على الانفراد بنفسى طيلة الوقت كما كان يحدث فى البداية.

ذهبت إلى الحلف مرة أو مرتين لرؤية السيدة بالارد بعد أن غادرت، سعدت برؤيتى، ولكنها كما جرت العادة لم تجد الوقت للمكوث معى، "زوجى منتظر". فقدت الاتصال بها فى النهاية، بيد أنها لم تغب عن ذاكرتى مطلقًا، كما لم أنس امتنانا أضمره للتناغم الذى صاغته بينى وبين لغتها، تناغم بقى عبر السنوات وجلب لى الكثير من المكافآت.

١١ - جميلة وميشيل

أعطِ كل ما تستطيع؛ فالسماء العالية تنبذ تقريبا
أعراف المدروس بدقة. ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ ‏ وردزورث

كنت أسير إلى البيت ذات مساء شتوى عبر حدائق لوكسمبورج، كانت مقفرة تقريبا، لا عشاق فى الحارات المظلمة، ولا أزواج عجائز على المقاعد، ولا أطفال فى الملعب، دوامة الخيل مهجورة وأحصنتها المغطاة بالثلج مجمدة فى منتصف القفزة. لسعت نسمة ثلجية حادة الوجه مثل انفجار قاس للإبر، لا صوت له وإنما مميت، كان الثلج قد هبط طيلة النهار، وقد رقد الآن سميكا على الأرض والأشجار والتماثيل، يتوهج فى سكون خليق بالأحلام.

عندما وصلت إلى بيت الطالبات كنت متجمدة من البرد، يلمٌ بى القنوط، لأنى لم أجد أية خطابات من الوطن، لذا قررت أن أُضيع فرصة تناول وجبة ساخنة فى كافيتريا الطلبة وأكتفى بتناول البسكويت والشاى فى حجرتى. اختنقت من الجرعة الأولى وقد غمرنى مزيج من البرد والجوع والوحدة لينقلب فجأة سيلا من الدموع، رقدت فى فراشى وأنا

أكتم نشيجى فى الوسادة، لم تكن حادثة نادرة ـ دعونى أُضف ـ فى ذلك الشتاء الأول.

طرَق على الباب، مَن علَّه يكون؟ لم يكن مسموحا أن نستقبل الزوار فى غرفنا. السيدة جيرو! خطر ببالى وأسرعت بمسح عينىَّ. كانت جميلة، فتاة أردنية أخبرتنى السيدة جيرو عنها، والفتاة الأجنبية الأخرى الوحيدة فى بيت الطالبات.

"ما بالك؟ مشتاقة إلى بلدك!" قالت واحتضنتنى بدفء. "سوف تمر سريعا، شعرت بنفس الشعور فى البداية، ولكن انتظرى ستة أشهر وسوف ينتابك القلق من الاضطرار إلى العودة فى يوم من الأيام. تدرين حال مجتمعاتنا، ولا سيما بالنسبة للنساء، لهذا السبب هربت، وليس لكى تلتحقى بالجامعة، فقد كان بمقدورك الالتحاق بها فى وطنك، مثلى تماما. سوف تتبقى لى سنتان، ويساورنى بالفعل الرعب بسبب العودة إلى التحريم والإكراه والنميمة والزواج وكل ذلك..."

تحدثنا أثناء احتساء الشاى والبسكويت حتى ساعة متأخرة، كانت قومية عربية معتدلة تناصر الوحدة العربية، بينما ناديت أنا بالمبادئ الدولية، فإيران دولة غير عربية تتحدث بلسان هندى أوروبى، غير أننا اتفقنا فى التأثر بالثقافة الغربية وحصول الجزائر على الاستقلال. سرعان ما توطدت صداقتنا، ورتبنا لرؤية عرض جديد لمسرحية راسين بيرينيس فى المسرح الكوميدى الفرنسى.

تعنى "جميلة" حسن الطلعة فى اللغة العربية، ورغم أنه قلما ينسجم الاسم مع الواقع، فهو اسم شائع. اسم "جميلة" هنا يناقض ما سبق أن قلته: شعر أسود مموج مقصوص قصير كإطار حول وجهها، وعينان

واسعتان خضراوان، وبشرة متلألئة، وابتسامة تبرز غمازتيها وتكشف عن صف مثالى من الأسنان. ورغم أن أباها عربى، كانت أمها من أصل شركسى - اشتهرت النسوة الشركسيات بجمالهن، وقد آثر السلاطين العثمانيون ووزراؤهم ضمهن إلى أجنحة الحريم دون غيرهن - أنتج اتحاد الأب والأم الجذابة المثيرة جميلة.

التقينا فى الأمسية التالية ومضينا مبكرا كى نصطف تحت القناطر المحيطة بمبنى المسرح الكوميدى الفرنسى، انتظرنا ما يزيد على الساعة نرتعد فى معاطف من الصوف الغليظ بينما يطول خلفنا الصف، صف طويل بالفعل قبل وصولنا. كنا نحيفتين، وأتذكر أننى شعرت ببرد مؤلم لمدة سنوات، فخيلاء المراهقات منعنى أن أرتدى ملابس ملائمة قد تكون غير جذابة أو سميكة أكثر مما ينبغى. ما لبث أن فُتِح شباك التذاكر وأخذ الطابور يتحرك حتى حان دورنا كى نبرز بطاقات الطلبة ونطلب التذاكر: اثنتان فى الشرفة العلوية، ١٠٠ فرانك (فرانك واحد جديد للتذكرة).

صعدنا سلالم ضيقة من الحجر ترتفع فى الخلفية، عاليا عاليا، وكأننا نتجه حقا إلى السماء. ما وجدت أرقاما على المقاعد، ولو تأخرتَ، قد ينتهى بك الأمر خلف عمود غير قادر على رؤية المسرح، غير أننا كنا من أوائل الحاضرين، وقد وجدنا مقاعد فى الصف الأمامى بمشهد مثالى للمسرح. انحنينا على حاجز المسرح وشاهدنا المسرح يمتلئ والجو يحفل بالإثارة، وأخيرا انطفأت أضواء قاعة المسرح وأعلنت ثلاث دقات بدء المسرحية، وفى خلال ما تلا من سكون ارتفعت الستارة لتحسر عن حجرة انتظار، مكان محايد تتفض فيه مأساة راسين نحو نهاية لا ترحم.

أتى المسرح فى صورته الغربية إلى إيران عقب الحرب العالمية الثانية، كنت قد لعبت عدة أدوار فى مسرحيات مدرسية نظمتها مدرِّساتنا. كانت فى الغالب حكايات مهذبة تتتبع تطور تلميذة من الشقاوة إلى الفضيلة، دور نهضت به على الدوام لسبب ما. أسس أكثر المسارح احترافية مخرج إيرانى تعلم فى برلين، وهناك عرض مسرحياته قبل الحرب، ثم عاد هو المثالى إلى وطنه كى يستهل شيئا جديدا. عرض مسرحيات من مسرح الذخائر الأوروبى، وقد صحبنى أخى الأكبر ذات يوم لنشاهد عرضه لمسرحية شو مهنة السيدة واين. سحرتنى المسرحية، وكنت لأنضم إلى الفرقة فى الحال، ولكن لا سبيل إلى أن تمتهن فتاة لها خلفيتى التمثيل بصورة احترافية؛ فقد شابه الأمر أن يُعبر إيرل إنجليزى أو ابنة رئيس أساقفة عن رغبته أو رغبتها فى "اعتلاء خشبة المسرح" فى إنجلترا إبان العصر الفيكتورى، بل إننى مُنعت فى الحقيقة من التمثيل فى المسرحيات المدرسية حين "بلَغتُ" فى الثالثة عشرة. نهضت أخريات بالأدوار التى عُرضت علىَّ، وتفرجت عليهن يمثلن بعين الإعجاب والحزن، شاعرة بثورة مريرة على التعصب الأعمى الذى حرمنى من متعة بريئة.

كنت أشاهد الآن هنا مسرحية رائعة فى معبد فخم للآلهة، تحلى الممثلون بأسلوب لا تشوبه شائبة، ونطقوا بأبيات من الشعر من أجمل الأبيات فى الشعر الفرنسى بأسره "بتلعثم فى اللسان"، كما كان هاملت يأمر الممثلين. تأثرت بخاصة بمشهد الوداع بين بيرينايسى وحبيبها، إمبراطور تايِتس، فرغم أننى لم أختبر بعد الحب الشهوانى، كنت أكابد حسرة حقيقية من جراء فقدان بيتى وعائلتى. ومع تاريخ إيران الطويل المنسوج حول مآسٍ عنيفة باتت جراحها جزءا من حساسية الناس،

شعرت بحدة "حزن ملكى مثَّل جوهر المأساة،" كما كتب راسين عن المسرحية، كان حبا من النظرة الأولى، حبا للمسرح وراسين، وللحياة.

فى خلال الاستراحة تجرأنا ونزلنا إلى الحانة المتلألئة بالأناقة الباريسية كى نلقى نظرة، كانت جميلة ترتدى بنطالا لا يزال الآخرون خارج الدوائر البوهيمية ينظرون إليه نظرة استهجان، مما جعل مئات العيون تلتفت لتسدد أشعة ليزر من الاستنكار طاردتنا حتى قاعة الآلهة. أرغمنا على تفويت نهاية المسرحية وتحية الممثلين كى نئوب إلى البيت فى الميعاد المناسب لتجنب حظر التجول عند منتصف الليل، جرينا طيلة الطريق حتى بيت الطالبات، تريثنا فى حجرتى على ضوء الشموع، وناقشنا المسرحية وموضوعها الرئيسى ـ الأسباب السياسية ـ التى كبحت الحبيبين.

"كنتُ لأموت كمدا"، أخبرتها.

"من فضل راسين علينا أنه لم يجعلها تنتحر، لا لأن الأمر يتعارض من التاريخ، وإنما لأن الناس يموتون من أجل الحب فى الروايات الإذاعية ليس إلا"، علَّقت جميلة.

يتناسب التمرد مع ما حرضه من استبداد، انحدرت جميلة مثلى من دولة إسلامية وعايشت قهر المرأة عن قرب، إن لم تكن قد كابدته على نحو مباشر. قيل لنا بالطبع إن هذا لا يتعلق أبدا بالإسلام ذاته، وهو ما كان قوة محررة تحث على التقدم، ولكن مع السلطة والسياسة أخذ هذه الصورة. شهدت دولتانا تقدما عظيما فى العقود الأخيرة، غير أن مئات السنوات من العادات المتحجرة والمحظورات كانت مدفونة عميقا فى نفسيتنا القومية، ولن تختفى بين ليلة وضحاها بسنِّ القوانين فقط لا

غير. رفضنا كل قيد وتحلينا "بفكر حر" فيما يخص مسألة الحرية الجنسية يفوق معاصرينا الفرنسيين، صرحت جميلة فى مرة من المرات برفضها للتشبث الدينى بالعذرية، وعليه نبذها عدد من مواطنيها ومواطناتها. وفى نفس الوقت كان لها الكثير من المعجبين، ولا سيما أرستقراطى عربى غازلها بدماثة وصبر. ما كان بطلا من أبطال السينما، على العكس، ولم تولع جميلة به، ولكنهما كانا صديقين. "لا يتخلى الرجال الوسماء عنك لأنك رفضتهم جنسيا". هكذا كان رأيها. ولكنها وقعت فى حب عالم نمساوى كان فى باريس لمدة عام بغرض القيام بمشروع بحثى، وقد كان بطلا بحق من أبطال هوليوود؛ طويل القامة، رياضى الجسم، بشعر أشقر مموج وعينين زرقاوين ناعمتين. كان عيبه الوحيد نقص رجل، كان الجيش قد استدعاه فى نهاية الحرب، وعلى الفور تفجرت رجله فوق الركبة، استخدم عكازا واحدا فقط، وسار برشاقة بالغة.

يمكن أن تصبح الشفقة مقوما قويا من مقومات الحب، وقد أحبته جميلة رغم ذلك لسوء حظه، ذابت عيناها بكل رقة وهى تراه يقبض على عكازه ويشد عضلاته كى يتحرك.

"يَنعم بجسد مثالى"، أسرَّت إلىَّ، ولا بد أنه كان واحدا من أرقِّ العشاق لأن اطلاع جميلة الأولى على الحب الإيروتيكى كان فى مثل سعادة زواجها المستقبلى. تواطأت معها بأن أخذت مفتاحها فى الليالى التى "نامت فيها فى الخارج". ولأن صندوقها كان فوق صندوقى استطعت أن ألتقط المفتاحين فى حركة واحدة والآنسة مورى ترقبنى بعين يقظة.

وعندما اضطر حبيبها إلى العودة فى نهاية عامه انفطر قلب جميلة حزنا. "لا أستطيع أن أتزوج بك؛ فأنا معاق"، باح إليها. هل كان عذرا

ليس إلا؟ أم نكرانا حقيقيا للذات؟ اعتقدت جميلة أنه نكران للذات. اعتادت أن تأتى إلى حجرتى فى وقت متأخر من الليل وتبكى وهى تتحدث عنه: "هناك أيضا الاختلاف فى الديانة، لا أعبأ على الإطلاق، ولكنه كاثوليكى تقى، وهو يعلم أن والدىَّ سيغضبان أشد الغضب، ولن يرضيا أبدًا عن زواج كاثوليكى،" يوم غادر باريس صحبته جميلة إلى المحطة وعادت أدراجها إلى غرفتى مباشرة، عيناها متورمتان، ترتجف من فرط النحيب: "لن أتغلب على حبى له أبدًا... لن أحب أبدًا شخصا آخر..."

انقضت سنوات ثم سافرت فى نهاية الستينيات إلى إيران، توقفت لمدة ساعتين فى مطار بيروت، وكتبت لجميلة كى تلقانى لنحتسى شرابا سويا فى محطة الوصول. تزوجت بأحد طالبيها العرب للزواج، شخص آزرها وهى تعانى فقدان أدونيسها النمساوى، كان دبلوماسيا، وهما الآن فى مهمة دبلوماسية فى لبنان.

اتخذنا مجلسنا إلى طاولة إحدى الحانات وتبادلنا أطراف الحديث، وكأن أسبوعا فقط مضى منذ لقائنا الأخير، وليس سنوات. لاحا متناغمين محبين. "لا بد أن تبقَىْ فى المرة القادمة كى تشاهدى الريف، إنه جنة!" وعدتها. ما رأيتهما منذ حينها ؛ تنقلا فى أرجاء العالم وفقد كلانا الاتصال بالآخر، أتفرج الآن على صور بيروت فى التلفزيون لأجد جنتهما وقد انقلبت جحيما بلا أمل.

أفضت إلىَّ فى تلك الليلة الأولى التى شاهدنا مسرحية بيرينيس بأن "الناس لا يموتون من أجل الحب إلا فى الروايات الإذاعية..." أمَّا فى المآسى فيحدث الأسوأ، كما هو الحال فى الحياة الواقعية، تواصلين الحياة والمعاناة حتى تصبح روحك جرحا نابضا، ثم يغشاه الرماد

بالتدريج؛ لا يطوى النسيان أى شىء، فقط تعتادين عليه"، هكذا تقول لازمة إحدى الأغنيات الرائجة حاليا.

"هناك فتاة لطيفة لا بد أن تلتقى بها"، أنهت السيدة جيرو إلىَّ ذات يوم. "تقيم فى الشقة رقم ١٢ عند نهاية الممر، وقد أخبرتها عنك". لم يقع شىء لفترة طويلة، فلم يتفق أن نتقابل فى مكتب الاستقبال وقت وجود السيدة جيرو هناك كى أتعرف بها، ولكنى كنت آخذ رسائلى فى أحد الآصال عندما اندفعت فتاة إلى الداخل وأخذت المفتاح رقم ١٢. "لا بد أنك ميشيل"، بادرتها وعرفتها بنفسى، وهكذا دعتنى لتناول فنجان من النسكافيه فى غرفتها. تزينت الغرفة بالملصقات والصور، وامتازت بالترتيب الشديد، فكل شىء فى مكانه، والكتب فوق الأرفف، والملابس متوارية خلف ستارة زرقاء، سجادة صينية صغيرة عند نهاية السرير. وضعت رغيفا من الدقيق الأسمر فى علبة من القصدير، وبسكويتا فى برطمان مربى، وزبدا فوق عتبة النافذة كى يظل باردا، بينما اشتريت حين جعت منتجات يمكن استهلاكها على الفور، وتركت غرفتى بلا زينة، مثلها مثل صومعة راهبة، غير أننى خففت من تقشفها بوضع بعض الزهور من حين لآخر، فقد كنت مجرد زائرة مؤقتة.

تتمتع ميشيل بشعر أحمر تلملمه عاليا فى ذيل حصان، وعينين زرقاوين، وبشرة يشوبها الكلف، كانت مفعمة بالحيوية والحماسة، وتوردت وجنتاها بسهولة ما بعدها سهولة. وُلدتْ فى سايجون ونشأت بها حيث كان أبوها مديرا منتدبا استعماريا، أحيل إلى التقاعد قبل حرب إندوشينا لنيل الاستقلال، ابتاع مزرعة فى جبال البرانس حيث عاش الآن مع والدة ميشيل. تزوجت أختها الكبرى بضابط فى الجيش فى سايجون، وتمركز الزوجان الآن فى ألمانيا، كانت أمها تَعلم أن فرص

ميشيل فى العثور على زوج مناسب فى أودية البرانس الرعوية ضئيلة، لذا أرسلتها إلى باريس، فى الظاهر كى تَدرس اللغة الإنجليزية، لغة كانت تتحدث بها بطلاقة بالفعل.

كانت خلفية ميشيل الاستعمارية تعنى أنها أكثر تحررا وانفتاحا على الثقافات المختلفة من الفتيات الأخريات فى البيت، إذ انتسبن فى المجمل إلى الطبقة البرجوازية الريفية. وعلى العكس منى اتسمت بالتحفظ ولم تعرف التمرد، كانت تخلص لأمها، والتزمت بالكاثوليكية على غرارها. أمضت كل وقت فراغها فى نشاطات متصلة بمركز "دائرة الطلبة الكاثوليك". اتصف القساوسة مديرو المركز بالكفاءة العالية، أذكياء فكريا، الكثير منهم من اليسوعيين، جذابون جسديا، عقولهم متفتحة وقلوبهم فاتنة. بات الآن أحدهم، القس لوستيجر (ما قابلته قط لأنه انتقل من المركز قبل عهدى به) الكاردينال لوستيجر، كبير أساقفة باريس ومطران فرنسا الأسمى. كنت أجيل النظر مؤخرا فى إحدى المكتبات فوقعت عيناى على كتابه "اختيار الله" Lw choix de Dieu، وفيه يصف إيمانه بالكاثوليكية إبان الحرب حين وافت المنية أمه فى بلدة أوشفيتز، ومسيرته المهنية التالية بما فيها عمله مع طلبة جامعة السوربون.

على الرغم من أن كل واحدة منا تنتمى إلى أحد طرفى النطاق السياسى، صرت أنا وميشيل صديقتين، ربما لأننى أتيت أنا الأخرى من خلفية دينية، ومع أنى قد تمردت على مظاهرها الجزمية الزائلة، لم أفقد اهتمامى بالجانب الصوفى منها، الذى ألهم أعظم قصائد إيران وفنونها. أيا كان السبب اعتقدت ميشيل أن الفلسفة المادية سرعان ما ستبث فىَّ الاستياء، وأننى سأعثر مجددا على الطريق الروحى، وقد رغبت بكل كرم فى مشاطرتى اعتقاداتها، وفى غضون ذلك تجنبنا

مناقشة السياسة خشية الصدام اللفظى. عرَّفتنى بالتصوف المسيحى - القديس فرانسيس من بلدة أسيزى، والقديس جون التابع للصليب، والقديسة تيريزا من مدينة أفيلا - على حين شاركتها فى معلوماتى المحدودة عن الفلسفة والأدب الصوفيين. كان "قديسها" الأثير هو القديس إيكسوبيرى، كانت قد أهدتنى روايته **الأمير الصغير** Little Prince فى عيد ميلادى. "كان يؤمن بمذهب اللا أدرية(*)، غير أنه آمن بالمسيحية بعد أن شاهد المسلمين يصلون فى صحراء المغرب، مما يبين أن طرق الله فى التأثير على الناس بنعمته غامضة"، أخبرتنى. كتبت لى إهداء على الكتاب، وقد وضعت بعد اسمى استشهادًا من العلاَّمة ترتليانوس: (روح مسيحية بالفطرة). Anima naturaliter Christiana. لا أزال أحتفظ بالكتاب، ولكنه تطلب منى نصف عمرى كى أقدر إيمانها بى حق التقدير.

كانت ميشيل تمتلك جهاز تشغيل أسطوانات صغيرا جلبته معها، بيد أنها لم تشغِّله قط، لأن بيت الطالبات حظره. استعرته منها، بالإضافة إلى بضع أسطوانات، ونظرا لخلو الغرف من المآخذ الكهربائية، أخذت اللمبة من سلك يتدلى من السقف فوق مكتبى بعدة بوصات، وأوصلت به جهاز الأسطوانات. "لا لوم علىَّ إن اكتشفوا فعلتك وطردوكِ!" حذرتنى.

كنت أشغل الأسطوانات فى الأمسيات وأعمل على ضوء الشموع، فضلت ضوء الشموع لأنى تخيلتها أكثر شاعرية، جو جدير بالعلماء تساوره إثارة من السرية. ما كنت أستمع فى إيران إلا إلى ملحنين

(*) اللا أدرى: من يعتقد بأن وجود الله وطبيعته وأصل الكون أمور لا سبيل إلى معرفتها. (المترجمة، نقلا عن قاموس المورد)

رومانسيين، وقد عرفتنى مجموعة ميشيل الموسيقية إلى باخ وكوبران ورامو وكوريلى... أخفيت الجهاز والأسطوانات تحت الفراش متى خرجت من الغرفة خشية احتمال بعيد أن تقرر السيدة جيرو معاينة غرفتى أثناء غيابى. نعمت بشهور عديدة من المتعة بدون أن يضبطنى أحد، وفى إحدى الأمسيات كنت أعمل على ضوء شمعة وأشغل أسطوانة خافتة الصوت عندما باغتنى طرق على الباب، ظننتها ميشيل أو جميلة فقلت: "تفضلى".

السيدة جيرو! ندَّ عنى اللهاث وأنا أقف على قدمىَّ، سارت بهدوء نحو مكتبى لتخلع الجهاز وتجمع الأسطوانات وتأخذ كل شىء بدون أن تنطق بحرف، هكذا جرى ما جرى... إلا أن إشعارى بالطرد لم يقع قط، وبعد ثمانية عشر شهرا، حين كانت ميشيل تغادر بيت الطالبات، طالبت باسترداد فونوغرافها. "آه! كان جهازك أنتِ؟" هتفت السيدة جيرو وناولتها إياه دون أن يبدر منها تعليق آخر.

قضت ميشيل أغلب وقت فراغها فى "مركز الكاردينال ريشيلو"، وكانت أحد أعمدته، بيد أن حياتها بأسرها تمحورت حول شىء واحد وحيد: العثور على زوج. كانت بطبعها تحب الخير حافلة بالنشاط، نظمت كل أشكال النشاطات كى تعاون الطلبة الآخرين وتجمع أعضاء للمركز، كانت تساعد الطلبة الأفارقة وتجد بيوتا للمشردين... إلى أن أثمرت جهودها فى النهاية، وقدَّمها قسيس الاعتراف إلى شاب فى خضم دراسته لدبلوم التعليم Agrégation للأدب الكلاسيكى، وقد اندمجا سريعا. كان امتحان "الدبلوم" Agrég من أصعب الامتحانات، وقد ذاكر الطلاب باستمرار، وعليه لم تقابل ميشيل خطيبها كثيرا غير أن السعادة تولتها، تزوجا بعد نحو سنة، وبات هو مدرسا فى الأدب الكلاسيكى فى

مدرسة ثانوية lycée قروية. كتبت لى من حين لآخر، وأرسلت إلىّ بطاقات مطبوعة معلنة ميلاد أطفالها العديدين، فقدت أثرها بعد الطفل الرابع. فكرت مرات فى الذهاب إلى منزل والديها الكائن بالقرب من مدينة بيربينيو حيث قضيت ذات مرة عطلات صيفية رعوية، وأسأل عن أحوالها. ولكن هل سأجده لا يزال هناك أو سيختفى من موقعه، شأنه شأن قلعة مسحورة من حكايات الجن؟

كانت ميشيل تقنعنى بأن أذهب معها إلى اجتماعات مركز الكاردينال ريشيلو، وقد قدمتنى إلى قساوسة عديدين ربطت بيننا بعدئذٍ أواصر الود. قامت كنيسة صغيرة فى بدروم المركز، وأفضى إليها سلم جانبى مختفٍ عن الأنظار بعيدا عن ضوضاء الشارع وردهة المدخل وصخبهما. تركت ميشيل مرة أو مرتين كى تتولى مهامها وانفردت بنفسى فى الكنيسة الصغيرة، كانت ضيقة الأركان لا تضم إلا بضعة مقاعد خشبية ومذبحا مؤقتا مقابل الحائط، يتكون من طاولة طويلة مغطاة بقطيفة حمراء اللون داكنته وشمعدانين ضخمين وصليب معلق فوقهما. خلت الكنيسة من النوافذ، ولم يبزغ ضوء إلا من شموع المذبح وشموع أصغر قائمة فى الركن، فاحت رائحة بخور خفيفة فى الهواء، وقد استطعت فى الضوء الواهن أن أتبين أشباح شخصين أو ثلاثة منهمكين فى الصلاة، خيم الصمت على المكان شأن حاجز مادى يكبح ضوضاء صاخبة أصدرها النزاع البشرى فى الطابق العلوى.

استحضرت لسبب ما غرفة مكتب أبى فانقبض قلبى؛ جلست فى الخلف، وفى لحظة انقلب اضطرابى سلاما. فقدت إحساسى بالوقت، وحينما خرجت كان الكل قد غادر (ظنت ميشيل أن ضجرا حل بى

وهربت من المكان) عدا قس واحد، القس جين ـ كلود، قس يسوعى، وجلسنا معا لنطرق نقاشا لاهوتيا مطولا.

لم يُظهر أى استعلاء أو نفاد صبر نحو مراهقة جاهلة بكل شىء عدا شكها ورفضها الثورى، ما عوَّض جهلى ولا شك إلا توقى إلى المعرفة، فقد كنت مستمعة جيدة.

"لا يعنى التزامهم بنذر العفة أنهم لا يتأثرون بالنساء"، أخبرتنى ميشيل فى وقت لاحق حينما أفضيت إليها بحوارنا. "علَّه أعجب بعينيك الجميلتين! "Beaux yeux أو ربما حسب أن العينين ناقضتا صيغا مادية جدلية غير ناضجة نطقت بها بقناعة جلية. على أية حال ترددت إلى المركز من حين لآخر لأجلس عدة لحظات هادئة من التأمل فى الكنيسة. رحلت عن فرنسا عام ١٩٦٠ لأستقر فى إنجلترا، ولكنى مضيت إلى باريس بصورة دورية، وفى يوم من الأيام كنت أسير فى طريق سان مايكل فقصدت مركز الكاردينال ريشيلو كى أسأل عن واحد أو اثنين من القساوسة ممن عرفتهم. اختفى المكان، وقام محله الآن متجر لبيع الكتب، دخلت المتجر وسألت عما جرى للمركز، ولكن الموظفين كانوا صغارا ولا يعلمون عنه أى شىء؛ أعلمونى أن هناك "دائرة للطلبة الكاثوليك" عند المنعطف فى شارع رو دو لا سوربون.

واليوم، وبعد انصرام ربع قرن، قصدت المكان مرة أخرى لأسأل عن القس جين-كلود. ارتدى القس الذى يهم بإقامة قداس الظهر بنطالا أزرق من الجينز وسترة بدلا من رداء الكاهن الذى تذكرته. يمكن فصل مؤخرة الكنيسة عن بقيتها بستارة رقيقة، وتراءى المكان أشبه بمقر رئيس لاتحاد الطلبة، ولكن اتضح أن إحدى فتياته الصغيرات ابنة لواحدة من الفتيات اللاتى عرفتهن قديما، شابهت أمها كثيرا حتى إننى شعرت

لحظة أنى ارتحلت عبر الزمن وعدت إلى الماضى. نقلت إلىَّ أن أباها جين ـ كلود توفى فى العام الماضى، وأن الآخرين انتقلوا للنهوض بمهام فى مناطق مختلفة من البلد.

صحبتنى صديقة ذات مرة فى نيويورك إلى كنيسة مماثلة فى قرية جرينيتش، كانت دوما غاصة بالشباب. استدعيت مركز ريشيلو، وكيف تتوارى الحياة الروحية لمدينة من المدن فى الغالب عن الانفعالات البينة للحياة المادية ومساعيها، ولكنها أيضا تصون المجتمع وتعزز أركانه.

١٢ ـ الصومعة

لا شيء أكثر خطورة من فكرة

امتلاك المرء لفكرة واحدة فقط.

الان

التقيت بجينيت ـ طالبة فى السنة الثانية من كلية الطب ـ عن طريق السيدة مونيك، عاملة النظافة ببيت الطالبات. كانت الفتاة الشيوعية الأخرى الوحيدة فى بيت الطالبات، ولولاها لكان "ممتلئا بالبرجوازيات." تناهى إلىّ ذات يوم طرق على بابى ومرقت منه جينيت: "أبلغتنى السيدة مونيك أنك رفيقة، لو شئت بمقدورى أن أصحبك إلى اجتماع الصومعة فى السوربون غدا وقت الغذاء". رتبنا لقاء خارج بوابة الجامعة فى اليوم التالى.

رغم أنها لم تضع أى مساحيق تجميل ولم تتزين بأية زينة، كانت جينيت فتاة جميلة المحيا، بملامح رقيقة وبشرة بلون الشوفان وعينين داكنتين، سحبت شعرها فى ضفيرة سميكة طويلة غامقة انبسطت على

ياقة سترتها الصوفية البيضاء مثل شُرَّافة كبيرة من الحرير، ولكنك لن تلحظ مظهرها عند لقائك بها، وإنما ستبهرك بذكائها وجديتها. ما لبثنا أن صرنا صديقتين رغم أنها لم تكن ودُودة، وما أتيح لها الوقت للعلاقات "الفردية"؛ إذ آمنت بأن الاتصال الإنسانى لا يصح إلا عندما يستند إلى هدف عام ومسعى جمعى للتغيير الاجتماعى.

لم يكن كتفها كتفا يمكنك البكاء عليه، ولم تكن أذناها متناغمتين مع البحث المراهق عن الذات، ولكنى اكتشفت مع مرور الوقت طيبة قلبها ووفاءها وعطفها رغم عدم وضوح هذه الخصال.

ذاكر كل الطلبة الذين أعرفهم بكد واجتهاد، فقد كانت امتحاناتهم المختلفة فى الواقع عوائق لا بد من إزالتها، غير أنّ تدريبات "طلاب الطب" كانت تزخر كذلك بشتى المسابقات الإضافية؛ وعليه توافر لدى جينيت القليل من وقت الفراغ، وقد أنفقته كله فى الحزب. نادرا ما تجالسنا وتحادثنا ونحن نحتسى فنجانا من القهوة، سواء فى البيت أو المقهى، وعندما تجالسنا بالفعل كنا نناقش دوما السياسة، نفذت أوامر الحزب بحذافيرها، أمَّا أنا فقد انحرفت عنها قليلا، وأحيانا ما خالفتها كلية.

كنت ذات يوم عائدة من أحد الاجتماعات وسألت عن أسرتها، أخبرتنى أن أمها فرنسية وأباها يهودى مغربى، عندما احتل الألمان باريس أخذت أمها جينيت الصغيرة كى تمكث بصحبة أصدقاء فى الريف حيث كان أبوها من المفترض أن يلحق بهم بعد أن يفرغ من أعماله. ما ظن أن هناك داعيا للعجلة ـ فهو رجل فرنسى فى النهاية ـ

وقد لزم الألمان حسن السلوك فى البداية تجاه السكان، ولكن عندما طفق الجستابو يعتقلون اليهود الفرنسيين، تم القبض عليه ـ اعتقدت أم جينيت أن أحد جيرانه خانه ـ ثم ترحيله، لم يعد قط ولم تتزوج أمها قط مرة ثانية.

وحتى عام مضى كانت تعيش مع أمها فى شقة بمنطقة جوبيلينز ـ منطقة تقع عند ضواحى الحى اللاتينى المكتظ بالطلاب والطالبات ـ غير أن أمها انتقلت إلى كليرمون فيراند لترعى جدتها العجوز، واستأجرت جينيت غرفة فى بيت الطالبات.

استوعبت بعد تلك المحادثة حياءها بصورة أفضل، وربطت بيننا وشائج أقرب؛ فقد كنت دخيلة أنا الأخرى. انتمت إلى الشيوعية نتيجة للحرب، وقد انجذبت إلى اليسار لأنه من اليسير على مراهقة من جذور موسرة أن يستهويها مذهب يدعو إلى العدل والمساواة والرخاء للجميع فى مجتمع تبرز فيه الفروق بين الثروة والمكانة بروزا صارخا؛ كنت قادمة من المدرسة فى الظهيرة، وكنت أمر بالعمال فى مبانى التشييد أسفل ظلال حائط يتناولون غداءهم، وكان فى الأغلب خبزا وجبنا مع بطيخة أو خيار أو عنب. سوف تعلو أصواتهم بتحيات حسن الضيافة التقليدية: "تفضلى، بسم الله". وسوف أجيبهم: "شكرا لكم، بالهناء والشفاء". وأنا أشعر بالذنب للفارق بين طعامهم البسيط والوجبة الفاخرة إلى حد ما التى تنتظرنى فى البيت. بل إن الأتعس كانوا الشحاذين، ولاسيما الشحاذات أمهات الأطفال، وفى الريف الفلاحين الفقراء.

ذهبت فى ذلك اليوم الأول مع جينيت إلى غرفة صغيرة داخل أحد ملاحق الجامعة، لم تضم ما يزيد على نصف دستة من الأشخاص، فعلى

الرغم من وجود فريق ضخم يمثل الشيوعيين بين الطلاب لم يجد أحد الوقت من أجل النضال. ظهَر بعضهم من آن لآخر، وبزغت وجوه جديدة على الدوام، كانت السكرتيرة التى تدير الاجتماعات تدعى سوزانا، مهاجرة مصرية يهودية الديانة من الإسكندرية، ريانة الجسم، تضع المساحيق وتحرص على مظهر أنيق. تميزت بالدفء والود حين تعرفت إلى رفيق من الشرق الأوسط: "كيف يمكن أن تكونى إيرانية؟" علَّق أحدهم وجينيت تقدمنى إلى الآخرين، فرت الابتسامات من الثغور، فخالجنى شعور بالاسترخاء. كان هناك آخرون، كان جين-بول، طالب يَدرس لنيل شهادة الدكتوراه فى القانون، شديد الإخلاص للحزب، وقد أصبحنا صديقين، التقيت به بعد فترة طويلة من انسحاب كلينا من الحزب.

كان هناك صبى واحد قابلته فى ذلك اليوم الأول، ولا يزال بوسعى رؤيته، كلود، كان طويل القامة نحيف القد، بعينين داكنتين ثاقبتين، وشعر أسود لامع. كان يجلس فى الخلف ولا يفوه بكلمة ونحن نتجاذب أطراف الجدل. الواضح أنه شاركهم الجلسات من قبل، لأن سوزانا سألته إن كان قد قرر الانضمام إلى الحزب. "لا، لا أزال أبحث". أجابها بلهجة مقتضبة، غادر فى النهاية بدون كلمة واحدة، وفى يوم من الأيام أحجم عن المجىء. البادى أن أحدا لم يفتقده، وبعد عدة سنوات تالية صادفت سوزانا فى طريق بول ميش وسألت عن حال الجميع: "وكلود، ماذا جرى له؟" "آه! الأبكم! صار ناسكا؛ يقيم فى أحد الأديرة فى مكان ما".

أتذكر أنه قال "لا أزال أبحث"، فاستدعيت كلمات باسكال: "لن تبحث عنى إن لم تكن قد وجدتنى بالفعل". من الواضح أنه قد وجده، هذا المحظوظ!

اتبع الحزب الشيوعى الفرنسى المسار السوفيتى مجريا كل أنواع الألاعيب الأيديولوجية لتبرير السياسات السوفيتية وبيعها لأعضائهم، اعتبروا تقرير خروشوف فى البداية مزوَّرا من قِبل وكالة الاستخبارات الأمريكية، ثم أقروا بصحته، ولكنهم قللوا من شأنه وعدُّوه مجرد مثال على كيف يمكن أن يؤدى الإعجاب الشديد بشخصية من الشخصيات إلى "بضعة أخطاء". شجبوا الثورة المجرية باعتبارها ثورة مضادة نظمتها عناصر فاشية سحقها الشعب المجرى الذى عاونته الدبابات السوفيتية.

"ولكنهم يبدون كالعمال والفلاحين"، قلت لجينيت، "فلماذا قتلهم على أى حال؟"

"ليست الثورات نُزَهًا للأطفال! لا تملكين أن تقتلى عدة أشخاص فى سبيل إنقاذ الملايين. تعرفين؟ أحيانا ما أعتقد أنك لست شيوعية، وإنما فوضوية، تُذكريننى بالفوضويين الروس فى القرن التاسع عشر، سوف أعطيك كتابا عنهم".

وجدت موقف الحزب تجاه حرب الجزائر لنيل الاستقلال غامضا هو الآخر؛ اندلعت الثورة عام ١٩٥٤، وبحلول عام ١٩٥٥ كان من الجلى أنها لن تُسحق، الحق أنها تفاقمت لتصبح حربا. أكدت أنه بدلا من الالتزام بالمبادئ العامة والصيغ الزائفة عن "المقهورين" و"حق الشعوب فى الحرية"... إلى آخره، ينبغى على الحزب أن يُعبر بصراحة ووضوح عن دعمه لاستقلال الجزائر فيأمر الجنود الشيوعيين والمجندين بالهروب الجماعى من الجيش، وسوف تتطور هذه الخطة لتصير حركة قومية تجبر الحكومة على التفاوض، إلا أن خوفا ركب الحزب من فقدان

شعبيته وسط الناخبين، فلم تزل الغالبية العظمى منهم تؤمن بـ "جزائر فرنسية." ولكن بحلول عامى ١٩٥٦ و ١٩٥٧ بات من الواضح أن فرنسا لا يسعها الفوز فى الحرب، وتسريت أنباء المجازر والتعذيب التى ارتكبها الجيش الفرنسى ليتحول الرأى العام ضد فرنسا. أعلن الحزب ـ مثله مثل كل الجماعات اليسارية الأخرى ـ تأييده لاستقلال الجزائر الكامل فى النهاية؛ لا لسواد عين الجزائر، وإنما خوفا من خسارة المؤازرين له.

امتلكنا جميعا نسخا من جريدة "الإنسانية" L' Humanité، الجريدة الناطقة باسم الحزب. أمرونا بقراءتها كل يوم على الدوام كى نواكب الأحداث ونعرف آراء الحزب؛ قراءة الجرائد اليومية الأخرى يلوث العقل ويقوض الإيمان، كان الأمر أشبه بأن ينصحك قسيس بتلاوة العديد من الصلوات الربانية أو السلام المريمى يوميا. وبالإضافة إلى ذلك طلبوا منا التعليق على القائد وتولى مهام معينة. كانت مهمتى هى أن أبيع جريدة "الإنسانية" L'Humanité مرة فى الأسبوع خارج بوابة الجامعة فى ساعة مبكرة من الصباح. وقفت هناك كل أربعاء، أرتعد وأضرب الأرض بقدمىَّ كى أزيح الوجع عنهما من جراء البرد، أنفخ فى يدىَّ فاقدتى الحس وأنا أقبض على دفعة من الجرائد لصق صدرى لأصيح: "اقرأ الإنسانية! اقرأ الإنـــســـانـــيـــة!" Demandez Lisez L'Hamanité! Demandez Lisez L'Humanité! تطوعت أحيانا بالعمل أيام السبت أيضا، لأن العديد من الرفاق غادروا للذهاب إلى منازلهم فى الضواحى أو الأقاليم فى عطلة نهاية الأسبوع.

كان هناك عازف كهل على الأكورديون يعزف فى الركن الآخر من الشارع، كان يعزف أغانى شعبية و"أغانى عسكرية" مفضلة لتشارلز

ترينيه وإديث بياف وإيف م[illegible] العابرون عملات معدنية فى قبعته المقلوبة على الأرضية، وقد شكرهم بدون قطع عزفه. أحيانا ما تحدثنا عن أغانيه، العديد منها عرفتها وغنيتها، أخبرنى بأنه بدأ حياته عاملاً فى مصنع وتعلم العزف على الأكورديون فى وقت الفراغ: "تصورتُ أنى أستطيع أن أنضم إلى فرقة وأعزف فى الحفلات الراقصة والملاهى الليلية وأستمتع بوقتى وأنا أقيم أودى، ولكنى عندما بلغتُ المستويات الاحترافية فى العزف بات الجيتار موضة، ولم يرغب أحد فى لاعب أكورديون. "حسنا يا آنسة Bah oui, mademoiselle، الدنيا تتغيرا" ختم حديثه بما يشى بنبرة فلسفية، هل كان يجنى ما يكفيه من العزف فى الشارع؟ "المتوسط"، قال وهو يوجه إلىّ ابتسامة من فم معوج تلطخ بالتبغ، انتهى إلىّ أننى داعمة له، ما بحت إليه بأنى أغنى وأتدرب على عزف الجيتار لمصاحبة الغناء.

وفى غضون ذلك تقلدت حكومات فرنسية مختلفة الحكم ثم اختفت عن الساحة سريعا. بل إن ميندیز فرانس - سياسى ينادى بالديمقراطية الاجتماعية وواحد من أذكى السياسيين فى البلد (كان قد أنجز بنجاح عملية انتهاء التدخل الفرنسى فى شبه جزيرة إندوشينا) - لم يدم فى الحكم طويلا؛ فالجمهورية الرابعة المنبعثة من رماد الجمهورية الثالثة وحكومة فيشى التى رأس وزارتها المارشال بيتان خلال الحرب لم يمكن السيطرة عليها، لم تصبح فرنسا أخيرا قابلة للحكم وقابلة للازدهار حتى أقيمت الجمهورية الخامسة تحت قيادة ديجول.

نُظمت اجتماعات حاشدة ومسيرات ومهرجانات لا نهائية، وقد مضيت أنا وجينيت إلى بعضها، استمعنا إلى خطب ألقاها كبار الشأن فى الحزب ومفكرون مشاهير، وغنينا "نشيد العمال الثورى"، وعقب عدة أشهر من هذه الاجتماعات سألت سوزانا إن كان من الممكن أن أحصل على بطاقة الحزب؟ أنبأتنى فى الأسبوع التالى بأننى لا أستطيع أن أصبح عضوًا رسميًا فى الحزب لأننى أجنبية، وإن كان من الممكن أن أتابع العمل معهم، والبديل هو الانضمام إلى منظمة الطلاب الإيرانيين. كنت وقتذاك قد صادقت العديد من الأصدقاء من الطلبة الإيرانيين، وكان واحد أو اثنان من بينهم من الشيوعيين، وعليه انضممت إلى صومعتهم "السرية"، كنا خمسة فقط لا غير، وقد التقينا فى منزل شاهينى، شيوعى قديم متزوج بامرأة فرنسية عاشت فى فرنسا عشرين عاما، وقد كانت فكرتها عما يدور فى إيران عتيقة على أقل تقدير.

تابعنا الاجتماعات فترة من الوقت غير أن أصدقائى عادوا تدريجيا إلى إيران حيث واصلوا قضاء مهنهم المختلفة، أضحى البعض رؤساء لمؤسسات، وأضحى آخرون مهندسين ومهندسين معماريين، وعلى الجانب الآخر بات غيرهم أكاديميين بارزين. عادوا كلهم تقريبا الآن، منفيين من جديد، أراهم كلما أزور باريس، أخذنا بأسباب حيوات مختلفة غير أن هناك روابط قوية تجمعنا.

ولكن ماذا حلَّ بجينيت؟

خطبها زميل فى كلية الطب فى فترة اجتماعنا الأول إلا أننا لم نره كثيرا، وكذلك هى، فقد كان أكبر منها بعدة سنوات وفى خضم التحضير

"للإقامة" - مسابقة عسيرة للغاية لم تسمح له بأى وقت فراغ - تقابلا ما أمكنهما، وقد هيأت نفسها مع خططه: "لسنا زوجين برجوازيين، لا بد أن يكونا معا طيلة الوقت ويصدا كل الآخرين، لا لشىء إلا التسكع هنا وهناك". كانت تقول فى نبرة تدل على الاحتقار، عندما سافر فى العطلات للمكوث مع عائلته، كان كلاهما يكتب الرسائل للآخر على نحو دورى: "لا يكتب الرسائل اليومية إلا الطبقة الوسطى الكسولة، إننا نكتب حين نشعر بالرغبة فى الكتابة أو حين نجد ما نقوله"، أنهت إلىّ؛ لا بد أن شكا ساور ملامحى لأنها أردفت: "لستِ برجوازية لأنك لست أوروبية، لأن الشرقيين متأخرون بمائة عام لا يزالون عالقين فى المذهب الرومانتيكى؛ عليك بقراءة فرويد". أنهت دوما نقاشاتنا بنصيحة بقراءة كتاب أو مؤلف أحد المؤلفين قد ينور عينىَّ! "إننا حبيبان، وهو التزام كافٍ." اتفقا على الزواج حين ينتهى من تدريبه، "لا لأننا فى حاجة إلى ورقة للتصديق على مشاعرنا والسماح لنا بالنوم معا، ولكن لأن الزواج فى مجتمعنا يجعل الحياة أسهل بالنسبة للأطفال، ولأن والديه تواقان إلى الزواج".

كانت جينيت فى غضون ذلك "تنام فى الخارج" فى ليالى السبت، كان هذا نصيبها الأسبوعى، كان خطيبها ناخبا شيوعيا، ولكنه لم يَحضر قط الاجتماعات أو التجمعات لضيق الوقت، وفى إحدى أمسيات السبت جاء ليقلها فقابلته بالصدفة. قدمتنى جينيت إليه بـ "المحظية،" وتركتهم بعد عدة دقائق والإحباط يخالجنى، فقد كان شخصا عاديا جدا، وجينيت كانت بعيدة كل البعد عن الفتاة العادية، على أن دهشة داخلتنى حين لاحظت تغيرها فى محضره، فقد استحالت القوية رابطة الجأش ذات

العزيمة إلى فتاة عطوف مبتهجة كما القطة، عاشقة شابة. راقنى منظرها، وفى اليوم التالى أغظتها به وتعالت ضحكاتنا.

قلَّ عدد مرات رؤيتى لجينيت، حيث أحجمت عن الذهاب إلى اجتماعات الصومعة، على حين غدا عبء العمل أثقل مع مهام المستشفى. رحلت بعدها عن بيت الطالبات وذهبت للإقامة فى جامعة سيتيه، بينما عثرت جينيت على غرفة قريبة من المستشفى التى تعينت فيها. صادفتها فى أحد الأيام قبل بداية العطلة الصيفية فى حدائق لوكسمبورج، كنا نحن الاثنتين فى طريقنا إلى مواعيد أخرى، بيد أننا جلسنا أسفل الظلال بجوار نافورة ميديسى لنتبادل حديثا ودودا سريعا.

امتقع وجهها ونحف جسمها، "ضريبة النوبة الليلية". قالت: "أحيانا ما أعجز عن النوم كلية"، سألت عن أحوال خطيبها، كان من الواجب حينها أن يكونا زوجين، "لقد هجرنى بمجرد أن تأهل لممارسة الطب، ورحل مع فتاة أخرى."

هل انزعجت من هجرانه؟ لماذا لم تتصل به؟ "وماذا بوسعى فعله؟ الرجل الذى يخون عهده لا يستحق. تزوج بفتاة برجوازية، جميلة جمالا مبتذلا، وإن كان هذا خياره، فأنا لا أريده".

كاشفتنى بأن دهشتها وحزنها سرعان ما حلَّ محلهما الغضب، وفى النهاية الاحتقار. لن أراها وهى تبكى بحرقة مثلما رأيت جميلة، إلا أن أزمتيهما كانتا مختلفين، القدر والظروف فى حالة جميلة، والخيانة فى حالة جينيت. تواعدنا على التواصل، وكلانا يعلم أنه لن يكون بالسهل.

مر الوقت، وذات يوم بالقرب من طريق بينيديكتين قابلت السيدة

مونيك وسألت عن حال جينيت. "آه! صديقتى المسكينة! Ah! Ma pauvre amie ألا تعلمين ما جرى لها؟" اعترفت بجهلى وبفقدانى الاتصال بها. "حبيبها الحقير هجرها فجأة وكأنها لا شىء بمجرد أن فرغ من دراسته، تقبلت جينيت الصغيرة الأمر على نحو مقبول على ما بدا، ولكن بعد انقضاء ستة أشهر وجدوها ميتة فى فراشها؛ الظاهر أنها أكملت نوبتها الليلة ثم ذهبت إلى بيتها لتنام قليلا وابتلعت ما يكفى من حبوب لقتل حصان!" تناهى الخبر إلى السيدة مونيك من أحد ناشطى الحزب. "لا شك أن الحبوب المنومة كانت فى متناول يدها فى المستشفى". أنهت حديثها وكأن صعوبة الحصول عليها كانت لتشكل فرقا.

جينيت المسكينة! أمضت حياتها القصيرة وهى تنفى مشاعرها أو تكبحها، ولكن مشاعرها تغلبت عليها فى النهاية. دائما ما تتغلب المشاعر على المرء، أليس كذلك؟

١٣ ـ تعلم التعلم

التعلم الضئيل أمر خطر؛ إمّا أن

تحتسى الكثير من ينبوع المعرفة، وإمّا ألا تتذوقه

ألجزاندر بوب

"حكم فرنسا فى خلال المئتى عام الماضية أناس يَعلمون كيفية النجاح فى الامتحان!" ألقى هذا التعليق صديق قديم سقط ابنه من توه فى امتحان الالتحاق بالسلك الدبلوماسى، غير أنه كان هو نفسه مثالا على النظام الذى يسخر منه؛ انحدر من جذور متواضعة، وتلقى تعليمه بالكامل عن طريق المنح، صار بعدها دبلوماسيا، ثم شغل منصب السفير الفرنسى فى دولة إسلامية حيث مات من جراء حادثة منذ بضع سنوات.

كان نظام التعليم الفرنسى كما تطور منذ الثورة ديمقراطيا ونخبويا، من حيث المبدأ استطاع أى فرنسى بغض النظر عن طبقته أن يتقدم ليصبح جزءا من النخبة الثقافية والحاكمة من خلال التعليم لو واتته الموهبة والاجتهاد الكافيان، ولعدم وجود امتحان للقبول فى الجامعات فقد اعتبروا شهادة "البكالوريا" كافية، ويتدفق المزيد من الطلاب إلى

الجامعات كل عام، ولكنهم يخفقون فى النهاية فى الامتحانات ويعجزون عن التقدم، ترك العديد منهم الدراسة بعد فصل دراسى أو اثنين وقد أثنى عزمهم عبء المذاكرة والظروف. كانت فرانسوا ساجان إحدى تاركى الدراسة، تركتها لتكتب رواية صباح الخير أيها الحزن Bonjour Tristesse، رواية أصدرتها فى سن الثامنة عشرة فى عام ١٩٥٤، وقد أضافت كلمة Saganisme، للغة، كلمة تشير إلى مذهب المتعة المعتدل الذى انتهجه الشباب الموسر فى تلك الأيام.

بدأ الانفجار البركانى المعروف بـ "ثورة الطلاب" ثم بـ "أحداث ٦٨" بتذمر عميق عام سرى قبل عقد من الزمان أو ما يزيد عنه. لقد أفضى مايو إلى إصلاحات رئيسية، وتشظى جامعة السوربون إلى فروع مختلفة انتشرت فى أرجاء باريس وضواحيها تحت الاسم الجمعى جامعة باريس. ما سمى فى السابق بالسوربون أصبح الآن "باريس فور"، اسم لا يَحمل نفس الرنين ولا يدوى بصدى ألف عام من التاريخ، ولكنه وفَّر على الأرجح للطلاب ظروفا إنسانية أفضل.

أُسست جامعات أخرى فى خلال القرون فى فرنسا واكتسبت سمعة جيدة، إلا أن مكانة السوربون فى الخمسينيات ظلت لا تشوبها شائبة. منذ مستهل القرن الثانى عشر، حين احتشد الطلاب لسماع محاضرات أبيلار فى الفلسفة واللاهوت حتى الوقت الحاضر، تعلم رجال فرنسا العظماء فى العلوم والآداب وعلَّموا هناك، وزينت تماثيلهم وصورهم المساحات. قامت فى الفناء الرئيسى المعبَّد بالحجارة تماثيل نصفية لفيكتور هوجو ولويس باستير الرامزين لفرعى المعرفة، ولازمت أرواحهم

الممرات والأروقة، وأثرت كتبهم رفوف المكتبة. فى أيام أبيلار كان الطلبة والمدرسون يتحدثون اللاتينية، لذا نالت المنطقة المحيطة اسمها، الحى اللاتيني، رغم أن اللغة الفرنسية هى المتداولة اليوم أيا كان مسقط رأس المتحدث.

بمجرد أن تحسنت لغتى الفرنسية بما يكفى وتخلصت من حاجز اللغة، قبلتنى جامعة السوربون وبدأت أحضر المحاضرات، وما لم تجئ مبكرا فلن تعثر على مقعد، تقف فى الخلف وعلى الجانبين محاولا تدوين الملحوظات قدر استطاعتك. أتذكر أننى وصلت ذات مرة مع بدء المحاضرة جلس الأستاذ أ ـ رجل كهول قصير القامة بلحية صغيرة بيضاء وربطة عنق رسمية ـ عند المنصة بعيدا، وقرأ بحثه بصوت لم يصل إلا للصف الأول، المعتاد.

ثم كانت هناك فصول "عملية" أصغر من أجل المادة المختارة، وفيها يتأتى لك التعرف بمدرسيك بصورة أفضل، وقد أعطونا تعليمات بكتابة مقالات وقراءة قوائم من الكتب، وأمدونا بالنصائح، ولكن كانت العلاقة الشخصية بين المدرس والطالب مفقودة حتى فيها. كان يجب أن تحث نفسك بنفسك على الفلاح وتذاكر جاهدا وتنجح فى الامتحان فى نهاية العام، فقط لا غير.

كل تعلم هو تعلم ذاتى"، قال لى أبى ،"وما المدرس إلا موجِّه، ما تتعلمينه فى الجامعة هو كيفية how تعليم نفسك بنفسك". كان يُدرس الفلسفة فى جامعة طهران، أول جامعة على الطراز الغربى فى إيران (وقد أُسست على غرار جامعة السوربون). ولكنه تعلم هو نفسه فى

المَدرسة Madrassah وفقا للنظام التقليدى المماثل للكليات الأوروبية فى القرون الوسطى، وهناك كان التلاميذ يرتبطون بمُعلم حتى يتعلموا مادته تعلما تاما ثم ينتقلون إلى غيره. لم يعد هذا التقليد صالحا فى هذه الأوقات المزدحمة، ولكنه اعتقد أنها الطريقة الأفضل للتعلم، وعليه كان حاضرا دوما لأى طالب توّاق إلى المزيد من التعلم، أتذكر أن العديد منهم أتوا إلى منزلنا فى الصباح الباكر أو فى الأمسيات من أجل الانخراط فى المناقشات أو الاستزادة من التعلم الشخصى أو فقط لمصاحبته.

كان أخى الأكبر ناصر دبلوماسيا شابا مُعَينا فى ألمانيا، كان قد فتح حسابا فى متجر للكتب فى الضفة اليسرى، ولكى يزيد مصروفى الهزيل اقترح أن أشترى كتبى الأكاديمية على حسابه، عدا كتب الشعر والروايات والكتب الأخرى غير المتعلقة بالدراسة! أول ثلاثة كتب اشتريتها كانت **القاموس الفلسفى** The Philosophical Dictionary، وكتاب ديكارت **مقال فى المنهج** Discours de L'Méthode، وكتاب بيرجسون **التطور الخلاق** Evolution Créatrice، اشتريت الكتاب الأخير لأنى قرأت عنه فى إيران. لقد أيدت فلسفته الروحية الناقدة للفلسفة الوضعية المنتشرة إبان عصره استخدام الحدس فى التقصى الفلسفى، وقد أثَّرت فى كتاب معاصرين مثل بروست وباتت رائجة قبل نشوب الحرب، وبلَغت إيران فى النهاية فصدرت المقالات عنها فى المجلات الأدبية. جذبتنى أفكاره وإن فهمتها بالكاد، فقد كنت فى الخامسة عشرة من العمر لا أمتلك من الخبرات الفكرية ما يمكننى من استيعابها، إلا أن شخصيته أسرتنى، تحول من المسيحية إلى اليهودية قبل بدء الحرب، بيد أنه لم يعلن تلك الحقيقة، كانت مسألة شخصية، ونتيجة واضحة لسنوات من التأمل.

عندما وقع احتلال باريس تم إعفاؤه ضمنيا من الاضطهاد، باعتباره أعظم فلاسفة باريس الأحياء والفائز بجائزة نوبل، كان حينذاك عجوزا مريضا يحتضر، ولكن عندما أمروا اليهود الفرنسيين بارتداء نجمة صفراء وتسجيل أسمائهم عند الشرطة، جر نفسه من الفراش ووضع النجمة وقصد قسم الشرطة ليُسلم نفسه، وما لبث أن وافاه الأجل بعدها فى عام ١٩٤١ ليعفى سلطات الاحتلال من المزيد من العار. حسبت أن أبى سوف يتصرف بنفس الأسلوب، فأضمرت كل الحب لبيرجسون لهذا السبب، وكما هو الحال مع العديد من العظماء كانت صرامته الفكرية تعادلها خفة روحه, فقد صرح فى عيد ميلاده الثمانين: "لست عشرين فى أربعة، وإنما أربعة فى عشرين!"

عكفت الليلة بعد الأخرى على كتاب القاموس الفلسفى Philosophical Dictionary وكتبى الأخرى. ما لاح غامضا أو غير مفهوم عزوته إلى جهلى وغبائى، وواصلت القراءة. أتذكر كيف عانيت فهم فقرات معينة من كتاب سارتر الكينونة والعدم Being and Nothingness، عاجزة عن استيعاب كلمة واحدة فيها، اهتزت ثقتى بنفسى مرة أخرى حين وجدت فقرات أخرى واضحة سهلة الفهم مثل نفس الأفكار التى يُعبر عنها فى مسرحياته ومقالاته وكتيباته. رجعت مؤخرا إلى ذلك الكتاب، ولمَّا أعدت قراءته فى ضوء خبرتى، أدركت أننى لم أكن ملومة كلية وأن بعض الجمل والفقرات مبهمة حقا لدرجة أنها خلت من أى معنى (علَّه كتبها تحت تأثير المخدرات). فطنت بعد ذاك لم وصف هايدجر - صاحب فلسفة ذات تأثير قوى على تطور سارتر - الكتاب بأنه "فوضى عارمة"، ولا أوحى هنا بأن هايدجر نفسه كان نموذجا للوضوح!

تناولت فى مقالتى الأولى كتاب ديكارت مقال فى المنهج Discours. قرأته مرة واثنتين بعناية، ولكن بدلا من شرح طريقة استيعابى له، قدّمت "فلسفتى" الخاصة! لا عجب أننى أخفقت إخفاقا فاضحا! "لا نعبأ بآرائك يا آنسة، وإنما بآراء السيد ديكارت". هكذا كان رد الأستاذ البارد، صحيح، بالفعل، تعلمت الدرس: الأسلوب السليم هو أن تعرض ما تقف عليه من خلال القراءة عن الموضوع وإضافة استشهادات ملائمة، وبعدها بمقدورك أن "تتفلسف" لإمتاع قلبك فى المقاهى مع الأصدقاء.

كان من الضرورى لدراسة الفلسفة الإسلامية تعلم العربية والفارسية الكلاسيكية، كان المعتاد أن يكتب الفلاسفة فى العالم الإسلامى أغلب أطروحاتهم باللغة العربية مثلما استخدم المفكرون الأوروبيون اللاتينية فى كتاباتهم. كانت العربية تُعتبر اللغة المقدسة، فقد تحدثُ بها الله للكشف عن القرآن الكريم، وعلى نحو أعمق يمْكن القول إن الإسلام يتمحور حول العربية فى تجلياته الدنيوية والسياسية، فاللغة هى الجوهر المتماسك الرابط بين عناصر عرقية كانت لتصبح متباينة لولاها. ومن شمال إفريقيا إلى الفرات حيث ذهب العرب كانت الشعوب المحتَلة تتبنى لغتهم، وقد سهّل المهمة ثراء اللغة وبلاغتها وليونتها وقابليتها للتوسع.

كانت إيران استثناء؛ عندما غزا العرب البلاد عام ٦٦١، حاولوا كما هو معتاد أن يفرضوا اللغة على السكان، إلا أنهم واجهوا معارضة قوية وخسروا الصراع. ومع ذلك تبنى الفرس أبجديتهم وكيفوها مع الفارسية، وأضيف إلى الفارسية الكثير من المفردات العربية التى تغيرت فى الغالب بلا سبيل إلى تمييزها.

كانت العربية مادة إجبارية فى المدرسة الثانوية Lycée فى إيران مثلما كانت اللاتينية واليونانية مادة إجبارية فى الغرب، لكن مدرسيها لم يتمتعوا بالمهارة، ولم تحظ بشعبية واسعة. كرهتها التلميذات؛ فهى تتعلق بالدين والنواهى والتخلف، بينما آمنا بكلمات رامبو "لا بد أن يكون المرء عصريا تماما" Ilfaut être absolument moderne. مما يعنى أن يصبح غربيا، ولكنى أعجبت بالعربية وذاكرتها متمنية أن أعرف أصول الكلمات التى دخلت الفارسية وتطورها واشتقاقاتها.

كانت فصول العربية والفارسية الكلاسيكية بكلية اللغات الشرقية بجامعة السوربون تُدرس فى شارع "دو ليل" فى قلب منطقة سان جيرمان دو برى، وقد غصت بطلاب يرغبون فى مواصلة مسيرتهم المهنية الدبلوماسية والأكاديمية. كانت الفصول صغيرة العدد، وقد تواصلنا تواصلا فعليا مع المدرسين والمحاضرين. ساد الفصول جو كوزموبوليتانى، فالعديد من المدرسين كانوا من أهل اللغة التى يدرسونها، متحدثين بالصينية والروسية ولغات أوروبا الشرقية والعبرية والعربية.

كان مدرسنا للغة العربية يدعى الأستاذ بيرين، ضابطًا فى الجيش ماهرًا جذابًا، عاش فى منطقة شمال إفريقيا وعمل بها. لم يكن يتقن العربية الفصحى فحسب، وإنما العديد من اللهجات المحلية، هجر الجيش لصالح البيئة الأكاديمية، ولكنه احتفظ بمنهج صارم لا يحب التوافه، وببنيان مشدود يليق بجندى قوّته الصحراء. لم يتحمل البلهاء بسهولة وسخر من طلبة عملهم غير متقن أو مبهم، "ربما تتعلم لغات الشرق الأوسط، ولكننا لا نسمح باحتمالات à-peu-prés الشرق

الأوسط، التقديرات التقريبية والغموض، الدقة والوضوح هما ما نرغب فيه". كان يُعلن ذلك إن وجد ترجمة لا تبلغ حد الكمال، أو إن اكتشف أى أثر للكسل العقلى فى مقالة من المقالات.

وجدت اللغة العربية صعبة صعوبة رهيبة، الحق أن الطلبة الفرنسيين لم يعانوا مثلى فى نطق أصواتها البلعومية، ولكنها كانت منطقية، ويمكنك اللعب بها وكأنها لعبة؛ فمن حرفين ساكنين أو ثلاثة حروف ساكنة أصلية يمكنك أن تبنى كلمات لا نهائية للتعبير عن تشكيلة من الأفكار لو كنت ملما بالقواعد.

درَّس اللغة الفارسية الأستاذ لالاى الخبير باللغة والأدب، كان يتحدث الفارسية مثله مثل الفارسى، وقد ألف أحسن كتاب عن النحو الفارسى بالفرنسية. تحلى بالهدوء والتواضع إلا أنه بهرنا بفهمه لإيران وتراثها، وتعامل مع طلبته الإيرانيين بطيبة وكرم، فقد زودهم بالنصائح والمعونة. دائما ما تنتاب الإيرانيين الخشية والإعجاب بالذات حين يبدى "المستشرقون" اهتماما بثقافتهم، نعتبر أن معرفة اللغات الغربية معرفة كاملة أمر مسلم به، ولا نتوقع أن يشرفنا أحد بنفس الطريقة بأن يطلق علينا لقب "المستغربا" وبينما أستطيع أن ألقى مئات القصائد بالإنجليزية والفرنسية، لا يزال فكى يتدلى إعجابا وامتنانا لو ألفيت أوروبيا يعرف اثنين من رباعيات الخيام، لذا أضمرت إعجابا وتبجيلا للأستاذ لالاى.

ولكن بالإضافة إلى مدرسينا، تركت أعمال اثنين من المستشرقين البارزين تأثيرا طويل المدى فى تطورى أصبحا، "أساتذىَّ" بالمعنى

التقليدى - ولا يزالان يبثان فىَّ الإلهام ويوجهاننى بعد أمد طويل من وفاتهما، الحق أن أحداث العقد الأخير أسبغت على أعمالهما وشخصياتهما أبعادا إضافية.

كان الأول لوى ماسينيون، واحد من أعظم مستعربى فرنسا وعلمائها المسلمين، ترجم وكتب عددا من الكتب والتفاسير، ولا يزال أغلبها معروضا فى المكتبات. انتمى إلى الروم الكاثوليك، وقد فكر فى شبابه أن يصبح ناسكا، مزجت طبيعته الروحية العميقة بين الفكر الغزير والتقوى البسيطة، عل إسهامه الأعظم هو أنه كان العالم الغربى الأول الذى يكتشف المتصوف المسلم الأسطورى الحلاج ويسلط عليه الانتباه أمام العامة. وُلد الحلاج عام ٨٥٧ فى إيران ولكنه تعلم اللغة العربية، أخذ بأسباب حياة جوالة خليقة بباحث أصيل عن الحقيقة، وقد دعا إلى مذهب التوحد مع الإله، اتخذه بعض رجال الحاشية الكبار ومديرو الخليفة العباسى مرشدا روحيا، ولكنه تورط فى مشاكل مع رجال الدين الرسميين الذين خشوا أن يقوض سلطتهم حين صرح بأن لا شىء ينبغى أن يعترض رحلة الروح إلى **الصديق الإلهى**، وأن لا حاجة إلى شخص ثالث. "أنا الحق،" قال مشيرا إلى اندماجه الكامل مع **الواحد**. ولكن لأن كلمة "الحق" Haq تستخدم أيضا للإشارة إلى الله اتهموه بالهرطقة وأدانوه، وفى عام ٩٩٢ رجموه بالحجارة وأحرقوه حتى الموت.

وكما هو المعتاد فى التاريخ، لم يُبِد قتل الرجل أفكاره؛ فقد تم غرس البذرة، وقد شق درع المعتقدات التقليدية الصلبة ليكشف عن البعد الخفى الصوفى للإسلام الذى تنامى فى خلال القرون، وأنتج الفلسفة

والشعر المجيدين اللذين نعرفهما. فى الإسلام ـ كما فى المسيحية واليهودية والأديان العظيمة الأخرى ـ يدعم العامل الروحى الخفى صرح الإيمان الشعبى الدنيوى، ويحافظ عليه فى أوقات الشدة والانحدار، تماما مثلما يغذى الينبوع الخفى البحيرة، ويستكمل ما بها من نقص كيلا تصير راكدة ويعمها العفن. حينما تُظلِم الكنائس بالفساد والتعصب والانحلال، ترتد ألسنة اللهب إلى الداخل وتستكن، إلى أن تمر العاصفة السوداء. بالأمس كانت محاكم التفتيش، واليوم التشدد الدينى، فى الشرق والغرب -تأتى وتذهب مثل الأوبئة على حين يبقى الحب ويخلص المرء.

سرت الأساطير والقصص حول الحلاج، حياته واستشهاده، وقد نقلها المتصوفون فى غضون القرون، تعلقت قصة من القصص بإعدامه فى بغداد. يسعك أن تتخيل المنظر: رجال الدين الكبار فى الصف الأمامى يشرفون على العمليات، وقد أحاط بهم جمهور من سكان البلدة فى حماسة مهتاجة ثم جرُّوا الضحية إلى منتصف الميدان وربطوه فى عمود، وبعدها وابل الحجارة... ولكى يحموا أنفسهم من اتهام الهرطقة أرغموا الكثير من أتباع الحلاج، وبالقطع أصحاب المقام الدينى الرفيع الذين عرفوا أنه برىء، على حضور إجراءات المحاكمة ورمى الحجارة. تقول القصة إن الحلاج ارتقى بعينيه وتعرف عليهم بابتسامة تشى بالإذعان وتحمل الضربات، ولكن عندما تقدم الشبلى، تلميذه الحبيب وصديقه، وقذفه بحجر، انهار وبكى.

اكتشف ماسينيون الحلاج عام ١٩٠٧ ـ أو ربما اكتشفه الحلاج ـ وقد

غير حياته، وكتب بعدها دراسته المهمة آلام الحلاج The Passion of Hallaj. من بين كل المتصوفين المسلمين الأُوَل برز الحلاج أقربهم إلى المسيحية، وقد واتت ماسينيون فكرة أن يحمل الفاتيكان على جعله قديسا، في إيماءة مسكونية، كي يصبح أول قديس مسلم في التاريخ المسيحي، وعليه يتم تعويض قرون من الريبة وسوء الفهم بين المعتقدين العظيمين. ولكن لم يحدث ما أراد، وقد دمرت الأحداث الأخيرة كل الجسور التي كان الأتقياء من أمثال ماسينيون يبدأون بتشييدها. رأيته آخر مرة في الامتحانات النهائية، وأتذكر ابتسامته الرقيقة وصوته الهادئ، على حين بدت علامات الجدية والعبوس المتوقعة على ملامح كل الممتحنين الآخرين. ولكن مَن مثله من الرجال بمثابة منابر على طول طريق الحياة المظلم، يواصلون إنارة الطريق وطرح النور من خلال أعمالهم، ومن خلال الذاكرة.

المُعلم الثاني الذي قرأت كتبه، ولكن لم ألتق به حتى بعد وقت طويل من قراءة كتبه هو هنري كوربين، كان ظاهرة نادرة الوجود، فيلسوفًا ومفكر، كان أيضا مستشرقا. بدأ حياته عالمًا في اللغة وفيلسوف أكاديميًا صريحًا اكتشف عند تخرجه من الجامعة في شبابه هايديجر، وكان أول من ترجم أعماله إلى الفرنسية بدءا من كتاب "ما الميتافيزيقا؟" What is Metaphysics الصادر في العقد الرابع من القرن العشرين. زار الفيلسوف الألماني غير المعروف وقتها وقد بهره وأصبحا صديقين. ولكنه درَس أيضا اللاهوت والفلسفة الأوروبية في العصور الوسطى وتعلم العربية والفارسية. وعن طريق ماسينيون - كان قد حضر محاضراته - اكتشف كتابات السهروردي، الفيلسوف الصوفي المسلم، ومؤسس مدرسة الاستنارة. كان الاكتشاف بمثابة الكشف على طريق دمشق، ومنذ حينها

كرس حياته المهنية للفلسفة الإسلامية، درَس لينير موضوعاته المختارة ويقدمها للآخرين فصار أعظم نصير لها فى الغرب.

ولد السهروردى عام ١١٥٥ فى إيران، ولكنه درَّس وكتب بالفارسية والعربية. صاغ فلسفة أصيلة بأن جمع بين الإسلام ومبادئ زرادشت والأفلاطونية المحدثة. آمن بأن الوصول إلى الحكمة ـ الحكمة الأبدية ـ Sophia Perennis يتطلب استخدام الحدس والعقل معا، وأن الواحد بدون الآخر سوف يؤدى إلى الخطأ، ولا حاجة إلى القول بإنه اتهم بالهرطقة واستشهد فى حلب عام١١٩١.

كتب كوربين ما يربو على عشرين كتابا تضم علما وعمقا لا يمكن مضاهاتهما، كذلك ترجم العديد من الأبحاث الفلسفية المؤثرة لفلاسفة مسلمين. اعتقد بأن الفلسفة الأوروبية بعد ديكارت باتت واقعية على نحو جاف، ولم تعد تشبع الروح. كان لكتابه عن السهروردى، **الملاك القرمزى**، L'Archange Empourpré تأثيرا عميقا علينا جميعا، رغم أننى لم أفهمه وقتها، وربما ما زلت عاجزة عن فهمه. بيد أن الروح الصوفية تجد أصداء مطامحها ـ مهما أدركتها على نحو مبهم ـ فى أعمال من بلَغوا منازل أعلى، أُعتبر أبى آخر أعظم فلاسفة مدرسة سهروردى، هناك ولا شك تلاميذ أصغر فى الغرب وكذا فى الشرق، حصلوا على تدريبهم فى الجامعات الحديثة، وهكذا اشتد انجذابى إليها.

ما التقيت بهنرى كوربين خلال سنواتى الدراسية، رغم أنه كان يَعرف أبى، وفى السنوات التالية بات صديقا لإخوتى، وقد كانت صداقته صداقة مُعلم لتلاميذه. قصدت إيران فى العقد الثامن من القرن

العشرين فى بداية أحد الأصياف، واتفق أن كان هنرى كوربين فى إيران هو الآخر، أقام أكبر إخوتى مأدبة صغيرة على شرفه، وحضرها عدد من أصدقائه ومعجبيه، كان التجمع الصغير فى نادى وزارة الشئون الخارجية عند سفح الجبال بالقرب من طهران. وصلت أنا وأخى مبكرا، وتفحصنا طقم المائدة فى بقعة يغلفها الهدوء فى ظلال شجرة "بلانيرة" قديمة، كان يوما مثاليا، والهواء ندى بأمطار حديثة، وعبق برائحة التربة المنقوعة والعشب والياسمين، خفت درجة الحرارة العالية بنسمة قادمة من جبال غطتها الثلوج حولنا، السماء رؤية من اللازورد لعالَم رحيم. ما لبث الآخرون أن وصلوا، يصحب أحدهم ضيف الشرف، رجل فرنسى فى منتصف العمر، بابتسامة دافئة ودودة وسلوكيات مهذبة. قدمنى أحدهم إليه، واتخذت مجلسى إلى جانبه على المائدة، يتمتع بتواضع حقيقى خليق بالرجال العظماء، وقد ساوره الابتهاج لأنى طالعت كتبه وأعجبت بها.

أنهيت إليه أن ترجمته لكتاب هايديجر "ما الميتافيزيقا؟" What is Metaphysics? كان واحدًا من أول الكتب الفلسفية التى قرأتها فى سنواتى المبكرة، وأضفت أنه رغم بذله كل الجهد لإخراج الكتاب بصورة أقل غموضا عن الأصل، وجدته مبهما حتى مع القراءة الثانية الحديثة. "صحيح!" En effet قال مبتسما وعلى وجهه تعبير من يتستر على جريمة، وعند الحديث عن سارتر جاهر: "بدأ الفرنسيون يعجبون به لأنهم فشلوا فى فهم هيدجر، وأيضا لأنه كتب ـ لكونه كاتبا إبداعيا ـ أعمالا فنية عبرت عن فلسفته أفضل من أى بحث، وأتاحها فى متناول غير المتخصصين."

كان كوربين متصوفا بروتستانتيا، نوع نادر للغاية من الرجال الفرنسيين، وقد تحدث بكل شغف عما أسماه "عباقرة إيران" الذين أخرجوا أعظم الفلاسفة والشعراء، الذين اخترعوا الحب وعبَّروا عنه - ولا ريب - فى أبرع الصور الشعرية من أجل الأجيال القادمة، ثم تحدث بلهجة الإعجاب عن البلد الذى اتخذته مقاما، وأخبرنى عن المتصوفين الإنجليز من أمثال جوليان مواطن مدينة نوريتش، وكل تلك التعاليم التى لا يدركها إلا قلة من الناس، والتى انحدرت فى العالم الأنجلوساكسونى منذ حركة الإصلاح الدينى. خضنا أيضا فى حديث السياسة وحال العالم بوجه عام، كان واعيا بالمشكلة الأساسية ومشغولا بها: السكان ونهب البيئة، والفاصل المتسع باستمرار بين من يمتلكون ومن لا يمتلكون وما يستتبعه هذا الوضع من نتائج... أتذكر أنه أنهى حديثه: "يصفون حالة رجل مريض بأنها خطرة وليست ميئوسا منها؛ بمقدور المرء أن يقول عن العالَم إن حالته ميئوس منها، ولكن ولكنها لحسن الحظ ليست خطرة!"

كنت أنوى أن أكتب كل ما قاله، ولكنى بطريقة ما انجذبت إلى دوامة إقامتى القصيرة، لم أره مرة ثانية قط، فقد وافته المنية بعد فترة قصيرة من لقائى به. عندما يموت مثل هؤلاء الرجال تتراءى الحياة نفسها ناقصة، وكأن شمعة كانت تضىء ركنا مظلما من عالمنا انطفأت. ولكن بينما أفَلت سمعةُ الكثير من معاصريه الشهيرين، انتشرت سمعة كوربين إلى ما بعد حدود التعاليم الإسلامية. اليوم اكتشف الفنانون والعلماء، بل والفلاسفة الجدد Nouveaux Philosophes، "نور الشرق" من خلال أعماله، فى وقت يبدو فيه الغرب وكأنه غزا العالَم بأسره.

كان هناك مدرسون ومحاضرون آخرون فى كلية اللغات الشرقية والسوريون ممن أضمرت إعجابا بهم، وشعرت حيالهم بعاطفة قوية، لقد دعمنى توجيههم ووضوح رؤيتهم وقت الارتباك واليأس، وقد صادقت الكثير من الأصدقاء بعضهم ظل مقربا منى منذ حينها.

يمكنك بعد الانتهاء من المقرر مواصلة العمل فى شهادة الدكتوراه فى لغة الدولة المختارة أو تاريخها أو أدبها، واصل العديد من أصدقائى، ولكننى على العكس منهم لم أرتب فى عقلى لمسيرة مهنية، وبحلول الوقت الذى ظهرت فيه نتائج الامتحانات قررت عدم متابعة الدراسات الأكاديمية، وبدلا منها أتبع ما وعيت إليه من اهتمامات فنية.

نسيت اليوم اللغة العربية تقريبا، وإن كنت أشك أننى قد استعيدها بمنهج لإنعاش ذاكرتى، فاللغة مثل الأداة المهمَلة، يصيبها الصدأ عند عدم الاستخدام، كما يصير طرف من أطرف الجسم ضعيفا أو متيبسا. ولكن لو أن "الثقافة هى ما يتبقى بعد نسيان كل ما تعلمته" فلا شىء مهدر مما تعلمته. لقد فتحت آفاقا نحو مناطق مجهولة، شعر الشعراء العرب القبليين قبل الإسلام، حكايات القاصّين السابقين والحاضرين، ورؤية المتصوفين المسلمين. وقد اكتسبت فضولا لا يزال حول البشر وأفكارهم وأحاسيسهم. وماذا يمكن أن يصنعه الفنان ـ مهما بلغ تواضعه ـ بدون هذه المصادر من الإلهام؟

١٤ ـ الطائر المغرد والفرشاة

كان صوتها رقيقا ناعما خفيضا

على الدوام، شىء رائع فى المرأة.

ويليام شكسبير

إحدى الصديقات اللاتى صادقننى فى كلية اللغات الشرقية كانت جولى مور، كانت فى السنة النهائية من كلية العلوم السياسية Sciences Po، وبدأت تتعلم لتوها الصينية، كانت مهتمة بالفن الصينى والخزف الصينى، وأملت أن تساعد أباها الذى كان تاجرا فى ذلك المجال. اتفق أنها لم تجد الفرصة أبدا للعمل، كانت جميلة لها الكثير من المعجبين؛ فتزوجت فى خلال عام، وكونت أسرة واستقرت فى حياة برجوازية مهذبة، ناسبتها الحياة تماما، وساورتها السعادة.

كان والدا جولى مطلقين، الأمر الذى كان لا يزال نادرا فى فرنسا. فى الأغلب كان الرجل الفرنسى الموسر يفضل مرافقة عشيقة وفى نفس الوقت متابعة حياته الأسرية، كان "يزورها" فى نهاية اليوم فى سبيله إلى

البيت عائدا من المكتب "من الخامسة إلى السابعة"، وعليه ظهر التعبير de cinq-à-sept الذى أشار إلى الوقت والترتيب، وكذلك كان تعبيرا لطيفا عن العلاقات الغرامية خارج إطار الزواج. أخبرنى صديق فرنسى فى اليوم السابق أن "من الخامسة إلى السابعة" مات موتا طبيعيا؛ ففى تلك الساعات هذه الأيام لا يزال أصحاب الأعمال الفرنسيون يعملون فى مكاتبهم، ينقلون الأسهم عبر الكرة الأرضية، ويعقدون الصفقات من خلال أجهزة الكمبيوتر والفاكسات: "إننا نطلق زوجاتنا الآن مثل كل الناس" comme tout le monde.

عاشت جولى مع أبيها الذى أحبها حبا جما وزوجة أبيها التى انسجمت معها، فهى لم تنجب أطفالا. كان أبوها كاثوليكيا ورعا وصارما إلى حد ما؛ كان يفحص معجبى جولى بدقة قبل أن يسمح لها بالخروج معهم، وكان يجب ألا تتأخر عن بيتها بعد أكثر من نصف ساعة من انتهاء العرض، أيا كان هذا الوقت قبل منتصف الليل أو بعده بقليل. ما وسعها أن تقضى الليل فى الخارج، ولا حتى مع واحدة من صديقاتها، كانت تجسيدا لمريم العذراء.

وعلى الرغم من هذه اليقظة الأبوية حبلت جولى، أعجب أبوها لحسن الحظ بالشاب الذى قدَّم نفسه باعتباره والد الطفل، وطلب يد جولى. كان شابا طويلا أشقر الشعر، به قدر من الجاذبية وإن كان مملا بعض الملل، كان قد تخرج في كلية العلوم السياسية sciences po قبلها بعام، وعمل الآن فى إحدى الوزارات. كان مستقبله مؤمنا، وتميز بالجدية وأحب جولى، وتمت الموافقة على طلبه.

شهدت حفل زفافها، كان حدثا عائليا محدودا فى كنيسة سان ماثيو فى الدائرة السادسة عشرة بالقرب من بيت جولى، وفى فستان من الساتان الأبيض وبرقع من الدانتيل العتيق تألقت بلون وردى ناعم ضارب إلى اللون المشمشى، تكتسبه الحوامل بعد الشهور الأولى المضطربة من الحمل. وبينما سارت فى الممر متعلقة بذراع زوجها مبتسمة فى أوجه الحشد، يمكنك أن ترى بطنها متقوسة مثل لوحة من لوحات الفنان كراناخ، وسلوكها يبث شعورا بالرضا الرائق، وعيناها تتلألآن كمن يتسلى بالتستر على فعلة، كمن يقول: "بالطبع العذارى وحدهن هن اللاتى يتزوجن بفساتين بيضاء!" اشترى أبوها للزوجين الشابين شقة من حجرتين بالقرب من بيته، وبعض قطع الأثاث الأساسية، وبعض الزينة الصينية، وهكذا انطلقا فى رحلة الحياة الطويلة لو واتاهما شىء من الحظ.

بعد فترة قصيرة من لقائنا الأول دعتنى جولى إلى بيتها لاحتساء الشاى، كانت شقة واسعة كئيبة بغرف تمتد على جانبى ممر يعمه الظلام. قامت ساعة أحد الأجداد حارسا فى المدخل "تتكتك" بصوت كئيب، وحفل باقى المكان بالزهريات الصينية والخزائن على طول الحوائط. كانت غرفة جولى فى النهاية، تطل على أشجار "البلانيرة" القائمة فى حديقة كنيسة مقابلة. تأثثت بأثاث بسيط، واندفن كل شىء أسفل ركام سميك من الملابس والكتب والأوراق والأسطوانات والملصقات والتذكارات، وما دل على وجود السرير إلا الأعمدة الناتئة منه. أخلت كرسيين لنا لنجلس عليهما، وجلبت خادمة بعض الشاى والكعك، واستقررنا لنتحدث طويلا بلا كلفة.

أخبرتنى أنها التحقت بالجامعة مع إصرار أبيها، ولكنها كانت فى الحقيقة تحب الغناء، وأنها كانت تأخذ دروسا مع مدرسة كانت مغنية أولى شهيرة فى الأوبرا فى العشرينيات وبداية الثلاثينيات، وأن المقطوعة الحالية التى كانت تتعلمها كانت بعنوان "وقت الصيف"، من أوبرا الملحن جيرشوين "بورجى وبس"Porgy and Bess: "ليست أوبرا عظيمة ولكنى أحبها، وقد قالت مدرستى إن باستطاعتى غناءها، فليس المهم ما تغنى أثناء التعلم طالما بالأغنية الطبقة السليمة والمستوى السليم". غنتها لى، ولم يكن صوتها هائلا ولكنه كان عذبا زاخرا بالأحاسيس.

أطريت عليها وأخبرتها أنى أنا الأخرى أحب الغناء، وغنيت طيلة حياتى منذ نعومة أظافرى، منذ الحضانة، ولكنى أنحدر من عائلة مسلمة متزمتة، لم تسمح لى مطلقًا بأخذ الدروس أو الغناء علنا. كنت أصادق فى المدرسة الثانوية Lycée فى طهران صديقة اسمها بيتى، كانت تَدرس الغناء الأوبرالى على يد مُدرسة، وقد علمتنى كل شىء تعلمته. أمَا وقد أصبحت الآن حرة، ليتنى أدرب صوتى كما يجب! تفكرت فى الأمر بمجرد استقرارى فى باريس، ولكن مادياتى لم تسمح. ثم غنيت لجولى أغنية فارسية، تهويدة بمقاطع موسيقية رخيمة متقطعة وحلى صوتية مساعدة.

"ينبغى أن تأتى معى غدا وترى مدرستى! أنا متأكدة أنها ستعقد معك اتفاقا بمجرد أن تسمع صوتك!" هتفت جولى. "لا بد أنها غنية من نجاحها السابق، لأنها تبدو غير مكترثة للأموال، وطلابها الأغنياء يدفعون لها مبالغ كبيرة، تقيم فى هذه المنطقة فى مبنى ضخم، فقط لا تقلقى، تعالى معى". وافقت مع أنى لم يداخلنى أى أمل.

وهكذا بعد يومين ذهبت مع جولى للقاء السيدة كارلوتا بوسونى،

مغنية الأوبرا الشهيرة فى العشرينيات والثلاثينيات، فى مدرسة "جيه. إس باخ" للموسيقى فى شارع "فيكتور هوجو".

كان المبنى أوتيل بارتيكيوليه hôtel particulier ، البيت الخاص بالماركيز دو دى، عجز ورثته عن الاحتفاظ به بعد وفاته فى العشرينيات فباعوه إلى مدير فرقة هاجر إلى أمريكا قبيل الحرب. استولى عليه الألمان خلال الاحتلال، واستخدموه جزءًا من المقر الرئيسى للقيادة العليا، ثم بيع بعدها مرة أخرى ليتحول إلى مدرسة للموسيقى. من امتلكها الآن أو أدارها؟ كانت هناك سكرتيرة فى الطابق الأول، ولكن قلما جلستْ هناك. البادى أن المكان أدار نفسه، والحق أن لا يوجد الكثير ليُدار: تم تأجير الغرف للمدرسين الذين أقاموا الفصول هناك بدلا من بيوتهم. تم تقسيم بعض الغرف، وجعلت جدرانها عازلة للصوت كى تُستأجر استوديوهات للتدريب، بينما بات البهو الضخم فى الطابق الأرضى صالة صغيرة للحفلات.

أفضت بوابة من الحديد المطاوع من السرير إلى حديقة مربعة من الزهور والشجيرات بحمام سباحة صغير فى المنتصف، كانت يوما فى منتهى الجاذبية، وإن بدا الآن كل شىء مغطى بغشاء من الإهمال. قام على قاعدة فى منتصف حمام السباحة "كيوبيد" بذراع مكسورة وكنانة متكسرة الحواف تحوى سهاما. خرج الماء فى الماضى من رأسه إلى روح الأميرة التى أحبها كيوبيد، ثم إلى الحوض. ولكن توقفت المياه عن التدفق منذ زمن طويل، والمياه فى حمام السباحة كانت أدنى من السابق بقدم، لونها غير شفاف، ضارب إلى الخضرة، وسواسن المياه مجرد

أوراق متفرقة ذابلة. بدت النباتات هى الأخرى جافة جفافا دائما، رغم أن هناك بستانيا ـ لا بد ـ فى مكان ما، حتى لو لم تقع عليه عين مطلقا، وإلا لماتت النباتات كلية، وعند نهاية الحديقة الصغيرة تقوست سلالم مزدوجة عاليا بكل أبهة نحو الباب الأمامى.

فاض البهو فى المدخل بأصوات الموسيقى النابعة من خلف أبواب الفصول والاستوديوهات، آلات كمان تتنهد، وكمنجات تئن، وآلات الفلوت والكلارنيت تصفر، وصوت البيانو يرتعش فى نغمات مرتفعة لطيفة. كان المكان وكأن أوركسترا كاملة تضبط الآلات قبل إحدى الحفلات الموسيقية، كان فصل السيدة كارلوتا الأول على اليمين: غرفة ضخمة مشرقة، تطل على شارع جانبى من نوافذ مزدوجة، خالية عدا من بيانو هائل الحجم ونصف دستة من الكراسى. ما كانت تعطى دروسا منفردة، فقد اعتقدت أن التلاميذ فى المجموعات الصغيرة يتعلمون من بعضهم بعضا كما يتعلمون منها.

كانوا يعزفون لحنا، كانت السيدة كارلوتا بوسونى جالسة إلى البيانو تصاحب مغنية سوبرانو ضخمة الجسم مبهجة للحواس فى بذلة غامقة، الكونتيسة ـ امرأة فرنسية متزوجة بكونت إيطالى ـ كانت واحدة من أقدم تلميذات السيدة بوسونى فى خلال فترة دراستها، فى حوالى الأربعين من عمرها، كانت ترتدى ملابس على الموضة وتضع مساحيق تجميل ثقيلة وعطرا ذكيا، أنتجه أحد صانعى الفراء حسبما أخبرتنا حين أطرينا عليه. نبعت جل جاذبيتها، إلى جانب قوامها الريان، من ذيل حصان سميك أشقر اللون لفته حول رأسها فى شبكة محكمة، مثلها مثل عش طائر. كان الغناء هوايتها، وإن تمنت أن تغنى فى أوبرا باريس فى يوم من

الأيام فى مستقبل لم تعبأ بقياس مداه. أطلقت عليها اسم "المعاش"، سوف تزود السيدة بوسونى بدخل منتظم لأمد طويل.

كان هناك رجلان يجلسان على كرسيين وينصتان بآذان مرهفة وعيونهم مسلطة على الكونتيسة، كان أحدهما رجل أعمال شابا يهوديا من مصر، هاجرت أسرته إلى فرنسا فى بداية الستينيات. عمل فى تجارة أبيه للتحف، ولكنه أراد أن يصبح مغنيا، وتمنى لو يتخلص من هذه الالتزامات لو وقع على عقد مع فرقة أوبرالية. كان الرجل الثانى مندوبا تجاريا لشركة أدوية، كان فى العقد الرابع من العمر، يَدرس من سنتين بالفعل بجدية ما بعدها جدية؛ فقد ألفى الغناء الوسيلة الوحيدة للخلاص من وظيفته الكئيبة، وقد نوى أن يحترف الغناء فى أى مستوى بمجرد أن يَقدر، وفى غضون ذلك رتب أوقات سفره بحيث يتمكن من حضور الدروس مرتين فى الأسبوع ويتدرب العديد من الساعات يوميا، وقد راكم بالفعل ذخيرة ضخمة من جلسات الاستماع.

انتهى اللحن، وجلست الكونتيسة وألقت السيدة بوسونى علينا التحية بابتسامة عريضة. كانت فى العقد السادس أو السابع من العمر، كان من الصعب تحديد عمرها بالضبط. كانت ترتدى ملابس مختلفة عن أية امرأة فرنسية رأيتها فى حياتى، بدلا من الملابس الأنيقة الرزينة المعتادة للسيدات الموسرات، كانت تلبس ألوانا بنفسجية فاقعة وألوانا أخرى زاهية، وكأنها طائر ما غريب ذو ريش متألق. أمّا أقمشة ملابسها وطرازها فلم تنتم إلى أى فترة من فترات الموضة، كانت قبعتها التى ارتدتها دوما سلة بنفسجية بباقة ورد من البنفسج على أحد الجانبين، وحجاب من الدانتيل البنفسجى رفعته أحيانا أثناء الدرس، إلا أنها أنزلته

مرة أخرى عند انتهاء الدرس. أحاط ظل أزرق غامق بعينيها الزرقاوين المخضرة، وتلألأ من خلف حجابها، بينما بدا أنفها المستقيم منحوتا من عاج نحيف، وسط بشرة من المرمر الشفاف، ورقدت عدة خصلات مجعدة شقراء فى استرخاء فوق جبهتها مثل ضربات الفرشاة فوق لوحة. ما وشى بعمرها إلا شفتاها، فقد اختل شكلهما، طلتهما بأحمر شفاه بلون الكرز يجرى فى جداول صغيرة حولهما.

ثبتت السيدة كارلوتا على وجهها ابتسامة دائمة ازدهرت فى الغالب لتنقلب ضحكا أشبه بخرير الماء، كاشفة عن طقم من الأسنان المثالية، طبيعية أم مزيفة؟ يستحيل تحديد طبيعتها. كانت ممثلة ترتدى ملابس تليق بمسرحية تعود إلى عصر إدوارد السابع، تنتظر فى أحد جانبى المسرح كى تعتلى خشبته، وكل الحرائر الشفافة والقفازات المصنوعة من جلد الجدى والقبعة المزهرة ومستحضرات التجميل والضحك كانت جزءا من محاولتها لحفظ جمال تمتعت به ولا شك فى يوم من الأيام.

علِم تلاميذها أن كارلوتا بوسونى كانت سوبرانو ناجحة، وغنت العديد من الأدوار العظيمة فى مسرح الذخائر الأوبرالى فى أكبر صالات الأوبرا الأوروبية، وأنها بعد تقاعدها باتت مدرسة كى تمرر خبرتها العظيمة ومناهجها للجيل الأصغر، وأنها عاشت فى مكان قريب فى الدائرة السادسة عشرة، ومع ذلك أحاطت بها هالة من الغموض. ألم تتزوج من قبل؟ لا أحد يعلم، ولكن لديها ابنا يدعى جينو، وقد خالجها كل الفخر به، كان رساما، كثيرا ما ذكرت أنه موهوب وحساس وجميل، قرة عينيها، و بحق سبب وجودها raison d'être.

"اكتشفها" التينور الإيطالى العظيم جيوفانى بوناردى، الذى جعلها تلميذته، وقدمها إلى الوسط الغنائى. هل كان جينو ثمرة حبهما؟ أو كان ابن عازف كمان مجرى هربت معه بعد أن هجرها وكسر قلبها؟ على أية حال تربى جينو على يدها وحدها، وقد أبلى بلاءً حسنا فى المدرسة وانضم إلى الجيش عند اندلاع الحرب وهو لم يَبلغ الثامنة عشرة. ما لبث أن جُرح فى الحرب، وقضى فترة فى المستشفى حيث التأم جرحه الجسدى بسرعة، ولكنه عانى صدمة ما بعد القذائف، وما تعافى كلية قط من الانهيار العصبى الناتج عن ذلك. حلت به نوبات قاتمة منتظمة من الاكتئاب والشلل والسلوك العنيف، وعجز عن الاحتفاظ بوظيفة وكسب القليل من المال من رسوماته.

تكونت تلك الصورة الإجمالية من كسرات من المعلومات نثرتها كارلوتا بوسونى، ولم يصبر أحد أبا جينو. "ابنى فنان رسام" artiste Peintre ، كانت تقول بنبرة ملؤها الفخر والحب، "موهوب جدا، مهذب جدا." كثيرا ما تخلل درسها نوادر من ماضيها ولقاءاتها بمغنيين وموسيقيين مشهورين من عصرها وأدوارها المهمة، إذ كانت تعود دوما إلى "بوناردى العظيم"،وما قاله وما فعله كى يوصل قطعة موسيقية احترافية يعرفها حق المعرفة. ولكن كلامها لم يكن محددا قط، فما ند عنها إلا أن أعطتنا مواد يمّكن أن يصنع منها خيالنا صورة، اعتبرناها فيويلتا تموت بين يدى أرمان - بوناردى، اعتبرناها عروس لاميرمور تفقد عقلها من الحب، اعتبرناها مارجريت، صبور حلوة فى انتظار فاوست، اعتبرناها يوريديس تتبع أورفيوس خروجا من الجحيم ... رأيناها داخل حجرات مزخرفة لتغيير الملابس فى المسرح، تتزين بباقات الزهور فى نهاية كل عرض،

يطاردها الأحباء المنتشون المهدِّدُون بالانتحار إن لم ينالوا حبها. يا للرومانسية!

طلبت منى فى ذلك اليوم الأول أن أغنى أغنية، فغنيت بدون موسيقى أغنية أيرلندية تعلمتها من بيتى Betty فى المدرسة الثانوية Lycée: "آخر زهرة فى الصيف". أنصتت، وحين أكملتها مضت إلى البيانو وأعطتنى بعض الأغانى لغنائها مرتفعة عاليا عاليا ما أمكننى من متابعة، وبعدها التفتت إلى جولى بإيماءة درامية: "لقد جلبتِ لى هدية!" أخبرتْها ثم والت المجاهرة بالمزيد من تعليقات تنم عن المديح. حسبتها تتعمد أن تكون لطيفة ليس إلا أو ربما ظنتنى أميرة إيرانية غنية مثل الكونتيسة، ومن الممكن أن أصبح مصدرا للدخل لها، ولكن جولى أبلغتنى أنها أخبرت مغنية الأوبرا بالفعل أننى مجرد طالبة مفلسة عاجزة عن دفع أجرها بالكامل.

"ما يهم فى النهاية هو النبرة وجرس الصوت"، قالت، "وهو ما يجعل صوتين لهما نفس القدرة الصوتية مختلفين عن بعضهما بعضا. إنه الإصبع الذى يلامس أوتار القلب، مدخل الروح، كما هو الحال مع العينين ـ فشكلهما ولونهما لا يهمان، وإنما النظرة البادية منهما. يروقنى جرس صوتك يا عزيزتى، ويسعدنى سماعه، سوف أعلمك". سرعان ما اتفقت معها على حضور حصصها ودفع ما يسعنى دفعه متى أستطيع دفعه، ولكنى شعرت بتأنيب الضمير رغم أن جولى طمأنتنى أن لا بأس من هذا الاتفاق. "سوف تجدينها "تحلب" الكونتيسة والضبى المصرى، بل إن المندوب التجارى يدفع لها الأجر كاملا. على أية حال ربما ليست فى

حاجة إلى الأموال، فمع مسيرتها المهنية السابقة لا بد أنها مؤمنة ماديا تمام التأمين".

وهكذا استقللت المترو مرتين فى الأسبوع إلى طريق فيكتور هوجو، وحضرت دروس كارلوتا بوسونى بين الساعة الخامسة والسابعة فيما بعد الظهر: "هناك صوتان عظيمان"، شرحت، "السوبرانو والتينور، تقريبا كل الأجزاء العظيمة فى الأوبرا مكتوبة لهما. صوتك الآن ميتسو-سوبرانو [متوسط الارتفاع]، ولكن لا مانع من توسيع صوتك كى يحرز المزيد من النغمات الموسيقية التى تحتاجها السوبرانو الدرامية، بمقدورك عندها غناء أجزاء من الميتسو والسوبرانو - مثل المغنية كالاس التى تغنى الآن أوبرا كارمن وكذلك فيوليتا، سوف يستغرق الأمر عاما تقريبا".

راقنى صوتا كونترالتو والباريتون، لأنهما لاحا لى أعمق وأكثر قتامة، يصلان إلى فرسخ أو فرسخين أعمق فى مياه النفس المضطربة، أو ربما لأن تلك هى الأصوات التى تناهت إلىَّ فى صغرى: أبى وهو يصلى ويتلو القرآن، والمغنيات للأغانى التقليدية التى سمعتها فى المذياع والأفراح، وفتيات الريف وهن يغنين وقت الحصاد أو يقلن تهويدة لأطفالهن:

نم يا قلبى الصغير

فحصاد الحياة ما هو إلا الأسى...

قصدت متجر الموسيقى الواقع فى طريق جرون أوجستين، واشتريت تمرينات النطق والأغانى التى اقترحتها: فوريه ودوبارك إلى قصائد بودلير. اقتصدت فى كل شىء كى أدفع الحد الأدنى مما يجب دفعه فى الدروس، وفى غضون الشهور اتسع صوتى بصورة طبيعية كى يصل إلى النغمات الأعلى التى احتجتها، ولكنى ما أحببت حقا إلا الطبقات

الخفيضة والمتوسطة، يمكننى أن أغنى بصوت أكثر انخفاضا من أغلب مغنيات السوبرانو، وعندى نحو ثلاث نغمات.

علمتنا كارلوتا بوسونى الغناء بدون إجهاد الصوت، والتنفس بصورة صحيحة، وتقسيم العبارات الموسيقية، وتوصيل العواطف بتمكن، وهي أساليب سوف تفيدنى كل الإفادة فى وقت لاحق. "لا بد أن تتركى الصوت ينزلق فوق وسادة من الهواء". يسعنى أن أسمعها وهى تقول ثم تواصل الشرح، تتنفس بعمق، توزع جرعة الهواء عبر عبارة طويلة ثم تتركها تخبو.

كانت تلك أول مرحلة من التدريب، ولكنها مرحلة حيوية، والآن متى أسمع ألحانا معينة أو نغمات أو أجزاء من أوبرا، تنثل على ذاكرتى فى حصص كارلوتا: أراها تقف من كرسى البيانو لتغنى سطرا ـ صوتًا متموجًا، طبيعيا ورشيقًا كقوس قزح. لا تزال تمتلك صوت سوبرانو عاطفيا خليقا بالفتيات، مهما فعلت بها الحياة، لم تفسد أحبالها الصوتية: هبة الله، وقد حافظت عليها خير محافظة.

ذات أمسية قبل عطلات الصيف ذهبت إلى مدرسة "جيه. إس. باخ" للموسيقى، ووصلت بعد بضع دقائق. كان الفصل شاغرا، بدون سكرتيرة، ولكن رجلا يصعد السلالم أخبرنى أن السيدة بوسونى ألغت حصتها منذ قليل لتوعكها، وأن الطلبة الآخرين كانوا هنا بالفعل وانصرفوا. ولأنها كانت تقيم فى الجوار فكرت فى شراء بعض الأزهار والفواكه من أجلها، وأن أزورها فى حال احتاجت إلى أية مساعدة، وإن لم أشك فى أن عندها خادمة. عرفت عنوانها من مدرس آخر، واشتريت باقة من زهور

البنفسج من كشك للزهور وبعض الكرز من البقال، وسرت إلى مبناها. وجدت فى الداخل كشك البواب أسفل قنطرة، وسألت عن شقتها.

"تعيش فى شقة مدام دو بيرى، الشقة الثانية يمينا."

تصورت أن يكون بيتها فخما مليئا بذكريات ماضيها الجليل، ماذا يعنى ذلك إذن؟ لا ريب أنها مستأجرة فى بيت أحدهم؟ ارتقيت السلالم ورننت الجرس. لم يجبنى أحد، ولكن الباب لم يكن مغلقا، لذا فتحته ودخلت، خيمت الظلمة والهدوء على الممر، فاحت منه رائحة عفنة ضاعف منها الهواء الراكد وكرات العث. مالت مرآة مزخرفة ضخمة مطلية بالذهب قليلا إلى الأمام من منتصف الحائط فوق مائدة قامت عليها زهرية فارغة من الخزف الصينى. يسارا كانت غرفة الاستقبال، تضم كراسى على غرار كراسى عهد الملك لويس السادس عشر وموائد منخفضة، استطعت أن أسمع أصوات تنبعث من خلف باب مغلق عند نهاية الممر، وكأن هناك شخصين ينخرطان فى جدال محتدم، تتبعت الصوت وطرقت الباب بخفة، ما أجابنى مجيب فدفعت الباب قليلا وانسللت إلى الداخل ليواجهنى مشهد غريب.

كانت الغرفة طويلة تكتظ بالأثاث والملابس والزينة والتحف bric-à-brac فراش ضخم مزخرف على شكل قارب بأهداب ذهبية وحمراء داكنة تتهدل من لوحة السرير الرأسية، قام مصباح بظلة وردية اللون إلى جانب السرير فوق مائدة مستديرة، تجمعت ستائر من القطيفة الحمراء الداكنة إلى جانب لتكسو نافذة تمتد من الأرضية إلى السقف، وتطل على فناء أشبه بالبئر، ومن النافذة شق ضوء ضبابى أشبه بالغسق

شريطا فوق الأرضية. عكست مرآة ضخمة مطلية بالذهب فوق رف مدفأة جزءًا من الغرفة، ملأت خزائن صغيرة وخزائن كبيرة وكراسٍ مغطاة كلها بالملابس والحاجيات بقية المساحة، كانت هناك امرأة فى برنس فضفاض مطبوع عليه زهور تجثو بجوار السرير وهى تنتحب قائلة: "كفى!... أسيِّه! أسيِّه..." Assez! Assez انزلق برنسها فتعرى أحد كتفيها، أمكننى أن أرى جسما كما الهيكل العظمى، نتأ عظم كتفها من اللحم وثدياها بدوا مثل ثمرتى يقطين جافتين متغضنتين تتدليان من صدرها الأجوف. التصق شعرها الخفيف بفروة رأسها، به عدة خصلات صفراء متموجة تنسدل فوق جبهتها، لم تنفك تزيحها بيديها المليئتين بالعظام. كانت تتضرع إلى شاب يقف بجوار خزانة أدراج قريبة من النافذة: صغير القامة، نحيل الجسم، بشعر أسود متموج وعينين تلمعان فى شبه الظل مثلهما مثل جمرتين، ـ القديس يوحنا المعمدانى فى لوحة بدائية. جينو! دار ببالى. الفنان الرسام artiste peintre الموهوب المهذب.

"لماذا لم تتخلصى منى مثل الآخرين؟" قال فى احتقار. "لم سمحت لى أن أخرج إلى هذا العالم؟ كارلوتا بوسونى الكاذبة! كارلوتا بوسو، عاهرة بوناردى! مغنية فاشلة! ما تجاوزتِ قط مسارح حقيرة فى بلدات صغيرة! أوبرا لاسكالا بحق! إنها أقرب إلى مسرح البلدية فى مدينة كليرمو-فيرو! لى رغبة فى أن أفضحك أمام طلبتك الأعزاء وأتركك لتموتى من الجوع!..."

"أرجوك! Arrête أتوسل إليك!" قاطعته. ليس من المفروض أن أكون هناك، جال ببالى، أشاهد هذا الطقس السرى الطافح بالاتهام المضاد

والأسى بين أم وابنها. انحبسا فى جحيمهما فلم يسمعانى وأنا أسير على رءوس أصابعى، ربما أستطيع أن أتراجع بهدوء... ولكن فات الأوان! هناك شىء دفع جينو إلى أن يدير عينيه الملتهبتين ويرانى. انطلق عبر الغرفة كالنمر، كان ليرتطم بى لو لم أبتعد عن مساره، اندفع اندفاعا، سمعته يجرى فى الممر ويصفق الباب الأمامى. نهضت كارلوتا وانهارت فوق الفراش كدمية مهترئة بالية، أبصرتنى هى الأخرى فندت عنها آهة تنبئ عن يأس. دنوت منها وجلست على طرف الفراش وأمسكت يدها فى محاولة منى لتهدئتها: "لقد أتيت لأرى إن كنت فى حاجة إلى شىء وأحضرت لك هذه،" وأعطيتها زهور البنفسج وكأن جمالها البسيط بمقدوره أن يخفف بؤسها، وبصعوبة رسمت على وجهها ابتسامة وشكرتنى. هل هناك أى شىء أستطيع أن أحضره لها؟ أشارت إلى خزانة حيث وجدت زجاجة كونياك وجلبتها لها، أخذت كأسا من المائدة القائمة بجانب السرير وصبت جرعة شربتها.

"ليست تلك عادته، أقسم لك، إنه فى مثل رقة الحمل، محب، مضحك، يا إلهى! Oh Dieu إنها تلك النوبات... ماذا يسعنى فعله؟... ليتك لم تسمعى كل ذلك..."

"لن يَعلم أحد أبدا، أبدا، أبدا! من فضلك تأكدى تماما من هذا"، طمأنتها، أبقت عينيها مغلقتين، وبدون ملابسها المعتادة لاحت عجوزا عاجزة، لبثت معها بضع دقائق ثم غادرت، منهكة من فرط الشفقة مستنزفة كلية. سرت بحذاء نهر السين كى أستعيد رشدى، كانت أمسية صيفية دافئة، نشرت الشمس الغاربة ضوءا ناعما فوق الأشجار والمياه

اللامعة، والمراكب تخوض المياه بمشقة وبطء، ارتجف كل شىء ليرد صدى الارتعاش داخلى، ارتعاشًا مرده المشهد الذى شهدته. أدرك كيف شيدت كارلوتا بمهارة واجهة من الشهرة والنجاح السابقين فى عقولنا. "عندما مثلت دور ديدمونة فى ميلانو..."، وقد أضفنا بلا وعى "فى أوبرا لاسكالا". عندما لعبت دور مارجريت فى ألمانيا..."، فتفكرنا فى برلين. كان دور فيوليتا فى إنجلترا ولا شك فى منطقة كونفينت جاردنز، أوبرا باريس، فيينا... لم تؤكد شيئا، فقط زرعت البذرة فى خيالنا الغض. كانت فى الحقيقة ممثلة ثانوية تعمل مع فرق أوبرالية ثانوية، دمرت فرصها بالعلاقات الغرامية وحالات الحمل والإجهاض. كان جمالها هو سبب خرابها؛ رافقها الرجال وهجروها. ولكن ماذا يهم فى كل ذلك؟ تنعم بصوت جميل، حتى الآن، ممتلئ ورخيم كالخوخة، وكانت مُدرسة ماهرة متحمسة، وصائبة الرأى، وواسعة المعرفة، وطيبة وكريمة.

كان يومها آخر يوم بيننا قبل الإجازة الصيفية، قررت ألا أرجع؛ سوف أصيبها بالحرج لو ذكَّرتها أنى رأيت ما وراء الحجاب الذى نسجته بكل براعة كى تبقى على قيد الحياة. ومَن يلومها؟ ألسنا ما نختار أن نكونه؟ ومَن لم يضطر إلى إخفاء ضعف أو خزى خلف قناع اجتماعى؟

كانت جولى تتزوج وتنتظر طفلا، الكونتيسة المبهجة للحواس سوف تستمر إلى الأبد لتوالى خيالاتها الجامحة بلا أية خطط كى تصير محترفة. سوف يبرم المندوب التجارى عقدا مع فرقة أوبرا قروية فى الجنوب، وفى النهاية سوف يهجر وظيفته المكروهة مع شركة الأدوية مهما كانت النتائج، وسوف يتخلى تاجر التحف المصرى عن الغناء كلية.

اتفق أن التقيت به فى لندن بعد انصرام عدة أعوام، وعرجنا على مقهى لاحتساء فنجان من القهوة، أنهى إلىَّ ببقية القصة، رجعوا جميعا عقب العطلة الصيفية، ولكنه لم يعد إليها طويلا. كان قد انتهى إلى النتيجة البائسة: لا يمتلك صوتا يستحق التضحية بحياته، وقد قرر أنه من الأفضل أن يصبح تاجر تحف ناجحا له القدرة على ارتياد الأوبرا بدلا من تينور مفلس من الدرجة الثانية طيلة حياته، كان لا يزال مولعا بالأوبرا، والحق أنه كان فى لندن لهذا السبب. وماذا عن كارلوتا بوسونى؟ رأتها الكونتيسة حتى ماتت، بعد سنتين، من جراء ما بدا أنه نوع غريب من سرطان متسارع، حسبتها ماتت من جراء أزمة قلبية درأتها ما استطاعت من وقت. لا أحد علم ما جرى لجينو، أنا عن نفسى لم أرجع قط لأراها رغم رغبتى فى رؤيتها، لن أذكرها إلا بمعرفتى لسرها. شعرت أنه من الأفضل أن أبتعد وأدعها تنسى، فقد كنت قبل كل شىء طالبة أجنبية ربما عادت إلى بلدها. اتفقت مع جولى على تقديم العذر لو سألت عنى.

ومع ذلك ما زلت أغنى أغانى عديدة درَستها معها، وإن غنيتها فى الطبقة المنخفضة الطبيعية بالنسبة لى. آخر أغنية غنيتها معها كانت أغنية مارجريت فى أوبرا بيرليوز لعنة فاوست La Damnation de faust، لا أزال أرى كارلوتا تتطلع إلى الأفق وتغنى: "إننى حبيبتك! إننى حبيبتك! J'étais tantaimée! J'étais tant aimée" تترقرق عيناها بالحنين وتعبيرها يشى بيأس لا متناهٍ من طغيان الزمن، وبعد أن تشرح تقسيم الجملة والعواطف تتحول إلينا فجأة قائلة: "إذن؟" غنيت الأغنية كاملة فى آخر درس حضرته، وقد تولت نهايتها:

هل سنتقابل أبدا فى هذه الحياة؟ حماقة!...

Nous verrons - nous Jamais dans cette vie? folie!...

تسأل السؤال بقدر من التوق، والإجابة تجىء بابتسامة حزينة تنم عن الاستسلام، اللحن يتقوس فى تصميم لا ينقصه العمق.

أهم الآن فقط - أخيرا - بتسجيل الأغنية التى غنيتها فى ذلك اليوم الأول الذى قصدت فيه فصلها، أغنية توماس مور، "آخر زهرة فى الصيف":

آه، قد أتبع سريعا، عندما تضمحل الصداقات

ومن دائرة الحب المشرقة تسقط الجواهر

عندما ترقد القلوب الحقيقية ذاوية وتطير القلوب المغرمة

آه، سوف نسكن هذا العالم الكئيب وحدنا...

١٥ ـ قائد الفرقة الموسيقية والمغنية الأولى

لا يوجد فنان لم يمتزج به العذاب.

جان جينيه

ذهبت فى يوم من الأيام فى مستهل سبتمبر إلى معهد الموسيقى ـ الكونسرفتوار ـ فى شارع مدريد بالضفة اليمنى كى أسأل عن مدرسى الموسيقى، فقد رغبت فى تكملة تمريناتى. أعطتنى موظفة الاستقبال قائمة بأسماء الأساتذة، وقالت إنهم جميعا يعطون الطلاب دروسا خصوصية كى يدخلوا امتحان القبول. كان أول القائمة رجلا بدا غاية فى الغضب حين اتصلت به، وكأنما قاطعت شأنا ذا بال، عنده ما يكفى ويزيد من الطلبة، ولن يَقبل المزيد لو بُعثت مغنية الأوبرا ميلبا نفسها من الموت وظهرت على عتبة بابه!

اتصلت بعدها بالسيدة بياتريس جاليه لألفى قائمتها هى الأخرى ممتلئة، ولكن عندما أخبرتها أنى إيرانية، طلبت منى فى الحال أن أذهب لأقابلها، وقد "تضعنى" مع أحد الزملاء. (اتضح أنها كانت تُدرس لطالبة إيرانية أخرى ذات صوت ذهبى، بيد أنها ماتت فجأة فى سن الثانية عشرة).

كل ما كانت كارلوتا بوسونى عليه فى الخيال، كانت بياتريس جاليه عليه فى الحقيقة. أقامت فى مبنى فخم يقع فى شارع فوش أفنيو بالقرب من قوس النصر. امتد المنظر من نوافذها فى جانب حتى المسلة وإلى ما وراءها، إلى حيث تبدد امتداد المدينة فى سديم وهمى، وفى الجانب الآخر أشرفت على الرقة الخضراء لمتنزه بوا دو بولون.

دلفت إلى صالة هادئة باردة باعتدال تكسوها سجادة حمراء، حيث أفضى سلم عريض من الدرجات الضحلة والقضبان النحاسية اللامعة إلى الطوابق العليا. كانت هناك شقة فى كل طابق، وكانت السيدة جاليه فى الطابق الثالث. كان مصعد من الحديد المطاوع والزجاج موجودًا بجوار السلالم، استقللته، فتحت خادمة الباب وقادتنى إلى حجرة مكتب بجوار غرفة الاستقبال، وهناك كان أحد الدروس على وشك الانتهاء. استطعت أن أسمع صوت البيانو، صوت ذكر يغنى ثم صوت أنثى يكرر نفس العبارة أو يبادله كلمة... سرعان ما اقتربت الخادمة من جديد وقادتنى إلى الصالون salon: غرفة استقبال مترفة فسيحة الأرجاء، حوائطها مدهونة بالأزرق و"الكريمى" وأثاثها من قطع يعود طرازها إلى الإمبراطورية الفرنسية الأولى وثريا ضخمة من الكريستال. غطت ستائر من الدانتيل ألواح النوافذ الطويلة، وأحاطت بها أقمشة فضفاضة زرقاء سميكة من الحرير أطلت على حديقة أمامية يعمها الهدوء. استقر بيانو كبير فى أحد الجوانب، تنتثر عليه "نوت" موسيقية وعدة صور لأناس فى ملابس أنيقة فيما قبل الحرب. تعلقت على الحائط صورة شخصية لها ومشاهد طبيعية ورسوم ولوحة ضخمة لقائد إحدى الفرق الموسيقية أمام الأوركسترا.

كانت بياتريس جاليه فى نهاية العقد السادس من العمر، لم تزل تتمتع بجاذبية أى جاذبية؛ متوسطة الطول، من الواضح أن خصرها زائد فى الوزن، ولكنها تنتمى إلى جيل مغنياته يمتلكن أجسادا ريانة وصدورا ممتلئة، وجهها شاب وبشرتها نضرة، بلا علامة واضحة على إتلاف الزمن. سحبت شعرها البنى المحمر خلف أذنيها وثبتته بمشبكين bar-rettes وفرقته من المنتصف، وارتدت ماسة واحدة فى سلسلة رقيقة تدلت فى فتحة فستانها الأزرق وخاتما مماثلا فى يدها اليمنى. وشت حركاتها ووقفتها بالكبرياء كما ينبغى لمن قضت تحت الأضواء طيلة حياتها.

قدمتنى بعد تبادل عدة كلمات إلى العازفة على الآلة المصاحبة، الآنسة جاكلين رولان، شابة فى نحو الثلاثين من عمرها، آية فى الجمال، بشعر بنى متموج وعينين فى مثل زرقة ولمعان بحيرة جبلية فى يوم صيفى، تخففت من قلقى بمجرد أن رأيت ابتسامتها المطمئنة.

"كما قلت فى الهاتف لا أماكن لدىَّ"، قالت السيدة جاليه، "ليس عندى إلا طالب أو اثنان كى أعدهما لامتحان القبول فى المعهد، ولو نجحا أضمهما إلى فصلى، ولكن دعينا نر ما لديك."

لم أخاطر، وغنيت أغنية دوبارك لقصيدة الشاعر فيرلين "السماء فوق السقف"، برفقة جاكلين عازفة البيانو. أبدت إطراء أقل فى رد فعلها على صوتى من كارلوتا بوسونى، ولكنها رسمت على وجهها ابتسامة. "لديك صوت جيد وجرس جميل، ولكن لا بد أن تتعلمى المناهج وبعض النظريات"، وعندها تطوعت جاكلين: "يمكننى معاونتها فى ذلك الأمر".

حكيت لهما أنى أحببت الموسيقى دوما، وأن هناك مُدرسة موسيقى

فى المدرسة الابتدائية فى إيران عرضت تعليمى مجانا لو استطعت تدبير كمان صغير، غير أن والدىَّ عارضا الفكرة بكل قوة. تعلمت قراءة "النوت" الموسيقية فى المدرسة، ولكنى لم أتعلم المزيد. عندما غادرت، قالت السيدة جاليه إنها سوف تتصل بى فى اليوم التالى بعد التحدث إلى زميل سوف تحاول أن تقنعه بقبولى، ولكنها عندما اتصلت قالت إنها ستقبلنى هى، وإن جاكلين سوف تعَلمنى النظريات والغناء بدون أى تدريبات مسبقة وتعاوننى فى العزف على البيانو.

لا شك أنى يجب أن أحصل على بيانو، إمَّا باستئجار استوديو تدريب بالساعة أو استئجار بيانو عمودى صغير. ولكن أين أضعه؟ ما كان مسموحا لنا بوضع مذياع فى الغرف، فما بالك بشىء أكثر صخبا وإزعاجا للمقيمات الأخريات؟ وكيف يمكننى دفع تكلفته؟ تحدثت إلى السيدة جيرو فى بيت الطالبات التى اقترحت أن أستأجر بيانو به كاتم للصوت، وأن أضعه فى البدروم وأستخدمه فترة قصيرة فقط كل يوم كى أقلل من احتمالية إقلاق أى أحد. خلا البدروم عدا من كراس وموائد مكسورة وبضعة صناديق وأكوام من السجاجيد القديمة والكتب المرمية، وقد امتد بعرض المبنى بأكمله، كانت صفقة رابحة.

كان يوجد متجر لبيع الآلات الموسيقية بالقرب من الكافيتريا التى كنا نتناول فيها وجباتنا، فى جادة سان ـ ميشيل، أعطونى بيانو عموديا صغيرا مقابل إيجار شهرى صغير. جعلتنى بياتريس جاليه أدفع أجرا رمزيا مقابل الدرس الأسبوعى، واقترحت جاكلين أن نتبادل الدروس: سوف أدرس الموسيقى معها لمدة ساعة، ثم سأُعلمها الإنجليزية لمدة

ساعة، ما تبدى لى سبب رغبتها فى تعلم الإنجليزية إلا بعد مضى فترة طويلة.

كنت لا أزال طالبة أحضر المحاضرات وأذاكر بدوام كامل فى السوربون، فكان علىَّ أن أرتب جدولى بحرص. وعليه ظهرت كل أربعاء فى شارع فوش أفنيو فى نهاية اليوم لحضور درس الغناء، وفى أيام الاثنين قصدت شقة جاكلين فى شارع سان - دينى لتعلم الغناء بدون تدريبات مسبقة، مع أوليات البيانو، وإعطائها بعدئذٍ درسا فى اللغة الإنجليزية، كانت لغتى الإنجليزية جيدة بما يكفى لتعليم مبتدئة. ولكن جاكلين لم يتوافر لديها وقت فراغ فى أغلب الوقت، فتعلن بعد إعطائى الدرس لمدة ساعة: "عندى اليوم عمل كثير، ربما فى المرة القادمة". الحق أن هذا الدرس المزعوم لم يكن إلا مبررا كى تُعَلمنى مجانا بدون أن تُشعرنى بالإلزام.

قالت بياتريس: "بما أنك إيرانية سوف نبدأ بتعليمك أغنية هاندل "الملك احشويرس"، كان خيارا مثاليا: رخيم، حزين، بسيط كما هو حال أجمل الألحان، وقد ناسبنى بكل الطرق، فقد كنت بحلول هذا الوقت سوبرانو درامية، وقد اشتريت قطعا موسيقية تلائم قدراتى الصوتية. غنيت أيضا بادئة بالأغانى "السهلة"، مثل أغنية شوبرت "السلام المريمى" وأغنية جرييج "اغنية سولفيج" ثم اتجهت إلى الأغانى الألمانية الليدة Lieder المغناة بصحبة البيانو ومختلف الأغانى، كلها مترجمة إلى الفرنسية.

سرعان ما تطورت صداقة بينى وبين المدرسين الجدد، وأحيانا ما بقيت بعد الدرس لاحتساء فنجان من الشاى بالليمون والدردشة. أخذتنى

بياتريس ذات يوم إلى غرفة أخرى، وراء الصالون، حيث احتفظتْ بأزيائها القديمة، مساحة مخصصة للماضى للحفاظ على الذاكرة. فوق تماثيل عرض الملابس، داخل خزائن زجاجية، منتشرة فوق مقاعد طويلة كانت تذكارات مسيرتها المهنية المجيدة: أزياء تحوى خيوطا ذهبية وفضية رقيقة، وأزياء من القطيفة والشيفون، بعضها ثقيل وبعضها شفاف، مرصعة بالجواهر أو غير محلاة، بينما تعلقت على الحوائط صورا ضخمة تُبرزها وهى مرتدية تلك الأزياء. كانت هنا فى دوْر تاييسTaïs، هناك فى دور سالومى Salome، وفى دور مارجريت فى أوبرا الملحن جونو فاوست Faust، وفى دور مانون Manon وفى أكثر أدوارها تأثيرا: دور ميمى فى أوبرا البوهيمى La Bohéme" تعود كل الأدوار الغنائية العظيمة إلى ما يزيد على ثلاثين عاما مضت". وفقا لجاكلين. إكسسوارات، وأحذية، وأخمرة، كان كل شىء مرتبا وكأننا فى متحف للأزياء، تضعه خادمتها سولانج فى نظام لا تشوبه شائبة. كانت الستائر مغلقة كى تحمى كل شىء من أشعة الشمس، وكانت الأبواب والنوافذ مضادة للتراب، ولم يبدل أية تسخين مركزى للهواء درجة الدفء والرطوبة.

أملت علىَّ غريزتى أن أخفض صوتى، وكأنما كنت حقا فى مكان مقدس، وسألتها كم من المرات تزور هذا المعبد الطافح بالذكريات؟ "آه، لا أزوره أبدا تقريبا!" فرت منها قهقهة عصبية، كانت تعلم أنها هناك، فى متناول يديها، وهو المهم لها، من المهم أن تسبغ واقعا على حياتها السابقة. استدعيت فى النهاية الشجاعة كى أسألها عن سبب عدم زواجها أبدا؟ "آه! إنها قصة طويلة!" قالت، وهى تقودنى عائدتين إلى غرفة الاستقبال وتغلق الباب، ثم كاشفتنى فى يوم من الأيام.

تنتسب إلى أسرة متواضعة من صغار التجار، أصغر أولاد والديها، لديها أخان أكبر منها كثيرا، وهما الآن ميتان. لاحظت أمها فى مرحلة مبكرة من حياتها صوتها الجميل فشجعتها على الغناء، ودفعت تكلفة دروس الموسيقى والغناء، نجحت فى الثامنة عشرة فى امتحان القبول بالكونسرفتوار حيث تعرف عليها الجميع على الفور باعتبارها تلميذة نجمة، وبعد ثلاثة أعوام تخرجت من المعهد ونالت الجائزة الأولى. اضطر معظم المتخرجين إلى بناء مستقبلهم بأصعب الطرق، يخوضون تجارب الأداء فى الفرق الأوبرالية فى جميع أنحاء البلاد، ويحيون الحفلات الموسيقية الصغيرة، ويعطون الدروس. قد يَبلغ بعضهم فى النهاية دور الأوبرا العظيمة فى أوروبا، ولكن الفائز الأول والثانى من كل عام يتم إعفاؤهما من كل ذلك الكدح، وكانت القاعدة أن تعرض عليهم أوبرا باريس عقدا: سوف يبدآن من بداية الهرم، ومع تجنبهما البؤس سوف يسيران مسيرة سلسة طيلة الحياة المهنية بأسرها.

وصلت بياتريس إلى أوبرا باريس فى سن الحادية والعشرين كى تلعب دور مارجريت فى أوبرا جونو فاوست، قصدت الأوبرا الليلة تلو الأخرى، وتفرجت على الآخرين وهم يغنون، حالمة أنها سوف تقف ذات يوم فوق نفس ذلك المسرح. وها هى الآن، نجمة بالفعل، يحيط بها أناس متلهفون على إرضائها، ومع ذلك خفت حماستها من فرط الخوف. أن يكون المرء طالبا ذكيا أمر مختلف عن النجاح مع الجمهور، كان عقدها لمدة سنة واحدة، ولا بد أن تثبت نفسها.

أدار الفرقة الموسيقية ملحن شاب ومايسترو، دينى روسيل، وكان

يكبرها بنحو سبعة أعوام، ينتشر صيته بالفعل فى عالم الموسيقى. قدَّم مدير الأوبرا الاثنين، انحنى بكياسة وقبَّل يدها ثم نزل إلى مكان الفرقة الموسيقية، مرت البروفة بسلاسة، وبعدها هنَّأ المايسترو والمدير بياتريس. لقد بدأ ارتقاؤها كما الشهاب فى سماء الأوبرا، وفى خلال أعوام قليلة سوف تصير واحدة من حفنة من أشهر مغنيات أوبرا باريس وأحبهن.

ولكن حدثًا آخر وقع فى ذلك اليوم الأول، وقعت هى والمايسترو فى غرام متقد متعذر الرجوع فيه، وسوف يظلان مرتبطين بقية حياتهما. عندما أتت إلى بيتها فى نهاية ذلك اليوم الأول أوصلت باقة ضخمة من الزهور إلى شقتها الصغيرة، ومعها رسالة ترحيب قصيرة، وتوقيع دينى. وفى اليوم التالى دعاها إلى الغداء فى مطعم هادئ صغير بالقرب من دار الأوبرا، وراح يداوم على مغازلتها.

"هاك Eh voilà فقد كان متزوجا بالفعل، ولديه طفلان صغيران"، سردت، "وهكذا قاومت ما أمكننى رغم وقوعى فى غرامه فى ذلك اليوم الأول، حين أراه وهو يقود الفرقة أثناء غنائى، يخالجنى شعور بالأمان وكأنه يمسك بيدى ويقودنى إلى عالم جديد، ما كان عليه طيلة حياتى إلا أن يَظهر فى الأفق كى تتقشع سحب القلق".

"ومع ذلك قاومت حقا، ولكنه لم يَقبل كلمة لا، أخبرنى أنه تزوج صغيرا لأنه حسب أنها الخطوة الطبيعية أبدًا، وأنه لم يَخبر الحب الحقيقى حتى قابلنى، أمَا وقد خبره الآن، فلن يتركنى أبدًا، وعليه فقد استسلمت فى النهاية".

صارت محور حياته ومصدر وحيه، أهداها كل شىء كتبه، ووسمت كل قطعة موسيقية حروف اسمها الأولى، ولكنه كان أيضا مولعا بزوجته وعاشقا لأولاده، وقد اتفقا ألا يمسَّ بكيان أسرته. عاملتهما الفرقة أثناء الجولات الموسيقية وكأنهما زوجان، ووقف كل العالَم الموسيقى على علاقتهما الغرامية, ولكن فى باريس اضطرت إلى الاكتفاء بزياراته أثناء الأصيل، متى استطاع أن يبتعد عن التدريس والتلحين وقيادة الفرقة وحياته الأسرية. كلما تحيى حفلة موسيقية، كان يقوم بدور العازف المصاحب، يعزف البيانو كى يتبعها فى شتى أنحاء العالم ويضع عمله جانبا.

"ولكن مرت السنوات، وبدا وكأنى فى انتظار دائم له، حتى عندما كان موجودا كنت فى الانتظار! لذا تمردت أحيانا وشجعت واحدا من المعجبين الآخرين. تولته غيرة شيطانية، وبمجرد أن يكتشف أن العلاقة قد تتطور، يَظهر ويتصرف تصرفات مخيفة، يهدد الرجل المسكين ويجبرنى على قطع علاقة بالكاد بدأتها. كان يرصدنى كما التنين، ولكنى فى الواقع لم أرغب فى أى رجل آخر؛ كان رجلى الوحيد، شغل قلبى وروحى كلية. الرجال مختلفون، يمكنهم الحصول على عدة نساء، ولكنى أعتقد أن كل امرأة تحب رجلا واحدا فقط، والآخرون مجرد أخطاء أو يأس".

المعتاد فى تلك المواقف أن يضع أحد الفضوليين المعلومات على طبق من فضة ويقدمها إلى الزوجة، لا ريب أن هذا حدث لها. "إن حدث هذا أو لم يحدث، لن أعرف أبدًا، ما واجهته هى بالقطع قط، ولم يتطوع هو بتقديم أية معلومات".

ازدهرت مسيرتهما المهنية عبر السنوات، وبات كلاهما الآن أستاذا فى الكونسرفتوار، هو أستاذ فى التأليف الموسيقى، وهى أستاذة فى الغناء، كان أيضا ملحنا شهيرا، غير أنه اعتزل قيادة الفرق الموسيقية. كنت أسمع أحد ألحانه بين الفينة والأخرى فى المذياع، أو أبصر اسمه فى ملصقات الحفلات الموسيقية. عملت جاكلين رولان عنده موزعة ألحان وناسخة، وقد باحت إلىَّ بأنه لا يزال يجىء ويحتسى الشاى مع بياتريس كل يوم بعد انتهائها من التدريس، وأنه بعد انقضاء أربعين عاما انتهت حياتهما الجنسية، غير أن حبهما لا يزال أقوى مما مضى. التقى ناظراى بين الحين والآخر بكهل طويل القامة أنيق الملبس يصعد فى المصعد وأنا أهبط السلالم، عرفت الآن هويته. أخبرتنى بياتريس أنه لو لم يَحضر فى يوم من الأيام، تعلم أن خطبا وقع، تطلب من سولانج أو جاكلين أن يتصلا ببيته ويسألا عنه متظاهرين أن المكالمة تخص العمل. كانت زوجته ترد دائما، وتبين أنه متوعك من جراء برد أو مرض آخر أعجزه عن الوصول إلى الهاتف، تقول إنها سوف تنقل إليه الرسالة، كانت جاكلين متأكدة من طريقة كلامها أنها "تَعلم كل شىء".

تأملت موقفهم متسائلة عن رد فعلى لو كنت فى موقفهم، كان جيلى يرفض بالفعل مثل تلك "الترتيبات" راغبا فى الحب الرومانسى المتقد بدون أى تنازلات، ولكن هل كان حب بياتريس ودينى سيستمر ويكبر بقوة لو ترك أسرته وتزوج بها؟ أو أن غياب التعايش حفظه كنبتة رقيقة فى دفيئة تحميها من إهانات الحياة اليومية؟ حسبت أنى أُفضل موقف بياتريس على موقف زوجته، ولكن من أنا لأحكم؟ أفطن الآن أن أولاده لعبوا دورا أهم فى المعادلة، دورا لا يمّكن أن يتخيله أى شخص لا يملك أطفالا.

"قضيت حياتى فى انتظاره!" أنهت بياتريس ذات يوم بصوت يحمل شيئا من الإذعان.

علمت نهاية القصة من جاكلين فى العام الماضى: عندما بلغ الاثنان كلاهما نهاية السبعينيات ماتت زوجة دينى روسيل، وتزوج من بياتريس وانتقل للعيش معها. زينت غرفة من أجله وزودتها بالأثاث، ببيانو صغير حيث يمكن العمل فى هدوء تام. تزوج طفلاه الآن، ولديهما أسرتان، وقدقاما بجلبة؛ أى جلبة، إذ خافا أن يخسرا ميراثهما أمام هذه "المرأة الشريرة" التى اغتصبت مكان أمهما، وقد هددا برفع دعوى قضائية. أكدت بياتريس لهما أنها ـ فضلا عن عدم رغبتها المطلقة فى أن ترث أى شىء من حبيب عمرها ـ سوف تترك له كل ممتلكاتها الضخمة وأنه لو مات قبلها، سوف يرث أولاده وأحفاده أموالها، ولكن فقط عندما جعلت هذا الترتيب ملزما قانونيا، هدأت أنفسهم وتقبلوا وجودها.

وهكذا تمتع دينى وبياتريس معا بعدة سنوات تعمها السعادة المثالية إلى أن غلبهما العجز والمرض، ثم وافت المنية بياتريس ذات ليل فى سكينة وهى نائمة، من جراء أزمة قلبية مثلما افترضوا. كان دينى أعجز وأضعف من احتمال الضربة، واتفق الجميع على إبقاء الخبر سرا، ذهبت سولانج للبحث عنه وأنبأته أن بياتريس مضت إلى أحد المنتجعات الصحية لعلاج التهاب المفاصل.

"كنت أذهب لأزوره". أنهت جاكلين إلىَّ، فقد بصره تقريبا وإحساسه بتقدم الوقت، وكان يقول: "تعرفين؟ لقد استلمت للتو رسالة من بياتريس، سوف تعود غدا". لأن سولاج كانت تتظاهر أحيانا أن هناك رسالة له من

بياتريس وتقرأها له. يتحدث بين الفينة والأخرى عن الماضى البعيد وكأنه البارحة: "حذار من سيزار فرانك، فهو منافق!" يقول مشيرا إلى حادثة وقعت منذ خمسين عاما. كانت سولانج تتقدم فى السن ويصيبها أيضا الشلل، لذا عندما أدرك الموت دينى فى النهاية، عادت إلى قريتها ووافاها الأجل فى آخر الأمر".

ترك بياتريس ودينى كل أوراقهما ورسائلهما وقطعهما الموسيقية لجاكلين التى منحتها إلى المكتبة القومية الفرنسية، لم يكتب أحد حتى الآن سيرتهما ولا حكى قصة حبهما، قصة تمحورت حولها حياتهما. أمَّا عن هذه الأزياء الفخمة والصور فقد عرضها الورثة فى المزاد، والمفترض أن بعض الموسيقيين الشبان وجامعى المقتنيات اشتروها.

ولكن ماذا عن موسيقاه؟ "لا يعزفها أحد على الإطلاق"، أخبرتنى جاكلين، "فالموضة الآن هى الموسيقى المعزوفة بدون مفاتيح أو الموسيقى الإلكترونية، كما أنها ليست عتيقة الطراز بحق؛ وعليه فقد وقعت بين طريقين وتجاهلها الناس، ولكن بعضا منها جيد للغاية، وقد يَرجع إلى الساحة يوما ما".

كلما تتناهى إلىَّ أغنية فيرلين، دوبارك التى غنيتها فى اليوم الأول الذى ذهبت فيه لأرى بياتريس جاليه، أفكر فيها. كانت القصيدة جزءا من الحكمة Sagesse، وهى المجموعة التى كتبها فيرلين فى السجن، حيث سجنوه بعد أن أطلق النار على رامبو وارتكب العديد من الجرائم الأخرى. أعادته العزلة والندم والتقشف والتأمل إلى المسيحية، شأنه شأن قصيدة أوسكار وايلد أنشودة سجن ريدينج Ballad of Reading

Gaol، إذ تكشف القصائد عن بعد روحى وعمق إضافيين ينبعان من المعاناة. ولكن ما كنت أعتبرها مجرد أغنية شعرية جميلة تتسم بالكآبة باتت الآن تعنى لى الكثير:

يا إلهى، يا إلهى، الحياة هناك

بسيطة وهادئة

تلك الهمهمة الخفيضة هناك

تأتى من البلدة

ماذا فعلتَ، آه، أنت، آه، أنت

تبكى بلا انقطاع

قل، آه، قل، ماذا فعلتَ

بكل شبابك؟

ولكن ماذا جرى لجاكلين رولان؟ إنها قصة أخرى.

١٦ - أمهات وبنات

... الجنة تحت أقدام الأمهات

الرسول محمد(ﷺ)

عاشت جاكلين رولان مع أمها الأرملة، شغلا شقة صغيرة فى الطابق العلوى من مبنى قديم فى شارع سان مارك، شارع تصطف على جانبيه متاجر صغيرة ويعج بحشد محلى متعدد الأعراق، بدا كموقع لأحد أفلام الثلاثينيات فى القرن الماضى. جلس خياط طيلة النهار بحذاء أحد النوافذ إزاء ماكينة خياطة ترسل أزيزا، على حين تبعثرت على رصيف المتجر التالى تشكيلة بائع خردوات من الأدوات والأوعية، وعلى طول الطريق لاح الجزارون والخبازون ومحلات غسيل الملابس كلهم كممثلين يرتدون ملابسهم لأداء الأدوار، تليق عليهم الأدوار تماما.

وبين المتاجر قامت بوابات المبانى المغلقة فى أغلب الأحوال، تضغط زرا فينفتح الباب الصغير فى منتصف البوابة كى يدعك تَدخل الفناء المبلط بالحجارة. هناك سلم عند النهاية البعيدة، درجاته الحجرية مجوفة من المنتصف بفعل قرون من الاستخدام، أفضى السلم إلى بيتها الكائن فى الطابق الخامس.

وُلدتْ فى هذه الشقة الصغيرة، الابنة الوحيدة لوالديها، كان أبوها عازف كمان، لعب فى إحدى الفرق الموسيقية وأعطى دروسا خصوصية. حارب فى الحرب العالمية الأولى عندما دمرت الغازات السامة رئتيه وقلبه إلى الأبد وتسببت فى الخناق الصدرى الذى أودى به فى سن صغيرة بعد فترة وجيزة من التحرر عام١٩٥٤، ترك جاكلين كى تعيل نفسها هى وأمها.

كانت موسيقية موهوبة، فازت بمنحة لتَدرس فى الكونسرفتوار، حيث درست البيانو والتأليف الموسيقى. تسبب موت أبيها أثناء الامتحانات النهائية فى أن تخسر الجائزة الأولى المشتهاة بفارق ضئيل للغاية، نال الفائز سنة فى روما بمنحة، ليصبح حرا كى يؤلف الموسيقى بدون أى قلق مادى ويبدأ الحياة، فازت بالجائزة الثانية، جائزة ذات اعتبار، ولكن لا تصحبها أى مزايا مادية.

لم يحصل الموسيقيون أيامها فى فرنسا على أموال جيدة، وكان عليها أن تجتهد فى العمل ـ أن تكون العازفة المصاحبة لبياتريس جاليه وتوزع الموسيقى لفرق الملحنين الشهيرين ـ كى تقيم أودها، وما تسنى لها الوقت لتأليف الموسيقى، وهو ما ندمت عليه أشد الندم. ومع ذلك أدت الفرق بين الحين والآخر بضع مقطوعات من مقطوعاتها، ومن أبرزها كونشيرتو فلوت سمعته من قبل وراقنى، وقد سجلته مجموعة من معاصريها، ولكن على الرغم من هذه الإحباطات لم تنطق بالشكوى قط، كان موقفها تجاه الحياة كالتالى: الحياة عسيرة ولكنك تخوض غمارها. وبكرمها منحتنى بعض الوقت الثمين مجانا تقريبا، فدروس الإنجليزية التى أعطيتها إياها فى المقابل لم تكن تساوى الكثير.

كانت شقتها مقسمة فى الداخل إلى ثلاث غرف متصلة، عملت جاكلين فى غرفة المعيشة ودرّست فيها، يوجد بيانو عمودى ـ نفس البيانو الذى استخدمته منذ بدأت العزف فى سن الخامسة ـ مقابل النافذة المطلة على الفناء، ومنها تسللت أشعة الشمس عبر ستائر من الدانتيل وأسقطت نقاط الضوء فوق الصور المعلقة على الحائط. أظهرت واحدة من الصور جنديا شابا بزيه الرسمى، يقف على راحته، وبندقيته تستند إلى رجله، وخوذته مدفوعة إلى الخلف، وسيجارة فى ركن فمه وابتسامة تنم عن سخرية فى عينيه. كانت صبغة الصورة البنية الحائلة تبهت بالفعل مثلها مثل ذاكرة عريف تحويه داخلها.

استقرت فوق البيانو صورتان أخريان يحيط بهما إطاران منمقان، أبرزت إحداهما ضابطا أمريكيا جذاب المظهر يرتدى زيه الرسمى، يجلس إلى بيانو، ووجهه المبتسم يلتفت إلى الكاميرا، والصورة الأخرى صورة نفس الرجل، ولكن فى ملابس عادية فى أحد أزقة الريف، يمسك دراجته بيد والأخرى تلتف حول خصر جاكلين الضاحكة الصغيرة فى السن.

انضمت جاكلين إلى حركة المقاومة السرية بالقرب من نهاية الحرب، كانت مهمتها أن تَحمل جوازات سفر وبطاقات هوية مزورة، خبأتها فى المعتاد بين النوت الموسيقية ومؤلفاتها. كانت تهم باستقلال المترو ذات يوم متجهة إلى شقتها، غزا الجستابو المحطة وسد المخارج وأخذ يفتش منتظرى القطارات على الأرصفة: "حسبت أن لا فرصة أمامى للخروج من هذا المأزق". حكت لى، "لو عثروا على الأوراق، سوف يقبضون علىّ

ويعذبوننى كى يعرفوا المنظمة ثم سيطلقون علىَّ الرصاص، لو حاولت الهرب من خلال النفق، سوف يمسكون بى ويطلقون على ظهرى الرصاص. تسمرت فى الأرض، دنا منى جنديان وضابط كى يفتشوا حقيبتى، توقعت أمرهما ففتحت الحقيبة، أوقعت بدون قصد بضع أوراق موسيقية لأكشف النقاب عن مقطوعة باخ "عندى ما يكفى!" Ich habe genug: مقطوعة تُنشد على أنغام الموسيقى بدون تمثيل. غيَّر الضابط موقفه على الفور، إذ انحنى برقة ليلتقط الأوراق التى ناولنى إياها، وعاوننى على إغلاق حقيبتى، نسى أن ينظر داخلها! ندت عنه ابتسامة قائلا: "حسنا يا آنسة، أنت إذن موسيقية؟ أنا أيضا، كنت عازف الكلارنيت فى فرقتنا الموسيقية فى هامبورج". سألنى بعدئذٍ إن كان من الممكن أن نلتقى ونعزف الموسيقى معا فأعطيته رقم هاتفى، رقمًا خطأً.

"ما لبثت باريس أن تحررت، قصدت شارع شانزيليزيه كى أرى الجنرال ديجول يسير عبر قوس النصر. لا يمكنك أن تتخيل هذا الشعور بالسعادة والحماسة، مَن يسعه أن يصدق أن الفرنسيين سوف يأخذون بخناق بعضهم البعض قبل أن تخبو صيحات فلتحيا فرنسا Vive la France!

عملت مع الشيوعيين فى المقاومة السرية، ولكن عينيها تفتحت على حقيقتهم بعدها، وهى الآن عازفة عن الخوض فى السياسة. "انضممتُ إلى حركة المقاومة السرية كى تتحرر فرنسا من الألمان، لا كى أضعها تحت عبودية الروس!" كنت لا أزال مناصرة للحزب الشيوعى بدون أن أكون عضوة رسمية فيه، فحاولت أن أجادل معها لصالح المبادئ الدولية

الأسمى مهما كانت عيوب الأحزاب الفردية، ولكنها حسبتنى ساذجة مخدوعة، ولم نناقش الأمور السياسية مرة أخرى.

لم تكن أم جاكلين أرملة مرحة، تزوجت وهى صغيرة فى السن ولم تمتهن مهنة قط، أمَا وقد مات زوجها الآن وقضت ابنتها طيلة اليوم فى العمل، تولاها ضجر ما بعده ضجر. فى النهاية عيَّنها واحد من مصممى القبعات المحليين مساعدة له، فأراح جاكلين من شكواها. عندما كنت ألبث بين الفينة والأخرى كى أعطى جاكلين درس اللغة الإنجليزية، رأيتها وهى تَدخل البيت، امرأة بدينة فى خريف العمر، تتصف بكسل لا نهائى، وتنفث سخطا كما الرائحة النفاذة.

كان من الواضح تقارب الأم والابنة، وأبدت جاكلين دوما نحوها كل العطف، عانقتها حين عادت من المتجر وسألت باهتمام لا يعادله اهتمام عن يومها، "العادى"، تشكو وهى تلون صوتها بما وسعها من استياء.

مرت شهور. أفضت إلىَّ جاكلين ذات يوم أنها لا تستطيع إعطائى الدرس يوم الاثنين، ولكن هل من الممكن أن آتى صباح الأحد بدلا منه، حين تكون أمها بعيدة فى زيارة لجدتها، ثم أبقى بعدها لتناول وجبة غذاء بسيطة؟ كنت أعلم أنه كرم استثنائى من جانبها، لأنهما لا تستقبلان الضيوف مطلقًا، وقد سعدت بالدعوة. ابتعت لها باقة من الزهور، ووصلت مبكرة كى يسع الوقت لساعتين من العمل قبل الغذاء، كنا نحتسى القهوة عندما حكت لى عن الضابط الأمريكى الشاب الظاهر فى الصور.

منذ نحو خمسة أصياف رتب دينى روسيل أن تمضى جاكلين شهرين فى مقر لمجموعةِ من الفنانين بالقرب من منطقة فونتانبلو، وهناك ستعيش حرة، ويتسع وقتها للتأليف الموسيقى فى مقابل فهرسة المخطوطات الموسيقية فى مكتبتهم، كان كونشيرتو الفلوت وكذلك العديد من مقطوعات البيانو القصيرة التى سمعتها نتيجة لهذه الإقامة المؤقتة.

"استقر اثنان من آلات البيانو الضخمة فى غرفة استقبال انفتحت على فناء معشّب، وفى أحد الآصال عندما كان الجميع فى الخارج، اتخذت مجلسى وعزفت حتى ساعة متأخرة. وعيت فجأة لشخص خلفى، وحين فرغت من المقطوعة ورد إلىّ التصفيق، استدرت لأرى رجلا يقف بجوار الباب ويطرح ظلا طويلا على أرضية تنيرها أشعة الشمس. قدّم نفسه، "هوارد"، قال إنه استمتع بسماعى ثم جلس جوارى كى يعزف. أحسست وكأننا توأمان. أحسست أننا عزفنا معا طيلة عمرنا، كان من الممكن أن نواصل العزف إلى الأبد".

"فى النهاية، حين أظلمت الغرفة إظلاما حال معه أن نرى النوتة، دعانى إلى العشاء فى مطعم ريفى صغير، جلسنا بعدها على العشب والظلام يغلفنا وتبادلنا أطراف الحديث نصف الليلة، وهكذا بدأت قصتنا".

أقبل هوارد أول مرة إلى باريس برفقة القوات الأمريكية أثناء التحرير، وقع فى حب المدينة، وجاء بعدها عدة مرات بعد أن نال منحا مختلفة كى يَدرس مع المدرسين الفرنسيين. كان عازف بيانو وعالما فى الموسيقى، وكان يُدرس الآن فى إحدى جامعات نيو إنجلاند، على حين يتمم رسالة الدكتوراه ويؤلف أيضا الموسيقى، كانت تلك إجازته.

"كنا نعمل خلال اليوم ثم نتقابل فى نهاية الظهيرة كى نتمشى أو نركب دراجة فى الغابة، كنا نتوقف لنتناول عشاءً فى الهواء الطلق فى أحد ميادين القرية، ثم نعود ونعزف أو نتحدث حتى ساعة متأخرة من الليل"، حكى لها عن أمريكا واصفا الطبيعة النقية الجليلة لمسقط رأسه، نيو إنجلاند، أشجارها البالغة من العمر مائة سنة، والبحيرات الشفافة لشمال نيويورك حيث تمتلك عائلته بيتا صيفيا، وصف متعة الألوان فى الخريف، التلال ذات الخطوط المنحنية حول بحيرة بلاسيد، الأقدم فى العالم، هذبها الزمن تهذيبا حتى إنها تتراءى مثل الموجات لتصبح منحدرات مثالية للتزحلق على الجليد فى الشتاء. تشابكت أياديهما، رقدا على العشب، تبادلا القبلات، وفى يوم من الأيام قرب نهاية الصيف عرض عليها الزواج.

أخبرها أنه وقع فى غرامها فى تلك الأمسية الأولى حينما انجذب إلى صوت عزفها؛ عرف على الفور أنها الفتاة التى كان يبحث عنها طيلة حياته، وسوف يحبها إلى الأبد. تفكر أيضا فى التفاصيل، بمقدوره أن يحصل فى أمريكا على وظيفة تدريس بدون أى مشاكل لو أراد، أو سيعيلها وهى ستؤلف الموسيقى.

ولكن ماذا عن أمها؟ لا شك أنها سوف تذهب إلى أمريكا معهما، هناك مدرسون فرنسيون فى جامعته، والعديد من الزوجات الفرنسيات، وسرعان ما ستبنى حياة طيبة خاصة بها، وفى الوقت الملائم سوف يكون هناك أحفاد لشغل وقتها وإسعادها.

كان العرض حلما بالنسبة لجاكلين، فقد عملت بكل كد حتى إن وقتا لم يتح لها كى تنهمك فى أحلام اليقظة، سوف تجلب لها الحياة ما تختاره لها، وسوف تقبلها، ما ظنت قط أنها ستصبح حكاية خيالية.

اصطحبها هوارد ذات يوم إلى باريس وابتاع لها خاتم خطوبة من الماس والصفير، ثم ذهبا لرؤية القسيس الذى عمدها، القسيس الذى تعترف له. أعجب فى الحال بالشاب الأمريكى الجذاب وبارك حبهما، بل إنهما حددا تاريخ حفل الزفاف. وبعد انقضاء عدة أيام عادت أمها من الريف حيث كانت تقضى شهرا مع أمها، وأبلغتها جاكلين بالأخبار: "يا أماه! إنه فى منتهى الروعة، سوف تحبينه! إنه كل ما حلمت به فى حياتى، وسيم، طيب، موسيقى مذهل!"

ولكن بدلا من أن يستولى عليها الفرح لسعادة ابنتها، امتقع وجه أمها وبدأت ترتعش: "أمريكى An American ! لا بد أنك فقدت عقلك! وما عيب الرجال الفرنسيين؟ أنت لا تقصدين أن تقولى إنك تفكرين فى الزواج بأجنبى والانتقال إلى أمريكا America؟ وماذا عنى؟ كيف تتجردين من كل حب إلى هذه الدرجة؟ ألا تفكرين أبدا فى أمك الأرملة المسكينة التى ليس لها سواك..." دموع، هستريا، تهديد بالانتحار.

تمكنت جاكلين من تهدئتها، وحملت الأخبار إلى خطيبها. تصور أن باستطاعته أن ينال إعجابها، ولكنها رفضت حتى مقابلته، عندما أصر فى نهاية الأمر على زيارتها، تصرفت بصورة كريهة وأعلنت أنها لن توافق البتة، وأنهما سيضطران إلى الزواج بدون مباركتها، وأن زواجهما سوف يقتلها.

"هى التى كانت تتذمر كل أحد بشأن زيارة أمها، صارت على حين بغتة الأم المثالية، قائلة إنها لن تستطيع أن تترك أمها خلفها! حين عرض هوارد أخذها هى الأخرى، صرخت فى وجهه وحبست نفسها فى الحمام".

قررا أن أفضل شىء هو أن يعود هوارد فى نهاية الإجازة ويترك جاكلين كى تقنع أمها بالفكرة بالتدريج: "كنت قد عرفته من ثمانية أشهر فقط، ولكنى لم أتخيل الحياة من دونه، دارت كل دقيقة من يومى حول لقاءاتنا، كان حياتى، والآن سيفصل بيننا محيط... شعرت بالشلل برهة من الوقت بعد أن غادر، فقد عجزت عن فعل أى شىء. بكيت وبكيت، لم تبد أمى أى تعاطف، ورمتنى بالأنانية وجنون الجنس والجحود. أحيانا ما كانت تتظاهر باللطف، وتقول إننى سوف أقابل سريعا رجلا فرنسيا جذابا. ولكنى قلت لها إن هوارد هو رجلى الوحيد، وبعدها تهز كتفيها ويعلو العبوس وجهها."

كان هوارد يكتب الرسائل يوميا ويتصل بها كثيرا، جاء إلى فرنسا فى الصيف التالى وأمضى شهرا جميلا مع خطيبته على أمل أن تلين أمها، ولكن نوبات من العصبية نزلت بها كى تبتزها، وتظاهرت بالمرض واستغلت ترسانة كاملة من العواطف كى يعوقهما، فعاد خالى الوفاض.

تمنت جاكلين أن تموت جدتها ليتبدد عذر أمها الأساسى، بيد أن العجوز بقيت، خرِفة، ومشلولة، ومريضة دائما، ولكن خالدة على الدوام.

ثم كتب هوارد منذ بضعة أشهر ليس إلا ليخبرها أنه تعب من الانتظار وأنه سوف يتزوج إحدى زميلاته: "إنها ليست أنت، لن تكون أى امرأة أنت، لكن لا بد للحياة أن تستمر".

بقيت صلتى بجاكلين بعد أن أنهيت دراستى معها، عندما رحلت عن فرنسا وتزوجت، كتبت لها من لندن وزرتها فى فترة لاحقة زيارة وجيزة مرة أو مرتين فى خلال رحلاتى إلى باريس. ظلت صور هوارد فوق البيانو: هل أغفلتها؟ أو أنها أبقتها كى تتذكر قصة حبهما؟ لاحظت أنها تزيد فى الوزن وتهمل شكلها. ولكن بينما ذبلت حياتها الشخصية ازدهرت مسيرتها المهنية، وفى غضون عدة سنوات عُرضت عليها وظيفة تدريس التأليف الموسيقى فى الكونسرفتوار، وانتهى بها الأمر أستاذة فى المعهد.

كنت فى باريس فى الصيف الماضى واتصلت بها، رتبنا للقاء فى الكونسرفتوار وتناول الغداء. "إنه آخر يوم من أيام الامتحانات، والآنسة رولان تمتحن، ولكنها لن تتأخر". أبلغتنى موظفة الاستقبال؛ (آنسة Mademoiselle، لم تتزوج قط إذن.)

سرعان ما انفتح باب لتدلف منه جاكلين وهى تمد ذراعيها فى ترحاب، زادت قليلا فى الوزن، شعرها أفتح وأخف، ولكن السن لم يطفئ عينيها الزرقاوين كما الصغير، لا تزالان دافئتين تتلألآن فى سعادة تمتزج بالحزن، ولا تزال ابتسامتها مطمئنة، تعانقنا وقصدنا مطعما قريبا.

باحت إلىَّ أن ذلك هو آخر أيامها فى الكونسرفتوار؛ كانت تتقاعد بعد ما يزيد على عشرين عاما من التدريس، بلقب أستاذ ومعاش كامل، وكان المعهد نفسه ينتقل إلى مبنى جديد أكبر على الجانب الآخر من باريس. عاشت فى نفس الشقة فى شارع سان دينى، وحازت أيضا بيتا للعطلات فى جنوب فرنسا، حيث عقدت العزم على قضاء بقية وقتها وتأليف الموسيقى. كانت أمها لا تزال على قيد الحياة، ولكن بلغ منها

العجز مبلغا، وكذا الخرف، "وألطف بكثير!" قالت ضاحكة. تمحورت حياتها حول عملها وطلابها. أرادت أن ترى صورا لطفلىَّ وتسمع أغنياتى وتقرأ ما كتبته: "من الأفضل أن يكون بالفرنسية، لأن كل كلمة إنجليزية تعلمتها منك!"

هل ندمت على عدم الزواج بهوارد؟

"لا، ليس الآن، ما كنت لأبنى مسيرة مهنية، وما كنت لأنال كل ما خالجنى من رضا، كنت سأحب الأطفال، ولكنى أعتبر طلابى أطفالى، إنهم يذهبون ويجيئون، ولكن كذلك الأطفال! عداى، إننى لم أذهب! مَن العالِم ماذا كان سيجرى لو رحلت".

تحدثنا عن بياتريس ودينى، وسألتها إن أصبح أىٌّ من طلاب بياتريس مغنيا معروفا، وأعطتنى أسماءهم. سمعت عن اثنين منهم فى دور أوبرا مختلفة، والآخرون كانوا يتدفقون من الكونسرفتوار كل عام ثم يتبددون فحسب فى الحياة.

"كانت بياتريس تكن لك إعزازا خاصا، كلانا أَحَبَّكِ، ولكنك كنت جامحة للغاية. قلت لها إنه من الأفضل أن تتوقع من فراشة التفكير فى المستقبل أو المسيرة المهنية!"

قلت إن لكل شىء ثمنا، وإنك إذا لم تخططى وتحسبى وتؤثرى، لو تتبعت قلبك، قد تعانين الكثير، إلا أن عقلك حر، تأخذين بأسباب الحياة حين تأتيك، وأحيانا ما تجلب لك هدايا غير متوقعة. ثم طلبنا شمبانيا كى نحتفل بتقاعدها ولم شملنا. سألت عن هوارد، وما إذا كانت الصور فوق البيانو لا تزال هناك؛ "دائما!" Toujours ضحكت. "لن يأخذ مكانه

إلا حب آخر حقيقى، وأنا لم أحب أحدا، الكثير من العروض، ولكنى بطريقة ما لم أشعر بنفس الإحساس تجاه شخص".

هناك صورتان فقط لا غير فى ألبوم صورى لمدرسى الموسيقى، واحدة لبياتريس جاليه فى عقدها الرابع، بشعر متموج فرقته من المنتصف، وذقن مرفوع، وعينين ترنوان إلى الأفق، وشفتين تبتسمان، والأخرى لجاكلين، صغيرة فى السن للغاية، جميلة المحيا، بشعر طويل قليلا وعينين صافيتين، وابتسامة حلوة تدل على السعادة، كانت محطمة، مثل معظمنا، ولكنها لم تنهزم كلية.

١٧ ـ دخلاء فى الداخل

أمًّا أنتم أيها الأصدقاء الباقون
تزداد محبتكم كل يوم
بات الطريق قصيرا للغاية
طريق كان قد بدا طويلا
آنا أخماتوفا

رغم أن الطلبة التقوا وكونوا صداقات مع أناس من جنسيات مختلفة فى جو الحى اللاتينى، فقد انجذبوا بطبيعة الحال إلى مواطنى بلادهم، وعقدوا أقرب الصداقات مع جماعاتهم القومية، وكلما كان المجتمع أقدم وأكثر تقليدية، كلما صعُب على الدخلاء أن يصبحوا جزءا منه. يمكن أن يَقبلوا أمريكيا فى أحد الأجيال، ولكن ليس الإنجليزى أو الفرنسى. الزواج عامل مساعد، فالزوجات والأزواج الأجانب يتم قبولهم بكل ترحاب، وغير ذلك أفضل ما يمكن أن ترجوه هو أن "يتقبلوك."

لاحظت هذه المسألة للمرة الأولى عن طريق صديق روسى هاجرت أسرته إلى باريس بعد ثورة ١٩١٧، استقبلهم الفرنسيون وقدموهم إلى المجتمع، وعليه تزوج أفراد الأسرة الصغار زيجات طيبة، وصار أطفالهم

فرنسيين. إلا أن بيئة المهاجرين الأولين كانت لا تزال مشدودة بإحكام برباط الحنين إلى الوطن والحيرة والأسى. اختبرت بنفسى ذات الشىء بعد ثلاثين عاما، عندما هرب أفراد من عائلتى إلى الغرب بعد ثورة ١٩٧٩ فى إيران، تقيدت حيواتهم أكثر من ذى قبل، غدا عالمهم مغلقا، أفكارهم عبارة عن شظايا، ولكنهم اكتسبوا من كل هذه الظروف درجة من الأمان العاطفى والهوية. وهناك "المنفيون بالفطرة" الذين نزل بهم الانزعاج والحرج فى مجتمعاتهم، ولا يزدهرون حقا إلا باعتبارهم دخلاء مثل هنرى جيمز وجوزيف كونراد وجيمز جويس وصامويل بيكيت، وكذا العديد من البشر الأقل وزنا.

كان عدد الطلبة الإيرانيين فى باريس بالقياس إلى المدن الأخرى صغيرا، هناك اتحاد للطلبة الإيرانيين، حضرت اجتماعاته مرة أو اثنتين، وكله غص بالفرق، إذ كان مؤيدو الشيوعيين يحاولون السيطرة على المنظمة بأكملها والباقون يقاومون، وعليه لم يتخذوا أية قرارات على الإطلاق. إلا أننى قابلت بالفعل بعض الطلبة الإيرانيين، وقد بات القليل منهم من أقرب أصدقائى، وعاونونى على التغلب على حنينى إلى الوطن الذى أصابنى بالشلل فى البداية.

كنت أسير يوما فى جادة سان مايكل فصادفت السيدة تاباى يرافقها أحد الأصدقاء، حميد، طالب فلسفة يرتدى نظارة والمعطف الصوفى الإلزامى، بلحية صغيرة ناعمة سوداء تلمع بلون ضارب إلى الزرقة. كان فى سنته الدراسية الأخيرة، غير أنه خطط للبقاء لإكمال دراسة الدكتوراه وسنة أكاديمية حين يرجع إلى وطنه. قال إنه سوف يأتى

ويلقانى فى بيت الطالبات، وهو ما فعله بعد أسبوع. أحضر صديقه المقرب سايرِس الراغب فى أن يصبح مهندسا معماريا، مضينا إلى مقهى وتحدثنا حتى ساعة متأخرة. أخبرتهما أن لا معارف لدىَّ، فقالا إنهما سوف يقدمانى إلى أصدقائهما، اتسم أسلوب حميد بالرسمية وحسن الاطلاع، وعلى العكس من معظم الطلبة أيامها لم يعبأ بالماركسية، وإن درَسها على خلاف العديد منهم. وجد مزيجها –انتظار المخلِّص المنتظَر والمادية ـ مزيجا مبتذلا، لا يدعمه إلا قوة سوفيتية، يُعد هذه الآراء فى هذه الأيام آراءً مبتذلة، وفى تلك الأيام عندما كان سارتر، أحد معلمينا الروحيين، مؤيدا للماركسية، حطمت تلك الأفكار الجريئة أعظم المعتقدات التقليدية.

جادلنا جميعا بألسنة متحمسة وإنما مبتهجة، وسرعان ما أصبح واضحا أن الاجتهاد فى العمل والجدية نالت كل منال من حميد، وطردت كل أثر من آثار الفكاهة من حياته. "سمته الجدية أربعًا وعشرين ساعة فى اليوم!" اشتكى سايرِس الذى ـ على النقيض منه ـ كان يستخدم قدرا صحيّا من السخرية متى تخلل الغرور إلى مناقشاتنا أكثر مما ينبغى. كان الصديقان أشبه بزوجين كوميديين، أحدهما فتى خفيف مضحك جذاب، والآخر عقلانى متأمل شديد الحساسية، ومع ذلك ما لبثت أن اكتشفت أن خلف نكت سايرِس استترت حساسية وحزن. رغم أنه نشأ فى أسرة غير متدينة، كابد توقا حاول تخفيفه بالسعى إلى الطريق الروحى. شدته المسيحية، ولبرهة من الوقت داعبته فكرة أن يصير ناسكا ويعتزل الناس فى أحد الأديرة. صحبنى إلى معارض وصالات فنية وعلمنى الفن، كان وطنه الروحى إيطاليا، فقد ألمَّ بإرثها الفنى تمام الإلمام، وقد عرفنى

إياها من خلال الكتب الفنية. عكست تصميماته ومبانيه بإيران فى السنوات السابقة على تقلبات عام ١٩٧٩ عينا استثنائية لالتقاط الجمال وأصالته وإبداعه.

من بين الأصدقاء الذين تعرفت بهم من خلال حميد وسايرِس كان هورموز، مهندس معمارى آخر، وإيراج، متخصص فى علم الاجتماع فى مرحلة الدراسات العليا، ومسعود، مهندس مدنى. عاشوا جميعا فى المدينة الجامعية، فى "منازل" مختلفة، وحثونى على محاولة إيجاد غرفة هناك. ولكن كيف؟ كان الأمر شبه مستحيل، لبثوا جميعا طويلا على قائمة الانتظار قبل أن ينجحوا فى الحصول على غرفة، ولكن لضجرى من الحياة الصارمة فى بيت الطالبات قررت أن أحاول، وفى غضون ذلك زرتهم فى الكثير من الأحوال، وراقنى جو حرم الجامعة والحشد العالمى متنوع الأعراق.

أطلق سايرِس على جماعتنا الصغيرة اسم "سنووايت والأقزام الخمسة"، فقد كنت الفتاة الوحيدة، بيد أننى تلقيت فى يوم من الأيام خطابا من فيفى، صديقة مقربة فى إيران، تعلمنى أنها قادمة إلى باريس حتى تَدرس فى كلية الموسيقى لتدريب المدرسين. استحوذت علىَّ سعادة غامرة! كنا قد أصبحنا صديقتين مقربتين فى سنتى الأخيرة بالمدرسة. كانت ابنة واحدة من أقرب صديقات أمى، وقد عادت حديثا من أوروبا حيث عُيِّن أبوها الدبلوماسى الكبير، أمضت فيفى نفسها كل حياتها تقريبا فى الخارج، التحقت بالمدارس الفرنسية كى تحافظ على استمرارية تعليمها. كانت الآن فى المدرسة الثانوية الفرنسية بالقرب من

مدرستنا فى إيران، ربطت بين أسرتينا أواصر الصداقة منذ ثلاثة أجيال، كان جدها فقيها ذا نفوذ ومعلما صوفيا مشهورا، وعقب وفاته صارت زوجته ـ واسمها "السيدة" فقط لا غير ـ مركز الدائرة الضخمة التى تضم العائلة والأصدقاء والتابعين. احتفظت بمؤسستها مستمرة بأن أقامت جلسات للصلاة وخدمات لتحفيظ القرآن وشعائر أخرى، أتذكر أنى ذهبت برفقة أمى مرة أو مرتين إلى هذه التجمعات، بدأت فى الغالب بالأناشيد والصلوات والنواح على استشهاد ولى من الأولياء، وبعدها يتحول التجمع إلى حفل بهيج كل البهجة، يحوى الطعام والمشروبات الغازية، والنميمة والنوادر، ويتحدث الجميع فى نفس الوقت، وتعم الضحكات لتشرف عليها السيدة هادئة الطباع صغيرة الحجم. وفى مجتمع غير معروف بالتسامح، ينفجر داخله أى انحراف عن قواعد السلوك المعتاد وتُوجه إليه أصابع الانتقاد، اعتبروا السيدة قديسة. ورغم أنها كانت فى العقد السابع من العمر، تمتعت بجمال حقيقى: عيناها النافذتان الضاحكتان، وابتسامتها الرقيقة الدافئة، وبشرتها الوردية، كلها بثت إحسانا وتخضبت بنور من باطنها، مما جعل الجميع، بدءا من الشحاذين إلى السيدات النبيلات، يندفعون أفواجا إلى منزلها.

نقلت السيدة بعضا من خصالها الروحية إلى حفيدتها، ولا سيما الرقة والعطف. كان اسمها ـ "فيفى" تصغيرا له ـ يعنى "فريدة"، وقد اعتقدت أنها بالفعل فريدة. كانت تعزف البيانو، أمر غير معتاد تماما بالنسبة لفتاة تنحدر من تلك الجذور، الجلى أنه من أثر نشأتها فى الغرب. اعتدت أن أذهب إلى منزلهم بعد المدرسة وأقوم بالفروض المنزلية وأقرأ هنيهة، على حين كانت تمارس العزف، شوبان وشوبرت وبيتهوفن.

كانت حكاياتها عن باريس وتشجيعها عاملا مساعدا على تصميمى على السفر إلى هناك، كتبت لها الرسائل بين الحين والآخر، حكيت لها عن مدى اشتياقى إلى الوطن، وقد طمأنتنى هى المعتادة على حياة الترحال أننى سوف أتكيف سريعا معها وأبدأ الاستمتاع بالحرية.

قدمتنى فيفى وأخوها الأكبر قبل رحيلى إلى بضعة أصدقاء فرنسيين وإيرانيين، ولكننى لم أستخدم تلك الصلات فى البداية، بالنسبة للأصدقاء الفرنسيين لأننى لم أكن أتحدث اللغة، وبالنسبة للإيرانيين خشية إبطاء جهودى فى التعلم والتأقلم، أو عل هذه الأسباب كانت مجرد مبررات لتبرير خجلى والقلق الذى شل حياتى الاجتماعية فى البداية.

وبعدها ببطء أصبحت مع مرور الوقت معتادة على حياتى الجديدة، وتحدثت الفرنسية بصورة أفضل، صادقت آخرين حقا، أصدقاء إيرانيين وفرنسيين. فى البداية كان أغلبهم زملاء فى الدراسة، ولكن بعدها تضمنت دائرة أصدقائى العديد من الأشخاص الأكبر، والعديد منهم مفكرون وفنانون معروفون، وقد بات بعضهم آباء أو إخوة بدلاء.

كان فارهاد واحدا من هؤلاء الأصدقاء الكبار، مخرج سينمائى ومؤرخ سينمائى كذلك، وصديق لأكبر إخوة فيفى، أخذه أبوه الدبلوماسى إلى فرنسا فى سن السابعة وألحقه بالمدرسة. وبعد سنتين عُيِّن والداه فى مكان آخر، ولكى لا يستأصلا ابنهما الوحيد من بيئته مرة أخرى ويقاطعا دراسته، خلفاه فى فرنسا فى عهدة أسرة صديقة. حسب ـ ولا شك ـ أنهما هجراه، فقد كانت الاتصالات عسيرة فى تلك الأيام. عندما شبَّت الحرب، انتابه المزيد من العزلة؛ لم تصله الرسائل قط، وظن أنهما

نسياه. نفى بدوره أسرته إلى غياهب الذاكرة، وكاد ينسى لغته الأم، لغة لم يستعدها إلا بعد انقضاء فترة عندما رجع أدراجه فى النهاية إلى وطنه.

انضم فارهاد إلى المقاومة السرية وهو تلميذ مراهق، ولكنه قلل من شأن دوره فى سقوط هتلر. كان يتحدث بنبرة تشى بالاستخفاف عن أنشطته، لشدة جبنه بلل بنطاله حين رأى جنديا ألمانيا، كان مستخدما فاشلا للسلاح... إلى آخره. ومع ذلك علم الجميع أنه تميز بالشجاعة والنشاط، وعمل مع الشيوعيين، من بينهم العديد من المفكرين والفنانين البارزين الآن فى الحزب. حسب نفسه فرنسيا، ولكن بمجرد أن وضعت الحرب أوزارها اكتشف أنه ليس فرنسيا، ومهما تقبله أصدقاؤه، كان مواطنا إيرانيا، ولا يمكن أن يتوقع من المجتمع نفس ما توقعوه. ليس للمنفى أية حقوق مسلم بها فى عمل، أو بيت، أو معيشة، ولو تذمر هناك دومًا جملة: "لو لم يعجبك الحال هنا، عد إلى بلدك". عاد فارهاد بالفعل إلى إيران، ولكنه سرعان ما رجع إلى باريس، حيث عاش فى غرفة واسعة جميلة الأثاث من شقة ضخمة لأرملة، فى الدائرة السادسة عشرة. لو أراد أن يواصل مسيرة مهنية تقليدية فى الحكومة بإيران لسهل عليه الأمر، نظرا لمكانة أسرته، ولكنه كان فنانا، مما خلق الكثير من المشاكل.

كان فارهاد واحدا من أكثر أعضاء المجتمع الإيرانى موهبة، عبقرى فى الكوميديا؛ لقد ابتكر شتى الأدوار، وتظاهر بالعديد من الشخصيات ومثّلها، وبمقدوره تقديم ساعات من التسلية لو شاء فى أى تجمع. كان

الأمريكى أو الأوروبى سيجنى ثروة من تلك الموهبة، ولكنه كان أميرا، ومهنة المؤدى كانت مهنة لا يمكن طرحها للنقاش. لحسن الحظ كان أيضا جاد التفكير وواسع المعرفة، كان يعرف عن السينما أكثر من أى شخص فى باريس، وساعد فى تأسيس دار السينما التجريبية، ثم كتب تاريخ المسرح فى إيران من عهد زرادشت عبر 'مسرحيات الآلام الإسلامية' وحتى الوقت الحالى، وقد ظل هذا التاريخ أجدر الأعمال بالاعتماد حول هذا الموضوع. أراد أن يُخرج أفلاما، وهو ما لم يكن باليسير، وفى غضون ذلك كتب السيناريوهات، وأخذ بأسباب حياة ممتعة، بدائرة واسعة من الأصدقاء المثيرين للاهتمام، أصدقاء كان معظمهم عاملين فى السينما الفرنسية. وبما أنه كان جزءا من صومعتنا الشيوعية المكونة من ستة أفراد أو سبعة، التقينا فى منزله مرة فى الأسبوع لفترة من الوقت، إلا أن كل شىء انهار، إما لأن الناس رجعوا إلى أوطانهم، وإما عندما اتضح أن ثورة المجر عام ١٩٥٦، لم تكن "ثورة مضادة يقودها زمرة فاشية صغيرة"، وإنما ثورة أصيلة شعبية سحقتها الدبابات السوفيتية، واستغرق هذا سنتين.

قدمنى فارهاد إلى زوجين شابين إيرانيين، مانو ومانيجا، كاتب ومؤرخ اجتماعى عمل فى الأمم المتحدة فى باريس، وألف كتبا عديدة غطت شتى الموضوعات فى فرنسا، وزوجته الجميلة. كانا معروفين ومحبوبين، موسرين يتسمان بالترحاب، عاشا فى شقة كبيرة استضافا فيها الكثير من الأصدقاء والمعارف، مخرجى أفلام وكُتاب وصحفيين وسياسيين... استمتعت بحفلاتهما الليلية كلما دعيانى للحضور، وأعجبت بمانيجا، كانت طيبة القلب لطيفة بريئة فى العادة رغم إغراء التكلف، ونعمت

بجمال صورة منمنمة إيرانية. صارحتها بكل شىء، وأسرت إلىَّ بأسرارها، كان زواجها ميتا تقريبا، وإن أعجبت بزوجها واحترمته. لماذا لم تطلب الطلاق وتبدأ حياة جديدة، فقد كانت تحت سن الثلاثين، وبدون أطفال؟ ما كان تحب أحدا ولديهما حياة قائمة.

انقضت سنتان ثم رجعت إلى وطنها فى زيارة، وبالصدفة التقت بحبيبها فى الطفولة، وكأن السنوات الفاصلة تلاشت، وقعا فى الغرام من جديد وتركا شريكيهما وتزوجا. سوف يكون رائعا أن أدعى أنهما عاشا فى سعادة أبدية لو أن الحياة أشبه برواية رومانسية! إلا أن حالات الوفاة والمآسى فى عائلة مانيجا طالت روحها الحساسة وحرقتها حرقا. داهمها التوتر والاكتئاب وبدأت تحتسى الخمر، وقضت فترات طويلة فى المصحات السويسرية؛ تناولت فى النهاية جرعة زائدة وماتت. وجدته من الصعب أن أصدق أن مثل ذلك الجمال والبراءة يمكن أن يُدمرا، ومع أنى رأيتها فى إيران مرة أو مرتين فى خلال زياراتى، ما تقابلنا قط بعد انقضاض مرضها، وربما كان هذا أفضل. مرت سنوات عديدة، وشاهدت فيلما منزليا يرجع إلى تلك الفترة، أخرجه زوجها الأول الذى لم يزل صديقا مقربا. بدت فى الفيلم كفراشة تَعرض متباهية ألوانها فى بستان فاكهة متفتح الأزهار بالكامل، مثلها مثل لوحة منمنمة، هكذا تذكرتها.

لم أشر إلى أى شىء حول كونها موسيقية، لأنها من الواضح فى حاجة إلى التدريب عدة ساعات يوميا (ولأنها كانت مرتاحة مادية، وسعها أن تتحمل تكلفة استوديو للتدريب)، غنيت أغانى التسبيح الخاصة بفيفى للسيدة جيرو، وناشدتها أن تجد غرفة لها فى بيت الطالبات. وقد

وجدتها، غير أن فيفى لم يعجبها البيت، ومن خلال معارف أبيها استغلت صلاته، ونالت غرفة فى بيت الطلاب المكسيكى بالمدينة الجامعية. بنى "بيت الطلاب المكسيكى" ـ هكذا كان يُسمى ـ مهندس معمارى من جنوب أمريكا، وقد كان واحدا من أجمل البيوت وأكثرها رفاهية فى حرم الجامعة. أشرفت غرفة فيفى على الفناء المعشب والرياض فى الخلفية، كانت غرفة واسعة الأركان، طلقة الهواء، أثاثها جميل، نمت العديد من الليالى على أرضيتها بعد أن فاتتى المترو الأخير.

ما كانت لدىَّ صلات ذات نفوذ، فقررت الذهاب بنفسى ومقابلة مدير 'منزل الولايات المتحدة'، لأنه كان بيت الطلاب الأكبر، وغالبا ما آوى طلابا من جنسيات أخرى. كان رجلا طيبا هادئا، وقال إن لديه قائمة انتظار بطول ميل، ولكنه سوف يرى ما يسعه فعله، وفاتت ثلاثة شهور ثم كتب لى قائلا إن غرفة سوف تتاح لى فى المدينة لو رغبت فيها.

كان فى صالة الدخول الواسعة ببيت الطلاب مكتب استقبال أشبه بمكاتب الفنادق، وهناك تترك مفتاحك وتتسلم البريد والرسائل، وعلى الجانبين قامت السلالم والمصاعد المؤدية إلى أقسام الطلبة والطالبات من المبنى، وفى الخلف وجدت غرفة استقبال فسيحة يمكن أن تتحول إلى قاعة محاضرات، بها منصة مرتفعة استُخدمت خشبة للمسرحيات والحفلات. لم يسمحوا لنا باستقبال زوار من الجنس الآخر فى غرفنا، ولكن كانت غرفة الاستقبال مريحة بما يكفى للقاء، وكانت هناك حدائق لطيفة حول المبنى.

قبعت غرفتى فى الدور السادس، أعلى طابق فى المبنى، وقد أشرفت على الطريق الدائرى حول باريس. أربعًا وعشرين ساعة فى اليوم

سيارات وشاحنات صاخبة ودراجات بخارية، مرور مزدحم من كل نوع مر بى هادرا... البادى أن كل مركبة غيرت سرعتها أسفل نافذتى بالضبط، ترسل صوتا مزعجا وتسعل وترتج حتى يذوب صوتها فى خلفية ضخمة من الدوى، ولمدة ثمانية عشر شهرًا لم أنم قط كما يجب، ولاحظت الفرق حين غادرت باريس فى الصيف بعد بضعة أسابيع.

ومع مرور الوقت، فرغ أصدقائى الواحد تلو الآخر من دراساتهم وعادوا إلى إيران، وفى نهاية الخمسينيات كنت الوحيدة من مجموعتنا الباقية فى باريس، متسائلة هل أواصل حياتى البوهيمية vie de bo-héme لمدة أطول؟ أو أرجع أنا الأخرى؟ تبدل الوضع فى بلدى إيران: أعلنت إيرادات ضخمة من البترول عن فترة من التطور والازدهار الشاملين؛ مما خلق فيما بعد مشاكل أخرى أفضت إلى الثورة، ولكن تلك قصة أخرى. وفى السنوات التالية على سقوط مصدق عام ١٩٥٣ طفق الشاه يضم الشيوعيين وكل من اهتم بالحزب، أصدر عفوا عاما ضمنيا "لأخطاء الأحكام الماضية." كان قرارا حكيما لأن اليسار شكل جانبا كبيرا من النخبة المتعلمة فى البلد، نخبة لا يسعها أن ترفض، خطأ ترتكبه كثيرا أنظمة قاهرة تتولى السلطة بعد الثورات، فبتحطيم الطبقات الثقافية للنظام السابق تخلق صحراء لا ينبت فيها شىء ولا يمكن تجديدها. عاون الشاه وقتذاك شجب خروشوف لستالين واعترافه بوجود معسكرات الاعتقال السوفييتية، ثم عاونته الثورة المجرية. فتحت كلا الحادثتين أعين العديد من الشيوعيين ومؤيديهم. وهكذا دخل اليساريون المعروفون الحكومة والصناعات الجديدة، وبلغوا مواقع السلطة. وفى غضون السنوات القليلة التالية ساعد فارهاد على تأسيس

التلفزيون القومى وأدار واحدة من قنواته؛ شيد سايرِس وهورموز الجامعات والمستشفيات والمبانى المكتبية، وأصبح إيراج أستاذا فى علم الاجتماع وألف الكتب، ودرَّس حميد الفلسفة الغربية، وأنشأ مسعود مصنعا، وتزوجت فيفى بطبيب شاب ودرَّست الموسيقى.

وعقب ثورة ١٩٧٩ لم تتم مكافأتهم على المساهمة فى الثراء الثقافى بدولتهم، ووُجهت إليهم كلهم تقريبا أصابع اللوم لكونهم جزءا من النظام السابق ancient régime، وتعرضوا لخطر السجن، بل والموت. هاجر أغلبهم إلى فرنسا حيث نالوا التعليم فى السابق، لم يبق إلا حميد لأنه لم يمتهن قط أية وظيفة حكومية، ولم يكن من الممكن اتهامه بالتورط السياسى. ما تزوج قط وعاش حياة علمية يطغى عليها الهدوء: اعتقد أنه من الأفضل له أن يحتمل الصعوبات من أن يعانى النفى ما دامت حياته ليست فى خطر. كثيرا ما أطرق سيرته مع الأصدقاء المشتركين ـ كيف كان معنى النكت يفوته على الدوام أو كيف كان يضحك عليها متأخرا! مكثت فيفى هى الأخرى، وافى الأجل والديها، وغادر إخوتها وأخواتها، وتحطم زواجها. عملت بإخلاص، تُدرب الموسيقيين الشبان وتجمع الموسيقى الشعبية من مناطق نائية من البلاد، وتأتى إلى باريس أحيانا لرؤية أقاربها وأصدقائها.

كلما زُرتُ باريس التقيت هؤلاء الأصدقاء القدامى، إمَّا فى بيوتهم وإمَّا فى أحد المقاهى cafés بشارع سان جيرمان، حيث اعتدنا أن نتقابل فى الأيام الخوالى. كبر أطفالهم وتركوا بيوتهم، وتزوج العديد منهم أوروبيين واندمجوا فى مجتمعاتهم الجديدة. اشتغل القليل منهم فى

الحقل الأكاديمى أو فى المؤسسات الدولية، يؤلف الكثير منهم الكتب بالفرنسية وينشرونها، ويلقون المحاضرات ويرتحلون هنا وهناك، وتدهورت ظروفهم المعيشية وباتت حيواتهم صعبة. كما هو حال المهاجرين emigrés الروس القدامى أصبحوا تحت رحمة التقلبات والحنين إلى الوطن، مربوطين بالماضى، مشتاقين إلى عودة نهائية إلى البيت، آملين رغم غياب الأمل - أن يتحقق حلمهم ذات يوم.

١٨ ـ فردوس الأوهام

إن مهمة الشاعر أن يجد حلا، نقطة فريدة

حيث يتحقق فهم الحب فى الحقيقة.

إس. كيركيجارد

قدَّمنى صديق من إيران إلى آن، شاعرة شابة نشرت مجموعة شعرية صغيرة، لم أتصل بها لفترة طويلة، ولكن عندما اتصلت بها فى النهاية وجدت أن أحدهم أخبرها بوجودى فى باريس. رحبت بى بكل دفء، ودعتنى فى السبت التالى إلى بيتها فى جاردينز، ضاحية تقع شرق باريس وتبعد عنها مسافة ثلاثين ميلا.

كنت قد غامرت بالكاد بالخروج من الضفة اليسرى، وكان التوجه إلى منزلها مغامرة؛ فى محطة سان لازار المزدحمة والمضطربة عثرت على القطار الصحيح بين مئات من القطارات المتجهة إلى مقاصد الضواحى، وقطعت معه رحلة استغرقت أربعين دقيقة (تستغرق اليوم خمسًا وعشرين دقيقة) ثم مشيت عشر دقائق أخرى عبر شوارع مملة، وبحذاء

مبانٍ غريبة قبل أن أصل إلى منزل أمها الصغير المكوَّن من طابقين، بكل طابق غرفتان.

عاشت آن فى العلية مع صديقها الروسى المولد، سيرجى، وابنهما إيرفان البالغ من العمر تسعة أشهر. كان الباب الأمامى مفتوحا، أفضى إلى حديقة صغيرة تظللها شجرتا كرز، ظهر وجه مبتسم من نافذة العلية ليقول: "اصعدى!" صعدت لأجد نفسى فى منتصف حياة منزلية: آن جالسة على الأرضية تحمم طفلها الذى كان يبقبق فى ابتهاج بسبب زغزغة أمه وطرطشتها، سيرجى يعد وجبة من اللحم المفروم وخضراوات (انتشرت الروائح الفاتحة للشهية فى الهواء) فى المطبخ الصغير المجاور، مواء القطة وهى تناشد سيرجى كى يمنحها نصيبا من الطعام، وموسورجسكى يقدم خلفية موسيقية عالية بـ "ليلة فوق جبل عارٍ". طالب الرضيع الآن صارخا بزجاجة الحليب الليلية على حين كانت تحيينى وتطلب منى الجلوس على السرير عدة دقائق حتى ينتهيا.

علا الغرفة سقف منخفض يميل نحو النوافذ من الجانبين، تزودت بسرير عند طرفها البعيد، وفراش للرضيع فى نهاية السرير، وخزانة بأدراج، ودولاب، ومسندين منتفخين مغربيين، وقد اصطفت على الحوائط من الأرضية إلى السقف رفوف للكتب والأسطوانات، تتخلل الجدار مساحة لمشغل الأسطوانات. صنع سيرجى كل هذه الأشياء، فقد كان ماهرا فى الأعمال اليدوية، استغل كل بوصة كى يوفر مساحة قصوى، ومع ذلك كان من الصعب تخيل كيف يمكن لثلاثة أشخاص الحياة فى راحة فى مثل هذا المكان الضيق. ولكن ها هم سعداء،

مبتهجون، يَسلمون من توتر وتجهم شاعا للغاية بباريس فى تلك الأيام الطافحة بندرة الموارد والحيرة.

كانت آن صغيرة فى الحجم مفعمة بالحيوية، بشعر قصير متموج وعينين واسعتين داكنتين. كان سيرجى طويل القامة أشقر الشعر يشبه الروس تمام الشبه، عينان زرقاوان وعظمتا وجنتين تليقان بالآسيويين، برىء، معتدل الطباع، ذكَّرنى ببطل دستويفسكى، الأمير ميشكين، وأخى أمى الأصغر.

عندما أطعمت الرضيع وأنامته وأعد هو الطعام، اتخذنا مجلسنا إلى مائدة صغيرة فى المطبخ والتهمنا وجبتنا وكأنها منٌّ آتٍ من الفردوس. هناك حب من النظرة الأولى، وهناك صداقة من اللقاء الأول، هكذا كانت صداقتنا. ما لبثت آن، فى سن الخامسة عشرة، أن أصبحت الأخت الكبرى التى تقت إليها، ذات خبرة، تميل إلى حمايتى، حنون، عطوف، لا تُصدر الأحكام. أضمرت حبا لأختى الكبرى غير أننا كنا على طرفى النقيض؛ كانت هى "مطيعة،" تقليدية، سهلة الانقياد، بينما كنت أنا "شقية،" متمردة، مستقلة. لدينا أذواق وطموحات مختلفة تمام الاختلاف، فى النهاية كانت هى الباقية وكنت أنا الراحلة. وجدت فى آن بديلا مثاليا؛ مرحة، تتحدى التقاليد، رفضت الزواج بالرجل الذى أحبته وأنجبت منه طفلا لاعتقادها أن الزواج مؤسسة "برجوازية" عتيقة تقلص الحرية، وفى تلك الأيام كانت هذه الأفكار فى دولة كاثوليكية بالأساس نادرة حقا.

كان تفاؤل آن واستمتاعها بمباهج الحياة غير معتادين بالمرة، لأن حياتها كانت صعبة من البداية. طلق والداها طلاقا قاسيا حين كانت فى

العاشرة، وتزوجت أمها مرة أخرى، وعاشت هى وأختها الأصغر مع أمهما التى منعتهما من رؤية أبيهما، كان الأب قد انتقل إلى بلدة أخرى، ونسياه تقريبا. كانت الحياة "طبيعية" فى البداية، ثم ألم بأمهما الاستياء من زوجها الثانى فانقلبت أمهما "صعبة"، وكلما أكدت الفتيات فرديتهما كلما تصرفت بصرامة أكبر. تزوجت أخت آن رجلا يكبرها فى السن كثيرا وهربت، فحولت أمهما كل مرارتها وطغيانها إلى الابنة الأكبر.

كانت قد أجبرت آن بالفعل فى سن الخامسة عشرة على التخلى عن منحة وترك المدرسة، ثم اجتازت منهجًا قصيرًا لتدريب السكرتيرات وعملت فى أحد المكاتب. وفى وقت لاحق عندما بدأت آن تواعد أصدقاء ذكورا، ركبت أمها الغيرة، حدثت مناظر علنية مروعة، وأساءت إلى أصدقائها وطاردتهم خارج المنزل، وقد بلغ الأمر ذروته حين أظهرت آن سيرجى، "روسى بحق السماء ! a Russian, for christ'sake إما أن تتركيه وإما أن تتركى المنزل!" حسنا، كانت فى الثامنة عشرة، واقعة فى الحب، يمكنك تخيل أى الخيارين اختارت. عاش الاثنان برهة من الوقت فى فنادق رخيصة وهما يبحثان عن غرفة، ولكن عندما ظهر حمل آن وطُلب منهما مغادرة آخر فندق، عادت واليأس يحيق بها إلى أمها التى لانت ووافقت على أن يقيما فى العلية.

قابلت أم آن فى الزيارات التالية، قصيرة ريانة قاسية، لديها شارب رمادى مثل شوارب القطة تقريبا، وشعر خشن متموج فى ذقنها، أشياء قابلة للشفاء الآن غير أن نساء الطبقة المتوسطة العاديات تقبلنها وقتها ببساطة باعتبارها سوء حظ. ما أحبت "الأجانب"، ولكن مع مرور الوقت

أصبحت تتقبلنى. كنت أنا وآن نجلس فى الصيف تحت أشجار الكرز فى الحديقة الصغيرة يوم الأحد، وكانت تَخرج بين الحين والآخر لتنضم إلينا. كان زوجها مضطهَدا للغاية حتى أنه لم يَظهر قط، يمكنك سماع صوته وهو يتحرك داخل المنزل كما الشبح، أحيانا ما يطرح ظلا شاردا فوق العشب، احتقرته زوجته، وأشارت إليه دوما بـ "هو!" Lui.

كانت مهووسة بالجنس: تطارد قطة الجيران بمقشة، إذا كانت القطة فى حالة من الهياج الجنسى يتبعها قط، كيلا تشهد جماعهما. أحيانا ما تصيب ضربتها الهدف فيعلو صوت صراخ القطط ألما وهى تندفع فوق الحائط الفاصل المنخفض.

رحلت أم سيرجى الأرملة عن روسيا فى نهاية عقدها الثالث مع ولديها الصغيرين سيرجى وأخته، وجاءت إلى فرنسا حيث كانت تَعرف بعض المهاجرين. تزوجت ابنتها ـ الأكبر من سيرجى بسنوات قليلة ـ برجل إنجليزى وانتقلت للعيش فى أستراليا، ولكن لأسباب لم أقف عليها قط، لم تنتظم أوراق أم سيرجى أبدا، وعليه لم تزل رسميا "بلا دولة". قابلتها مرة فى منزلهما؛ امرأة حزينة رقيقة، أنهكها النفى، ندمت على مغادرة روسيا. عاملتها أم آن باحتقار ما بعده احتقار (ضبطتها ذات مرة تأخذ كرزتين من الشجرة فصرخت غاضبة بكلمة "سارقة" voleuse) وأحيانا ما كانت الروسية تثأر لكرامتها، وبعدها تختفى أسابيع حتى تفتقد ابنها وحفيدها، وتبتلع كرامتها وتأتى بالحلوى والفاكهة للطفل. ونظرا لهذه العلاقات لم يكن مدهشا أن مقتت آن فكرة "الأسرة" ـ الحق أنها أيدت رأى أوسكار وايلد "الأصدقاء هم اعتذار الله عن الأقارب"، هذبت علاقاتها بأصدقائها ووجدت فيهم العزاء، ومن بينهم مجموعة من الشعراء الشباب غدوا أصدقائى أنا أيضا.

أجبر سيرجى هو الآخر على ترك المدرسة فى مرحلة مبكرة والذهاب إلى العمل، ولكنه كان قد درَّب نفسه على العمل مهندسًا، ووظِّف الآن فى إحدى الشركات الهندسية. واصل هو وآن تعليم نفسيهما، ومثل العديد ممن يعلمون أنفسهم بأنفسهم، أجادا القراءة وتزودا بمعارف تفوق أغلب الأشخاص المؤهلين. كانت مكتبتهما ومجموعة أسطواناتهما مذهلة من حيث التنوع والجودة، ورغم أن كليهما اشتغل ساعات طويلة، تمكنا من متابعة الأحداث الثقافية المهمة. كانت آن تصحب طفلها إلى حضانة محلية فى الصباح وتأخذه فى المساء (كان الجميع فى تلك الأيام يعمل من الثامنة صباحا إلى السادسة مساءً، ويأخذون ساعتين راحة لتناول الغداء). كانت الأجور هزيلة، والناس يتذمرون، ولكن آن تمكنت من كتابة الشعر، وكان كتابها الأول مختارات صغيرة منه. كتبت أيضا قصصا للأطفال، ومراجعات نقدية فنية، فى الجرائد الأدبية رفيعة المستوى ومحدودة الميزانية، لم تحصل على أجر مقابل تلك المراجعات، بيد أنها تلقت مكافآت على هيئة دعوات إلى افتتاح المعارض، وكنت أحيانا أصاحبها إليها.

استجمعت شجاعتى يوما وأريت آن بعضا من قصائدى وقصصى، المدهش أنها أُعجبت بها وشجعتنى على المتابعة. طلبت منى أن أذهب معها إلى جلسة قراءة للشعر فى اللجنة القومية للكُتاب، حيث سأقابل آخرين فى مجموعة من الشعراء الشبان. بدأت اللجنة القومية عملها سرا فى خلال الحرب بعدد من المؤلفين غير المتعاونين مع العدو المحتل، وقد كان أعضاؤها المؤسسون البارزون يضمون فيركور وفرانسوا مورياك ولوى أراجون من بين العديد من المؤلفين الآخرين. وعقب الحرب سيطر

عليها الشيوعيون بالتدريج، ومَن لم يتفقوا مع سياساتهم الثقافية - حتى لو انتموا بوجه عام إلى اليسار - تم تهميشهم ثم طردهم فى النهاية. أصبح الآن فعليا فرعا من الحزب الشيوعى الفرنسى، تحت قيادة لوى أراجون وزوجته روسية المولد إلزا تريوليه. كان أراجون رئيس تحرير الجريدة الأسبوعية لاتر فرانسيز Lettres Françaises، الناطق الثقافى بلسان الحزب، مثلما كانت لومانيته L'Humanité جريدته اليومية السياسية التى حددت خط الحزب، وكفلت ألا ينحرف القراء عن مبادئ الحزب. تجمع الفنانون والمفكرون اليساريون أيامها حول ملكين ورفيقتين، إذ حكم أراجون وإلزا تريوليه الشيوعيين، وحكم سارتر وسيمون دو بوفوار المتعاطفين مع الشيوعية، يحيط بالاثنين حاشية ضخمة من الأميرات والمهرجين والطفيليين الآخرين. ومثل شانيل وديور فى عالم الموضة، كانا بين المفكرين حكَما ساميا فى عالم الموضة الثقافية Haute couture فكرة، أومؤلف، أو حتى كلمة، كانت إما "رائجة مقبولة" أو "عتيقة مرفوضة" لديهما، وويل للمعترض عليهما. ورغم أنه لن يذهب إلى سيبريا، مثل ذلك "اللا شخص" سوف يُطرح فى دور "اليمينى الشرير"، معزول ومشوَّه السمعة. لم يطق البعض - مثل أرثر كيستلر - الحال، ورحلوا عن البلد، وبقى آخرون ذوو طبيعة أقوى، ريموند آرون وألبير كامو وأندريه بيرتون، وتحملوا الازدراء برزانة، عن اقتناع أن سوف يكسبون يوما - حتى لو بعد موتهم - النضال السياسى والأخلاقى. من العسير اليوم تخيُّل أننا - الشباب المنغمس فى السياسة - لم نقرأ كتابات آرون، لأنه كان يكتب فى جريدة فيجارو Figaro التى كانت تُعتبر الجريدة الناطقة بلسان اليمين، وعليه كانت غير مقبولة. طالعت فى

العقود التالية بعضا من كتبه ـ أفيون المفكرين The Opium of the Intellectuals على الأخص ـ ومقالاته الأسبوعية فى الإكسبريس L'Express : سليم الفكر، وموضوعى المنطق، وله تعليقات بعيدة النظر صادرة من عقل لا تكتظ فيه الأفكار الجاهزة والتفاخر الأيديولوجى، بينما اتضح أن "المعلمين الروحيين،" وبخاصة سارتر، أخطأوا فى تقدير الكثير من المسائل السياسية. ظهر آرون فى آخر صوره عام١٩٨٣، قبيل وفاته، وهو يغادر دار القضاء، هزيل الجسم، مريض البدن، غادر فراش المرض كى يشهد ـ كما هو خليق به ـ على براءة رجل فى محاكمة.

كان مقر اللجنة القومية للكُتاب منزلا لإقطاعى بالقرب من القصر الرئاسى فى طريق الإليزيه. انعقدت اجتماعات متكررة مفتوحة لحضور العامة، وفيها يقرأ الكُتاب والشعراء كتاباتهم ويلقون الخطابات، ويستقبلون الشخصيات الأجنبية الأدبية الرفيعة ويقيمون الاحتفالات. قرأنا فى إيران عن المقاومة السرية من خلال بعض النصوص الأدبية التى أنتجتها، من أبرزها رواية فيركور الشهيرة صمت البحر The Silence of the Sea وقصائد أراجون الوطنية الغنائية. أصبح هؤلاء المؤلفون شخصيات مقدسة بين أهل، الفكر غير أن فكرة أنى سوف أقصد فرنسا فى يوم من الأيام وأقابلهم كانت فكرة خيالية. قرأت الآن شعر أراجون بالفرنسية، بل وأسرنى جمال لغته وبلاغتها، واتقاد عاطفته، وحدّة حبه لفرنسا وإلزا. كنت قد أبصرته بعيدا فى التجمعات السياسية، وكانت فرصتى كى أسمعه وهو يلقى قصائده وقصائد الشاعر الروسى الراحل ماياكوفسكى التى ترجمتها زوجته، بل وقد ألتقى به. كان ماياكوفسكى الشاعر الروسى الوحيد الذى عرفناه جميعا وطالعنا

أعماله: رومانسى جامح، وأحيانا هزلى "لستُ رجلا" مجرد سحابة فى بنطال" أو "مدام، ابنك مريض مرضا رائعا، قلبه متوهج!" .... إلى آخره). خدم الثورة وانتحر، كانت أوراق اعتماده لا ترقى إلى الشك. كانت ليلى بريك أخت إلزا تريوليه، رفيقته ومصدر وحيه حتى وفاته، رغم أنى علمت بعدها أنه أقام عددا لا نهائيا من العلاقات الغرامية الأخرى فى وقت واحد. أمَّا عن "الأربعة العظماء" أخماتوفا وماندلشتام وباسترناك وتسفيتاييفا، فلم نسمع عنهم أى شىء على الإطلاق، كانوا أشخاصا مخفيين فى الاتحاد السوفييتى، وعليه لم تُترجم أعمالهم إلى الفرنسية أو الإيرانية.

كانت قاعة المحاضرات غاصَّة بالشباب، أغلبهم من الطلاب والراغبين فى أن يصبحوا مؤلفين وشعراء مبتدئين...، وسرعان ما انفتح باب ودلف منه أراجون تصحبه حاشيته، تصفيق، إلى جانبه امرأة صغيرة الحجم فى خريف العمر بعينين زرقاوين واسعتين، ترتدى معطفا غامقا وقبعة سوداء من القطيفة، تفحصت الجمهور بعينيها ثم رسمت ابتسامة قبل أن تجلس، إلزا تريوليه! هذه هى إذن المرأة التى ألهمت كل هذه القصائد الغرامية التى تمزق شغاف القلب، المرأة التى يهديها كتبه، عينا إلزا Elsa's Eyes، عروس الشعر المعبودة! استقرت حاشية الزوجين فى الصفوف الأمامية، على حين صعد الشاعر العظيم المنصة، نحيف وسيم، فى بذلة زرقاء غامقة تتميز بالأناقة، شعره الرمادى الناعم إلى الخلف من حاجب عالٍ، عيناه المعبرتان تبرقان بلون أزرق. مضى يقرأ... لا أستدعى كل ما قرأه، ولكنى أتذكر القراءة الواضحة الجميلة، والتغير الدرامى فى نبرة الصوت، والتصعيد المتقد الذى بشر باقتراب تصفيق أشبه بالرعد.

آخر قصيدة قرأها كانت قصيدة ماياكوفسكى "جواز سفرى السوفيتى"، التى تنتهى بتأكيد لإباء لا لبس فيه، إباء انتقل وتضخم من خلال التزام أراجون بكل شىء يمثله.

بقينا بعد انتهاء جلسة القراءة، تدفقنا إلى الحجرة المجاورة حيث وقف الشاعر وزوجته وأصدقاؤه فى حشد، سرعان ما تكون حولهم حاجز بشرى من المتوددين، مثل "معجبى" اليوم الذين يتحلقون حول نجوم الغناء "البوب". لم يكن اختراق الحشد بالسهل، ولكنى حسبت أنها فرصتى كى ألفت الانتباه إلى الرقابة فى إيران منذ زوال "الحزب" عام ١٩٥٣ والتضييق على أنشطة الجناح اليسارى. اعتنقنا نفس المثل العليا، كنا جميعا على قدم المساواة ولا شك، دول صغيرة ودول كبيرة على حد سواء؟ متحدون اتحادا وطيدا فى كفاحنا من أجل الثورة و"جمهورية الفضيلة العالمية" التالية؟

"آسفة على الإزعاج، أعلم أن وقتك ضيق..." بدأت أقول بمجرد أن تمكنت من بلوغ الشاعر.

"عندى دوما وقت للفتيات الجميلات!" لفظ مبتسما.

ما هو دخل جمالى أو غيره فى المسألة؟ وكيف لى أن أرد على مثل تلك المجاملة؟ ما رغبت فى السماح بأى انحراف عن الموضوع أو تسطيح له، ما ندَّ عنى إلا متابعة الكلام، انهمرت من ثغرى المعلومات عن الحياة الفكرية فى إيران، مشيرة إلى كُتاب ترجموا أعماله وروجوا لها، ذكرت أن بعضهم تم القبض عليه، ولكنهم أفرجوا عنهم لاحقا. ما بدا عليه أى أثر

للاهتمام بكلامى، وما لبث أن جذب انتباهه أحد تلاميذه Protégés، صحفى وكاتب غزير الإنتاج.

عبَّرت بعدئذٍ عن إحساسى بالإحباط لآن، غير أنها كانت أكثر خبرة بالحياة والناس منى، "لدى هؤلاء الناس الكثير والكثير من المشاغل حتى إنهم لا يكترثون للمشاكل الفردية". باحت، إلا أننى لا أتعامل مع شىء بمثل هذا التجاهل، فقد انفعلت مع قضايا كل المقهورين فى كل مكان. صادقت منفيين إسبان وطلبة من جنوب أمريكا وشمال إفريقيا، وسمعت عن الفقر والظلم فى بلادهم، وانفعلت بكل شىء. شاركتهم تمردهم، حجم الدولة أو أهميتها لا يهم فى شىء. دار فى بالى، "هكذا تظهر معادننا". قرأت آن أفكارى فأردفت: "يجب ألا يلتقى المرء بأشخاص هو معجب بهم؛ فهم شخصيا مصدر إحباط دائم تقريبا". ليس على الدوام، كما سأكتشف فى فترة لاحقة، ولكنى أحسست وقتذاك أنه خير لى أن آخذ بنصيحتها.

ذهبت إلى العديد من جلسات القراءة والمحاضرات الأخرى فى اللجنة، ولكنى أتذكر بوضوح أن المناسبة التالية كانت حفل استقبال للكاتب الروسى إيليا إيرنبورج، سفير ثقافى متجول يمثل دولته فى مؤتمرات حركة السلام والاجتماعات العالمية للكُتاب، والكاتب السوفيتى الوحيد الذى يحمل جواز سفر دبلوماسيا. لإيرنبورج صلات وثيقة بالكُتاب الشيوعيين الفرنسيين، ولا سيما أراجون وزوجته إلزا، وقد كتب عدة كتب ناجحة بأسلوب الاشتراكية الواقعية بأوامر من شدانوف (وزير الثقافة المرعب فى عهد ستالين). حوت الكتب ما يكفى بالكاد من نقد

للبيروقراطيين الأغبياء و"الشيوعيين الأشرار" كى تبدو للقارئ مقبولة فى الظاهر، وقد أسرف على الدوام فى الإطراء على ستالين "المدافع عن الحياة والدفء والسلام"، و"أبو الشعب المحبوب". ورغم أن الكتب تُرجمت إلى الفرنسية والإيرانية، لم أقرأها. حتى وقتذاك بدت الحياة قصيرة زيادة عن اللازم! بعد تقرير خروشوف الشهير وتراخى الرقابة السوفيتية، أصدر إيرنبورج رواية الذوبان The Thaw. تدور الرواية حول انقضاء العصر الجليدى الذى استحوذ على روسيا تحت حكم ستالين، عصر تسبب فى دمار لن ندركه حتى تنقضى سنوات عديدة. بات عنوانها رمزًا لعهد خروشوف، ولكن حتى فى هذا الكتاب كان مطمئنا: كل شىء الآن على ما يرام فى كل العوالم المحتملة، مثلما أكد لنا من قبل، وقد كان منحازا آمنا للفريق الجديد الأوفر حظا.

كنت قد قرأت رواية الذوبان The Thaw وتملكتنى الحيرة، إذ أشارت إلى عالَم جهلته مثلى مثل العديد من الأعضاء الجدد فى الشيوعية. الحق أن بعض قصائد ماياكوفسكى انتقدت البيروقراطية الجامدة الساحقة، ولكن لا ريب أنها كانت مجرد تجعيدة ينبغى تنعيمها فى نسيج نظام لا تشوبه شائبة.

كان اجتماع ذلك اليوم غاصا بالناس على نحو خاص. افتتح أراجون الجلسة بخطاب ترحيب موجه إلى إيرنبورج الجالس فى الصف الأمامى إلى جانب إلزا تريوليه، وبعدها حين تفرق الجمهور، انتقل بعضنا - كُتاب وطامحون شبان - إلى الغرفة المجاورة كى نلتقى بالنجوم. وقف إيرنبورج فى ركن يحيط به الأصدقاء والمعارف، ظهره منحنٍ قليلا، وعيناه زرقاوان

لامعتان، شعره أشعث أبيض. كان يتحدث الفرنسية جيدا إلا أنه قام بدور المستمع فى أغلب الأحوال، ولا سيما إلى تريوليه التى لم تمسك قط عن الكلام. لو أن أراجون قد نبذ التماسى نيابة عن أهل الفكر الإيرانيين، فلا مراء أن إيرنبورج - الكاتب السوفيتى الشهير - سوف ينتبه، وربما يصنع شيئا بمجرد أن يعود إلى بلاده؟ أزحت كل إحساس بالخجل جانبًا فى سبيل الواجب، وتقدمت إليه لألقى عليه خطبة موجزة أعددتها، واقترحت أن يبدأ المذياع الروسى الذى أذاع برامج بالفارسية حملة ضد الرقابة. ولكن ضجرا، حل عليه: عله سمع الخطبة من قبل من جماعات مهاجرة قادمة من جميع أنحاء العالم، ممن سعوا إلى روسيا من أجل الدعم. غمغم ببعض الأعذار قائلا إنه لا يفقه شيئا عن الأدب الفارسى - وكأن هذا هو موضوعنا الأساسى - ثم صرف انتباهه إلى مضيفيه.

هذا ما جرى بلا زيادة ولا نقصان، ولكن شعورى بالحزن فاق شعورى بخيبة الأمل، عله عرف أنى بالفعل متخلفة عن العصر، وأن الموقف داخل إيران وعالميا تغير. كان أغلبية الشيوعيين السابقين والمفكرين المتعاطفين مع الشيوعية يعملون عند الشاه الذى أعاد تأسيس "علاقات صداقة" مع جارة البلد الشمالية، كان إيرنبورج يعلم كل هذه المعلومات، وحسب - وعنده حق - أننى فتاة مثالية صغيرة جاهلة بآلية سياسات القوى الكبيرة. لم يَعلم العالم إلا فى السبعينيات والثمانينيات من خلال أعمال باسترناك وسولجينيتسين وأخماتوفا ونتاليا جينزبيرج وآخرين الطبيعة الحقيقية للحياة فى روسيا، "فردوس العمال." وبعد ذلك رموا إيرنبورج بأنه مُحدِث نعمة، شخص عادى عاش على التواطؤ مع الطغيان،

بالأكاذيب والتشويه، بينما هلك كل من حوله من فنانين أصلاء وكُتاب عظماء لأنهم جاهروا بالحقيقة.

ومع ذلك كتب إيرنبورج حقا فى شبابه روايتين ساخرتين تنبأتا بكل ما سيجرى فى روسيا تحت حكم ستالين، ولكنهما لحسن حظه نفدتا من الأسواق وغابتا عن ذاكرة الناس. عمل مراسلا فى مرحلة لاحقة إبان الحرب الأهلية الإسبانية، وشهد إقصاء الفوضويين على يد عملاء ستالين، ولم يفه بكلمة، وفى عام ١٩٤٠ رأى حلفاء روسيا الألمان، وهم يحتلون باريس، وعاد إلى وطنه بدون إبداء تعليق واحد. وبعدها، عندما هاجم هتلر الاتحاد السوفيتى، انضم إلى اللجنة اليهودية المضادة للفاشية، ومن بين أعضائها العديد من مشاهير الفنانين والكُتاب والعلماء، وهى منظمة أُسست فى السابق لمقاومة النازيين، رغم أن معاداة اليهودية فى روسيا اختفت ظاهريا مع ثورة ١٩١٧، كانت لا تزال حية تماما.

بدأت أول موجة من معاداة السامية السوفييتية الرسمية قبل نهاية الحرب العالمية الثانية بتوجيه الاتهامات إلى الصهيونية و"الكوزموبوليتانية"، وبحلول عام ١٩٤٨ اعتقل ستالين وقتل عشرات من زملاء إيرنبورج اليهود وأصدقائه فى اللجنة المضادة للفاشية، وأرسل العديد إلى معسكرات الاعتقال. كان رد فعل إيرنبورج أن كتب مقالة فى صحيفة برافدا يشجب فيها الصهيونية ويصف إسرائيل بأنها "كيان مخلوق من قبل الأنجلوسكسون"، و"دولة رأسمالية قزمة"، وعليه صدَّق على قتل أصدقائه. وفى نهاية الخمسينيات راح تقريبا كل أصدقاء

إيرنبورج؛ انتحر ماياكوفسكى وماريا تسفيتاييفا، وهلك أيزيك بابل فى أحد معسكرات الاعتقال، ومات ماندلشتام فى معسكر انتقالى وهو يقرأ الجحيم Inferno لدانتى، وتم إعفاء باسترناك وأخماتوفا وباوستوفسكى، ولكن فى مقابل الصمت والخوف واليأس. التقى أحد الناجين بإيرنبورج بالصدفة فى عام ١٩٥٥ فى مطار فيينا، وقال: "أخبرنى أصدقاؤك أن أطلب منك ـ لو قابلتك صدفة يوما ـ أن تأخذ بعض الزهور إلى قبورهم"(*).

لم نزل نحن الناس العاديين نجهل كل هذا فى عام ١٩٥٧، ولم يعلّمنا أحد من العارفين بالفعل، ولكن، توخيا للعدل، حتى لو أعلمونا، ما كنا لنصدقهم، كنا سنرميهم بالخارجين عن الحزب ونعاملهم معاملة المنبوذين مثل كيستلر وأندريه جيد.

وفى غضون ذلك ارتحل إيرنبورج إلى الخارج بمطلق حريته، وعاد محملا بالكتب الممنوعة والسلع "الرأسمالية"، كان بإمكانه أن يبقى فى باريس أو بروكسل ليخبر العالَم بما يجرى فى بلده. ولماذا لم يفعل ذلك؟ ربما لم تواته الشجاعة كى يتخلى عما ناله "كاتب الشعب" من راحة ورفاهية فى مقابل الشك فى النفى وإذلاله.

إلا أن القرن تشكل بشتى صنوف المنفيين، من بيكاسو إلى جويس، ومن شوينبرج إلى بيكيت، وعدد لا يعد ولا يحصى غيرهم، منفيين خلقوا صورا وكلمات وأصوات جديدة عكست ألم حالهم واضطرابه، أو عله ذلك المنفِى الأصلى من جنة عدن.

(*) كلود روى، مؤلف بارز وصديق أصدقاء إيرنبورج، طرد من الحزب عام ١٩٥٧ لتظاهره ضد غزو المجر، وقد ذكر هذه النادرة فى سيرته الذاتية الصادرة تحت عنوان نحن Nous.

كان إيرنبورج بالقطع "ناجيا" من نوع ما، وقد كابد القرن أهوالا عنيفة حتى إن النجاة فى ذاتها Per se أصبحت فضيلة. نتحدث بإعجاب عن "الناجى" إلا أن كل هؤلاء المئات من الأعضاء من كُتاب الاتحاد السوفيتى الذين أذعنوا إلى قواعده ونشروا الآلاف من الكتب "الاشتراكية الواقعية" فى عقود الرعب اختفوا فى غياهب النسيان، بينما انبعث أُوسيب ماندلشتام - اسم شطبوه فى السجلات الرسمية - إلى المجد. ولكن مَن يعلم ماذا سيفعل أىٌّ منا فى ظروف مشابهة؟

وهناك حقا ظروف يكون فيها البقاء على قيد الحياة فى حد ذاته انتصارا: يسرد بريمو ليفى فى وصفه لمعسكرات الموت النازية، هل هذا هو الإنسان If This be a Man، وسولجينيتسين فى أرخبيل معسكرات اعتقال The Gulag Archipelago إغراء الاستسلام والموت مع الضحايا الآخرين؛ ولكنهما أحجما كى يصبحا شاهدين ويحملا مرآة الخلاص فى قرننا.

تحكى ناديجدا ماندلشتام فى سيرتها الذاتية أن إيرنبورج كان واحدا من دستة أشخاص موجودين فى التجمع الشهير، حيث قرأ زوجها قصائده الموجهة ضد ستالين، قصائد أدت إلى اعتقاله اللاحق ثم ترحيله ووفاته. أبلغ عنه أحدهم، غير أنها لا توجه إصبع الاتهام ضد أى شخص، وعليه توحى أنه لم يكن إيرنبورج الذى ظلت صديقته حتى النهاية. ووفقا لروايات الجميع استخدم إيرنبورج مكانته خلال عهد خروشوف لمساعدة الآخرين - كُتاب وفنانين وأناس عاديين - بأن استخدم

نفوذه لمصلحة آخرين وأعطى النصائح، واحدة منهم كانت صديقتى آن، عندما ذهبت إلى روسيا، ولكن تلك قصة أخرى.

وفى خلال السنوات التالية بعد ثورة المجر وضع المفكرون الفرنسيون حدا لخسائرهم، وغادروا الحزب أو تم طردهم. لم يبق إلا أراجون وإلزا تريوليه غير نادمين، وإن وقفا على ما يجرى فى روسيا أكثر من أى فرد آخر، فقد سافرا فى أرجاء البلد تكرارا باعتبارهما شخصيتين مهمتين، وكان الكُتاب أحيانا يطلبون منهما المطالب. أنهى أراجون إلى أحد الأصدقاء مرة: "فى عائلة إلزا وحدها اختفى تسعة أشخاص"، ولكن عندما أقرأ خبر موته فى عام١٩٨١، لا أتمالك أن أشعر بالحزن: كان الأمر أشبه برؤية قارب يغرق بالبحر فى الأفق حاملا معه حمولة من المثالية والأمل والشباب.

تحولت العديد من قصائد أراجون إلى أغانٍ، وتم تسجيلها من قبل الكثير من المغنيين، ذكورًا وإناثًا، أغنِّى أنا الأخرى بعضها، والسطور التالية من أغنية سجلتها:

لا شىء يُمنح للإنسان، لا قوته، ولا ضعفه، ولا قلبه

وعندما يفتح ذراعيه للحياة، ينقلب ظله صليبا

وعندما يعانق سعادته، يسحقها

لا يوجد حب سعيد...

عندما سألوا أندريه جيد عن أعظم شاعر فرنسى فى كل العصور، أجاب: "فيكتور هوجو، للأسف!" hélas باتت جمله شهيرة، وقد أُعيدت

صياغتها العديد من المرات. لو سألونى عن أعظم شاعر فرنسى فى ذلك الجيل، يمكننى أن أجيب: "أراجون، للأسف! hélas" فالشعر فى النهاية غير قابل للتخريب، وبعد وقت طويل من رحيل الشاعر، الضعيف وربما المذنب بـ "خيانة المفكرين la trahison des clercs"، تلبث القصيدة، نقية ونبيلة.

١٩ ـ جواهر وأحجار

الشاعر نظير أمير السحاب
يلاحق العاصفة ويهزأ من رامى السهام؛
منفى فوق الأرض وسط الصراخ،
جناحاه العظيمان يعيقان سيره

شارل بودلير

كانت جماعة الشعراء الشبان أحد فروع اللجنة القومية للكُتاب، وراعيته هى إلزا تريوليه. الواضح أنها استمتعت بتملق الشبان، فأغلبهم كانوا شبانا احتشدوا حولها وحول زوجها، وكان لديها بالطبع مَنْ تفضلهم من بينهم. ومثل أى جماعة اجتماعية أثارت جماعة الشعراء الشبان القيل والقال ـ ليس كله خبيثا ـ ومشايعة الأنصار. سرت مناقشات حادة حول مَن "الأفضل"، ومَن أكثر قصائده استحقاقا، إلى آخره. أتت التعليمات من أراجون، فقد أدار سحر أسلوبه الشعرى الرءوس: من الشعر الحر الهزلى لفترات الدادية والسريالية فى العشرينيات

والثلاثينيات، إلى قصائد الحب والحرب البطولية، إلى التدفق الشيوعى فى البيوت سداسية التفاعيل على غرار هوجو، غطى شعره سلسلة كاملة من المناهج الشعرية بنفس سهولة متزحلق على الجليد يغير الأساليب. أتذكر آن وجيليز وآخرين عديدين وهم يناقشون آخر نظام كتب أراجون به، يقولون إنه لا عيب فى الأبيات سداسية التفاعيل التى نتجنبها لمللها وصرامتها. قال بول كلود عنها: "المسألة أشبه بمشاهدة أعمدة التلغراف وهى تظهر عند مسافات منتظمة من نافذة القطار". حاول الجميع فجأة أن يكتبوا شعرا مقفى فى أوزان كلاسيكية، بل إن آن كتبت سونيتة بأبيات سداسية التفاعيل، ولا زلت أذكرها.

وجد بعض الشعراء الشبان طريقهم إلى المطابع، أغلبها مجلات قصيرة العمر محدودة التوزيع توهجت ثم ماتت، مثلها مثل شرارات فى أحد الملاهى. حاز القليل منهم كتيبات صغيرة نشرها بيير زيجرس، ناشر تخصص فى إصدار الشعر وبدأ حياته شاعرًا، وعندما تضاءل أسلوبه الشعرى اكتشف موهبة فى التجارة، وأسس دار نشر لإصدار الأعمال الشعرية. ولأنه امتاز بتهذب وجاذبية شديدين، وعلى صلة بكل شعراء جيله، ما واجه صعوبة فى تأمين أفضل الشعراء من أجل داره. سرعان ما نجح نجاحا ساعده على تأسيس فروع للمختارات الشعرية والكتب المصورة وسير الشعراء... وما لبث أن أصبح واحدا من أعلى الناشرين مقاما فى البلد. إن نشر زيجرس مجموعة مختارة من القصائد، مهما بلغ صغرها، كان بمثابة "تكريس"، بداية مسيرة مهنية أدبية، وقد تضمنت كتيباته الصغيرة كتبا لأراجون وإليار ورينيه شار، وكذلك المبتدئين. واصل القليل من مئات الشعراء الشبان الذين نشروا

أعمالهم الكتابة بعد وصولهم لسنٍّ معَين، ولكنه كان المتوقع، ولم يقلل ذلك من قيمتهم.

كانت آن قد نشرت قصائد فى شتى المجلات والكتب الصغيرة، وبدأ الناس يعرفونها، ولكن تاق الجميع إلى نشر أعمالهم، ولم تكن الفرص سانحة. فى النهاية قرر جيليز وآن واثنان من أصدقائهما أن يُصدروا مجلتهم وينشروا فيها ما راقهم من قصائد، بعيدا عن الأفكار الجاهزة وأهواء المعلمين. أصدروا بيانا رسميا وحصلوا على رخصة بالعمل، وتلقوا عددا وافرا من النصوص والتشجيع والدعم المعنوى من شعراء معروفين، تلقوا كل شىء عدا المقوم الأساسى الذى سوف يحول أى مشروع إلى حقيقة: الأموال. ولكن من يعبأ؟ سوف يعثرون فى النهاية عليها! ساهم الجميع بحصة، مرتب جيليز المدرس بنصف دوام، ومنحة كريستوف الصغيرة المنتج الإذاعى تحت التدريب، بل إن آن قدَّمت شيئا رغم أنها تملك أقل القليل. ثم تولى جيليز التفاصيل، وعثر على عمال مطبعة، وكتبة شبان على الآلات الكاتبة ممن قدموا خدْماتهم مجانا أو بأسعار مخفضة، وصدر العدد الأول، بغلاف بالأبيض والأسود، عليه تصميم تجريدى (صممه كريستوف) يدمج الاسم: جيم. شملت ثلاثين صفحة تعج بالمتقد من الأفكار والقصائد والمقالات ومراجعات الأفلام والفن.

وعندما ظهرت أنا فى الصورة، كانت قد صدرت ثلاثة أعداد من مجلة جيم Gem، وكان جيليز نافد الموارد. بيعت مائة نسخة من كل عدد، أغلبها للأصدقاء والمحسنين الأكبر سنا، إلا أن العائد غطى بالكاد نصف المصاريف، واستنزفت موارد الجميع، ومع ذلك طلبت آن منى أن

أنضم إلى هيئة التحرير وأحضر اجتماعاتها. كانت الاجتماعات فى مقهى "بول دور" فى جادة سان مايكل. كنا نجلس هناك طيلة الأمسية بفنجان واحد لكل منا، ولم يعترض أحد. كيف جنت هذه المقاهى أية أموال، لا أعرف! كان النادل يبصر أوراقا ومخطوطات متفرقة فوق المائدة الصغيرة المستديرة، ويسمع أجزاء من النصوص وهو يمر بنا، فافترض أننا كتاب وتركنا لحالنا. أنا عن نفسى لم أكن أدخن كى أحمى صوتى، ولكن دخن الجميع، بشراهة فى الغالب، وتكدس الهواء بأبخرة رمادية مرئية مثل البراقع المتموجة. كنت قد قابلت جيليز وكريستوف من قبل فى اللجنة القومية للكُتاب، وأعجبت بهما. ذكرنى جيليز بصورة شهيرة لرامبو، أشقر، وشعر مموج، وبشرة لفحتها الشمس، وجسد نحيل للغاية، وإنما قوى. صاحَب وقتها صديقة من أبوين أحدهما أبيض والآخر من أصل إفريقى (جال ببالنا: مثل بودليرا) وانخرط بعمق فى الفن الإفريقى، وكتب بإسهاب عنه. وقد أطلق آراء مثل: "الفن الأوروبى سوف يصبح أسود وإلا سيتلاشى!" لم يُظهر صديقته فى اجتماعاتنا رغبة منه فى أن يتصرف بطريقة مهنية بحتة، لذا كانت فى مخيلتى مثل وصف بودلير لعشيقته: داكنة البشرة، شهوانية، ملونة، جميلة على نحو واهن... وفى يوم من الأيام التقيت بها صدفة، وهى تسير ذراعها متشابكة بذراع جيليز، فأرة صغيرة، ملونة بالكاد، بشعر أجعد فردته ولملمته فى ذيل حصان، وأسنان ضخمة، فى ابتسامة دائمة مرحة. اختفت فى الوقت المناسب، وتزوج جيليز مهندسة صوت جميلة ذات شعر أحمر، ومنذ حينها عاش معها فى سعادة. ولكن انهماكه فى الفن الإفريقى استمر، وهو يَعلم عنه أكثر من العديد من المحترفين، مثل واحد

من هؤلاء الهواة فى برامج المسابقات فى التلفزيون الذى يكسب كل الجوائز.

فى أحد اجتماعاتنا قرأت آن قصة كتبتها، وقد أعجبتٌ بها. لا أستطيع أن أستحضر أحداث القصة، فقد نبذت كل شىء كتبته فى السنوات الأولى من شبابى، أو فقدته بالتنقل المتكرر، ولكنها وقعت فى كرنفال الزهور فى مدينة نيس، مدينة لم أزرها قط، وإن وصفها لى صبى من الجنوب، وقد راقتنى فكرة الكرنفال المخصص للزهور. خالجنى الاندهاش لأن القصة راقت للجميع، وتمت الموافقة على نشرها فى العدد الخامس من جيم Gem، فقد كان العدد الرابع فى المطبعة بالفعل.

استبدت بى حماسة لا تعادلها حماسة، كنت قد كتبتها بدون أن أضمر أية توقعات، وكانت أول ما نُشر لى بالفرنسية، ربما أجرؤ فى وقت لاحق أن أقدم الشعر وأيضا الأغانى. ولكن توقفت جيم Gem بعد العدد الرابع عن الصدور، بعد أن ناءت بديون ثقيلة لا يمكن إنقاذها منها، وعليه لم ينشروا قصتى قط. تولى آن الإحباط؛ فقد ساورتها آمال عظيمة أن تنجح هذه المغامرة، وعقدت العزم عندها أن ترحل عن فرنسا، وإن انقضت فترة قبل أن ترحل بالفعل.

استغل سيرجى أصوله الروسية، وليأسهما من إيجاد مكان للعيش قرر سيرجى وآن الهجرة إلى الاتحاد السوفيتى، وقد قدما طلبات للحصول على تأشيرة عدة مرات قبل أن ألتقى بهما. قيل لهما فى البداية إن الأمر سوف يستغرق ستة أشهر، وبعد مرور سنة لم يحدث

شىء، ذهبا إلى السفارة السوفيتية واستفسرا عن الطلب، وهناك أعطوا لهما استمارات أخرى لتكملتها، وسألوهما المزيد من الأسئلة، وأرسلوا لهما المزيد من الوثائق لتوقيعه،ا وأمروهما بالانتظار، وكانا يرجعان إلى السفارة كل عدة أشهر ليعودا خاليا الوفاض. مرت سنوات، وخلالها مات ستالين، وتقلد خروشوف مقاليد السلطة (بشر بقدوم التغيير بالتقرير العشرين للكونجرس الذى شجب "عبادة شخصية" ستالين)، وراحت الأحوال تتغير فى روسيا.

ألمَّ اليأس بآن وسيرجى من السفارة السوفيتية، وطفقا فترة أخرى من البحث عن منزل، وعدهما أحدهم بشقة فى ضاحية جديدة خاصة بسكن الطلاب، كانت تُشيد بالقرب من باريس، سنة أخرى تقريبا وسوف يستقران. ولكن تلك الوعود بطيئة التحقق، وذات يوم اكتشفت آن أنها حامل. كان الإجهاض وقتها جريمة فى فرنسا، ولم تمتلك النقود للذهاب إلى سويسرا، وكان البديل السرى غير القانونى مكلفا تحفه المخاطر، هذا علاوة على أنها أرادت طفلا ثانيا.

صبت عليها أمها وابلا من اللعنات البذيئة، وما كان من آن إلا أن انجرفت فى البكاء، ورجع سيرجى إلى السفارة السوفيتية وشرح حالتهما، وطالب بإجابة: نعم أم لا. أشفق أحد السكرتارية على محنته ووعده بمتابعة الإجراءات بنفسه وبإبلاغه فى القريب العاجل. استمرت "فى القريب العاجل" ستة أشهر بما يكفى كى تلد آن طفلها، طفلة صغيرة أسمياها ناتاشا. ثم استدعى سيرجى بخطاب إلى السفارة السوفيتية، ولدهشته اعتذروا له عن التأخير - بسبب "البيروقراطية القديمة" -

وأبلغوه أن التأشيرتين وصلتا وبإمكانهما الرحيل وقتما يريدان، وبمجرد أن يبلغوا موسكو سوف تتولى الحكومة السوفيتية مسئوليتهم والمفترض أن تمنحهم سكنا ووظيفة... هرع سيرجى إلى بيته حاملا الأخبار السارَّة واستقال من وظيفته، وحزم حقائبه وغادر كى يستقل السيارات متطفلاً hitch - hike وصولا إلى موسكو، سوف تلحق به آن والأولاد بالقطار، وسوف تلحق بهم أمها بمجرد أن يستقروا.

أتذكر أنى ذهبت لتوديع آن والطفلين فى المحطة، ما أحدأتى آخر لتوديعهم، وساعدتها فى العثور على مقصورتها ومقعد شاغر بجوار النافذة. حملت الكثير من الحقائب ولم يكف الطفلان عن الحركة، كيف يمكنها أن تتصرف لمدة ثلاثة أيام وثلاث ليال بمفردها؟ ولكن الخوف من المستقبل بصفة عامة حل بكيان آن، حتى إنها لم تقلق من مثل تلك التفاصيل الآنية. ندت عنى كلمات مطمئنة مرتفعة الصوت: موسكو مدينة غريبة مدهشة، جزء منها آسيوى، وجزء منها أوروبى، فيها جالية فرنسية ولها برامج إذاعية ومطبوعات من فرنسا، لا شك أنها سوف تعثر على وظيفة مثيرة للاهتمام غير تلك التى كانت تكدح فيها ثمان ساعات يوميا فى المكتب. كانت واحدة من "الأخوات الثلاث" التى تحققت أمنيتهن! تعانقنا والدموع تبلل أعيننا على وعد بالتراسل من آن لآخر، ووعدتها بزيارتها بمجرد أن تستقر، ربما فى الصيف التالى... تم إطلاق الصفارة، وانغلقت الأبواب، وابتعد القطار بطيئا، وقفت ولوحت بيدى حتى اختفى رأس آن فى الأفق. وفى سبيلى إلى المدينة الجامعية بكيت: راحت "أختى الكبرى"، هل سأراها هى وسيرجى مرة أخرى؟ سوف تمر سنوات، وربما تتفرق بنا السبل تماما وينقطع الاتصال. لمس كل رحيل

وترا حساسا، وذكَّرنى بنفسى وأنا بعيدة عن بيتى فى إيران، وتنبأ بحالات رحيل فى المستقبل، شعرت بأن حياتى سوف تمتلئ بها، فقد علمت بالفعل أن المرء لا يمكنه أن يرجع أبدا، عدا فى الخيال، وبمجرد أن تنزع ذلك الستار الواهى المشغول بعناية، ستار يُبعد به الناس الوحدة والخوف والموت، لا يمكنك أن تعيد بناءه كلية. يضيع جزء من الدفاع، وتصير الحركة الأبدية مهرب المرء الوحيد. أعلن باسكال أن كل مشاكل المرء تبدو من قضية واحدة، عدم قدرته على البقاء هادئا فى غرفة، ولكن ربما تتبع المشكلة من العكس: ينشأ تململ الإنسان من حقيقة أزمته - مفقود فى "ضخامة هذه المساحات اللا نهائية" - ماذا لو كانت خالية من «الإله» فى النهاية؟

جاء الخطاب حقا فى وقته، حكت لى آن عن رحلتها العصيبة، أنهكتها رحلة القطار التى استمرت ثلاثة أيام: بعد الحماسة المبدئية شعر الطفلان بعدم الراحة وأصابهما الغثيان عدة مرات؛ نفد منهما الطعام والماء وعازها المال بشدة، ما جرؤت على إنفاق الكثير من الأموال على الطعام أو الاستراحة على سرير فى القطار. صار الكابوس محتملا بطيبة الركاب الآخرين الذين شاركوها الطعام والمياه، ورعوا الطفلين بالتناوب ليسمحوا لها بأخذ قسط من النوم رغم ندرة التواصل اللفظى، بما أن آن لم تتحدث أية لغة من شرق أوروبا، ولا تحدثوا هم الفرنسية.

اتفقت هى وسيرجى أن يبحث كلاهما عن الآخر عند محطات مختلفة على طول الخط لو تمكن من الوصول فى الوقت المناسب، فالتطفل على السيارات أمر غير متوقع، وعليه متى اقتربوا من بلدة كبيرة كانت آن تدعو أن يكون هناك، ولكن الإحباط حاق بها المرة تلو المرة

حتى كاد اليأس يتمكن من نفسها. ثم وجدته فجأة هناك، على الرصيف فى براغ، يتفحص بعين القلق المقاعد والقطار يبطئ ثم يقف. كانت بقية الرحلة أقل قلقا، وما إن بلغوا موسكو حتى أقاموا فى فندق على حساب الحكومة. كانت مدينة مثيرة مذهلة، ولكنها شعرت بحنين رهيب إلى بلدها، كتبت رسالة ردا عليها، أخبرتها بأخبار أصدقاء مشتركين لم أنفك أقابلهم، وبخاصة جيليز الذى "تبنانى" وأصبح صديقا يقلق على أمرى، يكاد يكون أخا؛ فكثيرا ما تشاجرنا كما يتشاجر الإخوة بدون أن تفسد العاطفة بينهم، تشاجرنا فى الأساس بسبب اتهام كلينا للآخر بالتحليق فى السحاب والابتعاد عن الواقعية (كنت أنا الأكثر ابتعادا عنها). وذات يوم تلقيت خطابا من آن تقول إنها هى وسيرجى سوف يغادران موسكو، وسوف تكتب مرة أخرى بمجرد أن يصلا إلى مقصدهما. جاءنى خطاب بعد مرور شهرين من طشقند فى أوزبكستان؛ وجدت الاسم مألوفا، مثل تبليسى ودوشانبى، وعواصم الجمهوريات السوفيتية فى وسط آسيا، فقد قرأت فى المدرسة كيف خسرت روسيا كل هذه الأقاليم السابقة فى الإمبراطورية الإيرانية فى سلسلة من الحروب فى نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر. أتذكر أنى ناقشت مع المدرسين أحداثا مستقلة من تلك الحروب والمؤامرات والخيانات، والأخطاء والحوادث، والجبن والشجاعة التى حددت فى كل الحروب النتيجة النهائية للصراع، وقللت من مساحة إيران، وبث التواضع فى نفوس أهلها.

وهناك الصلات الأدبية والموسيقية، ففى الغالب كانت روح الدولة المحتَلة هى المنتصرة فى النهاية، ليرمونتوف وتولستوى وتشيكوف

وموسورجسكى وجلينكا... فقد ألّفوا تلك المناطق الجبلية القصية "المكان الآخر" ailleurs الرومانسى، ينبوع الإلهام، موضع المغامرة والرومانسية، الحق أنه كان جوهر الكثير مما نظنه الآن روسيا بالأساس. كتبت خطابا لآن وكلى حماسة لأنها فى عالمى الأصلى "إيران"، وأخبرتها أننى سوف آتى ولا شك وأزورها بمجرد أن أدبر أجرة السفر.

ولكن ذلك الوقت لم يأت قط، تزوج جيليز بعد سنة ومضى ليعمل فى مجلة فى مارسيليا، ونجح كريستوف فى امتحانه وأصبح مخرجا إذاعيا فى بلدة قروية، وفى النهاية غادرت باريس أنا الأخرى وتزوجت واستقررت فى لندن. ثم جاءتنى يوما رسالة تحمل خط آن المألوف: رجعت إلى العلية فى منزل أمها فى ضاحية جاردينز، فى انتظار أن تنتقل إلى شقة موعودة فى ضاحية جديدة، مثلما كانت فى الانتظار قبل رحليها. رجعت إلى فرنسا فى وقت مبكر غير أن حياتها كانت غاصة بمشاكل إعادة التأقلم والإسكان والعمل وطفليها، حتى إنها لم تثابر على تتبع أثر أصدقائها، إن بحثت فعلا عنهم. وجدت أخيرا عنوان جيليز، ومن خلاله عرفت عنوانى، اتصلت بها هاتفيا مرة، ولكن انقضت سنة قبل أن أراها، ثم حكت لى تجوالها الطويل.

بمجرد أن وصلت هى وسيرجى إلى موسكو استدعتهما السلطة إلى أحد المكاتب لتبلغهما أن لا سبيل لهما للبقاء هناك، فالمدينة تعج بالناس عجا، حتى إنهم يشجعون سكان موسكو على الرحيل بوعود بوظائف أفضل وبيوت أفضل فى مكان آخر، كان الاختيار بين سيبيريا وأوزبكستان. سيبيريا! ولكننا علمنا جميعا عن معسكرات الاعتقال؛

وكانت دلالات المكان مزعجة بما يحول دون طردها عن الذهن بالمنطق والعقل. فاختارا طشقند. أعطتهما السلطات شقة هناك ووجد الأطفال ترحيبا فى المدرسة والحضانة المحليتين، وتلقفتها الجامعة كى تُدرس الأدب الفرنسى، على حين تعين سيرجى فى وظيفة هندسية، سرعان ما انضمت إليهم أمه وأعطوها شقة صغيرة خاصة بها ومعاشا لكبار السن.

بدا الوضع وكأن كل شىء افتقدوه فى باريس قد توفر لديهم هنا، وأنه من ذلك الحين فصاعدا سوف تسير حياتهم فى جو من الهدوء والاستقرار، ولكن لم يُقدر لها أن تسير على هذا النحو: لم تتسم آن بقوة المغتربين وصلابتهم، وكانت متأصلة بإحكام فى التراب الفرنسى، وما لبثت أن ذوت بعد انفصالها عن جذورها. ربما تمكنت من العيش فى موسكو، ولكن يأسا اكتنفها فى بلدة قروية تقع فى وسط آسيا، وسط أناس لا تفهم لغتهم. كانت قد وجدت الحياة الثقافية غنية. فى كل من طشقند وموسكو كان المفكرون الروس "متقدين" ومتحمسين، لا يزالون منتمين إلى تعاليم ما بعد الثورة فى الثقافة الأوروبية العريضة، وتكلم العديد منهم الإنجليزية والفرنسية، وطالعوا شتى صنوف المعرفة، وعزفوا الموسيقى، وحضروا جلسات لقراءة الشعر، ووقفوا فى طوابير طويلة للحصول على تذاكر حفلات البالية. ولكنها اشتاقت إلى فرنسا، وتاقت للذهاب إلى فرنسا توقا لا يحتمل العزاء، رغم الصعوبات التى امتلأت بها حياتها هناك.

تضاعفت مشاكلها لعدم قدرتها على تعلم الروسية: "لا أتمتع بموهبة تعلم اللغات، وهذه هى نهاية محاولتى!" قررت. ومثل 'الأخوات الثلاث'

حلمت بلا انقطاع بموسكو، فى كخطوة أولى للرجوع إلى فرنسا. ما لامها جيرانها أو أصدقاؤها الجدد أو زملاء الجامعة على افتقادها للحماسة، وقد عبَّروا عن فهمهم لمحنتها عرضوا أن يساعدوها بكل الطرق، بالأموال، مع الطفلين، وبإجازة من عملها. ساورها ذات يوم إحساس بتعاسة متناهية حتى إنها استقلت القطار إلى موسكو، ومضت مباشرة إلى السفارة الفرنسية طالبة إعادتها إلى وطنها. لا ريب أن فرنسا ستعيدهم على الفور، غير أن الأمر لم يكن سهلا كما يبدو. أصبح زوجها وطفلاها الآن مواطنين سوفييت، وينبغى أن يقدموا طلبات للحصول على تأشيرات للهجرة، مما قد يستغرق سنوات. ما العمل؟ نزل بها يأس لا حد له!

ثم خطرت ببالها فكرة غاية فى الذكاء: سوف تحاول مقابلة إيليا إيرنبورج! كتبت له خطابا مشيرة إلى لقائهما فى اللجنة القومية للكُتاب، وأوردت نسخة من مجموعتها القصصية، وشرحت له موقفها فحصلت على موعد لمقابلته. "لماذا لم تطلبى نصيحتى قبل الرحيل؟ لا يمكنك استئصال شجرة حين تكون كاملة النمو، والغربة شىء فظيع حتى فى أفضل الظروف، كنتُ لأنصحك بعدم المجىء!" وصفت آن شقة إيرنبورج الفسيحة الفخمة المشرقة، حوائطها مغطاة بلوحات أصدقائه الغربيين، بيكاسو، وليجيه، وماركيه... زخرت مكتبته بالأدب الأوروبى "الممنوع" الذى يمكّنه امتلاكه بكل حصانة بوصفه مؤلفا ذا حظوة. هل كان الخوف من الغربة أو الخوف من فقدان كل تلك الراحة هو الباعث على اختيار البقاء على قيد الحياة بدلا من الكرامة؟ على أية حال ما بدا لى سعيدا "بحاله". كان عجوزا مفعما بالمرارة، حاول أن يكفر عن أخطائه بمساعدة

الآخرين، مساعدتهم فى تجميع بقايا حياتهم، و التأثير على اتحاد الكُتاب لنشر كتب معينة محظورة. ربما كان هو الذى تكفل بنشر قصائد ماندلشتام بعد وفاته، وعليه ما أبدته ناديجدا من إحسان تجاهه؟ لن نعرف أبدا؛ فقد راحوا جميعا ومعهم أسرارهم، ونحن الباقون على قيد الحياة لا ينبغى أن نطلق عليهم الأحكام. ولكن ظل هذا اللقاء جليا تماما فى مخيلة آن: "كان يدخن سجائر ماركة جولواز، السيجارة بعد السيجار، سجائر حُرمت منها منذ غادرت باريس. كنتُ لأضحى بكل شىء فى مقابل نفس واحد! لم يعرض على تدخين واحدة منها!"

ولكنه عرض عليها المساعدة بالفعل: ينبغى أن تلبثى فى موسكو برهة من الوقت، وتسكنى فى منازل الأصدقاء. وجد لها وظيفة فى البرنامج الفرنسى فى مذياع موسكو، وقدَّمها إلى أخبار موسكو، جريدة فرنسية كتبت لها المقالات والمراجعات النقدية. خمنت مما قاله أنها لو أتت إلى روسيا فى عهد ستالين، فقد كان المتوقع أن تُرسل مباشرة إلى سيبريا باعتبارها جاسوسة. كانت الأحوال تتحسن الآن؛ سمح خروشوف بمقدار من الحرية للكُتاب والمفكرين لدعم حملته ضد الستالينية، بل إن لجنة الكُتاب المروعة أُرغمت على السماح بنشر أعمال أدانتها فى السابق: رواية سولجينيتسين الأولى، ومذكرات ناديجدا ماندلشتام، وقصائد أخماتوفا... إلى آخره. كان الوجود فى موسكو فترة طيبة، أفضل من أى وقت فى خلال الخمسين عاما السابقة.

ولكن آن رغبت فى باريس بأى ثمن، وعليه تابعت طلبها لإعادتها إلى بلادها، وفى نفس الوقت كانت تذهب إلى أوزبكستان وتعود منها، تُدرس،

وتكتب، وتحاول يائسة أن تتعلم القليل من الروسية. جاءت التأشيرات أخيرا بعد سنتين، لها ولطفليها، ولكن ليس لسيرجى، لأنه كان روسى الأصل. والحق أنه كان أقل تعاسة منها فى روسيا، وتحدث اللغة جيدا، وشعرت بارتباطه بالبلد وأهلها، أو لعله تكيف بطبعه مع الغربة بصورة أفضل، لأنه كان أجنبيا فى فرنسا.

وهكذا قررت آن أن تحارب من أجله فى باريس، وإن واجهت صعوبات أى صعوبات، حتى إنها حسبت أنها لن تراه مرة أخرى أبدا: "كنت أبكى حتى يغلبنى النوم كل ليلة". أفضت إلىّ. "بل إننى خشيت أن يقابل امرأة أخرى ويستقر معها". ولم ينل سيرجى تأشيرة للخروج إلا بعد التدخل الشخصى لجورج بومبيدو ثم رئيس وزراء الرئيس شارل ديجول خلال زيارة خروشوف إلى فرنسا. حالفه الحظ لأنه بعد خروشوف تجمدت روسيا مرة ثانية لمدة ثمانية عشر عاما تحت حكم بريجنيف، فقد عاملت السلطات المنشقين بقسوة شديدة، إذ أرسلتهم إلى معسكرات اعتقال أو "مستشفيات" عقلية، وأغلقت كل الحقول عدا أمام المفكرين "الرسميين".

لم تنته محن آن حتى عندما عادت إلى فرنسا، رجعت إلى العلية ومعها طفلان، عملت ثمانى ساعات يوميا فى أحد المكاتب، وعملت شاعرة وناقدة حرة، وكأن مشاكلها الشخصية لا تكفى، ضايقتها الشرطة الفرنسية التى استجوبتها ووضعتها تحت المراقبة. ومع ذلك عندما كانت تتطلع إلى الماضى كانت تحكى لى مغامراتها بلسان الشاكر لها، عاونها أناس عاديون وكذلك الموظفون معاونة لم تشهد مثيلها قط فى فرنسا، بلدها ومسقط رأسها. انطبقت قصصها على انطباعاتى عن رحلات

شرق أوروبا، مع كيفية تكيف الروس والبولنديين والتشيك، مع قسوة حيواتهم، من خلال أفعال شخصية تشى بالطيبة. كانوا أقل "تقدما"، لم يبدلوا البراءة بالسخرية، ولا الثقة بالشك، ولا الحب بالحنكة، ولا الكرم بالكسب المادى، قاوموا فساد أصحاب السلطة وانتهازيتهم بالأمانة الفردية والمثالية.

اختارت أم سيرجى أن تمكث فى روسيا، ولكن غربتها لم تنته، فقد اشتاقت إلى روسيا مسقط رأسها، وقد كانت طشقند مختلفة عنها كل الاختلاف مثلما كانت باريس، ومع ذلك بات لديها بيت بعد ثلاثين عاما من التجوال.

أقابل آن كلما أسافر إلى باريس، نشرت عدة كتب شعرية ولا زالت تكتب قصصا للأطفال ومراجعات نقدية فنية. كبر ابنها وابنتها، وغادروا بيتهم، ولا يزال سيرجى فى مثل رقته وبراءته، يواصلون الحياة، مثلما أواصل، ولكن حين نتذكر الماضى أو نمزح بشأنه، ينزاح عبء الزمن، ونعلم أن قلوبنا لا تزال عامرة مثلما كانت فى تلك السنوات.

٢٠ ـ أوراق الخريف

بعد فترة طويلة من غياب الشعراء

سوف تستمر أغانيهم سارية فى الشوارع

تشارلز ترينيت

عندما بدأت الإذاعة فى إيران كان أخو أمى الأكبر واحدا من أول ملاك المذياع، العم آلم، محام معروف مهووس بكل ما هو غربى. كان موديلا ضخما يرجع إلى ما قبل الحرب، على شكل ناقوس زجاجى بسماعة دائرية فى المنتصف. كانت مربيتنا متأكدة فى البداية أن هناك جنيا داخل الصندوق، جنيا أصدر الأصوات. حينما شرحنا لها طريقة عمله، رمت ذراعيها فى الهواء والتفت حدقتاها نحو السماء هاتفة "الله عظيم" لخلق إنسان ماهر كل هذه المهارة.

كانت الموديلات الجديدة تدخل الأسواق أثناء سنوات نشأتى، وسرعان ما حل موديل أجمل محل الجهاز المجسم. كلما ذهبت إلى منزله لأزور جدتى وعمتى التى عاشت معه، أمضى ساعات فى الإنصات إلى

الموسيقى، فقد غابت الموسيقى فى بيتى. وفى النهاية اشترت أمى بالفعل مذياعا ـ بعد أن غادرت إيران ـ ولكنى لاحظت فى إحدى زياراتى إلى الوطن أنها كانت تفتحه فقط فى الظهيرة كى تسمع آذان المؤذن يتبعه تلاوة لحديث للرسول أو الإمام على، زوج ابنته وولى الصوفيين، وعدا ذلك استقر صامتا مهجورا فى تجويف الجدار.

أذاع المذياع العديد من البرامج الموسيقية، موسيقى إيرانية تقليدية لخيرة المغنيين والعازفين، وموسيقى غربية كلاسيكية يعزفها مشغل الأسطوانات المستوردة من الغرب ويقدمها أحد الخبراء، وموسيقى خفيفة الإيقاع، منها أغان يغنيها مغنون أمريكيون مثل فرانك سيناترا وبينج كروسبى، وأغانى حب فرنسية Chansons بصوت تينو روسى ودانييل ديرو، وقبلهم جميعا أم كلثوم، نجمة مصرية تغنى أغانى عاطفية تدمع لها الأعين وإنما بنهايات سعيدة، وقد عرضتها دور السينما فى وسط البلد. شدت بأغانى الحب بصوت عميق غامض، كانت نبرته الرخيمة أشبه بنبرة تشيلو من صنع ستراديفارى، وقد نقلت أطياف التقلبات الغرامية بأكملها، من أول شرارة إلى الفناء الأخير. ورغم أنها غنت بلغة أجنبية لم تفُهم كلية، كان ذلك منبع قوتها وروعة أدائها، لدينا نظيراتها الإيرانيات، نساء بأصوات قوية أرضية سردن التفاصيل المعقدة للورطات العاطفية بأصوات ترتعش ارتعاشا رائعا ويُداخلها تعقيد مذهل، كان الاستماع إلى هؤلاء المغنيات وهن يتفجعن على خسارة الحب بمثابة راحة للجمهور من أساهم.

بدأ المذياع يذيع أيضا موسيقى محلية وأغانى شعبية موجهة إلى جمهور أوسع، وكان أول من جعل أغانى لهجته المحلية شائعة على نطاق

واسع مغنٍّ من منطقة بحر قزوين، قيل إنه شيوعى، ذاعت شهرته سريعا بين المفكرين اليساريين. كانت تتبعه جوقة تغنى أغانى شعبية من مناطق مختلفة، وقد جمعها ووفق بين نغماتها مدرس أمريكى من الكونسرفتوار المؤسس حديثا فى طهران .

أحببت هذه الأغانى الشعبية لكلماتها البسيطة وألحانها المتموجة، وأغانى الحب الفرنسية Chansons بسبب صوت اللغة الفرنسية الجميل، وكذا أصوات المغنين. لم أكن ملمة باللهجة الشمالية ولا الفرنسية، ولكنى تعلمتهما بطريقة الببغاء وغنيتها فى المدرسة والحفلات ("شريطة ألا يَعلم أحد"، كانت أمى تحذرنى بسبب سمعة المغنيات الأثيمة). بدأت الغناء فى الحضانة حيث جابهت العبوس والاستهجان والتهديد بالعقاب، والذى انقلب بطريقة أشبة بالمعجزة إلى ابتسامات استحسان وعطف. صار الغناء حجابا واقيا، وفعلا استرضائيا، ومتعة، جزءا منى كان مسلما به فى النهاية. كنت ممنوعة أثناء نشأتى من الغناء علانية كيلا تتلوث "سمعتى"، وعليه غنيت فقط فى الجلسات الخصوصية بين الأصدقاء. ولكن عندما غادرت إيران كانت لدىَّ ذخيرة كبيرة من الأغانى الإيرانية، وأغانٍ بلغات أخرى متنوعة لا أعلم عنها شيئا.

غالبا ما كانت أغانى هؤلاء المغنين الفرنسيين من أيام طفولتى تبقى فى إيران، بعد وقت طويل من تقاعد المغنين واختفائهم من المشهد الفرنسى، لأن المذياع كان يذيع أسطوانتهم. كنت ذات يوم فى باريس فوجدت أن المغنين الجدد المحبوبين هم جولييت جريكو وإيف مونتان وجاك بريل وليو فيرى وجورج براسين... مغنين تمسكوا بأعراف تَرجع

إلى العصور الوسطى والشعراء الغنائيين الفرنسيين الذين اشتهروا من القرن الحادى عشر إلى القرن الثالث عشر. وقد كتب أغانى الحب chansons شعراء فرنسا العظماء، بدءا من روتبوف فى القرن الثالث عشر إلى فيلون فى القرن الخامس عشر، ورونسارد ودو بالى فى مجموعة "ثريا"Pléiade فى القرن السادس عشر، وصولا إلى المعاصرين من أمثال لوى أراجون وجاك بريفير، وقد غنى بعضهم هذه الأغانى بأنفسهم مثل فيلون ورونسارد، بيد أن ألحانهم كانت تائهة، والآن يضع آخرون الموسيقى على الكلمات. بدت لى أغانى الحب الفرنسية chansons تعبيرا فريدا عن العبقرية الفرنسية، كما هو الأمر مع المنمنمات فى إيران، أو ترتيب الزهور فى اليابان، كان جزءا من نسيج الحياة فى كل الطبقات، وليس فقط مقصورا على الشباب، بل إن فيلسوفا مثل جان بول سارتر كتب أغانى لجوليت جريكو (المدهش أنها كانت أغنية سيئة). كان أنطوان ريكونتان، بطل رواية الغثيان La Nausée، يلفى الوجود محتملا فقط عندما يسمع صوت المغنى الأسمر من التسجيل إن الفن يعوض عبثية الحياة. (لم تنتم إديث بياف، رغم أنها شخصية أسطورية، إلى الجيل السابق وحده، بل إلى مفهوم مختلف).

إلا أن الناس غنوا الأغانى الجميلة فى العالم أجمع، ولا سيما فى تلك الجزر، حيث عبّرت الأغانى الإسكتلندية والأيرلندية والإنجليزية عن ثرائها فى إحياء الفن الشعبى خلال السبعينيات. إن الغناء وسيلة تعبير طبيعية تماما يُعبر بها البشر منذ العصور الأولى عن أفراحهم وأحزانهم، وآمالهم وإحباطاتهم ، وخوفهم وتحديهم. تشبع الأغنية الجميلة حاجتين إنسانيتين أوليتين للشعر والموسيقى، وتدمجهما معا فى كيان جديد فورى

ومحكم وجوهرى. تضعنا على تماس مع إرثنا البشرى المشترك: "لستَ وحدك". تقول أغنية الصياد الأيرلندى، ومرثاة الموالى، ومسيرة الجنود المعززة للمعنويات، والتهويدة، وأغانى الحب. وعليه تظل أفضل الأغانى وتصبح "دائمة الخضرة" و"كلاسيكية"، حتى عندما ينسى الناس المؤلفين. إن الفارق بين "الشعر الجاد" والأغنية ظاهرة حديثة، كأن "تلتقط" موسيقى البوب والروك فى مراهقتك التقاطك للبثور والتهاب الغدة، ثم تكبر وتتخلص منهما فى سن الواحدة والعشرين! ولكننى أحببت الأغانى ولا زلت أحبها، وأعتقد أن الصوت الجميل الذى يغنى أغنية جميلة واحد من أعظم المتع فى الحياة وأبسطها.

كتب جاك بريفير "أوراق الخريف" ولحَّن موسيقاها جوزيف كوسما، كانت واحدة من أشهر أغانى chansons ما بعد الحرب الذائعة فى فرنسا. أثمر تعاونهما العديد من الأغانى "الكلاسيكية،" ولكنها لم تكن مشهورة عالميا، ومن الجدير بالذكر أن جولييت جريكو وإيف مونتان سجلاها، وكذلك مئات المغنين فى أنحاء العالم كافة، بعشرات اللغات، بما فيها لغات نادرة recherché مثل لغة الهوتنتوت وثلاث لهجات من دولة الكاميرون كما أخبرنى الشاعر فى وقت لاحق. تختلف بعض النسخ، مثل النسخ الإنجليزية، تمام الاختلاف عن الكلمات الأصلية، ولكن لم تزل الأغنية ذائعة ناجحة، وعلا اللحن فى هيئة خلفية فى المطارات وردهات الفنادق والمصاعد والمتاجر الكبيرة والمجمعات التجارية، ولا يزال ضمن ذخيرة الموسيقى المسجلة فى كل مكان، غنيت أنا الأخرى "أوراق الخريف"، بيد أننى لم أحلم يوما قط بمقابلة مؤلفها.

كان جاك بريفير - مثل معظم شعراء جيله - جزءا من الحركة السيريالية التى قادها أندريه بريتون، ولكن تفككت الجماعة فى الثلاثينيات من جراء اختلافات فى الأيديولوجيات والطباع، بعد مناقشات لاذعة لا نهائية ومبارزات لفظية. حذا الشيوعيون من أمثال أراجون وإليار حذو الحزب على حين سلك جاك بريفير وجماعته "جماعة بريفير" Prévert Band طريقا مختلفا، تقابلوا فى مقهى فلور بينما كان أندريه بريتون فى المقهى المجاور، "لى دو ماجوت"، يجلس محط أنظار المعجبين. تفرقت هذه الجماعات قبل الحرب، وبعدها ذهب الجميع (عدا أراجون وزوجته وأتباعهما الذين لم يزالوا جماعة متماسكة) فى اتجاه مختلف، وفى النهاية ما تبقى من السريالية فى الشعر كان حرية جديدة فى التعبير، وأهمية الخيال والفانتازيا، وفى حالة بريفير مزيج من الحزن والفكاهة، والخفة والعمق، والنظام والفوضى، مما جعله محبوبا من الجميع علاوة على كرمه الشخصى وطيبته. كانت لغته بسيطة، وعروضه متنوعة، وفكاهته منطقية إنما ساذجة، وقصائده القصيرة الساخرة يتذكرها المرء على الفور. لم أسمع مطلقا أحدا يقول عنه كلمة خالية من الحب، ولكنه كان كريما ومتسامحا على الدوام فى تقديره للآخرين، خصلة غير معتادة فى تلك الأيام الحافلة بالنزاعات الأيديولوجية.

تضمن كتابه أغانى الكلمات Paroles بعضا من قصائده الشهيرة، بما فيها قصيدة لحنها جوزيف كوسما، وكنت قد طالعتها. قرأت الآن فى باريس الأغانى والقصائد بالفرنسية من جديد، وحفظت الكثير منها، كان بعضها عبارة عن قصة بسيطة سخرت من شخصيات مغرورة فى

السلطة، شخصيات سياسية ودينية، ولكن نكهة هذه الأغانى اختفت فى الترجمة التى عجزت عن التكيف مع القافية واللعب بالألفاظ.

لو أنتج تكافل بريفير وكوسما الكثير من أجمل الأغانى Chansons فقد نتج عن التعاون بين بريفير ومارسيل كارنيه العديد من الأفلام البارزة فى الثلاثينيات والأربعينيات، وتُعتبر من كلاسيكيات السينما، ومن أشهرها أبناء الجنة Les Enfants du Paradis، وتعرض دور السينما الفنية الفيلم بانتظام، وفى كل مكان، وقد أعاد كل جيل جديد اكتشافه، وفى باريس كانت إحدى دور السينما المحليةquartier المتخصصة فى الكلاسيكيات تعرضه كل سنة. فى تلك الأيام كان الطلبة من جميع الجنسيات والعقائد يتشاركون فى حب أمرين، السياسة والأفلام، كانت مشاهدة فيلم تكلف ما يعادل فرنكا جديدا أو اثنين فى السينيماتيك (دار السينما القومية) التى كانت وقتها فى قلب المنطقة. عرضت ثلاثة برامج كل أمسية لتقدم ثلاثة أفلام مختلفة، وبعد كل برنامج يتم إخلاء القاعة ويتفحص العمال التذاكر، فعلى الرغم من أنها كانت رخيصة، فقد أضيف ثمن التذاكر وأثقلت على ميزانيتنا المحكمة، وغش الكثير منا. كنا نشترى تذكرة واحدة ونتحايل كل نبقى لنشاهد كل الأفلام الثلاثة عبر سلسلة من الخدع والحيل، نختبئ أسفل المقاعد الخشبية، أونمرر التذاكر لبعضنا بعضا خلسة، أونتسلل خلف العمال وهم يثرثرون مع واحد منا ـ ويكون فى الغالب من الجنس الآخر ـ وخدع أخرى من خدع الطلبة. لم نلتزم بالأخلاق التزاما كاملا بفطرتنا، وبخاصة لأننا اعتقدنا أن أغلب القواعد مصممة لحماية الملكية، وكما كتب برودون "الملكية سرقة". أعرف طالبا سرق بانتظام كل ما أراده من كتب تحت العين اليقظة لموظفى متجر الكتب، وقد كان أكثرنا قراءة، صار

اليوم كل هؤلاء المستخفين فى السينما وسارقى المحال مواطنين يلتزمون بالقانون؛ فقد اكتسبنا الأخلاق تدريجيا، فالاتصال بالواقع جعلنا ندرك أن كل مجتمع فى حاجة إلى قواعد.

أول زيارة لى إلى السينما كانت برفقة خالى حين كنت فى العاشرة أو الحادية عشرة، كى نتفرج على فيلم الغزو Conquest لجريتا جاربو وتشارلز بوير، ورغم أن إنتاجه قبل الحرب، وصل إلى إيران بعد سنوات، وبعدها عرضته دور السينما دوريا، فقد كان نجومه ذائعى الصيت وقصته الرومانسية تلائم ذوق الجمهور. وقعت على الفور فى غرام تشارلز بوير والسينما، انتحبت شديد الانتحاب لمحنة حبيبين عاندهما القدر، لم أكن أنا وحدى المتأثرة كل هذا التأثر، فقد غيرت السينما لأسباب عديدة مواقف الطبقات المتعلمة فى إيران، ولا سيما العلاقة بين الرجال والنساء، ووعى النساء موقفهم فى المجتمع.

ولكن السينما فى باريس كانت شكلا من أشكال الفن، عله أبرز الأشكال الفنية، فبمقدوره التعبير من خلال صورة واحدة عما لا يمكن التعبير عنه بألف كلمة. كان جورج سادول يعرف "كل شىء" عن الموضوع، بل وأدار مقررا لنيل شهادة فى فن صناعة السينما فى جامعة السوربون، كان واحدا من أعظم الخبراء فى هذا الموضوع. توقف مقرره قبل عهدى، إلا أننى قرأت مجلده الضخم تاريخ السينما History of the Cinema، ومراجعاته الفنية فى مطبوعات اليسار. قرأنا كلنا بانتظام كراريس السينما Les Cahiers du Cinéma، مجلة طليعية معنية بالسينما، أنشأها إريك رومير عام ١٩٥٤من النواة المساهمة للمتحمسين الشبان، ممن يهاجمون المعتقدات التقليدية والنقاد ومن يرغبون فى امتهان

الإخراج، من بينهم جان لوك جودار وفرانسوا تروفو وألان ريسنيه وكلود شابرول. صاروا فى الوقت المناسب مؤثرين للغاية فى تشكيل الذوق العام حتى إنهم أخرجوا جميعا فى نهاية العقد أفلاما طويلة، وباتوا حقا مخرجين بارزين: كانت أفلام اللاهث Breathless وهيروشيما Hiroshima وحبيبى mon Amour وأربعمائة ضربة Les Quatre Cents Coups رائجة لدى النقاد والجمهور على حد سواء، بينما شكَّل النجوم الذين قدموهم كوكبة فى سينما القبة الزرقاء.

لمدة عام كامل ذهبت إلى السينيماتيك مع أصدقائى، واطلعنا على علامات تاريخ السينما بدءا من الأخوين لوميير إلى الأساتذة المعاصرين. لم يكن من الصعب بعدها مجاراة الأفلام الجديدة الجيدة، بل إن الذهاب إلى السينما اليوم ومشاهدة فيلم جيد تجربة مثيرة كما كانت فى تلك الآصال والأمسيات البعيدة، ونحن جالسون على الكراسى الخشبية صلبة القاعدة فى القاعة البديلة. أحيانا ما كانت السينيماتيك تعرض نسخا لم تنل منها الرقابة من الأفلام الكلاسيكية، بل والنسخ الأولية من الفيلم. كنت أجلس مع أحد الأصدقاء لنقضى ساعات فى التفرج على النسخة الأولية من فيلم إيزنشتاين المدمرة بوتيمكين Battleship Potemkin، وفلتحيا المكسيك Viva Mexico - أحيانا عشر لقطات أو أكثر المشهد نفسه - تعلمت كيف يعمل العظماء، تعلمت أنهم قاموا بمونتاج شديد التدقيق فى كل شىء حتى يَخرج الناتج النهائى. وبالطريقة نفسها شاهدت كل أفلام بريفير كارنيه عدة مرات، كانت حوارات بريفير شعرا خالصا، وأغانيه جواهر شعرية، وقد حفظتها من خلال مشاهدة أفلامه المرة تلو الأخرى.

بعد أن أدركت حقيقة أراجون وإيرنبورج لم أحاول مقابلة بريفير

خشية أن يختلف هو الآخر عن الصورة التى كونتها من خلال القصائد والأغانى، أوضح العديد من الكُتاب الآخرين المعروفين عدم اهتمامهم بتفكيرى أو آرائى السياسية والفنية، وما اهتموا إلا باحتمالية أن أكون مغامرة جنسية غريبة، ربما كان حلما رومانسيا أن يجسِّد الفنان فنه، قررت فى النهاية أنى أحب أن يكون نجومى موتَى موتًا آمنًا.

مر الوقت، ثم أخبرنى صديق أنه شهد عرضا ساحرا للملصقات بريفير فى معرض قريب من سان جيرمان دو برى، كنت أعرف بعضها من خلال نسخ مصورة مطابقة لها، ووجدتها مثل القصائد بالضبط: أصيلة، وغريبة، وهزلية هزلا لا يعكس احتراما. أنتج العديد من السرياليين، ومن بينهم بريتون، ملصقات استثنائية غير أن القليل منها اتسم بفكاهة بريفير وابتكاره، ولأن ساعة واحدة تبقت قبل غلق اليوم الأخير من المعرض، ذهبت فورا لرؤيته.

كانت صالة العرض الصغيرة طلقة الهواء خالية تقريبا، بضعة شبان فحسب يتجولون بخطى بطيئة، باحثين عن الصور. كانت السكرتيرة الجالسة إلى مكتبها عند النهاية البعيدة تتحدث إلى رجل أبيض الشعر، وكان الرجل يوضح لها شيئا فى كتاب. تجولت رانية إلى الصور، وصرت بالتدريج منهمكة فى عالمهم الخليق بعالم قصص الجن، حيث تطير الأحصنة المجنحة فوق المداخن، وتتسابق السفن عبر السحب فى اتجاه البدر، ويصبح القس البدين تمثالا من تماثيل بوبولى، وتكشف الغابة المسحورة عن حيواناتها بين الأشجار.

"أنت غاية فى الجمال، من أنت؟"

التفتُّ لأرى الرجل الأشيب الذى كان يتحدث إلى السكرتيرة من برهة يقف إلى جانبى.

"أنا جاك بريفير". أردف، تعرفت عليه من صوره، إلا أن الوجه كان أكبر سنا وأكثر إنهاكا، وجه عكس حياة أخذ بأسبابها كاملة فى متعة، ولكن لا شك أنه لم يتوخ الاعتدال. وقع الجفنان الثقيلان فوق عينين زرقاوين فاتحتين، وترهل خداه الممتلئان نحو خط ذقنه، ولاحت بشرته شاحبة. كان فى الستين تقريبا مما يبدو لك فى سن العشرين دهرا من الزمن، أمسك بسيجارة بين السبابة والوسطى، أصابع صفراء تميل إلى البنى من جراء سنوات من التدخين، اشتهر بالتدخين الشره والإفراط الدورى فى الكحول وإن لم يشتهر بأنه زير نساء. كان هذا أمرا لافتا للنظر بحق، لأنه اكتشف ممثلات جميلات وقدمهن إلى الجمهور، مثل أنوك إيميه، وتمتع بسحر لا يقاوم.

"تشرفنا، إننى أغنى أغانيك!" قلت ووجنتاى تتوردان والدهشة تنزل بى، كنا بعيدين كل البعد عنى المذياع الشبيه بالناقوس الزجاجى فى إيران الذى جلب الأغانى إلىَّ فى المرة الأولى.

"أستطيع أن أسمعها فى صوتك، تعالى وغنيها لى". كتب عنوانه ورقم هاتفه على ورقة، خالجنى التردد أن أتصل لمدة أسبوعين، فقد حسبت أنه لن يتذكرنى أو سينشغل عن رؤيتى، ولكن عندما اتصلت بالفعل تعرف على صوتى فى الحال:

"أين أنت إذن Alors...؟" طلب منى أن أذهب لأراه فى بيته فى الظهيرة التالية، كانت زيارة أولى من زيارات عديدة، فقد استمرت

صداقتنا حتى موته بسرطان الرئة عام ١٩٧٤، رغم أنى حين كنت مقيمة فى إنجلترا متزوجة ولدى أطفال، لم أره كثيرا فى السنوات الأخيرة، إلا أن لقائى به كان واحدا من "شموس ساطعة" brillants soleils فى شبابى وفى ذاكرتى. بات بمثابة الأب، أب يمكنني الرجوع إليه فى لحظات اليأس وإخباره بكل شيء، أثق بفهمه وحكمه الصائب وحبه.

غادرت باريس بعد أقل من سنتين من مقابلته، ولكن كانت تلك الفترة أكثر الفترات امتلاء بالمغامرات فى حياتى الباريسية، يرجع الفضل فى الأساس إلى بريفير أن وجدت وظائف مختلفة مكنتنى من البقاء، على حين كنت أقرر هل أرجع إلى بيتى فى إيران أو أستقر فى أوروبا، وعن طريق بريفير أصدرت أسطوانتى الأولى.

٢١ - أغانى حب فارسية

كنتُ شجرة خضراء فى الغابة

قطعونى بفأس الألم

وعليه تشتعل النار فى رأسى إلى الأبد

أغنية شعبية فارسية

العديد من المغنين، كُتاب الأغانى المحبوبين فيما بعد الحرب (أو الشعراء المغنين كما يُطلق عليهم فى فرنسا) مثل جاك بريل وجورج براسين، عزفوا الجيتار وفضلوه عن البيانو؛ إذ أعطاهم حرية الحركة، وبدا أكثر تماشيا مع صورتهم الرومانسية باعتبارهم شعراء غنائيين رحالة فى العصر الحديث. عندما سمعتهم كانوا قد انتقلوا جميعا من الملاهى الصغيرة فى الضفة اليسرى إلى قاعات أكبر للحفلات، وساندتهم الفرق الموسيقية، ولكن معى صورة لبريل وهو يجلس على كرسى بلا ذراعين بجيتاره فى ملهى ليشيل دو جاكوب L'Echelle de Jacob، ملهى صغير فى شارع جاكوب، حيث بدأ مسيرته الفنية فى مستهل الخمسينيات. غنيت أغنية بدون موسيقى مصاحبة أو بصحبة بيانو

عزفه أى شخص موجود، ولكن كان الجميع يتعلمون الجيتار أو يتعلمون عزف ما يكفى من نغمات كى يعزفوها مع أغنية، وعليه قررت أن أتعلم أنا الأخرى كى أستقل بذاتى.

وقع مركز سكولا كانتورام بالقرب من بيت الراهبات البنديكتيات للطالبات، كان فى أوج نجاحه مركزا مهما للموسيقى. خسر منذ الحرب بعض اعتباره لأن أغلب مدرسيه المعروفين ماتوا أو انتقلوا إلى مكان آخر، ولكن لا يزال يضم موسيقيين شبان جيدين، وعليه مضيت إليه وسألت عن مدرسى الجيتار. خامرتنى الدهشة حين أعطونى اسم إيدا بريستى وهاتفها، عازفة جيتار كلاسيكية شابة كانت مشهورة بوصفها فتاة عبقرية ومؤدية منفردة منذ مراهقتها. قبل عدة سنوات من لقائى بها كونت فريقا مع عازف جيتار إسبانى، ألكسندر لاجويا (هما الآن زوجان) ليؤديا الثنائيات، وقد ظهرت ملصقات حفلاتهم الموسيقية بانتظام على أعمدة الدعاية والحوائط فى أنحاء باريس كافة، تُظهر صورًا لزوجين مثاليين، شابين، جميلين، موهوبين.

وقفت فى الصف مع أصدقائى ساعات فى تلك الأمسية كى نستمع إلى سيجوفيا فى قاعة واجرام، القاعة الأصغر من قاعتين رئيسيتين للحفلات. توارى خجله خلف نظارة سميكة، مشى متثاقلا خجولا على المسرح وكأن إحراجا يلم به بسبب الترحيب الطرب للدار المتخمة، انحنى بعدها على آلته وعزف وكأنها جزء من جسمه. كنا جالسين فى أرخص مكان، عند خلفية الشرفة، غير أننا استطعنا أن نسمعه ونراه بوضوح. سحرتنا الحركات الرشيقة ليديه وهما تنقران الأوتار وتلاطفانهما لتنتج

أحيانا صوتا شبيها بالأوركسترا، وكأن عدة آلات تعزف فى تناغم، بينما تناول فى أحيان أخرى نغمات منفردة، وعلقها فى الهواء مثل شموع ترتعش لنهايتها المحتضرة. لا أستدعى كم من المرات طلبنا منه الإعادة، غير أنه عاد فى كل مرة وانحنى برقة وعزف وكأنه سوف يتابع إلى الأبد لو أصررنا.

مرت بضعة أيام وكان لاجويا وبريستى يعزفان فى نفس القاعة، ومرة أخرى انتظمنا فى الصف وجلسنا فى الخلفية، استقبلهما الجمهور بحماسة منقطعة النظير، وامتزجت ذخيرة الألحان بالعديد من القطع الموسيقية، وكذا نقلا إلى الجيتار مقطوعات مكتوبة فى الأصل لآلات موسيقية أخرى. اتصلت ببريستى فى اليوم التالى وقابلتها فى وقت لاحق فى مركز سكولا كانتورام، صغيرة الحجم، سوداء الشعر، جميلة الوجه للغاية، بثت فىَّ الاسترخاء على الفور حين ضحكت لمجيئى إلى درس موسيقى بدون آلة. "هيا نذهب لنشترى لك جيتارا أولا". قالت، أخبرتها أنى أملك عشرة جنيهات فقط لا غير، كل ما تبقى من دخل دروس فى اللغة الإنجليزية، كنت قد أعطيتها ليونانية متجهة إلى أمريكا فى المدينة الجامعية.

"لن ينفعك هذا المبلغ!" حذرتنى، "ولكننا سنرى ما يسعنا فعله"، غنيت لها أغنية ثم قصدنا متجرا صغيرا لبيع آلات الجيتار كانت تعرفه بالقرب من منطقة بلاس موفيتار، وكان يملكه موسيقى وأحد أصدقائها. ما وجدنا فى المتجر إلا مساعده الذى اهتز طربا بوضوح للزيارة العفوية للنجمة، وأخرج عديداً من الآلات التى جربتها إيدا، اتضح أن الآلات التى

أعجبت بها غالية دائمًا. كنت على وشك اليأس عندما تذكر المساعد فجأة أنهم حازوا لتوهم جيتارا يدوى الصنع رخيص الثمن من طالب إسبانى احتاج إلى نقود بسرعة للعودة إلى إسبانيا، بمجرد أن تناولته إيدا وطفقت تعزف عليه عرفت أنه سيكون جيتارى، لا بسبب سعره فحسب، وإنما لأنه كان صغيرا وخفيفا، وتداخل نغماته نغمة حزينة عميقة مثل التشيلو: "إنه ملائم تماما لصوتك". قالت والسرور يغمرنى، أخرجت كل ثروتى وأعطيت المساعد الجنيهات العشرة، ووعدته بالعودة ما أمكننى من سرعة ومعى سبعة فرانكات أخرى من أجل العلبة البالية. كان من الواضح من ابتسامته أنه توقع منا أن نتغاضى عن المال المتبقى فى اللحظة التى دخلت فيها أنا وإيدا متجره.

بعد أن أخذت بعض الدروس الأولية مع إيدا عرفت ما يكفى من ألحان ونغمات متعاقبة سريعة، كى أتدرب بنفسى وأكوّن أدوارا مصاحبة للأغانى الخاصة بى. ظل ذلك الجيتار معى طوال السنوات، أهملته فى الغالب، بل ونسيته فى أوقات أخرى، ولكنه كان هناك معى دائمًا حين أحتاج إليه، مثله مثل الصديق المخلص. تحطم عدة مرات أثناء السفر، وقد تدمر بشدة ذات مرة حتى إننى حسبت أنى فقدته إلى الأبد، ولكن أحد المصلحين عمل فيه لمدة شهر، بإلصاق قطع الخشب الصغيرة معا مثل الأطراف المكسورة، حتى ارتفع صوته وبدا وكأنه لم يُصب بسوء.

ماتت إيدا بريستى ميتة تراجيدية فى سن صغيرة من جراء مرض قاتل، تذكرتها يوم قابلت جاكلين رولان فى الكونسرفتوار، عندما كنت منتظرة فى الردهة تطلعت إلى النوافذ الزجاجية حيث أعلنوا المقطوعات الموسيقية المحدَّدة للامتحانات فى مختلف الآلات، رأيت فى خانة الجيتار

عدة قطع موسيقية من تأليف إيدا بريستى. أخبرتنى جاكلين أن إيدا فى خلال مسيرتها المهنية القصيرة كانت مؤلفة وملحنة غزيرة الإنتاج، وأغنت الذخيرة الموسيقية بأعمالها وأعمال كتبتها بالاشتراك مع زوجها أو منقولة من آلات أخرى.

عندما ذهبت فى تلك الظهيرة لأقابل جاك بريفير للمرة الأولى، أخذت جيتارى، عاش فوق كازينو مولان روج، فى حارة ضيقة تعبِّدها الحجارة بجوار فندق بلاس كليشى، وسُمى بسيتيه فيرون ـ واحد من أفلام بريفير كارنيه الكلاسيكية نسخة معاصرة من روميو وجولييت Romeo and Juliet اسمها أحباء فيرونا The Lovers of verona. فتح جاك الباب وهو يرتدى بنطالا رماديا، وسترة زرقاء باهتة بلون عينيه، وعقب سيجارة مبتلة فى ركن فمه، أخرجها ليحيينى، وبمجرد أن دخلت أشعل سيجارة أخرى. قادنى إلى حجرة مكتبه، حجرة فسيحة منيرة تنفتح على شرفة مسطحة، بوسعك أن ترى منها الأشرعة الحمراء لكازينو مولان روج وظلالها تمتد على خلفية السماء الشتوية الرمادية، مَعْلم مألوف فى الصور والملصقات، موطن قاعة فولى بيرجير للموسيقى. يرتبط كازينو مولان روج بفنانين من أمثال تولوز لوتريك، وبات الآن قريبا للغاية حتى إن المرء يمكن أن يلمسه.

قامت مائدة طويلة ضيقة فى منتصف حجرة المكتب، يغطيها الورق وكراسات الرسم ومجموعات من أقلام التلوين وأقلام رصاص فى زهريات زجاجية وأشياء وقطع عتيقة ذات بعد ثقافى... تزينت الحوائط بالصور والرسوم والملصقات والبطاقات البريدية، وعلى مائدة أخرى

بالقرب من الحائط الفاصل تكومت مجموعة من الأسطوانات ومشغل أسطوانات. رقدت قطة رمادية بالقرب منها أسفل دائرة من الضوء، رفعت رأسها وأطلقت مواء يدل على الازدراء، وكأنها تقبل وجودى على مضض. "إن لم تعجبها أسطوانة، تقفز عليها وتخدشها". أعلمنى جاك، "لحسن الحظ أننا نتشارك نفس الذوق".

أرانى بعضا من رسومه الملونة, ووقع عدة نسخ من كتبه من أجلى، بالصور والكلمات، ثم تناولت جيتارى وغنيت له أغنية من الأغانى الخاصة بى، لا "أوراق الخريف" ولا واحدة من أغانيه الناجحة الشهيرة التى سجلها عدد لا حصر له من المغنين المحترفين، وإنما غنيت واحدة من قصائده التى لحنها كوسما وغُنيت فى أفلامه، "زوار الليل". تدور أحداثها فى العصور الوسطى، قصة رمزية لفرنسا تحت الاحتلال الألمانى، أفلتت الأغنية بمعجزة من الرقيب:

وجه الحب الرقيق الخطر

ظهر لى ذات ليلة بعد يوم طويل للغاية

ربما كان راميا بسهمه

أو موسيقيّا بقيثارته

لا أستطيع أن أتذكر... كل ما أعرفه أنه سوف يجرحنى

هل بسهم؟ أو بأغنية؟

كل ما أعرفه أنه لمس قلبى وجرحه، وإلى الأبد

الحرقة، جرح الحب اللافح ...

"جميل، أليس كذلك يا جانين؟" وقفت خلفى عند الباب امرأة صغيرة الحجم ضعيفة الجسم وهى تدخن، جانين زوجة جاك. ظهرت بعدها طفلة صغيرة شقراء وردية الخدين ريانة الجسم فى حوالى العاشرة أو الثانية عشرة، تَحمل القطة التى غادرت مجثمها المشمس دون أن يلاحظ أحد. "أقدم لك مينيت". قال جاك وقدمنى، "أنا سعيد أنك تغنين على أنغام الجيتار بدلا من البيانو، فالبيانو مثل الصهريج لا يمكنك حمله معك فى كل مكان".

جلسنا جميعا ورحنا نحتسى فنجانا من القهوة أعدته جانين، وتجاذبنا أطراف الحديث، كان من الجلى أن جاك عشق ابنته ودللها بينما كانت جانين ساكنة قلقلة. تساءلت عما يقلقها بما أنهم بدوا عائلة متناغمة، ولكن العديد من الناس فى سنهما ظهروا أيامها على هذا النحو بعد أن كابدوا الحرب والاحتلال، ولم يتكيفوا تماما بعد مع العصر الجديد من الراحة والرخاء النسبيين. طلب منى الزوجان بريفير بعد ذاك أن أغنىً أغنية فارسية فاخترت أغنية شعبية قديمة، "انبوبة المياه"، وأنهيت إليهما أن أبسط الرباعيات الشعبية الفارسية متشربة بتقليد كامل من الشعر الصوفى، واستخدمت حقا نفس الاستعارات.

طلبا المزيد، وفى النهاية قال جاك: "عندى فكرة! أحد أصدقاء أخى بييرو يمتلك شركة أسطوانات، لا بد أن نقدمك إليه، ربما يُصدر أسطوانة من الأغانى الشعبية الفارسية، ستكون فريدة، وبداية طيبة لك". (كان بيير بريفير أصغر من أخيه بنحو سنة، كان مخرجا أسس "مؤسسة الفصول الأربعة"، وهى نادٍ مشهور، بعد الحرب وفى بداية

الخمسينيات). اتصل به جاك على الفور وكتب رقم هاتف مدير شركة الأسطوانات، اتصل به وتحدث عنى بكلمات مطرية، وحدد موعدا لى كى ألقاه فى اليوم التالى.

تذكرت أبى وهو يستخدم صلاته فى إيران - "يضبط الناس" مثلما كانت أمى تطلق على ما يفعله - بنفس المهارة الهادئة، فلا شىء حدث على الإطلاق بدون دفعة شخصية، ولكن لم أتوقعها من غريب فى أوروبا حيث من المفترض أن المؤسسات الديمقراطية استغنت عن المحاباة، أو هكذا ظننت. وفى فترة لاحقة من حياتى بينت لى التجربة أن النساء والرجال الكرماء فى كل مكان يعاونون الآخرين كلما استطاعوا، وأن "طيبة الغرباء" خصلة إنسانية تعوض عن الكثير من الصفات الأقل الجديرة بالثناء.

بدا على أية حال أن بريفير قرر أن يتبنانى ويجعلنى تلميذته، ومنذ حينها فصاعدا مضيت لرؤيته كثيرا رغم أننى لم أرهُ بالقدر الذى رغبت فيه خوفا ألا يكون لدىَّ ما أمنحه إياه وأن أضيع وقته. أمّا وقد كبرت الآن فى السن ندمت على ذلك، لأنى فطنت إلى أن مصادقة الشبان متعة أى متعة، مشاركة حماسهم وآمالهم، ومدى الرضا فى مساعدتهم عند الحاجة، وكيف يتعلم المرء منهم، ولو فقط من خلال تذكره لشبابه.

كانت شركة الأسطوانات التى قدمنى لها جاك بريفير وبيير بريفير هى بى. آى. إم. (الحروف الأولى من La Boîte - à - Musique "لا بوات آ موزيك": صندوق الموسيقى)، فى جادة راسباى عند ركن يتقاطع عنده شارعان، يسعك أن ترى لافتتها، ضخمة فوق المدخل، من كل اتجاه،

وعندما تَدخل تجد نفسك فى مخزن طويل متوسط الحجم، حوائطه مغطاة برفوف الأسطوانات، ومساحاته زاخرة بصناديق من الكرتون ورزم لتعبئة الأسطوانات وإرسالها بواسطة شابين. تألفت حجرة المكتب القائمة عند النهاية البعيدة من مكتب ضخم بأوراق وملفات وهواتف, ثمة حجيرة فى أحد الجوانب وفرت مساحة خاصة مغلقة للسيدة ليفى ـ ألفاريه, بينما جلست أم المالك العجوز إلى مكتب آخر يكاد يختفى خلف الصناديق فى منتصف المتجر. كانت تمسك الحسابات، جسمها طويل مهيب، لاح مظهرها غاية فى الأناقة soignée، "بشبكة لا مرئية" تحمى تسريحة شعرها المعقدة من أهواء الرياح، شبكة لا تلاحظها إلا عند الاقتراب منها.

اشتهرت الشركة بسمعة ممتازة لا تتلاءم مع حجمها، وكانت تفوز بانتظام بأرفع الجوائز الموسيقية لتسجيلاتها المتميزة للموسيقى الكلاسيكية والشعبية بأصوات مؤديين معروفين. رأت بى. آى. إم. قبل أى شركة أسطوانات أخرى بوقت طويل إمكانية النجاح التجارى والفنى للموسيقى الشعبية، وراحت تنتج أغانى عرقية رائجة ومقاطع موسيقية تعزفها الآلات من كل أرجاء العالم، بما فيها فرنسا نفسها. جمع جاك دواى ـ فنان نال الكثير من الجوائز ـ الأغانى من مناطق مختلفة من فرنسا، وغناها بصحبة الجيتار على غرار المؤدين الرحالة فى الماضى. كان يرتدى ملابس ملائمة، قمصان بيضاء وبناطيل سوداء من القطيفة، ويغنى بإحساس عال بصوت تينور معسول، حتى إنه سرعان ما كسب الأتباع وصار أشهر مغنٍّ شعبى فى فرنسا، حذا بعدها آخرون حذوه ليكشفوا عن طبقة غنية من الموسيقى الفرنسية المنسية منذ زمن طويل.

بينما تولت السيدة ليفى ألفاريه ماليات العمل وأمور الموظفين، نهض زوجها أندريه بالجانب الفنى. كانت تقسيمة عادلة، كان ذكيا وحساسا وغاية فى الرقة، ومع ذلك يُصدر للمرء انطباعا بأن الاعتبارات المادية لم تكن من نقاط قوته، وأن بإمكانه بسهولة أن ينخرط فى مغامرات قد تجلب المشاكل على الشركة. كانت عائلته يهودية، فى الأصل من إسبانيا، ولكن ذلك كان من أمد بعيد، ولم يبق من جذوره السيفارديم إلا ما يبديه من إغراء أرستقراطى واسمه المقسم إلى جزأين بينهما فاصلة وذوقه الكوزموبوليتانى. كانت زوجته على العكس منه قوية ومتواضعة، وكان الجميع، دون استثناء زوجها وحماتها، يضمرون شيئا من الخوف منها. كانت مخيفة بما يكفى لإبقاء العمال على أهبة الاستعداد، تحمى زوجها، جذابة فى عيون الفنانين. كانت ترتدى دوما ملابس أنيقة، وضعت مساحيق تجميل أكثر من المعتاد فى تلك الأيام، وتبعها فى كل مكان أثر متخلف لرائحة قوية شبيهة بالتوابل.

وصلتُ ذات ظهيرة قبيل موعد الإغلاق، تحدثت إلى أندريه عن الموسيقى الفارسية والشعر الفارسى حتى غادر الموظفين، ثم طلب منى أن أغنى بعض الأغانى التى أريد تسجيلها. بدا على الاثنين أنهما معجبان بأدائى، واقترحا أن نتقابل فى الأسبوع التالى، وعندها سيكون قد اتصل بعازف جيتار إسبانى شعر أنه سوف يكون خير مصاحب لى أثناء الغناء.

وفى غضون ذلك اقترح أن نذهب ونسمع اثنين من المغنين الشعبيين الأمريكيين كان قد سجل أغانيهما فى أباى، ملهى صغير فى شارع سان

جيرمان دو برى، بجوار الكنيسة، غص بحشد كوزموبوليتانى، أغلبه من الأنجلوسكسون وفقا للغة التى سمعتها، جلسوا إلى مائدة مستديرة على كراسٍ عالية بلا ذراعين. ظهر على الفور مغنيان، أحدهما أسود طويل وسيم، بصوت أجش، والآخر أبيض صغير الحجم بصوت نحيف عالى النبرة، صوت لا يصلح للغناء على الإطلاق. عزف الاثنان على الجيتار، ورتبا معًا ألحانا متناغمة للصوت والآلة، ولصغر الملهى كان الجمهور يطقطق أصابعه بعد كل أغنية بدلا من التصفيق، ليخلق جوا جادا ينم عن التبجيل، يعود فى مجمله إلى التقدمة المبتكرة. كان هذا بداية إحياء الفن الشعبى الذى ساد فى الستينيات، ولكنه بدأ فى الحقيقة فى نهاية الخمسينيات. بعد انتهاء العرض ذهبنا لتهنئة المؤدين، ووقعا لى نسخة من أسطوانتهما، نسخة لا زلت أحتفظ بها. سجلت جوان بايز بعض أغانيهم فى نفس الوقت، فى أسطوانتها الأولى عام ١٩٥٧، بيد أننى لم أكن قد سمعتها بعد.

كان العازف المصاحب الذى اختير لى هو إف. فيرنانديز لافى، مغترب إسبانى، درَّس الجيتار الكلاسيكى فى إحدى مدارس الموسيقى والكونسرفتوار. عملت معه لمدة أسبوع كامل، رتبنا أدورا ثانوية بسيطة للأغانى الفارسية التى اخترناها، حتى كنا مستعدين للذهاب مع أندريه ليفى ألفاريه إلى إستوديو صوت كبير وتسجيل الأغانى. وقعت فى وقت لاحق عقدا وضعوه أمامى، ما توقعت قط أن أقبض أيَة أموال، فقد كنت تواقة للغاية لتسجيل الأغانى، وحين ذكر ليفى ألفاريه هذا المبلغ الهائل، ٣٠٠٠٠ فرانك (٣٠) تصورت أنى يجب أن أدفعه! شعرت بالدموع تتجمع فى عينىَّ. "آه يا عزيزى! لا أملك للأسف هذا المبلغ!" طمأننى قائلا إنه قصد أنى سأتلقى receiving الأموال متمنيا أن أجد الأموال عادلة.

تولتنى إثارة لا محدودة حين تلقيت أول شيك "احترافى"، حتى إننى دعوت على الفور كل أصدقائى على العشاء وابتعت بعض الزهور لبيرفير، وزوجين من الأحذية، وقماشًا لعمل فستان لنفسى. بل إننى شعرت بالذنب لتلقى أموال على فعل شيء استمتعت به! فقبل كل شيء، لم أنزل منجما أو أرتب خمسين فراشا فى أحد الفنادق، ما ندَّ منى سوى الوقوف والغناء طلبا للمتعة والحب، ولبث هذا الشعور، معى حتى عندما عملت فى ظروف أقسى فى السبعينيات والثمانينيات. أتذكر أنى كنت أقوم بجولة فى إنجلترا برفقة برايان باتين ـ هو يغنى قصائده وأنا أغنى الأغانى ـ عندما كان الرعب يركبنى كل أمسية قبل العرض، وأعانى آلام الظهور على المسرح والشك فى ردود أفعال الجمهور. كان برايان هادئا مطمئنا: "تذكرى أنك سوف تغنين كى تأكلى عيشا!" فتفكرت أنه أيضا عيش ولدىَّ والموسيقيين العاملين معى، ومع ذلك لم يبد لى "عملا"؛ فالعمل بالنسبة لى شيء كريه أفعله على مضض.

ما قرأت قط ذلك العقد بالكامل، فقد عجزت عن فهم مثل تلك الوثائق ووضعت ثقة ضمنية فى ليفى ألفاريه، ولكن عندما فعلت نفس الشيء بعد مضى سنوات، وقعت عقدا مع شركة أسطوانات عالمية كبيرة، اتهمنى الموسيقيون العاملون معى بالجنون، أخبرونى أن الفنانين لا يغامرون أبدا بالولوج إلى مياه "تجارة الموسيقى" الحافلة بالحيتان بدون أسطول من المحامين وحُماة آخرين، ومع ذلك لم أُخدع طيلة السنوات إلا مع عقود رتبها المدراء وفحصها المحامون!

ترشحت تلك الأسطوانة الأولى "أغانى حب فارسية" لجائزة كبيرة، وأصبحت أسطوانة كلاسيكية، وعليه قال لى ليفى ألفاريه الذى احتفظ

بها فى كتالوجه حتى توقفت شركته عن النشاط بعد سنوات عديدة تالية: كانت "أنبوبة المياه" التى غنيتها لجاك بريفير رباعية، غنتها لى منذ سنوات عديدة مربيتى القديمة، نسيت لحنها وكان علىَّ أن أوزعها من الذاكرة.

لدىَّ نسخة واحدة فقط من تلك الأسطوانة الأولى، أحتفظ بها فى صندوق يحوى ذكرياتى، تطلعت إليها منذ عدة أيام كى أُذكِّر نفسى باسم العازف المصاحب لى. اسم تاه من ذاكرتى رغم أنى أستحضر جيدا جلسات البروفة وكرمه وصبره، تواضع الفنان الحقيقى حين يتعامل مع موسيقى مجهولة لديه حتى لحظتها. وفى خلال السنوات التالية متى أزور باريس أعرج على "لا بوات آ موزيك" Boîte- à- Musique كى ألقى التحية على الزوجين ليفى ألفاريه، إلى أن جاء يوم لم أجد فيه السيدة العجوز هناك، كانت قد ماتت فى الشتاء السابق. أصيب إندريه ليفى ألفاريه بمرض الشلل الرعاش، وتولت زوجته القادرة العمل، وإن ظل جالسا إلى مكتبه المعتاد ويداه ترعشان وجبهته الشاحبة تتصبب عرقا، وأخيرا راح هو الآخر ذات يوم، وفى النهاية اختفى صندوقهما الموسيقى.

اختلطت كل تلك الزيارات لبريفير فى ذاكرتى، وإن ظلت بعض الصور والكلمات والأحداث المنفردة جلية. مثلا عندما شغَّل لى جاك فى ذلك اليوم الأول أسطوانة لإيلا فيتزجيرالد وهى تغنى أغانى كول بورتر مؤلف الأغانى، وقال: "لقد تعلمت الإنجليزية منها!" وأعطانى إياه كى آخذه إلى البيت وأعزف. حفظت كل أغانى الأسطوانة، ولكنى لم أسجل اثنين منها إلا منذ عقد خلا. سألنى فى مرة أخرى إن كان السجاد الإيرانى تصنعه

فتيات صغيرات تتراوح أعمارهن بين الخامسة والخامسة عشرة، وقال بنبرة تشى بالسخط: "لا أعبأ بالفن، أريد أن يسعد الأطفال". تناقشنا عندئذ إن كان الفن يستحق معاناة تتبعه فى كثير من الأحوال، لم يظن أنه يستحق فقد كان فنه مبهجا مفعما بالأمل رحيما، وبحسب علمه لم يؤذ أحدا. أخبرنى ذات مرة أنه ذهب إلى حفلة منذ سنوات سابقة فى الطابق الثانى من مبنى شاهق الارتفاع، احتسى نبيذا أكثر مما ينبغى، جلس على عتبة النافذة لالتقاط أنفاس من الهواء الطلق، مال إلى الوراء وسقط على الرصيف: "كنتُ لأموت لو كنت صاحيا، ولكن لم يصبنى خدش وأنا سكران!" وبعد سنوات وقعت حادثة لم أستطع استيعابها على الإطلاق، اتصلت ذات يوم برقم إحدى صديقاتى فى باريس، ولكن بدلا من صوتها سمعت صوت جاك الذى تعرفت عليه فورا، نقل إلىَّ أنه فى نورماندى حيث يمتلك بيتا فى الأرياف، وأنه مريض، الحق أنه كان فى قبضة سرطان عضال. لم أعرف قط إن كان يعرف حقيقة مرضه أو لم يعرف قط، ولكن كان من طبعه ألا يرغب فى إقلاقى. على الرغم أن خطوط الهاتف تختلط أحيانا، كانت الاحتمالية واحدا فى المليون أن أتصل برقم فى باريس ليصلنى رقم فى نورماندى وأصادفه. بدا الأمر مخيفا قليلا على ضوء وفاته بعدها بفترة بسيطة، ربما أراد القدر أن أسمع صوته مرة أخرى قبل أن يصمت إلى الأبد.

قرأت نعيه فى الصحافة وبكيت نادمة بكل مرارة، لأنى لم أذهب لرؤيته مرات أكثر، ولم أدون نقاشاتنا، نكاته، وحكمه البارعة، وتعليقاته. ولكنك لا تصدق فى سن العشرين أن الذاكرة تضعف، وأن الزمن يهدئ مشاعر تبدو قوتها وكأنها محفورة فى روحك، أو أنك يمكنك أن تنسى

أسماء من تحبهم حبا جما أو تنسى وجوههم. ثم تذكرت جان كوكتو القائل: "لا يموت الشعراء، إنهم فقط يتظاهرون بالموت". يعيشون فى قصائدهم وأغانيهم وأصواتهم، واليوم لا "تسرى فى الشوارع" أغانى جاك وحدها، وإنما أيضا قصصه ونوادره التى أصبحت جزءا من أسطورته. على سبيل المثال كان قد صادف ذات يوم شحاذا أعمى يجلس على الرصيف فى بلدة جنوب فرنسا، قبعته حياله على الأرضية كى يتلقى العملات، ولوحة تعلن: رَجل أعمى بدون معاش.

"كيف حالك؟" سأل بريفير.

"آه، سيئ جدا، ما يند عن الناس إلا المرور دون إسقاط شىء فى قبعتى، الخنازير!" أجاب الشحاذ.

"اسمع، دعنى أُدر لوحتك وأضمن لك ثروة".

انقضت عدة أيام ثم قابل الشحاذ الأعمى مرة ثانية، وسأله عن حاله:

"رائع! تمتلئ قبعتى ثلاث مرات فى اليوم".

كتب بريفير على ظهر اللوحة: "الربيع قادم، ولكنى لن أراه".

كان مثالا للفنان الأصيل المنسجم مع فنه، يمثل قدوة من الصعب أن يبلغها المرء ومن الصعب أن يقابلها، أُغنى الكثير من أغانيه، ويرد إلىَّ أحيانا سطرا من أغنية "أوراق الخريف" فى أحد الأماكن العامة:

Mais Lavie sépare ceux qui s'aiment...

"تفرق الحياة بين الأحباء..."

٢٢ ـ منزل تانيا

يجد المرء الحقيقة على المسرح.

ألبير كامو

وصل جانب من المسرح الغربى إلى إيران من خلال أخى أبى الأصغر، العم عماد، الذى ترجم مسرحية موليير المريض بالوهم The Hypochondriac وأنتجها وأخرجها مستخدما أطفاله العديدين وخدمه فى البيت ممثلين، أخذتنى أمى لأراها، وقد ظل السحر والحماسة جليين فى نفسى رغم أنى كنت أصغر من أن أتذكر تفاصيل الحدث. مثلت بعدها فى مسرحيات المدرسة، ربما لقدرتى على الغناء، وقد ضمت العروض دائما الأغانى، استمتعت بهذه التسليات ونعمت بالشهرة الناتجة وسط المدرسات والزميلات.

كنت فى المدرسة الثانوية Lycée العامل المحرك الأول للأحداث المسرحية، وكذلك الممثلة الرئيسية، أخبر بعدها أحدهم أمى ـ مجاملة لم تسع إليها ـ بما أفعله، فأمرتنى بالكف: لو سمعتُ بالأمر، فآخرون قد يسمعون به، وماذا سيحل إذن "باسمى النظيف؟" توسلت إليها وبكيت

ووعدتها بتكتم الأمر بلا جدوى، كان أمرها نهائيا، وكان عليَّ أن أنصاع له.

كنت فى باريس حرة كى أتفرج على ما أوده من مسرحيات، بأسعار مخفضة مخصصة للطلاب، وقد كانت فترة ازدهار للمسرح: سارتر، وكامو، وأنوى، وكان هناك حشد آخر يكتب مسرحيات مهمة مبتكرة باستخدام مناهج تقليدية، بينما كان يونسكو وبيكيت وأداموف ومَن جاءوا بعدهم من المسرحيين الأصغر يغيرون لغة الدراما نفسها ويبتدعون مناهج جديدة، بما فيها ما كان يسمى وقتها مسرح العبث. ومرة أخرى، كان آخرون مثل ألبير روسيل ومارسيل إيميه يعززون "مسرح الجادة"(*) boulevard بالمسرحيات الكوميدية الذكية والهزلية الساخرة. وعلاوة على هذا المحصول الغنى النابت فى البلاد، كانت هناك وفرة فى المسرحيات الأجنبية: الإنجليزية والإسبانية والروسية والألمانية... الكلاسيكية والمعاصرة. عاونت الإعانات المالية الحكومية المستثمرين فى القطاع الخاص الذين قدموا الدعم المالى لإنتاج المسرحيات، ولكن قبل كل شىء جاءت القوة الدافعة من المبادرة والحماس الشخصيين. وفى كل عام يقام موسم للمسرح العالمى، يدعو فرقا شهيرة من الدول الأخرى: جلب لورنس أوليفيه وفيفيان لى شكسبير من بريطانيا، وقدمت فرقة بريخت البرلينية بريخت، وقدم مسرح الفن بموسكو تشيكوف. وقفنا فى الطوابير ساعات واستعنا بالمحسوبية للحصول على تذاكر، وتفرجنا على ما استطعنا التفرج عليه.

(*) مسرح الجادة: مسرح فنى نشأ في شوارع المدينة القديمة من باريس. (المترجمة).

كانت قِبلتنا هى المسرح الشعبى القومى فى الضفة اليمنى، تأسس فى مستهل الخمسينيات باعتباره المسرح القومى الثالث فى باريس، كان الآخران مسرحَىّ الكوميديا الفرنسيين على الجانب الآخر من نهر السين، كان المسرح الثالث تدعمه الدولة. مثَّل 'لو فرانسيه' الذى أسسه موليير فى القرن السابع عشر المسرح التقليدى وتكرس بوجه عام لذخيرة المسرحيات الكلاسيكية. ارتبط بالكونسرفتوار، ومنه تزود بحامية من ممثلين كان أسلوبهم فى التمثيل ـ التشديد على التكنيك وإلقاء الشعر والإيماءات المصقولة ـ يضمن الاستمرارية. ولكننا نحن الشبان اعتقدنا أن المؤسسة بأكملها "برجوازية" و"عتيقة"، بينما كان المسرح الشعبى القومى على العكس تقدميا ومبتكرا، تأسس كى ينال استحسان قطاعات من الجمهور لا تذهب فى العادة إلى المسرح. وعليه كانت التذاكر رخيصة الثمن، وخفضوا أسعار التذاكر للطلبة والمجموعات من المصانع وأماكن العمل. كانت القاعة أشبه بصالة للحفلات الموسيقية، فبمقدورك أن ترى وتسمع على نحو كامل من أى مجلس، اشتملت العروض على نصوص المسرحيات وصور للفرق أثناء البروفات.

يدين المسرح الشعبى القومى بجل نجاحه إلى الطاقة والحماسة والمواهب المنظمة لمديره الأول، جان فيلا. كان المسرح من بنات أفكاره، بدأ حياته ممثلاً يعمل فى أدوار ثانوية متفرقة بدون إحراز أية منافع بارزة واضحة، تطور إلى ممثل، مدير عبقرى، وبات واحدا من أكثر الشخصيات تأثيرا وشهرة فى المسرح الفرنسى بعد الحرب من خلال قوة إرادته الصلبة وتفانيه. كان صغير الحجم، نحيلاً، إنما قوى، ذو وجه مألوف تماما وصوت عادى، ومع ذلك بمجرد أن يعتلى خشبة المسرح ينال

حضوره الاستثنائى وقوة تمثيله الاحترام والانتباه، سوف تصدق بسهولة أن هذا الرجل العادى هو حقا دون جوان، فهو قادر على سلب قلب أى امرأة، أو أن هنرى الخامس ضئيل الحجم يفوز فعلا بالمعارك رغم كل الصعاب.

جمع فيلا بين معرفة الإدارة والأمور المالية بالفطنة الفنية، وبين السحر الشخصى والإخلاص الكامل لمهنته. من المعروف أن الممثلين مخلصون لمهنتهم، بيد أن فيلا لاح أكثر تصميما من الآخرين، لقد ألهم الممثلين الآخرين بإيمانه ومثاليته، حتى إن العديد من نجوم السينما البارزين فى فرنسا تخلوا عما طالبوا به من أجور باهظة، كى ينضموا إلى المسرح الشعبى القومى بأجوره الضئيلة، ومن بينهم نجوم محبوبون مشهورون مثل جيرار فيليب وجان مورو والممثلة التراجيدية ماريا كاساريه، وهكذا كانت فرقته هى أروع الفرق، ومسرحياته من أبرز المسرحيات فى خلال العقد.

وبنفس الطريقة حصل على مساهمات من فنانين فى مجالات أخرى لم تربطهم بالمسرح صلات من قبل، نشط الكُتاب المشهورون لمنحه تراجم جديدة ونسخا من الكلاسيكيات الأجنبية، وصمم الرسامون والنحاتون المعروفون ديكوراته وأزياءه، وكتب الملحنون الممتازون قطعا موسيقية أصلية لمسرحياته، وكل هذا مقابل ربح مادى بسيط.

كان النحات الأمريكى ألجزاندر كالدر Alexander Calder واحدا من هؤلاء الفنانين، جهزت ديكوراته - الأسلاك المعلقة المتحركة الملونة والمنحوتات التجريدية الثابتة - المسرح الشعبى القومى لعرض عدد من

المسرحيات المعاصرة. كان كالدر Calder مشهورا بالفعل فى أمريكا حيث أقام عرضا منفردا فى متحف الفن الحديث، مما جعله موضع إعجاب شديد فى فرنسا بينما مدَّت ديكوراته بالمسرح الشعبى القومى سمعته إلى خارج البلد، إلى جمهور أوسع. لم يَقدر الجميع على تحمل تكلفة الأصلى من أسلاك كالدر المعلقة المتحركة فأخذوا فكرته وراحوا يصنعون نسخهم الخاصة، صنع سيرجى أسلاكا معلقة من أجل آن، تعلقت من السقف فوق فراشهما، وصنع جيليز عددا منها ببطاقات ملونة.

عرضت المسرحيات التى صمم كالدر ديكوراتها قبل وجودى فى باريس، ولكنى ابتعت نصوصها ووجدت بها صورا له: أشيب ضخم القامة يرتدى قميصا قرمزيا وبنطالا فضفاضا وإن قزمت المنحوتات حجمه، أو بصحبة الممثلين يضحك ويحتسى النبيذ ليبث لطفا ودماثة، قيل لى إنه عاش واشتغل نصف السنة فى قرية فى وادى لوار.

"إنه صديق رائع"، قال جاك بريفير حين ذكرت اسمه، "يسكن بالقرب من مدينة تور، فى قرية صغيرة اسمها ساشيه؛ لو كنت فى المنطقة لأى سبب اذهبى إليه."

لم أره قط، وحينما انتقلت إلى إنجلترا حسبت أنى لن أراه أبدا، ولكن زوجى كتب مقالة عنه فى إحدى المجلات الفنية فى يوم من الأيام، وعليه تقابلنا جميعا وأصبحنا أصدقاء مقربين، ومن حينها كنت آخذ ابنىَّ الصغيرين للبقاء معه وزوجته لويزا فى الصيف. جدد بيتا قديما فى مزرعة بغابة صغيرة بالقرب من أحد ألسنة نهر لوار، وأقام أمامه

إستوديو، تمعج حينذاك الطريق، حارة هادئة فى الريف بين الاثنين، وفى الداخل حفل المنزل بأشياء وأدوات صنعها من القصدير والأسلاك والفخار، محولا المواد التى رماها الناس العاديون إلى أعمال فنية مبتكرة. تغطت الأرضيات الحجرية بسجاجيد ملونة متماشية مع تصاميمه، أقماره ونجومه وفراشاته وطيوره تطفو سعيدة فى الفراغ. نقل كل ما ابتكره تأكيدا على قدسية الحياة بكل ظواهرها، الاستمتاع المرح بالمباهج، استمتاع يدل على وحدة الوجود. كان يعمل مثل الطفل، يخترع فى حياته العادية، ومع ذلك كانت نماذجه مصقولة وأحيانا محنكة، وكثيرا ما نقلت علاقات دقيقة رياضيا.

صمم فى فترة لاحقة من حياته بيتا كبيرا وإستوديو ضخما وبناهما على أرض مرتفعة تطل على حقول منحدرة وكروم، حيث وفد الأصدقاء والمعجبون من جميع أنحاء العالم لرؤيته، وهناك رحب بنفس حسن الضيافة الدافئ بنجار القرية أو البنَّاء اللذين اشتغلا فى منزله، وكذا جاره ماكس إرنست، أو أرثر ميللر ومارلين مونرو، جاريه فى ولاية كونيتيكيت.

وفى الوقت الحاضر لا تزال هناك علامات على حضور كالدر Calder فى ساشيه Sache بعد عقد من وفاته؛ ففى منتصف ميدان القرية المسمى بكالدر يستقر أحد أعماله الضخمة: مجموعة من الأسلاك المعلقة المتحركة تلتمع فى الشمس، وفى الكنيسة المبنية فى العصور الوسطى فى أحد أركان الميدان يوجد نسيج مزدان بالرسوم والصور ولوحة إحياء لذكرى فنه ومساهمته فى حياة المجتمع، يبيع

المقهى المحلى الصغير المواجه بطاقات معايدة تصور منزله والإستوديو، مُنح الإستوديو إلى أكاديمية الفنون الجميلة لخدمة النحاتين المقيمين والعاملين هناك لمدة سنة. يوقف السياح سياراتهم فى المنطقة للسؤال عن إستوديو كالدر ومنزله، وليس ببعيد عن الميدان يقع قصر ساشيه، حيث اعتاد بلزاك أن يقضى فترات طويلة، ومن نافذة الغرفة التى كتب فيها رواية زنبق الوادى Les Lys dans la vallée يمتد المشهد فوق الوادى المورق، ونهر أندرا الكريم يتمعج عبره وصولا إلى الأرض العالية، حيث يمكنك رؤية أسلاك كالدر المعلقة الضخمة، وكذا المنحوتات التجريدية الثابتة، نقاط ملونة فوق رقعة خضراء من الأرض.

على الرغم أن التغيرات الاقتصادية والسياسية فى إيران بحلول نهاية الستينيات كانت تتصاعد، ولا سيما فيما يتعلق بالنساء، ما كان من المتصور أن أتمكن من الظهور على المسرح هناك. ولكنى سأتمكن من الإنتاج والإخراج أو العمل فى التلفزيون المؤسس حديثا؛ وعليه قررت أننى يجب أن أتعلم بعض المهارات الضرورية وأنا "أتريث" فى باريس.

بالإضافة إلى معهد الكونسرفتوار، كان هناك العديد من الكليات الدرامية و"المناهج" المحترمة فى باريس، وقد وفرت التدريب لأغلب الممثلين والممثلات الشبان، وكانت صناديق للعرض نقَّب فيها مخرجو الأفلام والمسرح عن مواهب جديدة. تخرج الكثير من الممثلين المشهورين فى الجيل الأصغر من مدرسة تديرها تانيا بالاشوفا، مهاجرة روسية أتت إلى باريس مع والديها بعد ثورة عام ١٩١٧، اعتُبِرت الآن واحدة من أعظم الممثلات والمدرسات الدراميات فى جيلها. لقد أثر المهاجرون

الروس إلى حد بعيد فى المسرح الفرنسى بين الحربين؛ فقد كانت أفكارهم جديدة، وجلبوا نسمة من الهواء النقى إلى كتمة الدراما الفرنسية التقليدية. كانت تعاليم تانيا بالاشوفا هى تعاليم ستانيسلافسكى، رغم أن منهجها كان أكثر انتقائية من "المنهج" الذى راج فى أمريكا من خلال مدرسة "إستوديو الممثل" وتلاميذها الذهبيين، مارلين مونرو ومارلون براندو. شددت على أصالة المشاعر والأحاسيس، وإنما ليس على حساب وضوح الأداء وسلامة التكنيك، ومع ذلك كانت مثيرة للجدل، واستفزت ردود أفعال متطرفة: كانت بالنسبة لطلبتها ومعجبيها نموذجا وقد عشقوها، بينما انتقدها الآخرون ـ مَن لم يشهد جاذبيتها فى الغالب ـ لتشجيعها ممثليها وتلاميذها على الانكفاء على الذات والكآبة.

كانت قصتها مثالا لافتا لانتصار الإرادة الإنسانية على القدر، عانت فى سن العاشرة مرضًا نتج عنه فقدان كامل للشعر، بما فيه الحاجبان والرموش. يئست أمها اليهودية وأبوها الأرستقراطى من أن تتزوج فى أى يوم كان أو أن تفعل أى شىء عدا العمل فى مكتب أو مربية، اختارت بدلا من هذا وظيفة فاتنة كان النجاح فيها عويصا حتى لو تمتعتَ بكل المزايا المطلوبة.

كيف ارتقت على مثل تلك المستويات المهنية البارزة وبها الكثير من الإعاقات، لا كممثلة، ولكن كبطلة، الأدوار تُكتب من أجلها، وتلعبها فى الغالب النساء الجميلات؟ لقد استغلت عيوبها كى تُجمل مظهرها؛ ارتدت باروكات، وأطرت بنية عظمها الجميلة وبشرتها الرائقة، باروكات كانت أجمل من شعرها الحقيقى، أظلت الرموش السوداء الصناعية عينيها

الزرقاوين العميقتين بتعبير مفعم بالعاطفة، ورسمت حاجبيها بقلم رفيع فى زاوية مضبوطة تماما، وبدت كلها فى مظهر يسلب اللب: "تبدو كجريتا جاربو". قالوا عنها، وقد كان الشبه فى صورها مذهلا بحق. كانت طويلة القامة أشبه بالتمثال فى جلالها، حركاتها ملكية، وتنعم بحضور ساحر جعلها ـ بالإضافة إلى صوتها الخفيض المعبر ـ محور الاهتمام بمجرد أن تدلف إلى المسرح.

المسرح هو كأس الأوهام، والحيل التى استخدمتها كانت فى النهاية جزءا من أدوات الممثل، ولكن ماذا عن حياتها الخاصة؟ كانت مميزة على حد سواء. أحبها بعنف ثلاثة أزواج مشهورون وعدد لا حصر له من الأحباء، وانكسرت قلوبهم حين "نستهم". كان رجالها فى السنوات الأخيرة أصغر كثيرا منها، ووقع طلابها فى حبها سرا. ارتدت الآن فى عقدها السابع باروكة رمادية ملائمة وقبعة صغيرة عليها حجاب رقيق وملابس أنيقة وإنما محافظة، كانت ترافق صديقا، ولكنه لم يظهر عدا فى النادر كى يقلها فى نهاية اليوم. كيف يمكن أن تخفق فى أن تكون مصدرا للوحى وقدوة لطالباتها؟

اقترح جيليز أن أتابع منهج الدراما الذى تُدرسه، فقد كان يعرفها ويعجب بها، وظن أنها قد تكون أقرب إلىَّ لأنها روسية. حضر هو نفسه دروسها وعرض علىَّ أن يصحبنى، درَّست المنهج يومين فى الأسبوع فى قاعة تخزين معتمة أشبه بالكهف، تقع وراء أحد المقاهى، فى شارع متفرع من بلاس موفيتار بالحى اللاتينى. تَعبر من باب صغير تتصدره ستارة بالية من القطيفة للحماية من ضوء يتسلل مع الداخلين فى وقت متأخر، تعلقت فى الهواء سحابة ضاربة إلى اللون الأزرق مكوَّنة من دخان السجائر والهواء الراكد. هناك خمسون كرسيا أو ستون مرتبة فى

صفوف، وخشبة مسرح مؤقتة عند النهاية البعيدة، وضوءان كشافان وقماشة خلفية معلقة فى نهاية خشبة المسرح.

فى ذلك اليوم الأول كان زوجان شابان يقدمان مشهدا من مسرحية تشيكوف الكوميدية الدب The Bear، كانت تانيا تقاطعهما من حين لآخر (ناداها الجميع باسمها الأول). كانت تسألهم وتشرح لهم وتصحح لهم وتوجههم قبل أن تسمح لهم بالمتابعة والتمثيل حتى نهاية المشهد، اشتعلت الأنوار فى النهاية فالتفتت ونادت اسما آخر.

إنك تجهز مشهدا من مسرحية وتجرى بروفة، لو أعجبت تانيا بك وآمنت بإمكانية نجاحك تَقبلك، وإلا ستجد مبررا ـ أن لديها بالفعل الكثير من الطلبة ـ ولكن بدون قسوة، وتنصحك ببعض البدائل. مع الذاكرة القوية وتوق الشباب حفظت عن ظهر قلب العديد من القصائد والمشاهد من المسرحيات، بل وفقرات من الروايات، ومع ذلك حين سألتنى تانيا "ماذا لديك؟" ما جرؤت على قول إلا قصيدتين لبودلير. مرت فترة طويلة منذ أن وقفت على خشبة المسرح فى المدرسة، وقد استبد بى الرعب، وإن نجحت فى إخفائه. إن المسرح هو البيت الطبيعى للمؤدى، فهو يوفر له "الجذور" والإحساس بالانتماء الذى ينقص الفنانين بوجه عام والفنانين "مقتلعى الجذور" بوجه خاص. بدت تانيا راضية لأنها سألتنى عما أريد أن أفعله فى المستقبل، واختارت جوسلين ـ تلميذا سابقا بات الآن ممثلا محترفا ـ لمهمة العمل معى لتقديم المشهد فى الأسبوع التالى. يحضر العديد من طلاب تانيا السابقين الدروس بين الفينة والأخرى بعد وقت طويل من تحقيق الشهرة، كمن يجذبهم الحنين إلى الماضى، أو ببساطة لرؤيتها ورؤية "خيولها" الجديدة، أو لمجرد التمرين.

كيف تولت تانيا أمورها المادية؟ لديها صديقة، ممثلة سابقة متقاعدة ظهرت بين الحين والآخر، وجمعت الرسوم من الطلبة، ولكن على حد ذاكرتى لم يدفع إلا القادرون على الدفع، ولم يبد أن تانيا تمانع على الإطلاق. أنفقت هى نفسها كل ما ربحته على المغامرات المسرحية: عرضت مسرحيات لم يرغب أحد فى تمويلها، وظهرت فى العروض "البديلة" لأنها أُعجبت بالمسرحيات أو المخرجين، ودعمت تلاميذها الألمعيين فى مسرحياتهم الأولى منتجين أو ممثلين. كانت السينما مصدرا جيدا للدخل بالنسبة للممثلين الذين دعموا دخولهم الهزيلة من المسرح بالأعمال السينمائية والتلفزيونية، ولكن الخوف تملك تانيا منها، ودائما كانت ترفض عروضا كان الآخرون يقبلونها بكل ابتهاج. كرست حياتها بالكامل للمسرح فى أرفع صوره، لذا نادرا ما تظهر فى إعلان يدر أموالا أو فى مسرحيات تجارية boulevard.

عاشت تانيا حياة البوهيمى vie de boheme الأصلية، فى وقت بدأ فيه الفنانون يتوقعون مكافآت مادية محترمة ويتلقونها مقابل عملهم. ما امتلكت بيتا ولا ممتلكات، ورغم أنها كانت داهية ولديها حس اقتصادى حاد حين يتعلق الأمر بإنتاج مسرحية من المسرحيات، أبدت احتقارا للأموال يليق بملكة، احتقارا يُذكرنا بالعصر الرومانتيكى. عاشت سنوات فى فندق صغير لا يمت للأبهة بصلة، فى منطقة باتينول الشعبية فى الضفة اليمنى. يقع عند زاوية شارعها مقهى تقضى فيه كل وقتها حين لا تعمل، وهناك لعبت البريدج - عشقها الثانى بعد المسرح - أحيانا حتى الساعات الأولى من الصباح، ولأن المقهى كان أيضا مطعما صغيرا، فقد تناولت وجباتها هناك أيضا، عندما كانت تعمل كان المقهى الأقرب إلى

غرف البروفات والفصول يصبح مقرا لها. اتصفت بالود، غير أن دماثتها ضمنت مسافة معقولة حتى عن أقرب أصدقائها وزملائها، ما خاطبت أحدا قط بضمير المخاطب؛ ما نادت أحدا بكلمة "أنت" tu، كان الجميع "حضرتك" vous. سمعتها مرة واحدة فقط وهى تستخدم تلك الصيغة الحميمية: عندما أتى حبيبها، رجل وسيم أصغر منها فى منتصف العمر، كى ينضم إليها فى المقهى المجاور لفندقها، قالت: "آه! ها أنت قد جئت!" Ah! C'est toi! بنبرة مغرية متوردة وحماسة تليقان بفتاة صغيرة فى لقائها الأول بخاطب محتمل.

كذلك لم يلق أحد قط نظرة على غرفتها، زرتها مرة واحدة فى الفندق، كنت متزوجة فى لندن، ولكنى كنت أمر بباريس، واتصلت بها. كانت راقدة فى الفراش من جراء إصابتها بالبرد واقترحت أن أمرَّ عليها، كنت واثقة أنها لم تكن لتستقبلنى هناك إن لم أكن خارج حياتها المهنية، مفضلة أن تحتفظ بحاجز الوهم. كانت غرفتها فى الطابق السادس، غرفة صغيرة بنافذة تطل على الشارع، مغطاة بستائر من الدانتيل تحولت إلى الرمادى بسبب قدمها. غصت الغرفة بالملابس ومساحيق الزينة والباروكات والقبعات، كانت مزيجا من حجرة تغيير الملابس فى المسرح وبيت غجرية متنقل. أخفى حاجز متهرئ من الألواح الوردية جزئيا حوض المياه وموقد غاز صغيرًا بمشعلين يستقر بالقرب من النافذة، وفى السرير كانت تائهة تحت عدد كبير من الوسائد الملونة، بدون أشيائها الصغيرة المعتادة - تغطى رأسها بوشاح، وكانت رموشها منزوعة - لاحت عجوزا واهنة. اتخذت مجلسى إلى كرسى بجوار فراشها، وتحدثت عن الحياة فى إنجلترا، "لا تكترثى للهجتك الأجنبية،

المسرح الإنجليزى هو الأفضل فى العالم - انخرطى فيه". نصحتنى، "أنا واثقة أن زوجك فى مثل روعتك، ولكن الرجال أمرهم محير، حين يحبونك تجدينهم ملائكة، ولكن عندما يتوقفون عن حبك، ينقلبون وحوشا قاسية، لا بد أن تعتمدى على شيء، الغناء، أو التمثيل أو الكتابة، واصلى كل ما تقدرين عليه، فقد تحتاجين إليه". لا الرغبة فى أن أكون مختلفة، وإنما النفور من التعدى على منطقة الآخر والخوف من تشجيع مقارنات غير مستحبة، دفعنى على الدوام إلى اختيار "الطريق الأقل". ولذلك بدلا من مشهد فى مسرحية، هيَّأتُ من أجل ذلك الظهور الأول أمام تانيا حوارا من رواية مفضلة لدىَّ من القرن السابع عشر: مدام دو لافاييت اميرة كليف La princesse de cléves. إنها قصة حب يقف فيها إحساس البطلة بالواجب والاستقامة الأخلاقية فى طريق تحققها، تدق جرسا أعادنى إلى حياتى الأولى، وإن اعترضت فى الظاهر على تنشئتى المتزمتة، فبكيت مر البكاء وأنا أحفظ الدور.

"تخيلى أن تبكى هكذا كل ليلة لمدة عام!" قال جوسلين، "لا بد أن تتعلمى التحكم فى عواطفك من خلال منهج، وأن تستخدميها بفعل الإرادة." كان ذلك دون قدراتى، ولا يزال، كالإعداد لخطط طويلة الأمد، مثل ما سأفعله إن عدت إلى المنزل. كنت فى إجازة من الواقع en sursis كما قالوا عن الجنود - ولم أخطط من قبل لما بعد يومى الحالى.

شجعتنى تانيا وزملائى الطلبة، وسرعان ما انهمكت فيما أطلق كامو عليه "الأخوية العظيمة للمسرح"، وعليه انغمست فى عالم جديد خلال

السنة التالية تقريبا، حتى غادرت باريس، وكونت صداقات جديدة، وشهدت تجارب نضرة غير معتادة. كانت فترة قصيرة لونت بقية حياتى، وطرحت ضوءا ساطعا على الظلمة، المناطق الظليلة من النفس البشرية التى لم أرغب فى سبرها من قبل، وحطمت الأوهام القليلة التى لا زلت أتمسك بها بسذاجتى. فتح هذا العالَم آفاقا جديدة على الواقع كانت لتظل مغلقة لولاه، فلا يتسنى لك أبدًا معرفة مجتمع معرفة جيدة مثلما يحدث حين يمنحك قوتك اليومى.

٢٣ ـ شخصيات تبحث عن مؤلف

إننا أشياء من صنع الأحلام

شكسبير

راقتنى صحبة أصدقائى الجدد، كان الممثلون فصيلة مثيرة للاهتمام،حساسون، ومدركون بالغريزة، وكرماء. بدا لى أن الغيرة المهنية والتنافس الموجودين فى كل المهن حل محلهما حب المسرح، ولا يطلقون سمّا بلا رحمة إلا عندما يأخذ شخص غير مستحق أو غير مناسب دورا لأسباب خارجة عن الموهبة، وعندها يُقْدِمون على مهمة تدميرية!

ربما لأن حياتى الخاصة كانت دوما "مؤقتة" و"مواصلة" كنت أقل التزاما من الزملاء المتمرنين، وعليه لم أفهم أبدا تمام الفهم قسوة أحكامهم.

ساعدتنى تانيا على العمل فى مسرحيات مع أصدقائى، وقدَّمتهم فى الغرفة الخلفية الضيقة التى كانت مَدرستنا. كانت الدراما عالما جديدا، منطقة جديدة لسبرها، قرأت الكلاسيكيات والذخيرة المسرحية

الحديثة. لو رجعت إلى وطنى عاجلا أو آجلا، أظن أنى سوف أترجم مسرحيات معينة إلى الإيرانية وأعرضها على المسرح، أو أترجمها من الإنجليزية إلى الفرنسية، وكان من المحتوم أن أوثر مؤلفين محددين: راسين وتشيكوف ولوركا...

كانت روسيا التى صورها تشيكوف بالضبط طفولتى فى إيران، وشخصياته هم أفراد أسرتى، ومحن الشخصيات هى محن الأهل، بينما ذكرتنى أندلس لوركا المقهورة المتقدة بالعاطفة بالمجتمع الغاص بالمحرمات الذى هربت منه، فلغته الشعرية زاخرة بنماذج الحوار الفارسى، ولكن مثل العديد من المراهقين لم يأسر انتباهى وروحى بالكامل إلا التراجيديا.

كتب راسين يقول: "لا داعى للدماء والجثث، فما دامت القصة نبيلة والشخصيات بطولية تُثار المشاعر ونستشعر فى كل مكان ذلك الحزن المهيب، جوهر التراجيديا". لقد عبرت مسرحياته بامتياز عن هذه الحقيقة، ليست صدفة أن كل "أبطاله" من النساء، تجسيد "للحزن المهيب" للتراجيديا من جراء حالتهم نفسها وأقدارهم، فريسة للآلهة المتقلبة ولا سيما فينوس: **فينوس بكل قدرتها تقبض على فريستها.** C'est vénus tout entiére à sa proie attachée تقول فيدرا وهى تُسَلِّم نفسها لعاطفة محرمة قاتلة لابن زوجها هيبوليت. حفظت كل هذه المآسى العظيمة، ولا زلت أتذكر مقاطع كاملة عن ظهر قلب، بينما لا أستطيع أن أتذكر أسماء مألوفة أو أحداث الأمس!

أحطت نفسى بشرنقة هذا الجو الجديد المريح المفعم بالأمل الحافل

بالمسرحيين الشبان، عشت اليوم بيومه، أتهرب من أسئلة والدىَّ عن موعد قدومى إلى الوطن. ساورتنى سعادة طاغية وإن لم أمتلك أموالا للعيش منها، ولكن الشبان يبقون على قيد الحياة بطريقة ما من خلال الكرم والصدف. عثر جيليز لى على بعض الأعمال فى الترجمة للمذياع، أرسلنى بريفير إلى أحد أصدقائه للعب دور صغير فى فيلم عن الشباب المعاصر، عملت أسبوعا وانتهى بى الأمر على أرضية حجرة المونتاج، ولكننى كسبت أموالا كافية لمدة شهرين.

وبعدها وجدت فى أحد الأسواق بالشارع قماشا قطنيا مخططا بالأبيض والأسود فاشتريت قطعة منه لأخيط فستانا ما خيطت أبدا أى شىء، وعليه كانت النتيجة فستانا ضيقا متعارضا تماما مع الموضة المعاصرة للتنورات الفضفاضة، تعترض الكمين غرز تمتد حتى منتصف الذراعين، وتحولت الياقة المقلوبة إلى قلنسوة.

"تبدين كحمار وحشى مخطط صغيرا" قالت شابة فى الشارع وأنا أجرى لألحق بالمترو. "انتظرى ثانية كى آخذ صورة!" كان الناس يقتربون دائما من الشابات فى طريق بول ميش وسان جيرمان دو برى طالبين منهن أن يتخذن الأوضاع لالتقاط الصور، عارضين عليهن عقودا سينمائية وعروض أزياء مزيفة. حذرونا من هؤلاء الغرباء، كانوا فى الغالب رجالا أشرارا فى خريف العمر بأعين مراوغة، وقد ابتعدنا عن طريقهم تماما. ولكن كان هذا أحد الطلاب الزملاء، كنت قد لاحظت وجوده فى المدينة الجامعية محل إقامتى... تك، تك! Snap,Snap... قال إنه سوف يرينى الصور لو عرجت عليه فى مبنى "المنزل العالمى"، أكانت

تلك خدعة هى الأخرى؟ لم أعرج عليه قط. ولكنى التقيت به صدفة بعد فترة بالقرب من مبناه، وجرى إلى غرفته فى الطابق العلوى، وجلب صورة كبيرة لا زالت معى. قال إنه باعها بالفعل إلى إحدى المجلات، وإنه واثق أنه سيستهل موضة جديدة كاملة للملابس القصيرة الضيقة، وأخبرنى أننى لو سمحت له بجلسة تصوير ملائمة سوف يحاول أن يجلب لى عملا فى عروض الأزياء.

كانت لدىَّ عدة صديقات يعملن فى عروض الأزياء فى بيوت أزياء بولمان وبالينسياجا وديور، كن يعملن من التاسعة إلى الخامسة والملابس تخاط على أجسامهن بأيدى مصممى الأزياء الأساتذة. كان عملا شاقا مملا لا ربح فيه، وقد بلغت ذروته فى مشية القطة فى بداية الموسم. كانت عارضات الصور العاملات بصورة حرة هن اللاتى يكسبن الأموال الوفيرة، صاحبات الوجوه التى تراها فى مجلات الموضة، كن فى الغالب أمريكيات طويلات للغاية، ونحيلات، يبعثون بهن من نيويورك، على حين كان طولى خمسة أقدام وأربع بوصات، قزمة مقارنة بالفتيات الأنجلوسكسونيات. ومع ذلك حصلت على عدة وظائف فى عروض الأزياء من خلال الأصدقاء، والعديد منها فى إنجلترا، واحتفظت ببعض الصور، إلا أن الأسماء والمناسبات اختلطت فى ذاكرتى أو فُقدت.

كان جيتارى معى يوما وغنيت بعض الأغنيات لتانيا والرفاق، "إنك مجنونة لأنك لا تغنين فى ملهى ليلى؟" boîte قالت تانيا موحية أن أمضى لأقابل أندريه شليسر، كان ملهاه، **الإكلوز** L'Ecluse، واحدا من أفضل الملاهى فى الضفة اليسرى. كان ممثلا ثانويا فى المسرح الشعبى

القومى، يلعب فى الأغلب دور المغنى عازف الجيتار عند الطلب، ولكنه كان مديرا ماهرا، يختلف إليه المفكرون، لملهاه شهرة فنية عالية، وقد قدَّم إلى الجمهور الكثير من الكوميديين والمغنين بما فيهم باربرا التى كانت محدودة الصيت وقتها، ولكن سرعان ما بزغ نجمها. يمكن للعديد من ممثلى المسرح الشعبى القومى أن يأتوا مباشرة إلى ملهى الإكلوز بعد المسرح ويقدموا المشاهد الكوميدية والاسكتشات الساخرة حيث يشاركهم شليسر نفسه فى العرض.

وبعد تقدمة من تانيا ذهبت لأقابله وغنيت له، كان الرجال فى مكانه غارقين فى طلبات تجارب الأداء و"الفقرات"، وغالبا ما يتصنعون حاجزا من الجدية، غير أنه كان دافئا مهذبا على غير المتوقع، راقته أغنياتى، ولا سيما الأغانى الشعبية الفارسية، لأنها كانت "غير معتادة وغريبة"، وأخبرنى أنه على الرغم من أن ملهاه مخصص للشعر والأغانى الفرنسية يمكننى أن أقدم فقرة هناك بها قليل من الأغانى الشعبية الإيرانية والإنجليزية والفرنسية. اقترح أن أقابله بعد الإجازة الصيفية مباشرة لأن ملهاه كان مشغولا فى الشهور الستة المقبلة، ووافقت أن أرجع فى ذلك الوقت وكلى سعادة لعثورى على شىء يمكننى الاعتماد عليه، ولكنى لم أستطع أن أبدأ بالتفكير فى المستقبل.

الحق أنى رأيته فى المرة التالية بعد انقضاء عشرين عاما، عندما وفد إلى لندن بصحبة عرض ارتدى فيه ملابس موسيقى من العصور الوسطى، وغنى عدة أغانٍ شعبية بين الاسكتشات. اتضح أن مدير الفرقة بدأ مستقبله فى ملهى الإكلوز، وأصبح الآن فى مكان سمح له برد

كرم شليسر بأن اخترع دورا صغيرا له فى جولتهم. قابلته بعد العرض، والمدهش أنه تذكرنى، "لم ترجعى قط لتغنى فى الإكلوز، أليس كذلك؟ تساءلت عن السبب ثم تناهى إلىَّ أنك غادرت باريس". جلسنا فى أحد الأركان واسترجعنا الذكريات. مات المعارف القدامى أو تقاعدوا، واصل الآخرون صعودهم فى سماء المسرح بينما هجر آخرون مثل فيليب نواريه (قدَّم فقرة قصيرة فى الإكلوز) المسرح لصالح السينما، وصاروا الآن نجوما عالميين. راحت ا الإكلوز نفسها، فبعد سنوات الكفاح ضد الروك آند رول، أقر بالهزيمة فى نهاية الأمر، "أصبحت الملاهى الآن ديسكوهات وحشدا من عشرة آلاف معتوه". كان متزوجا فى منتهى السعادة، بالممثلة إسبانية المولد ماريا كاساريه، ولكن بعيدا عن المهام الصغيرة كالمهمة الحالية لم يقم بالكثير من الأعمال، اكتفى برعاية رفيقته الرائعة. كانت حياة الاثنين مشحونة للغاية بعلاقات عاصفة وتراجيديا، فهو يهودى فى فرنسا المحتلة، وهى لاجئة أسبانية بعد الحرب الأهلية، وكان زواجهما مرفأ للصداقة وعودة إلى الوطن بعد رحلة طويلة منطوية على الأخطار. أعطانى عنوانه وطلب منى أن أعرج عليهما حين أزور باريس فى المرة التالية، وبعدها تلقيت منه بطاقة بريدية، ولكن وافته المنية بعد فترة قصيرة، ومعه راحت أسطورة الإكلوز التى تحولت الكثير من شرارتها الذهبية إلى نجوم متلألئة، تابعت ماريا كاساريه مسيرتها المهنية النموذجية، وهى واحدة من السيدات العظيمات grand dames فى المسرح الفرنسى.

سرعان ما أصبحت واحدة من تلميذات protégés تانيا، وعشقتها عشقى لأمى، شعرت أن باستطاعتى أن أخبرها بكل شىء، وأن استيعابها

وتسامحها اعتمدا على خبرتها الواسعة ومعاناتها الهائلة. "تعلمين أنها شهدت من قبل مِرارا أيا كان ما تكابدينه من جحيم"، قال جوسلين عنها. تخلت عن أجرتها لأن النقود عازتنى، وكثيرا ما دعتنى لأنضم إليها عندما كانت تذهب هى وبعض تلاميذها الموسرين بعد الدرس إلى مقهى مجاور، فقد علمت أن الطعام مسألة غير منتظمة بالنسبة لى، فى نهاية قائمة أولوياتى.

أحيانا ما يأتى واحد أو اثنان من طلابها القدامى الذين اشتهروا الآن لرؤيتها، وبعدها تتواصل الوجبة المليئة بالنجوم ساعات، تتخللها مناقشات حامية عن العروض الحالية ومواضيع أخرى. تمحورت جل النقاشات حول الفرق بين مزايا نظريات بريخت عن "الغربة"، و"منهج" ستانيسلافسكى الذى اعتمدت عليه تانيا فى تدريسها للطلاب. كان منهجا ناجحا كل النجاح بجلاء، حيث إن عددا كبيرا من أفضل الممثلين على المسرح الفرنسى تدربوا على يديها وأثبتوا قوة تأثيرها. شاهدت تانيا الفرقة البرلينية وأعجبت ببعض ممثليها، وبخاصة زوجة بريخت هيلين ويجيل فى مسرحية **شجاعة الأم** Mather Courage، دور كان من الممكن أن تلعبه هى نفسها، وقد أكدت أنهم كانوا الدليل القوى على أن النظرية لا صلة لها بعمل الممثل المتعلق بخلق شخصية كاملة ذات قصة حياة وجسم وروح. كانت تقول: "إن حقيقة الشخصية تأتى من الداخل، لا من النظرية".

رجعت إلى مقرر تانيا فى الدراما بعد الإجازة الصيفية، وانهمكت كلية فى مسرحيات جديدة بحماسة متجددة، وبعدها أخبرتنى فى أحد

الأيام أنها سوف تقوم بدور بيرناردا فى مسرحية لوركا **منزل بيرناردا البا** The House of Bernarda Alba، وأنها سوف ترتب أن أجرى اختبار أداء فى المسرحية، فكل أدوار المسرحية لنساء، وبها عديد من الأدوار الصغيرة. باحت إلىَّ بأن الأفضل لى أن ألعب دور أديلا ابنة بيرناردا الصغيرة التى تهرب مع حبيبها وتقتل نفسها فى نهاية المسرحية (دور لعبته ذات مرة معها، وكنت أحفظه عن ظهر قلب). المحزن أن لعب هذا الدور كان أمرا بعيد الاحتمال تماما، فقد أخذته ممثلة مقدما، كان زوجها يدفع أموالا لإنتاج المسرحية. أيا كان دورى سوف تكون التجربة مفيدة لى، وسوف أكسب أموالا كافية للعيش لفترة لو نجحت المسرحية واستمرت فترة طويلة.

أحببت أعمال لوركا الحق أنى تعلمت الإسبانية فى وقت لاحق كى أقرأ شعره ـ ومن بين كل مسرحياته تُعتبر **منزل بيرناردا البا** TheHouse of Bernarda Alba المستمدة من قصة حقيقية لأسرة عرفها فى مسقط رأسه غرناطة أكثرها قيمة وبراعة. بالإضافة إلى أن هذه الحكاية كانت لها دوما دلالة خاصة فى نفسى ـ حكاية أرملة مستبدة تحبس بناتها الخمس فى البيت وتحولهن إلى عوانس محبَطات، تبلغ الحكاية ذروتها بلا رحمة فى اتجاه النهاية التراجيدية؛ إذ ذكَّرتنى بعائلة مشابهة عرفتها فى إيران، عدا أن الأب كان هو مستبد العائلة الإيرانية، فقيه جاهل متعصب أظهر حماسته الدينية لرعيته (اعتمد على ما يدفعونه من عشور للعيش) بأن حبس زوجته وبناته الخمس وعاملهن بوحشية.

أدرك الموت زوجته المسكينة فى سن صغيرة، ولكن لا مفر أمام بناتها الخمس، "لا أريد أن أزوج بناتى"، كان يقول لأى رجل يفاتحه بشأن طلب يد واحدة منهن، انتهت الكبرى إلى أن القطار فاتها، فعاونت ثلاثًا من أخواتها الصغيرات على الهرب مع أزواج عثرن عليهم بمساعدة الخاطبات المحليات. المحزن أنهن خرجن من حال سيئ إلى أسوأ؛ إذ أثبت أزواجهن أنهم أردأ من الأب، ولكنهن رزقن على الأقل أطفالا يضمرن لهم الحب، وحصلن على مقدار ما من التحقق المادى. أمًّا أصغر الأخوات، فقد أصيبت بمرض التهاب السحايا وباتت صماء تماما، ولم تثمر أى جهود للعثور لها على رجل. كانت أمى تعرفهن، وقد جاءت العانسان من حين لآخر لزيارتنا، وبخاصة فى المناسبات الدينية، ورغم أن حياتهما تحطمت تحت مسمى الدين، كانتا تقيتين، ولم تلوما أباهما على تدمير آمالهما. الحق أنه صار فى شيخوخته مهذبا محبا، وقد كان رد فعل العانسين أن رعتاه بإخلاص، لم يبغضه إلا الثلاث المتزوجات، وجهن إليه أصابع اللوم لرفض العرسان المحترمين وإجبارهن على زيجات "أقل من مقامهن."اشرحى أهواء القلب البشرى"، كانت عمتى أشراف تتنهد وهى تحكى قصتهن؛ "اللاتى لديهن بيوت وأطفال وأموال يلعنَّ العجوز، والاثنتان اللتان لا تمتلكان شيئا تباركانه." فاتت سنوات، وبعد موته كانت الابنة الصغيرة الصماء تعود قبره عشية كل جمعة كى توزع الصدقة وتدعو لخلاص روحه، "لا شك أنه فى حاجة إلى الخلاص!" كنا نقول عن دعائها.

كانت الشكوى الشائعة بين الممثلات هى أن عددهن فى المهنة يتجاوز كثيرا عدد الرجال، ومع ذلك تضم المسرحيات القديمة أو الحديثة أدوارا نسائية قليلة جدا، وعليه عندما ذاع خبر تعيين الأدوار لمسرحية بيرناردا

Bernarda، قدمت كل باريس طلبات لإجراء اختبار لتحديد الأداء، انغمر المخرج جان-بابتيست ديلور فى توصيات ومحسوبية وتضرع وحالات إجبار رقيقة. تم ترتيب الطلبات وخفضها إلى أربعة أضعاف الأدوار المتاحة، ثم شاهد المخرج والممثلتان الأساسيتان تانيا بالاشوفا وديان بلير المتقدمات.

امتلأت خلفية الكواليس ـ حيث انتظرنا ـ بالممثلات، لم أعرف واحدة منهن. تعلق دخان السجائر فى الهواء، وحل التوتر بالجميع وإن اتسمن بالود، تطوع بعضهن بتعريف أنفسهن، وتمنين النجاح لبعضهن بعضا حين تم نداء أسمائهن. بوسعك أن تسمع أجزاء من حوارات تهب كما النسيم من المسرح يتبعها سكون، قبل أن يُقبل مدير المسرح لإحضار الممثلة التالية. أتذكر أنه جال بخاطرى أن المكان أشبه بمزيج من الماخور والمجزر! لحسن الحظ أنى كنت مع إلينا، زميلة فى الدرس، كان والداها مهاجرين روسيين، وقد كانت هى الأخرى إحدى تلميذات تانيا.

"تخيلى أن تقومى بهذا طيلة حياتك!" قالت، "لذلك أريد أن أنتج مسرحياتى، كى آخذ لنفسى دورا ببساطة إن أردتُه!" وقد غدت بالفعل ممثلة معروفة ومحترمة فى المسرحيات التجريبية.

شلنى الذعر من المسرح، وكنت لأندفع خارجة من المكان لولا أن تفكرت فى خيبة أمل تانيا. جاء دورى فى النهاية، وتتبعت مدير المسرح مثلى مثل الأضحية إلى الخشبة. كانت القاعة فارغة معتمة، وكان بإمكانى تمييز عدة رءوس جالسة على مقاعد تستقر فى شكل ظل

ناقص. ولكى أتخلص من الذعر خلعت حذائى عالى الكعب وانحنيت لأضعه فى أحد الأركان فأظهرت بالصدفة لباسى الداخلى، ضج "الجمهور" بالضحك، مما خفف التوتر. "هيا ابدئى". قال صوت أحد الرجال، وبرجلين ترتعشان وقلب خافق قمت "بدورى الصغير". المواجهة الليلية بين أديلا، ابنة بيرناردا الصغيرة المتمردة، وأختها الغيور المعاقة.

"شكرا، التالية". قال نفس الصوت من الأوركسترا، فانتهت محنتى. ألَّم القلق بجميع المنتظرات فى غرفة الانتظار، ولاحت الابتسامات على وجوههن، وعندما انتهت آخر المتقدمات لاختبار الأداء، ظهر المخرج قائلا: "أنت، أنت، أنت..." وأشار إلى القلة المختارة، "آسف للباقيات، حظا طيبا فى المرة القادمة!" المذهل أنه اختارنى، واحدة ضمن ثلاثٍ من بين عشرات المتقدمات. اعترتنى فى البداية نشوة هائلة للتجربة الوهمية القادمة، لوقوفى على المسرح الباريسى وجنى النقود، ارتحت لتمكنى من تأجيل القرار، أعود إلى بلدى أم لا؟ برهة من الوقت، ثم اكتنفنى شعور بالذنب لرفض كل الموجودات، كلهن أفضل وأكثر خبرة منى.

كنت سألعب دور الخادمة الشابة التى أغراها زوج بيرناردا الميت وتركها بطفل، وفى نفس الوقت سوف أدرس دور أديلا والأختين الصغيرتين من الأخوات الأربع كى أحل محلهما إن اقتضى الأمر. سرت تانيا بى، فاثنتان من تلميذاتها فقط انتهتا إلى طقم العمل.

فى اليوم الأول من البروفات التقى الجميع بالآخرين، وعامل الناس بعضهم بعضا بكل لطف، وما تنامت الأحقاد إلا بعد مضى فترة ، ضد السيدة البطلة الأولى، ديان بلير، من خلف ظهرها. كان مخرج سينمائى قد اختارها وهى مراهقة، وكانت بطلة لفيلم بات منذ وقتها كلاسيكيا

صغيرا، كانت قد تزوجت برجل صناعة غنى، ورزقت منه بطفلين، وقد عاشوا فى شقة فاخرة فى شارع الشانزلزيه، مع خادمات يلبسن مرايل منشية وسائق خصوصى ومربية أطفال إنجليزية. يا لاختلافها عنا، نحن المنتميات إلى درجات متنوعة من البوهيمية، عشنا فى بيوت مؤقتة تراوحت بين فندق تانيا الصغير وشقق ضيقة فى الضفة اليسرى.

كانت ديان بلير طويلة القامة شقراء الشعر رشيقة الهيئة أنيقة الزى، تحدثت بصوت واضح وحسبت كلماتها بدقة. لا شىء فيها بدائى أو انفعالى أو أندلسى، وقد كان خطأ كبيرا أن يعهدوا إليها بدور أديلا، الحق أنها كانت فى المسرحية الخاطئة كلية، ولكنها تاقت إلى لعب الدور، وقد جعله زوجها شرطا للدعم المادى. كافح المخرج لإيجاد موارد بديلة ولكنه أخفق، وبدلا من أن ينبذ المشروع قرر أن يفعلها ويبذل قصارى جهده؛ لجعل ديان ملائمة فى دور أديلا. ولكنها ظلت دخيلة، ولا بد أنها لاحظت أن هناك شيئا مزيفا سمجا فى لطف الزميلات المتيبس. نجحت المسرحية غير أنها لم تستمتع بالتجربة. قاطعت تانيا ذات مرة تيار المعارضة بقولها "لا تقسوا عليها! وتذكرن أن الفضل يرجع إليها وحدها أننا نمثل".

إن المسرح عالم مغلق، ترتمى الليلة تلو الليلة مع مجموعة من الناس فى مساحة محدودة، وتُرغم على التواصل معهم. عندما يسود التناغم تصبح الفرقة عائلة داعمة محبة، أفضل من أغلب العائلات فى "الحياة الواقعية"، وإن لم يحدث ذلك تستحيل حياة ما وراء الكواليس إلى كارثة تعيسة. كنت أصغر ممثلة وأقل طاقم العمل خبرة، وقد تفرجت من

الخارج تحت حماية تانيا، هذا غير أننى أعجبت بديان. كانت طيبة معى ومشجعة لى، وقد دعتنى مرة أو مرتين إلى بيتها، ما مانعت أن ألعب دورا اشتهيته، دورا كنت "طبيعية" فيه، وإن وددت أحيانا أن تصاب ببرد أو تختفى أمسيتين فقط لا غير لتسمح لى بإمتاع نفسى بلعب دور أديلا. لم تختف قط، على العكس، دائما ما كانت تصل إلى المسرح قبل الجميع، تغلق باب غرفة تغيير الملابس كى ترتدى ملابسها وتضع مستحضرات التجميل و"تعد" نفسها.

تأخرت ديان مرة واحدة فقط، أجلنا العرض لمدة عشر دقائق، وعندها طلب منى المخرج المذعور أن أحلَّ محلها، تولتنى سعادة طاغية، كنت أحلم بالفعل بتقارير موجزة جميلة فى جرائد اليوم التالى، فلا شك أن الجمهور سوف يضم أحد النقاد البارزين! ولكن ديان أتت مندفعة مع رفع ستارة المسرح، لاهثة ومتوردة الخدين؛ وقعت حادثة وسدوا الطريق، وعليه تأخرت.

تعلمتُ فى خلال هذه الأسابيع الأربعة من البروفات ما يزيد على ما تعلمته فى عدة أشهر فى مقرر الدراما، فقد وجهتنا تانيا والسيد ديلور؛ إذ شرحا وحللا وعرضا وكررا، حتى وُلدت كل شخصية وكبرت واكتسبت وجودا مستقلا أصيلا. لاحقتك شخصيتك فى كل مكان مثل الظل، وزارتك فى أحلامك، تمكنت تانيا من أن تُخرج ملامح كانت مجهولة حتى يومها فى دورها، وخلعت عليها صفات البشر فى النهاية بإنزال سيول من الدموع (عندما قتلت أديلا نفسها) بيرناردا الرهيبة صاحبة قلب من الحجر التى استبدت بمنزلها واستعبدت المتكلين عليها، أفسحت لنفسها سيطرة عاطفية غير منقوصة، واستطاعت أن تستدعى بإرادتها

دموعا مريرة حقيقية من أعماق نفسها. يمكنك أن تبصر فى تلك اللحظات أن بهجتها المعتادة غطت ذخيرة عميقة من الأسى، استحضرتها لصالح الدور.

فى نهاية الأسابيع الأربعة تم افتتاح المسرحية، وتلقت مراجعات نقدية تعج بالإطراء، وامتد عرضها ستة أشهر. أدركت مثل بقية طاقم العمل مدى ما حالفنا من حظ، كى نصير جزءا من مسرحية ناجحة فى أفضل مسرح بالمدينة، فسوف تفتح تلك الفرصة أبوابا أخرى. شعرت بالأخص بحسن الحظ لقبولى ممثلةً محترفةً بعد شهور قليلة من التدريب، على حين ذبل العديد من الممثلات الأخريات الأكثر خبرة فترات طويلة من "الراحة"، ولا سيما أن كون المرء أجنبيا فى تلك الأيام كان عقبة هائلة، وأقل أثر للهجة الأجنبية أقصى أى دخول إلى المسرح السائد. تلذذت بما تلقيته من تعابير الإعجاب والحب من الأصدقاء والغرباء، زيارات النجوم الذين أقبلوا خلف الكواليس لرؤية تانيا وقدَّموا التهانى بكل كياسة إلىَّ أنا الأخرى، وراقنى أسلوب الحياة (فقد كنت بطبعى طائرا ليليا)، الذهاب إلى المطاعم والمقاهى بعد العرض مع الأصدقاء، وعدم التفكير لحظة فى المستقبل، ولكنى كنت واعية دوما أنى انضممت إلى المسرحية بالحظ، راحة محظوظة من القلق والجوع واتخاذ القرارات.

ومن بين الأصدقاء العديدين الجدد الذين صادقتهم بين الممثلين والكُتاب ظل معى بعضهم حتى الآن، وفقدت الاتصال بآخرين، ومات آخرون، صغارا وكبارا. اختلفوا جميعا عمن عرفتهم فى السابق من مفكرين وفنانين، امتاز بعضهم بذكاء يفوق الآخرين، غير أنهم لم يتمتعوا بالتركيز الكافى؛ إذ جمعوا بين الهشاشة والمقاومة، واتسموا بالحساسية،

وتواصلوا أكثر ما تواصلوا مع غرائزهم. عزفوا فى الأغلب عن الانهماك فى السياسة، وإن مالوا إلى اليسار مثل الجميع فى تلك الأيام، ونزعوا إلى العيش داخل إطار مهنة وفر عالمها المغلق لهم تنوعا ومتعة لا حد لها. ولأن المهنة غاية فى الصعوبة وحياة الممثل متقلقلة، غلب عليهم التطير فى أغلب الأحوال. مالوا إلى الإيمان بعلم التنجيم وقراءة الكف وقراءة البخت، وعليه ذكرونى بأقربائى الإيرانيين.

قضيت فترة مع مسرحية بيرناردا Bernarda قبل أن أبدأ البحث عن شقة، فقد كان يجب أن أغادر المدينة الجامعية، لم يعد من الممكن أن يعتبرونى طالبة، وكانت أخرى فى حاجة إلى غرفتى فى "منزل الولايات المتحدة"، وإن اقترح المدير بكرمه أن أمكث هناك حتى أجد بديلا مريحا. كان العيش هناك دوما غير ملائم على نحو ما، لاستقلال آخر مترو إلى البيت كان علىَّ أن أنصرف بعد العرض بدلا من التريث مع الأصدقاء وتناول وجبة فى سان جيرمان دو برى إلا إذا توافر صديق لديه سيارة. أردت غرفة خاصة بى فى منطقة كارتييه، ميل مريع بين نهر السين ومنطقة مونبارناس التى ظلت حتى هذا اليوم باريس الخاصة بى. كانت الفنادق غالية الثمن، الحق أن بريفير أعلن ذات يوم أن "الفقراء وحدهم هم الذين كانوا يقيمون بالفنادق فى الأيام الخوالى، والآن لا بد أن يكون المرء غنيا!" كان قد قطع معظم سنوات حياته الأولى فى فنادق حقيرة.

وجدت بالفعل فى النهاية شقة استوديو فى شارع جاى-لوساك، وقد أحدثت فرقا أى فرق فى حياتى.

٢٤ ـ الشاعر والغجرى

نعلم جيدا أننا ملعونون
إلا أن أمل الحب فى الطريق
يجعلنا نفكر معا
فيما تنبأت به الغجرية

جيُوم أبولينير

كانت العطلات الصيفية بالنسبة للطلاب الأجانب جزءا من تعليمهم ودراستهم، رجع البعض إلى أوطانهم عندما استطاعوا، لبث آخرون فى باريس. وبحلول منتصف الستينيات ازدهرت إيران بما يكفى لأن تمنح شركة الطيران القومية الطلبة الإيرانيين تخفيضات كبيرة كى يعودوا إلى وطنهم، ولكن لبثنا جميعا فى أوروبا فى تلك الأيام، وارتحلنا أو تولينا وظائف فى العطلة، قطف الفاكهة وجنى البطاطس، وعليه لم نر عائلاتنا وانفصلنا أكثر فأكثر عن جذورنا .

كان أغلب الطلاب قد غادروا باريس فى نهاية يونية، وخلت منطقة كارتييه من الناس، ولكن وقعت هجرة العطلة الكبرى فى أغسطس، وأقفرت المدينة بسيارات أقل وضوضاء أقل. هام السياح فى المركز

التجارى من المدينة وزاروا المعالم السياحية قبل أن يهرعوا إلى الجنوب المشمس.

"فرنسا أجمل مدينة فى العالم". قال الفرنسيون، وقضى أغلبهم العطلات فى البلد، والواقع أن شاطئ الريفييرا على البحر الأبيض المتوسط، وساحلها الأطلنطى، وبحيرات الألب، وسلسلة جبال بيرينيز، خدمت كل الأذواق، وما جازف بالسفر إلى الخارج إلا المغامرون والرومانسيون. ولكن مع تطور المجتمع الأوروبى والاتصالات الأفضل زاد عدد الأسر الفرنسية التى قضت إجازاتها فى الخارج زيادة مفاجئة، حتى ساوى عدد سياح الدول الأوروبية الأخرى فى نهاية العقد.

ربما كانت نقطة التحول هى حفلة تتويج الملكة إليزابيث الثانية فى عام ١٩٥٣، تفرجت عليها فرنسا بأكملها فى التلفزيون، وقد استهلت الحفلة عصر البث الأوروبى. تبعت ذلك أحداث مماثلة - حفلات زفاف ملكية وحفلات تتويج بابوية وجنازات مهيبة - ومن خلالها اكتشف المواطن الفرنسى العادى "العالم الخارجى".

قضيت الصيف الأول بعيدا عن بيتى فى منتصف الخمسينيات فى ألمانيا، حيث كان أخى الأكبر دبلوماسيا، رافق صديقة ألمانية تدعى آنجيلا، كان أبوها رجل صناعة كبيرا فى الرايخ الثالث. احتاج النازيون إلى خدماته فقرروا التغاضى عن اختياره "غير الملائم" لزوجة غير آرية، وعليه كانت أمها اليهودية "ميتة رسميا" إبان الحرب، مختفية "فى مكان ما"، لتبزغ فقط وقت السِّلم. ساور آنجيلا الألم عندما تحدثت عن تجارب الحرب أثناء الطفولة، ولكن يسعنى أن أخمن معاناتها من خلال

جوانب من حواراتها وإشاراتها الضمنية. سافرنا معا فى أنحاء ألمانيا، عبر منطقة الغابة السوداء، وزرنا العديد من الأماكن الجميلة. أعيد تشييد الكثير من المبانى بالفعل فى العقد التالى للحرب، حتى إن مدنا كاملة مثل دوسلدورف وفرانكفورت لاحت جديدة تماما، ومع ذلك دلت الهياكل المحترقة للمبانى والحفر الشبيهة بالقمر فى مواقع القصف وساحات الدبش هنا وهناك على وجود دمار سابق.

بقيت الغابات والتلال والبحيرات وحدها لا شائبة تشوبها، كنا نقود السيارة فى الطرق الريفية لنتوقف عند مطعم إلى جانب إحدى البحيرات لتناول الغذاء، فى موقع لا يختلف عن الفردوس، مياه شفافة زرقاء مخضرة، تعترضها نقاط هى المراكب المبحرة والتلال الخضراء والأكواخ، لا يشق الصمت إلا الصياح المباغت لطائر الماء الوحيد. وفى المطاعم جلس ألمان وقورون كبار فى السن وحدهم أو فى أزواج، التهموا وجباتهم فى هدوء وهم يحملقون بأعين حالمة فى البحيرة، تساءلت عن عدد مَن فُقدوا من أبناء وبنات وأصدقاء فى الحرب، ولم السبب؟

دعتنى صديقتى ميشيل فى الصيف التالى لقضاء أسبوعين مع والديها فى بيتهما بجبال بيرينيز، قابلتنى هى وأمها فى المحطة فى مدينة بيريينيو، وقدنا السيارة عبر حقول وكروم منحدرة باعتدال إلى منزلهما، مبنى قديم من الحجر مقحم فى طيات التلال، نصف مختفٍ عن الأنظار بأشجار الحور والصفصاف الطويلة. تمعج جدول عبر الوادى، وعبره أفضى جسر خشبى صغير مقوس إلى المنزل، ذكرنى ببيتنا الريفى فى إيران انطباع تعزز بالمكان من الداخل. كان أبو ميشيل مديرا

استعماريا، وقد جلب والداها من مواقعهما المختلفة السجاجيد والزهريات والخزانات والسُتُر والقطع الفنية، وقد أثثوا بها منزلهم. كانت غرفتى الصغيرة فى الطابق العلوى، مزينة بستار إيرانى يصور لقاء يوسف بزليخة، ومشكاة صينية وسرير بأربعة أعمدة من منطقة بروفونس ومرايا فرنسية، قطع متغايرة تساوقت كى تصنع وحدة مريحة. أطلت نافذتى على بساتين فاكهة وحقول خضراوات، انحدرت صاعدة التل خلف المنزل، لا وجود لمبنى آخر حولى، ولا صوت خلا هفيف الأشجار وأغانى الطيور وأزيز الجداجد.

كان أبو ميشيل، السيد جييمان، فى عقده السابع إلا أنه لم يزل طويلا كله نشاط، أنفق معظم ساعات النهار فى الخارج متفحصا أجزاء مختلفة من عزبته ومتحدثا إلى العمال. كنا نمر به فى سيرنا، يجلس على كرسى ويجيل ناظريه فى المشهد وهو مستغرق فى التفكير، كان موقعه الأخير هو شبه جزيرة إندوشينا، وقد تقاعد "قبيل حدوث الفوضى". كان قد "توقعها" منذ سنوات، وقد حذر المكتب الاستعمارى الفرنسى، غير أن أحدا لم يعره انتباها، ربما كان الآن صموتًا لهذا السبب، حتى إنه تبادل بالكاد المجاملات أثناء الوجبات. وعلى العكس كانت زوجته ثرثارة، كانت قليلة الحجم، ريانة الجسم، مفعمة بالحيوية، بملامح متناسقة وشعر أحمر وبشرة طالها النمش. كانت كاثوليكية ملتزمة، تتناقش بلسان متحمس حول السياسة والدين والأدب، بل والزراعة.

قضينا أيامنا نتمشى فى التلال، نقتلع البطاطس، ونقطف الفول، ونعوم فى النهر ظهرا. ارتفعت المياه فى الشتاء واقتحمت الشواطئ لتغمر

الحقول، ولكنها فى الصيف تجاوزت أحجارا بيضاء أو كونت بحيرات ضحلة فى الفجوات. كان مكانا مثاليا لتعلم السباحة، وقد علمتنى أم ميشيل كيف أطفو مع التيار وأحس بقدرة الماء على تعويمى، مما مكننى من التغلب على خوفى.

قدنا السيارة يوم الأحد مسافة ثلاثة أميال تقريبا إلى كنيسة القرية لحضور القداس، وهناك امتلك والدا ميشيل - كبيرا القرية - مقعدين خاصين يثبت عليهما أسماهما على لوحتين من النحاس مثبتتين فى الظهر. انتابتنى الحيرة لمثل هذا الرمز المعبر عن التقسيم الطبقى فى بيت الرب، وقد فتحنا نقاشا محتدما حول الأمر بعدها فى أثناء وجبة الغذاء. ومثل العديد من النقاشات لم تفض إلى أية نتيجة، غير أن السيدة جييمان قررت أنى ملغزة، ولم أفهم شيئا عن الجانب الدنيوى للدين ودوره فى المؤسسة الاجتماعية، ولكننى سوف "أرى النور" فى يوم ما.

كانت ذروة الإثارة فى العطلة المهرجان الموسيقى فى بلدة برادى، بلدة صغيرة قريبة. استمر المهرجان أربع ليالٍ، وقد نُظم حول عازف التشيلو الإسبانى المغترب بابلو كاسالس، أشهر سكان المنطقة. أتى عازفو آلات مشهورون وفرق موسيقية صغيرة من كل أنحاء العالم، وبيعت التذاكر قبل الحفل بشهور، بيد أن السيدة جييمان حصلت على بعضها لحضور أمسية كان كاسالس يعزف فيها ثلاثيات تشيلو لباخ.

كانت القاعة الصغيرة فى الهواء الطلق ممتلئة بالفعل حين وصلنا، علا صوت الحشد وهم يتحدثون بلغات مختلطة وينبضون بالترقب. عدا

مقعد وحيد فى المنتصف كانت خشبة المسرح خالية، التفتت كل الأعين بغتة نحو المقدمة، وانفجر التصفيق بينما سار رجل عجوز قصير بخُطى متثاقلة وهو يحمل تشيلو. انحنى برقة وجلس على كرسيه ثم ضبط آلته، انطلقت على الفور النغمات المبدئية للحن رقم واحد، وبعدها سمعنا سلما من الموسيقى يتصاعد مباشرة إلى السماء. خبا ضوء الشفق، وارتفع قمر صغير وظهرت النجوم فى السماء الزرقاء وكأنها جاءت هى الأخرى لتسمع، وعندما اقترب اللحن رقم ٦ من نهايته عدنا إلى الأرض وهتفنا باسم كاسالس! رجع ليعيد العزف عدة مرات، وعلى كره منا تفرقنا فى الليل ورجعنا إلى بيوتنا.

عندى تسجيلات سجلها كاسالس لثلاثيات تشيلو من تأليف باخ، وعندما أرى صورته على غلاف طقم الأسطوانات أجدها كما أتذكرها تماما فى تلك الليلة، عيناه مختفيتان وراء نظارة سميكة، تعبير هادئ، جسمه متحد مع آلته، رسول متواضع من عند الآلهة.

قصدت فى صيف آخر فلورنسا. كان البنسيون Pensione الصغير الذى نزلت به شقة من ثلاث غرف يمتلكه زوجان شابان معهما طفلان، طفل يدرج وآخر رضيع كان دوما بين ذارعى أمه مهما كانت تفعل، متى أنزلته صرخ بكرب ما بعده كرب حتى أنها كانت تحمله مرة ثانية على الفور. ولكنه حقا لم يمانع من يحمله، لأنى كنت أحيانا أحمله لأريح أمه، ويبدى نفس الرضا. بدا صاحبا المنزل زوجين سعيدين غاية فى السعادة، فقد تبادلا الضحكات والحوارات باستمرار، ووردت إلىَّ أصوات الغرام عبر الحاجز الرفيع بين غرفة نومهم وغرفة نومى، ومع ذلك كانت تقوم

بكل العمل. كانت تستيقظ فى الصباح الباكر وتنظف وتتسوق وتطبخ، على حين يستلقى زوجها على أريكة فى غرفة المعيشة، كان يفتح الأبواب والنوافذ استجلابا للهواء، ويقرأ الجرائد أو ينعس. كان يجلس ويقول: صباح الخير يا آنسة "بون جورنو سينيورينا "Buon girno, signorina, حين أمر به، ولا يمسك عن الشكوى من كمية العمل الكثيرة وصعوبة الحياة: "الحياة صعبة! العمل! عمل كثير!" La vita à difficile! .Laborare! Molto labarare!

وفى خلال أسبوعين تفرجت على فلورنسا قدر ما استطعت، سرت فى كل مكان والخريطة فى يدى، وحدى أو مع طلبة آخرين قابلتهم، ذهبت إلى الكنائس والمتاحف والصالات الفنية والقصور، مزارات سوف أعودها المرة تلو المرة فى رحلات تالية فى غضون السنوات. يجد كل زائر فى فلورنسا رفيقه الروحى من بين فنانى العصر الماضى، وقد كان رفيقى هو فرا أنجليكو، قضيت ساعات فى دير سان مارك متطلعة فى صوره ، وهكذا كنت أفعل كلما أزور فلورنسا، بدت العذارى والملائكة والرضع فى صوره حية، على استعداد للخروج والانضمام إلى وليمة من الأمل والبهجة.

مضيت فى الصيف السابق على رحيلى من باريس لقضاء أسبوعين مع سيمون ـ زميلة طالبة فى منهج تانيا للدراما ـ فى بيتها بالقرب من مدينة مونبيلييه. قررنا أن نتوقف عند مدينة أفينيو حيث أقام المسرح الشعبى القومى مهرجانا سنويا كان أكثر الأحداث المسرحية مقاما طيلة السنة، ووفد إليه المعجبون من كل أنحاء العالم لحضور العروض المقامة

على مسرح "قصر البابوات"Palais de papes، اسم أطلق عليه لأنه كان مقر البابا لفترة قصيرة فى العصور الوسطى. أضاءت الجدران العالية والأسوار الواقية للقصر مؤلفة ستارة خلفية مذهلة لمسرح، لولاها لظل بلا زينة، وأُسست قاعة فى الهواء الطلق فى الفناء الخارجى. كان موقعا فخيما يليق بمسرحيات كلاسيكية اشتهرت بها مدينة أفينيو. وفى خلال المهرجان الذى يستمر شهرا تتحول البلدة الريفية إلى أرضٍ للمعارض، يزداد عدد المقيمين فى البلدة عشرة أضعاف، وتتحول المنازل إلى بنسيونات Pensions كى تستوعب تدفق الفنانين والسياح، وتفيض المطاعم والمقاهى بالزبائن فيجلسون على الأرصفة، وتنجز محال التذكارات عمل السنة. عندما تسير فى الميدان الرئيسى فى اتجاه القصر يمكنك أن تصادف جيرار فيليب أو ماريا كاساريه أو جان فيلا، نجوم تلمحهم فى الغالب عبر الشق الفاصل بين المسرح والقاعة، الفاصل بين "الوهم" و"الواقع".

التقت سيمون بواحد من نجوم المسرح الشعبى القومى فى وقت سابق من الصيف، حينها أجرت تجربة أداء لدور جولى فى مسرحية راسين بريتانيكوس. لم تأخذ الدور، ولكن ممثلا شهيرا فى طاقم العمل أطرى عليها ثم دعاها إلى العشاء لتبادل المزيد من الأحاديث "عن مسيرتها المهنية" ثم بدأت بعدها علاقة غرامية بينهما. كان حبها الأول، وقد وقعت فى غرامه وتوجهت بحبه مصدقة أنه قدَّر "استسلامها" وبادلها الشعور، وأنه سوف يطلب منها الزواج فى أى يوم. نسجت حلما لحياة طويلة مكللة بالسعادة معه فى المسرح، يعملان معا، ربما يؤسسان يوما فرقتهما المسرحية الخاصة، ويصبحان زوجين أسطوريين فى الوسط

المسرحى، وفى غضون ذلك سوف تفاجئه بالحضور إلى مدينة أفينيو، ولا مراء أنه يرحب بها فى فندقه الفخم.

ما تساءلت قط عما يدفع رجلا ـ يَكبرها بعشرين عاما ولم يتزوج قط ومشهور بمآثره الغرامية ـ إلى تغيير حياته، ولكن كل أنثى ضحية "أعراض دون جوان" اعتقدت أنها سوف تكون الأخيرة، المرأة التى سوف "تغيره!" صحيح أن المغوى أحيانا ما يقع فى شباكه، ولكنه شىء نادر، ولا يمكن توقعه أبدا، إلا أن الحب ليس شعورا معقولا: "أن تَعرف أن الأمر قد انتهى، وأنت لا تزال تتمسك به". كان تعريف كافكا للحب، وإن لم تعهد هذه التجربة، فأنت محظوظ بالفعل. اعتقدت سيمون أن حبيبها سوف يستجيب إلى إخلاصها وبراءتها، وأن "الأخريات" كن غير مستحقات له.

على أى حال، كان علينا أولا أن نذهب إلى مدينة أفينيو، امتلكنا القليل من النقود، وتولانى القلق من التطفل لركوب السيارات مجانا. لحسن الحظ أن تاجر سجاد إيرانى يقيم فى ألمانيا كان متجها إلى الجنوب لشراء فيلا، ومن خلال أخى عرض توصيلنا فى سيارته المرسيدس الضخمة.

تمكنت فى أفينيو من العثور على غرفة صغيرة فى العلية فى بنسيون Pension مؤقت بشارع متفرع من الميدان الرئيسى، بينما خططت سيمون أن تنضم إلى حبيبها. أرسلت إليه رسالة غرامية تعلن وصولها ومكانها ثم انتظرنا وصوله الأكيد بباقة زهور، وبدلا منها وصلتنا رسالة من صاحبة المنزل قال فيها إنه مع "خطيبته" ولا يسعه أن يقابل سيمون، وتمنى لها إقامة سعيدة ووضع تذكرتين لحضور عرض المساء بريتانيكوس Britannicus.

لم يكن من الممكن بث أى عزاء فى نفس سيمون، رأيتها تقبض على معدتها وكأنه طعنها، حاق الأسى بوجهها الجميل، توسلت عيناها أن ينقذهما أحد، انتحبت وانتحبت... كان صديقنا جوسلين يلعب دورا فى مسرحية هاملت Hamlet، اتصلتُ به كى يأتى ويساعدنى على العناية بسيمون. حضر فى خلال دقائق: "ولكن الجميع يعلمون طريقته مع النساء". باح إلى سيمون. "ماذا جعلك تعتقدين أنه سيسلك سلوكا مختلفا معك؟ إنها ليست خطيبته! أعرف الفتاة، عارضة أزياء مزعومة تبحث عن فرصة فى عالم السينما، وقد صاحبها فقط من أجل الأسبوع الذى سوف يقضيه هنا. يستحق كلاهما الآخر، لقد نامت مع كل شخص فى كل الفرق". استغرق الأمر يومين حتى هدأت سيمون، أعتقد أنها لم تشف من الصدمة تماما، باتت منذ حينها شكاكة ونزعت إلى السخرية ورافقت العديد من الرجال، "لا بد أن تهجريهم قبل أن يهجروك". كانت تقول، تزوجت فى النهاية بدبلوماسى مغربى، مسلم ملتزم، عاملها بإخلاص واحترام. ارتحلا بين بلاد العالم مثلما فعلت، وفقدت الاتصال بها، ولكن لا زلت أتذكر المشهد المروع فى غرفة البنسيون الصغيرة.

ما وطئت قدما سيمون خارج المنزل خشية أن ترى الرجل الذى نبذها بكل قسوة، شعرت صاحبة المنزل بالشفقة عليها، وأعطتنى حشية لأنام على الأرضية على حين منحت سيمون السرير، فلم يكن هناك بوصة من الفراغ فى البلدة. مضيت لمشاهدة جوسلين وهو يلعب دور ليرتز فى مسرحية هاملت بكل الطاقة والالتزام العاطفى لممثل شاب فى دوره المهم الأول. كان حبيب سيمون رائعا فى بريتانيكوس فى الليلة التالية، كان مسرح "قصر البابوات" منيرا من كل الجوانب فى ترتيب دقيق للضوء والظل، كانت خشبة المسرح شاغرة عدا عرشًا واحدًا فى المنتصف، غير

أن الأزياء الفخمة تلألأت فى ضوء المسرح، لم تلعب سيمون مطلقا دور جولى العفيفة، وتخلت فى النهاية عن المسرح.

أخذنا القطار من أفينيو إلى مونبيلييه حيث قابلنا والدَى سيمون فى المحطة، وقادانا إلى البيت فى سيارة أجرة. عاشا فى بيت متواضع فى الجانب المزدحم القديم من البلدة، شبكة من الشوارع الضيقة والمبانى القديمة تعج بالأطفال والأكشاك مما ذكرنى بالشرق الأوسط. لم تكن هناك غرفة لأقيم فيها إقامة مريحة، لذا أقمت فى منزل أصدقاء لهم كانوا مسافرين أثناء العطلة، فى شارع خلفى بعد أحد المنعطفات، كانت سيمون ترافقنى، وكنا نقصد منزل والديها لتناول الوجبات.

كانت الابنة الوحيدة لوالديها وقرة أعينهما، كان أبوها ضئيل الحجم، نحيل الجسم، أصلع الرأس، بعينين دامعتين ترتديان نظارة، وتعبير يشى بالكرم، وكانت أمها ريانة الجسم، بوجه مستدير وصوت عال. كان الاثنان عاديين، وقد اعتبراها معجزة أن يرزقا بابنة بهذا القدر من الجمال مثل لوحة بوتيتشيلى بريمافيرا Primaverar شعر أشقر ثقيل طويل متموج، وعينان خضراوان واسعتان، وبشرة عاجية، ومزاج مبتهج حين كان قلبها غير مكسور. كان أبو سيمون فى شبابه عازف كمان فى الفرقة الموسيقية المحلية، ولكنه أصيب بعد فترة بمرض الصرع وأُرغم على التخلى عن العزف. كسب معاشه بالعمل ضابط أوتار للبيانو، وأحيانا كان يعزف بهدف المتعة. وبعد إصرار من جانبى أخرج الكمان فى إحدى الأمسيات وبدأ يعزف عليه مقطوعة "سريناد" لشوبرت كما أتذكر. أغلق عينيه وعزف بقلبه، ورغم أنه كان من الواضح أنه فى حاجة إلى تدريب، كانت

نغماته جميلة ولمسته واثقة. طلبنا المزيد فعزف لنا جميعا طيلة الأمسية، قطعا ميلودرامية من الذخيرة الرومانتيكية لاءمت مزاجنا.

كانت أم سيمون تصلح الملابس كى تعاون ماديا وتنفق على ابنتها، وهى تَدرس الدراما فى باريس، مقتنعة أنها سوف تصبح ممثلة ناجحة ونجمة سينما فى خلال سنة. ونظرا لظروفهم أخذت معى هدايا مفيدة وأصررت على المساهمة فى تنظيف المنزل.

ذهبت أنا وسيمون فى الأيام التالية لوصولنا لنتمشى طويلا فى البلدة، زرنا المعالم السياحية ، وجلسنا تحت الأشجار فى المتنزهات، وقرأنا الشعر. كانت سيمون تتحدث الإيطالية جيدا، وتلت فقرات طويلة من الفردوس Paradiso لدانتى، بينما ترجمت لها قصائد من حافظ والخيام وألقيت عليها بودلير.

ضمت مدينة مونبيلييه عددا هائلا من الغجريات عشن عند طرف البلدة فى معسكرات وبيوت متنقلة وبيوت مؤقتة، عمل رجالهن فصليا فى المزارع ومواقع البناء، بينما تولت نساؤهن مهنا حقيرة واشتغلن فى المصانع. تعرفت عليهن فى الشوارع من مظهرهن، بشرة غامقة، وشعر مجعد، وأجساد نحيلة قوية، ولكنات واضحة. قيل إنهم بدائيون حادُّو الطباع، ينزعون إلى الجرائم الصغيرة والعنف. يمكنك أن تبصر نساءهن، يلبسن تنورات طويلة واسعة وأوشحة ملونة، يبعن باقات الورد أو يعرضن على السابلة قراءة الكف فى مناطق التسوق. كانت أم سيمون تعرف بعضهن، ولكنها حسبته من الحكمة أن تبتعد عنهن، فقد اتسمن بالمراوغة والقدرة على إلقاء التعاويذ الشريرة لو شعرن بإحباط خططهن. عُرف

أن بعضهن قتلن غريماتهن فى الحب بأعمال السحر، بينما اعتقد الناس أن رجالهن لا يمكن الاعتماد عليهم، وتتعدد علاقاتهم النسائية. كانت الغجريات من كل أنحاء أوروبا يقمن برحلة مقدسة مرة فى السنة إلى ضريح قديسهن فى سان مارى دو لا مير فى الجنوب. كان هذا التجمع السنوى مناسبة لإقامة المهرجانات والتجارة والاتحادات، وقد رجعت أعداد كبيرة منهن بالمواد المادية إلى جانب الكسب الروحى.

جذبتنى الغجريات وأسلوب حياتهن الذى ذكرنى بالبدو فى إيران، ووددِّتُ أن أراهن فى حيِّهن. خامرنى أنا وسيمون الفضول بقراءتهن للبخت التى كانت أمها تعرفها، وقد كان من المفترض أنها دقيقة دقة غير معهودة. ما آمنت بالتنبؤات إلا أن سيمون آمنت بها، ولكى تثبت وجهة نظرها أقنعت أمها بأن تأخذنا لنقابل العجوز الشمطاء.

عجَّت منطقة الغجر على حدود البلدة بالأكواخ والبيوت المتنقلة والسيارات القديمة الصدئة، واعترضتها حبال الغسيل. ما طابق فكرتنا الرومانسية عن الغجر كأطفال الآلهة يعيشون على هبتها إلا القليل من العربات العتيقة. لعب الأطفال فى المساحات المغبرة بين المركبات والأكواخ ونقر الدجاج، وطارد الكلاب والقطط بعضهم بعضًا، تمايلت حبال الغسيل مع نسيم المساء وسطعت أنوار اللمبات من الأسلاك، توهجت هنا وهناك نيران المعسكر رغم حرارة الصيف، تعلوها القدور والغلايات القصدير، وفاحت رائحة الطهى فى الهواء، وعند اقترابنا أرسلت الكلاب نباحها وجرت نحونا إلا أن أصحابها كبحوها، بينما هرع الأطفال ليلقوا علينا نظرات متفحصة ويلمسوا ملابسنا ويطلبوا الحلوى. حيا المعارف أم

سيمون بالعناق الدافئ، ورحبن بنا ثم أرشدننا إلى مارى العجوز، اسم قارئة البخت. أخرجن الكراسى وجلسنا على بعد من النيران، حلت الظلمة وغاب القمر عن الليل، وما تبدى إلا الوهج الوردى لأنوار المدينة فى الأفق. اتسعت دائرتنا بالتدريج عندما أتى الآخرون للانضمام إلينا ـ ومن بينهم الرجال ـ ولكن لا بد من معاملة العجوز مارى بلباقة لكى "تدخل فى المزاج" قبل أن تعرض قراءة كفك. كان وجهها غاية فى الاتساع والتجعد حتى إنها بدت فى سن المائة، وعندما ابتسمت لاحت أسنانها طقما من الجدع السوداء تعترضها الفجوات، ثمة سن قاطعة واحدة فقط سليمة بصورة أشبه بالمعجزة، تلمع كقطعة من العاج. كانت ترتدى شالا أسود وسترة بيضاء دستها فى تنورة سوداء فضفاضة، وبدت كطير جارح هائل الحجم يجمع بين الأبيض والأسود.

ظهر جيتار من مكان ما، وأخذ شاب يعزف ويغنى، وبعدها التقطتُه وغنيت أغنية، وعندئذ طلبوا منها غيرها وغيرها... وفى النهاية طلبت أم سيمون من العجوز مارى أن تتطلع إلى كف ابنتها وكفى. أخذت كف سيمون وأمعنت فيه النظر ثم أخبرتها أن قلبها يتوجع "بأسى حب" Chagrin d'amour إلا أن الألم سوف يزول وسوف تتزوج جنوبيا طويل القامة داكن البشرة من وراء البحر، أمَّا أنا فقد وعدتنى برجل وسيم من الشمال، لا الشرق ولا الجنوب كما قد يتوقع المرء: "سوف تنالين ما تريدين، ولكن الحياة ليست سهلة... ليست سهلة على الإطلاق..." أنهت كلامها وهى تهز رأسها. ولكن ماذا أردتُ، بعيدا عن الحب؟ الحق أنى لم أرد شيئا، فكل ما اكترثت له ـ الموسيقى والشعر والدراما والفن ـ نبع منه وغذاه فى المقابل. ربما كمنت هنا "الصعوبة"، فاستدعيت بيت حافظ:

تعال يا حامل القدح وصب النبيذ،

فالحب ظهر سهلا فى البداية

ثم اتضح أنه مشحون بالصعوبات...

ولكن عندما أحببت وخامرتنى السعادة، لم يكن هناك داع لأن أعتقد أن الأحوال ستتغير، انصرفنا وسرنا إلى البيت ونمنا فى ساعة متأخرة. فتحت فى الصباح المصاريع وأشرفت منها، كان هناك غجرى فى الشارع، يميل على الحائط المقابل، كان ينحت قطعة من الخشب بسكين صغير، ارتقت عيناه إلىَّ ورسم ابتسامة متعجلة ثم واصل العمل. تعرفت إليه من الليلة الفائتة، كان أحد الرجال الذين انضموا إلى دائرتنا ونحن نغنى دون أن ينطق بحرف، ما ندَّ عنه إلا الإنصات. كان فى حوالى الثلاثين، بشرة داكنة أنهكتها الشمس، عيناه سوداوان واسعتان متقدتان، وشعر، متموج، قسمه من الجانب ونعَّمه إلى الوراء بمستحضر زيتى. أغلقت النافذة وذهبت لأرتدى ملابسى، وعندما نزلت أنا وسيمون بعدها للمضى إلى بيت والديها حيانا بـ "أهلا" وراح يسير بجوارنا. حسبته مهتما بسيمون، ولكن سرعان ما اتضح أنه أراد رؤيتى أنا. ما تكلم كثيرا، وما بدر منه إلا أن هزَّ كتفيه ورسم ابتسامة حين سألته عما يريد أن يقوله لى. تذكرت أن أم سيمون قالت إن التخلص من غجرى بعد لفت انتباهه غاية فى الصعوبة، فقررت أن أتجاهله.

كان هناك فى الصباح التالى، يتكئ إلى الحائط، ينحت، بدأ القلق يكتنفنى بعد بضعة أيام وتساءلت كيف أتخلص منه. تصورت أن أفضل استراتيجية هى أن أقنعه بعدم ملاحقتى، أخبرته أنه يضيع وقته وأن قلبى مع رجل آخر سوف أجتمع به بعد العطلات.

"آه، سوف تنسينه سريعا إن جئت معى". قال بلهجة واثقة. أليس عنده وظيفة؟ "عندى، ولكنى فى إجازة". قال بدون أن يبدى أية معلومات أخرى. ماذا أشتغل؟ لم يصرح غير أنه أوحى بأنه ميكانيكى سيارات فى الشتاء وعامل فى المزارع فى الصيف. كان قبل أى شىء نحاتا للخشب وباع قطعه الفنية مقابل "مبالغ مجزية". الحق أنه أعطانى بعد بضعة أيام قطعة الخشب التى كان ينحتها جيتارا صغيرا، مصقولا صقلا جميلا ومدهونا بنقوش متشابكة.

قلت له: "لا أريد أن أتزوج على أية حال".

- "لا بأس، يمكنك فقط أن تعيشى معى".

- "وماذا لو اتضح أنى متقلبة وغير مرضية؟"

- "آه، سأتخلص منك، سوف أبيعك لشخص آخر، أو ربما أقتلك".

الآن دب فى نفسى الفزع بحق! وكذلك دب فى نفس والدَىّ سيمون، اتفقنا أن أنتقل إلى شقتهما وأنام على الأرضية وأرحل ذات يوم دون إنذار، ولكنه كان يعرف الشقة، وفى الصباح التالى كان هناك واقفا بجوار الباب وأنا خارجة. عندما رحلت بعد عدة أيام، أخبرته أم سيمون أننى رجعت إلى إيران وأننى أرسل إليه السلام. يبدو أنه بصق على الأرض وسار مبتعدا، ولم يره أحد بعدها قط.

وجدت الجيتار الذى نحته الغجرى من أجلى منذ سنوات قليلة واستحضرت ذلك الصيف الأخير فى فرنسا، ثم كتبت أغنية "الشاعر والغجرى"، وقد اخترت الأول.

٢٥ - بيتر وبول والجنس الثانى

يحرك الحب حياتى
مثلما يتحرك المرء على
أرض ساحة المعركة.
جيُوم أبولينير

كان صديقى المقرب فى كلية اللغات الشرقية يدعى بول، كان قد حصل بالفعل على شهادات فى الفلسفة والقانون، وكان يَدرس اللغة العربية تمهيدا لدخول وزارة الشئون الخارجية. نال من الذكاء ما لم ينل من الجمال، كان متوسط الطول قصير الجسم ممتلئًا،. كان يلبس نظارة سميكة، بشعر أسود مجعد، كان يخف بالفعل من المقدمة مما جعل جبهته المحدبة تبدو غير متناسقة بالنسبة لبقية وجهه، إلا أن دماثته وابتسامته الجذابة وروح الدعابة الساخرة والذكاء المضىء عوَّض ولا ريب عن افتقاره لحسن الشكل.

ذكرنى بشوبرت فى لوحته الشهيرة، وقد أخبرته بهذا، وسرعان ما أصبحنا صديقين: "أُفضل أن يبدو صوتى sound مثله!" قال وصوته يتخلله وخز من المرارة بسبب "مجاملتى". كان مسيحيا ملتزما، وقد

اشتعل اهتمامه باللغة العربية والثقافة الإسلامية حين قرأ رائعة magnum opus ماسينيون عن الحلاج، المتصوف المسلم الذى عاش فى القرن الثامن. ولكن على العكس من الكثير من أصدقائى الكاثوليكيين كان موقفه تجاه الدين موقفا صوفيا فى الأساس (وعليه كان ارتباطه بالصوفية)، وليس سياسيا، رغم أنه كان معارضا شديدا للماركسية. "من المحتم أن تؤدى إلى البربرية ومعسكرات الاعتقال والغباء الشامل، وبعد وقت طويل من تحول الماركسية إلى مجرد هامش فى كتب التاريخ سوف تلمع المسيحية فوق الإنسانية مثلها مثل الشمس، وتنير قلوب الرجال". كان يقول بنبرة مباشرة لا تخلو من أى انفعال. كان الآخرون يقولون ويكتبون كلمات مشابهة فى تلك الأيام، ولكن وسط هدير الفيضان الذى اندفع بالحياة الثقافية للجهة اليسارية، لم يسمع أحد أصواتهم، على الأقل لم يسمعهم المتمردون الشبان من العالم الثالث الذين يضمرون أحلاما فى رءوسهم ونيرانا فى قلوبهم. ليت بول عاش حتى يرى تنبؤاته تتحقق فى كل أوروبا الشرقية حيث تقوض النظام القديم وغصت الكنائس بالزوار.

كثيرا ما صحبنى بول إلى بيت الطالبات بعد حصص اللغة فى شارع رو دو ليل، أو على الأقل صحبنى حتى منتصف الطريق على جادة سان مايكل حيث كان يأخذ المترو عائدا إلى الدائرة الخامسة عشرة، وهناك عاش مع عمته العجوز، لأن والديه عاشا فى الجنوب الغربى. كنا نسير فى الشوارع الخلفية لسان جيرمان، نتحدث ونتجادل. كان بول يبقينى متأهبة لكل ما قد يطرأ، يغيظنى كلما أشرد عن العقلانية فى "الرحلات الشعرية" poetic flights أو "السحب اليوتوبيا"Utopian clouds.

صرت واعية بالتدريج أن مشاعر بول حيالى تفوق المشاعر الأخوية، ولكنى تظاهرت بأنى لست منتبهة لأنى لم أكن قادرة على مبادلته نفس المشاعر، وقد استغللت خجله و"احتشامى" pudeur. لا أحد يستحق الحب أكثر من بول، وقد عشقته واعتمدت عليه، ولكن فقط كصديق.

مهما حاولنا أن نتوخى المنطق تحكم الألغاز حيواتنا فى أغلب الأوقات، وهنا يصبح لغز الرغبة عصيا على المعالجة. لو حدد "استحقاق" واحد أهواء القلب سوف يصبح العالم مكانا أسعد؛ لا محيطات من الدموع ولا ألسنة مشتعلة للغيرة ولا عذابات الشك، ولكن لن نجد أيضا لا شعرا ولا نثرا ولا موسيقى ولا فنا ساميا بوحى من عذاب الحب. كتب إليار: "لا شىء أثمن من أسى الحب" Rien ne vaut le malheur d'aimer، وقد استشهدنا بكلماته كلما كابد أحد أصدقائنا "مشاكل قلبية."

الحقيقة البديهية أيضا هى أننا لا نستوعب أبدا حب الناس الآخرين؛ "ماذا يرى فيها أو ماذا ترى فيه؟" نسأل، ونسأل أنفسنا، السؤال نفسه بعد أن يموت حبنا لأحد الأشخاص. هناك بالطبع أناس "عقلاء" ينظمون حيواتهم وفقا للمنطق، وترجح كفة اهتماماتهم على أوامر القلب الاعتباطية، ولكنهم قليلون للأسف، ولم أكن واحدة منهم؛ وعليه لم أقع فى غرام بول الطبيب الأمين، وإنما فى غرام صديقه، بيير الوسيم الماهر الغامض.

كثيرا ما كان أصدقائى يلوموننى على "سذاجتى" و"رومانسيتى"، وقد استولت علىَّ الحيرة من هذا اللوم. تكونت أفكارى عن العلاقات بين الجنسين أولا من خلال التأثيرات المتناقضة أحيانا لجذورى وتعليمى

المحدود وخبرتى، وبعدها من خلال كل ما قرأته ولاحظته، ومع ذلك كنت أعلم أن هناك غرائز أساسية لا ينبغى أن أتحداها. داخلنى ذهول دائم لسلوك أولى صديقاتى فى بيت الطالبات؛ كن فتيات ينتسبن إلى الطبقة الوسطى والعليا، كاثوليكيات فى الغالب، آمنً بتقاليد العائلات "البرجوازية"، ولا هدف لهن فى الحياة إلا العثور على زوج. وكان هناك "التقدميات" والشيوعيات اللاتى كن فى مثل صرامتهن فى تناولهن للحب، ولكن بدون مبرر الدين. "والوجوديات" اللاتى رفضن كل التقاليد لصالح مذهب المتعة (الحياة عبث، استمتعى بها!) قبل الاستقرار غالبًا فى إطار الزواج العادى وإنجاب الأطفال. أيا كانت "الفلسفة"، الهدف النهائى، أو القِبلة(*) هى نصب أدواتك لاصطياد رجل وجره إلى المذبح!

تناقض ذلك مع كل وهم أضمرته عن حرية روح المرأة الغربية وقدرتها على الحركة الاجتماعية، المفارقة أن أكثر التصرفات الاستقلالية الطبيعية أتت من صديقتى الأردنية جميلة، فمن المتوقع أن تكون بوصفها مسلمة أكثر حذرا وكبحا من أية فتاة غربية، ومع ذلك فقد وقعت بكل لا مبالاة فى غرام معاق بدون التفكير على الإطلاق فى المستقبل، وسلمت نفسها للعاطفة، وفى النهاية دفعت ثمن هذا.

أمَّا أنا فقد تمنيت منذ نعومة أظفارى أن تتحقق كل أحلامى وأشواقى فى حب واحد ينير شعاعه حياتى بأسرها فى حرية وتناغم، وأننى لن أقبل أية تنازلات حتى أجده، ولن أرضى بأية خيارات ثانية. ولكننى لم أرغب فى الزواج، على الأقل ما دامت القوانين والمواقف

(*) في الأصل: مكة Mecca كناية عن القبلة التي يتوجهون إليها. (التحرير)

الخاصة بالمرأة فى إيران باقية على حالها؛ "إنك تضحين بحياتك حين تقولين أجل". كانت عمتى أشراف فيلسوفة منزلنا تقول؛ والحق أنى رأيت نساء فى كل مكان حولى يكابدن أسى مقنطا، محبوسات فى زيجات لا أمل فيها، "فقط يحتملونها" من أجل أطفال سوف يخسرون حضانتهم آليا لو تطلقن. كانت هناك بالطبع زيجات سعيدة، وحازت بعض النساء سلطة ذات بال على أسرهم، وأثرن على أزواجهن وأبنائهن (كان والداى مثالا على هذا، ولم يلتقيا قبل ليلة زفافهما)، أدارت أمى حقا حياتنا، غير أنها كانت أثرا باقيا من عهد آخر. كنت أنا وصديقاتى بنات ينتسبن إلى تحرير النسوة وإلغاء الحجاب والتعليم الحديث، ذهبنا إلى دور السينما وقرأنا الكتب، ورغبنا فى شىء مختلف.

تبدل المجتمع الإيرانى بطرق عديدة مهمة، ولكن ظلت بطريقة ما قوانينه الرئيسية فيما يخص الزواج والطلاق وحضانة الأطفال بدون تغيير، وقد خلق التعارض بين توقعات النساء والقانون حالات شاذة وأمراضًا اجتماعية. اعتقدت بصفتى مراهقة ثورية فى إيران أن حال النساء لن يتحسن إلا بالقضاء على الفقر والاستغلال وسيادة العدل، كما فى الاتحاد السوفيتى! وبعد مضى سنوات عديدة والقراءة عن محنة النساء الروسيات فى كتب أندريه ساخاروف والتحدث إلى الروسيات المغتربات النسويات، استبد بى الفزع لمدى سذاجتى وتفاؤلى.

كنت الآن فى باريس، لا "أومن" بتلك اليوتوبياUtopia، سألت نفسى عن الحل، جلب لى بول كتاب سيمون دو بوفوار الجنس الثانى The Second Sex كى أطالعه، مجلد ضخم نويت أن أتصفحه على عجل،

ولكنى كلما قرأت بعضه انهمكت فيه، حتى أصبحت فى النهاية كما المصعوقة. غير أن هذا الكتاب بدَّل ـ أكثر من غيره ـ حيوات عديد وعديد من النساء فى أنحاء العالم كافة، ولا سيما فى المجتمعات التقليدية من آسيا إلى إيطاليا. يتطلع إلى مشكلة النساء بشكل واسع، من وجهات نظر الفلسفة وعلم الاجتماع وعلم النفس وعلم الإنسان وعلم الأحياء فى ضوء الوجودية، وقد كان يركز فى اعتقادى على المشاعر والأفكار ويرتبها، وأزاح الكثير من الخلط والشوائب المتراكمة فى عقلى. ما كانت لدىَّ الخبرة الكافية للشك فى بعض افتراضاته ـ وأبرزها المعنية بالطبيعة الجنسية لدى النساء ـ إلا أن نتائجه الاجتماعية النفسية، المبنية بناء متينا فيما يبدو على الحقائق والإحصاءات، بدت لا سبيل إلى الشك فيها.

وهكذا التهمت كل كلمة فى الجنس الثانى The Second Sex بدون أى حذر وأعجبت بأصالة التزمت بها المؤلفة فى مبادئ حياتها الخاصة، ارتباطها بسارتر فى حب كامل دائم دون غيرة، تتجنب الزواج كى تظل حرة وتبقى ارتباطهما غير ملوث بالحياة اليومية المبتذلة (بُعْبُع bête noire الرومانسيين)، لا ريب أنها كانت النموذج، المثال الذى يُحتذى؟

أعدت قراءة الكتاب مؤخرا، وألفيت نفسى مختلفة اختلافا جذريا مع العديد من معتقداته الجوهرية، وكذلك منبهرة غاية الانبهار من مداه الفكرى الرائد. رغم غزارة الكتابة حول المرأة منذ الستينيات، لا يزال الكتاب علامة فارقة، واليوم حققت النساء على الأقل فى الدول المتقدمة بعض السيادة التى نادت بها فى أمور مثل الطلاق والإجهاض والتبنى وحضانة الأطفال.

قابلت بيير فى تلك اللحظة، وأنا متخمة بأفكار بوفوار، وعقلى يضج بفهم جديد. كنت أنا وبول نسير ذات يوم فى شارع جاكوب حين لاحظت شابا طويلا فى سترة زرقاء داكنة من الصوف فى الجانب المقابل من الطريق، حسبت أنى قد رأيته من قبل ولكن تاه من بالى المكان، ثم ابتسم ونادى باسم بول، ثم قطع الطريق.

"آه! أنت الفتاة الإيرانية الغامضة التى كان يخفيها؟" فاتحنى وهو يهز رأسه وبول يقدم كلانا للآخر.

"أنت المختفى عن الأنظار، أين كنت طيلة هذه الفترة؟"

"آه، المعتاد، الجبال... هيا نحتسى فنجانا من القهوة ونسمع أخبارك".

كان المقهى الواقع فى ركن فى شارع بونابارت ممتلئا، فوقفنا منتظرين خلو مائدة. كان من الواضح أن الصديقين مقربان وإن اختلفا تماما عن بعضهما البعض. عين بيير زرقاء غامقة تظللها رموش سوداء طويلة، وعظمتا وجنتيه آسيويتان مرتفعتان، وخداه مجوفان، وبشرته لفحتها الشمس. قص شعره البنى الفاتح قصة أطول مما هو معتاد أيامها، رغم أن الأسلوب سرعان ما سيصبح موضة بين الشبان من خلال فريق البيتلز والمغنين الشعبيين الأمريكيين. عندما يرسل ضحكة، وهو يرسلها كثيرا، يرمى رأسه إلى الوراء، فتبصر ذقنه ورقبته الطويلة تطوقها ياقة كبيرة قليلا بربطة عنق تنطبع عليها أشكال ضاربة إلى اللون الأحمر، وقد ذكرنى ببعض أفراد عائلة أمى، الشماليين الذين "بدوا كالروس".

استمعت إلى حوارهم والانبهار يسحرنى، بينما يحاول بيير أن يشركنى فى الحديث من وقت إلى آخر. "ألم نلتق من قبل، فى مكان ما؟" سألت فى النهاية، بعد أن نقبت فى ذاكرتى بلا جدوى.

"كنتُ لأتذكر لو التقيت بك!" قال ضاحكا على رده المألوف.

باح لى بول بعدها أن بيير واحد من أذكى من عرفهم، كانا معا فى المدرسة الثانوية lycée وأصبحا صديقين مقربين. عانى بيير كثيرا أمراض الرئة ـ وإن لم يصب بالسل ـ ومع عشقه للرياضيات الشتوية فسر فترات إقامته الطويلة فى الجبال بالقرب من بلدة شامونى: "تعشقه النساء ولكنه دون جوان، ولا تستمر علاقاته ما يزيد على عدة أشهر، لو استمرت هذه المدة... لحسن الحظ أن فتيات اليوم بمقدورهن تحمل المسألة". قال، "الفتيات الفرنسيات فقط لا غير". أردف بلسان التحذير.

سألت أحيانا عن بيير بعد هذا اللقاء الأول، "آه، رأيته فى الأسبوع السابق". أو "الشهر السابق". أو "لم أره منذ قرون، لا بد أنه سافر". كان بول يجيبنى.

كان آخر عيد ميلاد مجيد فى بيت الراهبات البنيديكتيات، فى خلال شهرين سوف أنال غرفة فى المدينة الجامعية وأنتقل، يا لها من معجزة! quel miracle وفى غضون ذلك قضيت وقتا طويلا مع أصدقائى المقيمين هناك، تولانى الضجر من قوانين بيت الطالبات الخانقة وانتهكتها ما استطعت.

كان الجو باردا للغاية فى عشية عيد الميلاد؛ هبت رياح قارصة هبوبا متقطعا، حادة بما يكفى كى تخترق العظام، ولكن دون أن تصحبها ثلوج

سوف تنظف السماء. كنت أتجمد دوما من البرد، توخيت الحذر من الحشود، فقررت البقاء فى البيت والقراءة بدلا من الخروج مع الأصدقاء. عم الهدوء البيت، فأغلب الطالبات رجعن إلى بيوتهن لقضاء العطلات، كان التقليد أن يضم عشاء عشية عيد الميلاد الأسرة والأصدقاء، وقد تُرك أغلب الطلبة الأجانب لتدبر حالهم واجتمعوا فى المطاعم والمقاهى.

دق الجرس فى حوالى الثامنة يتبعه صوت الآنسة مورى الحاد وهى تنادى برقم غرفتى. من قد يكون؟ تساءلت واندفعت إلى الطابق السفلى إلى غرفة الانتظار، رجل طويل فى سترة زرقاء داكنة من الصوف يتطلع من النافذة، تعرفت إليه عندما استدار وابتسم، بيير. اعترتنى الدهشة، بيده وردة حمراء ذات ساق طويلة ملفوفة بورق شفاف، وضعها على المائدة حين جلسنا.

لم أره منذ لقائنا الأول، وها هو الآن فجأة فى غرفة الانتظار الضيقة، الأشبه بغرف الرهبان، ببيت الطالبات، فسَّر بقوله:

- "كان عندى إحساس أنك ستكونين هنا رغم عدم احتمالية الأمر".

- "كان من الواجب أن أكون فى الخارج لأنه عيد ميلادى...."

- "هاك! لا بد أنى خمنت شيئا، عيد ميلاد سعيد.. يا آنسة! Madenoiselle ثم أعطانى الوردة بانحناءة رقيقة وأسلوب رسمى ساخر. ولكن لماذا كان فى المدينة؟ "إنه عيد ميلاد أختى الصغيرة أيضا، أنا على وشك الذهاب لأتناول معها العشاء فى بيت أبى، إنها فى الرابعة عشرة. كم عمرك، إن لم يكن سؤالا أحمق؟"

- "إننى فى التاسعة عشرة".

- "يا إلهى! Mon Dieu! كيف جرؤتِ على أن تكونى صغيرة بهذا الشكل؟"

- "آه، أحيانا ما أشعر أنى عجوز جدا، وكم عمرك؟"

"أربعة وعشرون؛ هذا هو سن العجز، حين تضعين فى الاعتبار أن ليرمونتوف مات فى السابعة والعشرين، ورامبو انتهى فى سن أصغر بأربعة أعوام، وريموند راديجيه، وبوشنر. ولكن أبى فى التاسعة والخمسين، وهو يقول إن الحياة تبدأ بعد الستين، ولا يطيق صبرا!"

سألته عن سبب وجوده فى باريس على حين كان كل متزلج متحمس بعيدا على الثلوج، فأخبرنى أنه سوف يذهب بعد العطلات، ثم طلب منى أن أتناول معه العشاء فى الأمسية التالية وغادر.

رجعت إلى غرفتى وكتابى غير أن تركيزى اختفى، ولم ينفك عقلى يهيم هنا وهناك. كان الجو ألطف فى الأمسية التالية، خفت الرياح، وصفا الجو بسقوط وجيز للثلج. ارتديت تنورتى الحمراء وبلوزتى السوداء، الزى الوحيد الأنيق chic الذى أمتلكه، خاطته من أجلى خياطة فى شارع جاى لوساك. شابة هادئة سمتها الخجل، بشعر بلون العسل موَّجته بالمواد الكيميائية، وبشرة بلون مصل اللبن، وابتسامة رقيقة. كانت تعمل فى متجر للغسيل الجاف وتعديل الملابس، وكنت أراها جالسة أمام ماكينة الخياطة بجوار النافذة تعمل طيلة النهار. دار ببالى أن الرجال الأغنياء فى القرن التاسع عشر كانوا يلتقطون الخياطات والغسالات الحالمات الشاحبات مثلها و"يستقر" بهن الحال عشيقات، مثل مارى

دوبليسى Marie Duplessis و"غادات كاميليا"Dams aux Camelias، أخريات. كان المرادف العصرى هو "اكتشاف" المنتج السينمائى للفتاة، يَظهر وجهك على غلاف كل مجلة (بعد أن "تلمحك" فى البداية زوجة المنتج وأنت تغسلين شعر زبونة فى صالون لتجميل الشعر). ولكن أغلب الجميلات midinettes ـ آلاف وآلاف منهن ـ ما بدا منهن إلا أن رقّعن حياتهن وهن يقرأن المجلات الرخيصة، يحلمن برجل سوف يأتى وينقذهن من الكدح، كانت خياطتى على الأقل متزوجة ولديها طفل، وقد بدت قانعة، كان ذلك إنجازا.

أتذكر أن بول قال إن بيير كان دوما متأخرا، لا يمكن التنبؤ بتصرفاته؛ اشتكت بعض صديقاتى أن أحباءهن يجعلونهن ينتظرن، بل ويخلفون مواعيدهم، وقد استحوذ علىَّ السخط قائلة إنهن يجب ألا يحتملن مثل ذلك السلوك السيئ، ولكن "لا كرامة فى الحب" كما تقول الأغنية، فعاجلا أو آجلا ندفع جميعا الثمن، وجاء بيير فى ميعاده.

توجهنا إلى مطعم روسى صغير قريب، لا بول دوريه La poule Dorée. تعلقت دجاجة ذهبية من المعدن تحيط بها حروف اسم المطعم فوق المدخل الرئيسى، وفى الداخل وجدت حجرة صغيرة تحوى موائد مربعة تغطيها مفارش قطنية باللونين الأحمر والأبيض. اعتلت كل مائدة شمعة مقحمة فى زجاجة خمر وزهرية صغيرة من زهور القرنفل؛ كان النُدُل يرتدون بناطيل سوداء مدسوسة فى جزم لركوب الخيل وقمصان روسية من الساتان الأحمر ـ فتحة رقبتها من الجانب ـ وحُزُم سوداء. بدا أنهم يعرفون بيير، لأن المدير حياه بمودة وقبَّل يدى قبل أن يقودنا إلى مائدة فى تجويف مقنطر صغير بجوار الحائط، أخبره بيير أنى إيرانية:

"آه إيرانية! Ah La Perse! عمر الخيام! النبيذ الشيرازى! أرض الأحلام! كنت هناك عام ١٩١٩ أنت تعرف..." ابتعد كى يحيِّى زبائن آخرين قادمين من الباب، وأخبرنى بيير أنه كان ضابطا صغيرا فى الجيش الأبيض، وقد تقهقر إلى القوقاز مع فوجه قبل أن يَعبر إلى إيران. "كانت أمى روسية". أردف بيير بلهجة عابرة، وهو ما فسر مظهره الآسيوى، علمت الآن لِم بدا وجهه مألوفا فى ذلك اليوم الأول.

ما لبث أن لاح ثنائى فى خريف العمر، عازف على الكمنجة وعازف على البيانو، وحفل المكان الضيق بصوت النغمات الغجرية والأغانى الشعبية الروسية. حسبت أن الأكل، مثل أغلب الوظائف اليومية العادية، غير رومانسى، وطلبت أكلا يسهل علىَّ تحريكه وبلعه، ذهبنا بعد ذلك إلى نهر السين لنتمشى بجواره، عبرنا الجسر إلى جزيرة سان لوى. قام الظل المهيب لكاتدرائية نوتردام أمام سماء الشتاء، وانعكست أنوار الجسر المتلألئ على المياه الغامقة، ولعبت السحب الجوالة الغميضة مع قمر جديد بارد.

أخبرت بيير أننى مهووسة إلى حد ما بروسيا، أولا باعتبارها "الدب العظيم فى الشمال" التى ابتلعت نصف إيران فى القرن التاسع عشر، وكانت منذ حينها مصدر تهديد، وثانيا باعتبارها المثل الأعلى، بلد الاشتراكية، والآن باعتبارها الوهم المفقود illusion perdue، ولكن قبل كل شىء لاح لى أن العديد من شخصيات أدبها ينحدرون مباشرة من عائلتى.

حكى لى عن أسرته، جاءت أمه إلى فرنسا مع والديها فى طفولتها بعد ثورة عام ١٩١٧. كانوا ينتمون إلى طبقة ملاك الأراضى، ولم يتمكنوا من إخراج أى شىء عدا عدة قطع من الجواهر. عاشوا بين المهاجرين الآخرين طويلا فى ظروف أليمة، حتى بدأت تجارة أبيها فى التحف تجلب دخلا كافيا فى الثلاثينيات.

وربما كانت أم بيير هزيلة البنية نتيجة لتلك الصدمات المبكرة إلا أنها كانت جميلة المحيا وعازفة بيانو حساسة، وقد أثر موتها وهو فى سن الثانية عشرة فى نفسه أعظم التأثير. تزوج أبوه المحامى بعد انقضاء فترة مناسبة بامرأة فرنسية، ولكن بيير لم ينسجم معها على الإطلاق، وبعد العديد من المشاجرات ترك البيت ليعيش مع جدته لأمه. وافتها المنية هى الأخرى، وعاش عندئذ فى علية الخدم فى مبنى أبيه السكنى (الذى كان يشير إليه بكلمة "مسكنى الرسمى")، كانت هناك وسائل للمعيشة "مستعارة" بدرجات متفاوتة من الرفاهية. كان جانب من "غموضه" أن أحدا لم يعرف مكان وجوده فى خلال أية لحظة من اللحظات، كان من المفترض دوما أنه فى البيوت الفخمة لمعارفه العالميين من عالم التزحلق الذين كانوا بعيدين عن باريس فى أغلب الأحيان.

كانت خبرتى قليلة للغاية، فلم أفطن إلى أن ذلك الحرمان بالموت بالنسبة للمراهق أشبه "بالنبذ"، وأنها تسببت فى جروح عميقة فى نفسه، أو أن تجارب المنفيين الروس والمجتمع المغترب هى ما ستكابده عائلتى بعد سنوات عديدة عقب ثورة ١٩٧٩ فى إيران ـ الفقر والاغتراب والصراعات الداخلية والألم والحنين إلى الوطن ـ أو أننى ذات يوم سوف أتعرف فى ابنَىَّ على مشاعر متضاربة نحو بلده، فرنسا، وبلد أمه، إيران.

ربما فسَّرت تلك النزاعات وخيبات الأمل كون "دون جوانيته" وسخريته. ليس من الهين على طفل أن يتكيف مع أم "أجنبية" تكون مختلفة، فى عمر يرغب فيه الأطفال أن يكونوا مثل الجميع. قد تسبب المتاعب الناشئة مشاكل عميقة، أو قد تصبح الرملة التى تصنع اللؤلؤ، فكثيرا ما يقال إن الأطفال نتاج الزيجات المختلطة يتصفن "بالجاذبية"، وليست جاذبية المظهر وحده.

لم نرتب لقاء ثانيا، ولكن لم يساورنى شك، هل "ترتب" الشمس أن تشرق كل يوم؟ عدت إلى بيت الطالبات عند انتصاف الليل بالضبط. عثر علىَّ أعمل فى المكتبة بعد يومين، وذهبنا لنتمشى فى حدائق لوكسمبورج، دخلنا من بوابة جادة سان مايكل، وسرنا فى الممر الرئيسى إلى صف، تماثيل من ملكات فرنسا. "حكم الملوك الفرنسيون شعبهم من خلال زوجاتهم أو عشيقاتهم" أعلمنى، "كانوا بعقولهم الديكارتية منفصلين للغاية عن الناس العاديين والحياة العملية، وبدون نسائهم كانوا سيفقدون كل صلة بالواقع. مارى أنطوانيت المسكينة! كانت أجنبية، فلم تتمكن من إنجاز تلك الوظيفة الجوهرية، وعليه خسرت عرشها ورأسها".

- "تقصد أنها كان بمقدورها أن تمنع الثورة؟"

- "مَن العالِم؟ يا للخسارة، ما تعافت فرنسا قط، لا بد أن يعيد المؤرخون كتابة التاريخ من خلال الزوجات والعشيقات لرجال من المفترض أنهم شكلوا سبيلها".

ثم سألنى: "من تفضلين أن تكونى، الزوجة أو العشيقة؟"

قلت: "العشيقة بالطبع! بين الحب والتاج، سوف أختار الأول على الدوام، ألن تفعل ذلك؟"

لا إجابة، فقط نظرة مندهشة لا تخلو من تسلية.

أصر أبو بيير على أن يقرأ القانون وينضم إلى شركة العائلة ثم يتولى إدارتها فى الوقت المناسب، ولكن لم يرقه الموضوع ولا الممارسة. "السبب الوحيد فى أن يصبح المرء محاميا هو أن يتعلم القانون كى يتمكن من خرقه فى جو من الحصانة". يقول هازئا، "وأنا بالفعل أعرف كيف أخرقه فى حصانة! إن العدالة الحقيقية لا يحققها المحامون".

التحق بمعهد العلوم السياسية بعد الحصول على شهادته لكى يؤجل عمله فى المحاماة، وكان الآن يكتب شهادة الدكتوراه فى جانب ما ملغزٍ من القانون الدولى، جانب كان يَدرسه فى مشقة وإلى ما لا نهاية. راقه الآن الأدب (ولا سيما الشعر) والرسم، والجمع بين الاثنين؛ الكتابة عنه على غرار النقاد الشعراء مثل بودلير الذى يُكنُّ له توقيرا قريبا بما أشعر به تجاهه.

اعتبر شعره غير ذى جدوى ولا يستحق النشر لدرجة رفض نشر قصائده ضمن كتيبات plaquette زيجرز. دمر معظم إنتاجه، ولكن استشهد بين الفينة والأخرى ببيت أو اثنين فى غضون الحديث، وعندما أسأل عن المؤلف، يرد "لا أحد". ومع ذلك قضينا ساعات سعيدة كثيرة نطالع فيها الشعر ونتلوه معا، راسين، وأبولينير، وإليار، وبريتون، وأراجون...

سياسيا اعتبر نفسه فوضويا؛ "بعد اهتمام وجيز بالشيوعية عدت إلى جذورى الروسية"، كان يقصد فوضويِّى القرن التاسع عشر. أخبره بول أنه مزيج من **الإخوة كارامازوف**، عدا القاتل. رد بسرعة وذكاء: "لا تتأكد

كل هذا التأكد!" وجدته شبيها بديمترى، جامح، ومعذَّب، وعاطفى، ونبيل، أخ وقعت فى حبه على الفور عندما قرأت الرواية لأول مرة فى إيران.

هناك نص مسرحى لرواية **الإخوة كارامازوف** فى الفرنسية، وقد كان دور جروشينكا واحدا من أول الأدوار التى لعبتها لتانيا (جوسلين كان ديمترى). اعترفت لها فى فترة لاحقة أنى حلمت بأخذ الدور فى عرض مسرحى ذات يوم؛ "سوف تأخذينه، سوف تأخذينه". طمأنتنى، ولكونها لم تعتد التافه من الوعود أو التشجيع، صدقتها. وبعدها عندما أخطط لبدء فرقة درامية ينبغى أن أرجع إلى إيران، كانت نسخة من **الإخوة كارامازوف** فكرتى الأولى، فسوف يميز الجمهور فى الشخصيات أنفسهم وأصدقاءهم. كلما أعيد قراءة الرواية لا تزال تراودنى نفس المشاعر، ولكنى أعرف الآن أن احتمالية لقاء ديمترى بعيدة لأنه نتاج إبداع الخيال الأسمى، وبه من الواقع الدائم ما يفوق الناس "العاديين". ولكنى فى ذلك الوقت وجدت بيير شديد التطابق مع ديمترى، كان مثلما تصورته بعد تلك القراءة الأولى.

عندما أخبرت بيير أننى فى سبيلى إلى الانتقال إلى المدينة الجامعية احتفلنا فى مطعم بول دوريه Poule Dorée. كان لا يزال عاجزا عن زيارتى فى غرفتى، ولكننا كثيرا ما جلسنا فى غرفة الاستقبال الكبيرة المشتركة، أحيانا مع صديقاتى الإيرانيات، أو سرنا فى الأرض المحيطة بالبيت وتفرجنا على المناسبات فى "المنزل الدولى". كان يمضى إلى بلدة شامونى بصورة دورية "كى يكتب أطروحته" أو "يعفى رئتيه من هواء

باريس" أو لمجرد افتقاده للجبال. كنا نتراسل كثيرا، وأحيانا يتصل كلانا بالآخر. اتصل بى مرة لينقل إلىّ أنه سوف يعود فى الأسبوع القادم يوم الخميس، وطلب منى أن أقابله عند جسر بونت نوف فى الثامنة بميدان فير جالان ver Galant نظرا لأنه سوف يأتى إلى هناك من المحطة مباشرة. حاز المكان لدىّ بعدا مقدسا، فهناك ازدهرت لأول مرة العلاقة الوثيقة بين طالب وطالبة لتتحول إلى شىء كان حتى الآن مجرد حلم من أحلام المراهقة، ولاح من حينها أننى كنت أعرف بيير على الدوام، وأنه كان دوما هناك، وسوف يكون دوما هناك، مهما طالت أعمارنا. وعليه ذهبت إلى موعدنا، رغم أنى أحسست أنه لن يحضر، لأن خطابا سابقا نقل لى أنه مريض، وأنه لن يتمكن من العودة إلى باريس فترة من الوقت.

كانت ليلة باردة عاصفة، بهبات متقطعة من المطر المثلج تهب من زوايا مختلفة مثل وابل من الإبر، وقد تعلقت سماء سوداء ممزقة. أقفر الميدان فعليا، وابتلَّت المقاعد المشغولة فى الغالب بالمتنزهين والمتغزلين بالمياه، ولاحت غير مغرية بالجلوس. ذرعت المكان ذهابا وإيابا كى أبقى جسمى دافئا، ناظرة إلى النهر الغامق المتراخى والمراكب والمرور على السد، امتدت المدينة المبلَّلة بأسرها حولى إلى ما لا نهاية، تنبض بالحياة وإن وجدتها خالية؛"شخص واحد فقط غائب فيقفر كل العالم". Un seulêtre vous manque et tout est dépeuplé

كان هناك تلغراف فى صندوق الرسائل عندما عدت إلى البيت مبتلة متجمدة، ألغى موعدنا، "تبع التلغراف خطاب وزهور".

"لم أخبر بول أننى أراك". أنبأت بيير بعد بضعة أشهر. قال ضاحكا: "لم؟ أليست علاقتنا بريئة innocent" عندما أخبرت بول بالفعل، لاحت عليه علامات القلق، وكان رد فعله ابتسامة تنم عن الإذعان. وبعدها أحيانا ما كنا نلتقى نحن الثلاثة فى المقاهى ونتبادل أطراف الحديث، ولكن بول رجع إلى بيته بعد أن فرغ من امتحاناته، وسرعان ما حصل على وظيفة، ورأيناه مرات أقل.

سايرت بيير ذات أمسية إلى عُلّيته، بيته "المؤقت" فى باريس، عندما لم يحصل على شقة مستعارة. كانت أشبه بغرفة فندق صغيرة، بأثاث جيد يصعب وصفه، ومتعلقات شخصية قليلة، عدا الكتب وقطعة أو قطعتين من الملابس. بوسعك أن ترى من النافذة الجزء العلوى من برج إيفل وهو يلتمع فى الأفق البعيد. قال إن زوجة أبيه استخدمت الغرفة حين يكون خارج المدينة فى إيواء الأصدقاء، ولهذا السبب لا يستطيع أن يعطينى مفتاحا، ولكن عندما يكون "مقيما" يمكننى دوما أن أبقى هناك. وقد بقيت، وعندما لا أجده هناك، كنت أنتظر على السلالم وأنا أقرأ حتى يحضر.

وبعد مضى بضعة شهور فاتنى المترو الأخير إلى المدينة الجامعية ذات ليلة، وذهبت إلى بيير بدون سابق إنذار. لم يكن فى الداخل، وبينما جلست فى انتظاره، غلبنى النوم، غير أننى استيقظت عندما سمعت وقع أقدام صاعدة. كانت واحدة من جاراته، ممرضة فى خريف العمر راجعة من نوبتها الليلية. كان قد أخبرنى أنها تكن له "إعزازا،" دعتنى إلى دخول غرفتها لتناول فنجان من القهوة، واستنى: "آه، السيد بييرا يا له من شخصية!" Ah Monsieur Pierre! Quel numéro.

شكرتها ورفضت عرضها، كان الفجر قد انبلج، والمترو يعمل، وأردت أن أعود إلى البيت. تيبس جسمى ونال منى التعب والإنهاك، وعقدت العزم على العثور على غرفة فى الحى quartier بمجرد أن أستطيع.

عندما أفقت من خدرى فى مترو الصباح الباكر، بدأت أقلق شديد القلق على بيير خشية أن يكون أصابه مكروه، حادث سيارة مثلا، أو نوبة ربو مفاجئة. أبلغنى عندما اتصل أنه "بات" فى منزل أحد الأصدقاء. ما جال ببالى أبدا أنه رافق امرأة أخرى، تماما كما أننى لم أحلم أبدا بالبحث عن رجل آخر، طيلة حياتى. وبعدها فى يوم من الأيام كنا نعبر حدائق لوكسمبورج حين سمعنا امرأة تنادى اسمه. شرح لى أنها امرأة عرفها فى بلدة شامونى، فرنسية طويلة شقراء فى نهاية عقدها الثالث أو بداية العقد الرابع، سحبت شعرها إلى الوراء ولملمته عند مؤخرة عنقها، بشرتها لوحتها الشمس وعيناها زرقاوان، كانت تلبس ملابس غالية من البيج والبنى المتناسقة، وتباهت بنظارة ملونة قليلا ضاعفت من أناقتها.

طلب منى بيير أن أنتظر وسار فى اتجاهها، وعندما تبادلا التحيات الدافئة وتحدثا وضحكا، بعيدا عن مرمى سمعى، بدأت أعى إحساسا جديدا تماما لم أعهده أبدا من قبل، أخذت معدتى تجيش بالغثيان وتورم رأسى ودق قلبى فى صدغى بانفعال حاد. تماوجت ألسنة اللهب أمام عينىَّ وترقرقت الدموع فى جفنىَّ بينما قبض علىَّ الغضب الأعمى مثل أسنان سمكة قرش. وبينما كنت منتظرة هناك اكتشفت إمكانيات فى نفسى لم أتخيلها قط مثل القتل والتشويه وفقء عين أحدهم والتعذيب الصينى!...

"لماذا لم تقدمنى إليها؟" سألت بيير وأنا أتميز غيظا والدموع تسيل من عينيّ.

"حسنا، حسنا! ماذا سيقول سيمون دو بوفوار عن ذلك! حسبت أن الغيرة امتلاك وأن الحب حرية، إلخ... إلخ..."

ما راودتنى الغيرة من أى شخص قط، كانت أختى الأكبر أجمل بكثير، وطلبها الطالبون أكثر منى، ومع ذلك لم أشعر بالغيرة منها، ولم أشهد التنافس فى المدرسة أو من بَعدُ، ولكن ذلك كان عهدا مختلفا، ومن الجلى أنى شعرت بغيرة بغيضة جامحة على الحبيب. ربما لأن الغيرة هى الخوف من الفقدان، والناس لا يحسون بالغيرة إلا على من يهتمون بهم بحق، ويرغبون فى الاحتفاظ بهم. على أية حال هذا ما حصل، تولانى الخجل من غيرتى غير أننى لم أستطع أن أخفيها أو أكبحها، ومنذ وقتها كانت كفيروس رقد داخلى وسوف ينفجر غضبا متى ضعف جهاز المناعة فى النفس.

أدركت مع الوقت أن الحل الوحيد هو تجنب المواقف والأشخاص الذين يتسبب سلوكهم فى هذا الهجوم. حاولت أن أفعل هذا منذ وقتها، وأخشى أننى لم أفلح طيلة الوقت.

وفى خلال الفترة التى عشتها فى باريس كان بيير محور حياتى، فهو ما يخصنى فى كل شىء، والصخرة التى بُنى عليها الوجود، الحق أنه كان السبب الأساسى لبقائى هناك، إذ كان من الواجب أن أعود إلى وطنى على الفور بعد انتهاء امتحاناتى مثلما فعل أصدقائى.

لقد شجعنى على أن أكون ممثلة ومغنية، وأطرى على كل ما فعلته، ولأنه كان قاسيا للغاية على نفسه، صارما جدا فى حكمه على الأمور الفنية، صدقته، أم أنه أراد فقط أن يبقينى فى باريس؟ "أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبنى كنيستى". هل تفرض السمعة إلزاما أو تؤثر على الهوية؟ ظن ذلك، ومن أجل خاطرى حاول أن يتغير، حيث إنه اضطر إلى أن يقدم تنازلات بسبب خلفيتى المسلمة، والتشديد على العفة والاحتشام، ومزاجى، ولكنه كان حلا مؤقتا ليس إلا. ربما لا يستطيع أى إنسان أن يكون "صخرة" يُبنى عليها المنزل، فقط الحب نفسه، بكل قصوره.

تراءى بيير على العكس منا أنه يملك دوما أموالا كافية بما أنه لم يذكر الموضوع على الإطلاق، كان دوما ينادى سيارات الأجرة أو يظهر فى سيارات يستعيرها من أصدقائه، غالبا موديلات إنجليزية على الموضة بين الشباب الموسر. كان يأتى ويقلنى بعد المسرحية، وكنا نقصد مطاعم غالية إلى حد ما فى سان جيرمان دو برى أو جادة مونبارناس، ونلتقى بالأصدقاء ونتحدث حتى ساعة متأخرة. استعار فى يوم من الأيام دراجة بخارية منخفضة "على سبيل المتعة فقط،" وذهبنا فى رحلة طويلة عبر شوارع باريس فى الساعات الأولى من الصباح وقت خلو المدينة. لم أتعلم ركوب الدراجات (لم تفعل الفتيات أى شىء غير لائق إلى هذه الدرجة) ولم أركب دراجة بخارية من قبل، فركبنى الرعب. قبضت على خصر بيير وأخفيت رأسى فى ظهره وأغلقت عينىَّ، لم يرتد أحد الخوذات فى تلك الأيام، طوينا الشوارع وانعطفنا عند الأركان بأقصى سرعة، ولكننا بطريقة أو بأخرى لم نرتطم بشىء. أتذكر الابتهاج، ونشوة السرعة ورياح

الصيف الدافئة، وهلوسة سببتها المدينة وهى تتذبذب بحذائنا شأن أشكال منعكسة على مشكاة.

راقنى عدم القدرة على التنبؤ بما سيجرى فى حياتنا، كان كل شىء مؤقتا، ومفاجئا، وخطوة فى رحلة أبدية. هناك آلاف السنوات من البداوة خلفى، وربما حوى ذلك الجانب الآسيوى من إرث بيير الروسى بعض البداوة أيضا. "لن تعرفى أبدًا ماذا ينوى". قال بول مرة حين تقابلنا لأول مرة، "إنه غير اعتيادى insolite". ولكنى كنت معتادة على الشبان الجامحين فى إيران، ولم أجده مختلفا كل الاختلاف. ثم إن أحدهم قال إنى غريبة étrange أنا الأخرى، نقلها أحدهم إلىَّ، مما بث فىَّ القلق، فقد كنت أريد أن يعتبرنى الآخرون طبيعية تماما.

لِمَ يفترق الأحباء؟ "لا تفسر "التفاسير" حقا أى شىء، نلوم الحب على ما تصنعه الحياة، أو لا تصنعه. علم بريفير: "تفرق الحياة بين الأحباء La vie séporent ceux que s'aiment، هكذا تقول أغنيته. ما تشاجرت أنا وبيير، لأننى شهدت الكثير من المناظر العنيفة أثناء طفولتى وقد كانت تفزعنى، ولكننا تجادلنا. لامنى لعنادى وسذاجتى وجهلى بالعالم والناس، غير مخلوقة للحياة القاسية المتقلبة لحاضرة تزخر بالتنافس؛ "انتقلى إلى دير للراهبات". كان يستشهد(*): "لا ريب أن والديك ربياكِ من أجله!" أو "إنك متأخرة قرنا من الزمان، يا آنستى العزيزة ma chére demoiselle! كان من الواجب أن تولدى عام ١٨٣٠ تقريبا وأن تموتى بحلول عام ١٨٥٠!" وجمل ساخرة أخرى مشابهة تاهت من ذاكرتى، غير

(*) من مسرحية هاملت. (المترجمة)

أنها كانت مؤلمة. خالجنى التردد فى الواقع، ممزقة بين الشرق والغرب، بين الذهاب إلى بلدى ومحاولة التأقلم مع الحياة الإيرانية أو البقاء فى باريس والحياة حياة حرة وإنما معدومة الجذور لا تعرف الأمان.

حسبت أن الزواج بپيير سوف يجعل علاقتنا دنيوية مملة، وأن قلبَىّ والدىَّ سوف ينكسران لو أعلنت أنى سأتزوج برجل فرنسى وسأستقر فى الغرب إلى الأبد. البادى أن كل شىء أفضى إلى نفق مظلم بلا نور فى نهايته، أردت أن أموت، ظننت أنى يمكن أن أقبض على بعض الحبوب المنومة وأبتلع ما يكفى منها ولا أصحو مطلقًا كما فعلت جينيت. لقد كنت غريبة عن هويتى الشرقية، وسوف يتطلب الأمر نصف عمرى والكثير من الألم، كى أدركها من جديد وأعود إلى الروح الشرقية التى يطمح إليها كل الحجاج، وأصبح فى النهاية كاملة.

لم أفض "بسرى" إلا لبول، وقد كان رقيقا متزن العقل كما هى عادته دوما، أرقَّ من أن يقول "لقد أخبرتك من قبل" أو "لم لا تتزوجيننى وتعيشين حياة آمنة إلى الأبد؟" تقلبت طريقته فى التعامل معى، ما بين المسلى والصارم والمهدئ. قلت: "لن أحب أحدا أبدًا، لن يحدث أبدًا مرة ثانية!" إعلان متعجل لمن فى سن العشرين. قال: "كلام فارغ!" "فالأمر أشبه بأن يقول باجانينى إنه لن يعزف أبدًا على الكمان مرة أخرى، لأن الكمان الأول ليس من صنع ستراديفارى!"

وفى غضون ذلك عثرت أخيرا على شقة استوديو، وكنت على وشك أن أنتقل إليها. بالكاد امتلكت بعض متعلقات، وعليه لم تكن عملية صعبة، وقد ساعدنى بول على حمل كتبى وملابسى إلى هناك فى

سيارات أجرة. قال بلهجة مرحة: "إنها بداية حياة جديدة" لم أكن واثقة تمام الثقة، ربما كان الأمر مجرد انعطافة فى طريق ملىء بالمنعطفات الحادة.

أصبحت فى خلال ذلك زبونة معتادة habituée فى حى سان جيرمان دو برى.

٢٦ ـ سان جيرمان دو برى

لا ريب أن ما يمارسه الإنسان بنفسه من اختيار حر يشكل ما يمكن أن يطلَق عليه قدره.

جان بول سارتر

إن لم يستطع المرء أن يفرق بين الحقيقة والزيف فى عصر الإيمان الزائف، يصبح قدره المحتوم شكلا من أشكال العزلة.

ألبير كامو

وصلت أسطورة سان جيرمان دو برى باعتباره المركز الفكرى لباريس إلى إيران فى نهاية الأربعينيات، وقد انتشرت بالتدريج بين التقدميين الشبان؛ علمنا عن طريق المقالات والصور والأفلام طبوغرافيا المنطقة: متاهة من الشوارع المعبدة بالأحجار مبعثرة حول الميدان، يهيمن عليها الدير وبرجه الأنيق الذى يعود إلى القرن الحادى عشر، الأقدم فى المدينة. عرفنا مقهى فلور ومقهى دو ماجوت حيث كتب سارتر وسيمون

دو بوفوار وألبير كامو والعديد من المؤلفين الآخرين كتبهم التى نقرأها مترجمة، وسمعنا عن ملهى التابو Le Tabou حيث غنت جولييت جريكو للمرة الأولى أغانى جاك بريفير وريمون كونو، وأطلقت موضة البشرة البيضاء والتحرر من الوهم. ما كان عليك إلا أن تقفز على طائرة وتترجل فى باريس، وهناك سوف يكونون جميعا فى انتظارك!

الحق أن معظم الكُتاب والمغنين والممثلين اختفوا فى منتصف الخمسينيات، إذ انتقلوا من فنادقهم الحقيرة إلى شقق اشتروها بمكاسبهم حينما انتقل إليها مطورو المساكن والماليون. ولكن لا يزال الكثير من السكان habitués القدامى يعيشون فى المنطقة، وأحيانا يذهبون إلى المقاهى والمطاعم التى جعلوها شهيرة. كان معتادا أن ترى رجلا أصلع أحول قصيرا بدينا بنظارة سميكة وهو يندفع فى الشارع نحو بيته فى الميدان، فتعرف فيه سارتر، أو أن ترى سيمون سينيوريه وإيف مونتان يحتسيان مشروبا بصحبة صديق فى مقهى فلور. ولكن لو ظهر النجوم من حين لآخر، فإن القائمين على الأدوار المساعدة ـ الكُتاب والشعراء من مختلف الجنسيات المقيمين فى باريس، الممثلين ونجوم السينما والمغنيات ومديرى الفرق ـ كانوا زوارا منتظمين، ويمكنك بالتأكيد أن تراهم لو قصدت المقاهى فى وقت معين من النهار أو ليلا بعد العروض.

كان كل هذا كافيا لاجتذاب السياحة الفكرية ورفع الأسعار، بما لا يطيقه الطلاب الذين فضلوا أكثر فأكثر المقاهى الأقل تكلفة فى الشوارع الخلفية أو الحى اللاتينى بالقرب من شارع سان مايكل. وفى الستينيات

تحول العديد من المطاعم الصغيرة إلى بوتيكات، وتجددت الفنادق المتداعية حيث عاش الكُتاب والفنانون المفلسون لتصبح فنادق من ثلاث نجوم، وتم شراء الشقق وترميمها. منعطف آخر فى مصير منطقة تقلبت من الرخاء التجارى فى العصور الوسطى إلى التهدم فى بداية هذا القرن، حين باتت مبانيها المتهالكة سكنا للطلاب من كلية الفنون الجميلة وملاحق جامعية أخرى. ورغم ذلك كله احتفظت المنطقة بشىء من جوها القروى، ولا تزال، بأسواق متخمة فى الشوارع وأكشاك لبيع الطعام وباعة زهور يغمرون الهواء بعطور متنوعة ومحال للتحف والغرائب، بينما ضمن وجود المؤسسات الثقافية المهمة مثل "المعهد" و"الأكاديمية" ودور النشر الكبرى إرثها الفكرى المتواصل.

ولكن سان جيرمان كان مكانا عقليا أكثر من كونه مجرد منطقة جغرافية، لأنه رمز إلى انتصار روح فرنسا عقب الانهيار فى أرض المعركة. صوبت ألمانيا بنادقها إلى الثقافة وخسرت؛ لقد استخدمت فرنسا الثقافة سلاحًا وانتصرت فمحت خزى الهزيمة العسكرية. كان جان بول سارتر (اسم ارتبط أكثر من أى شخص آخر بالمنطقة) واحدًا من مجموعة من رجال ونساء فرنسيين استثنائيين فى طليعة الفكر الأوروبى، شكلوا عصرهم: سيمون دو بوفوار وريمون آرون وكلود ليفى شتراوس وسيمون فايل وألبير كامو...

ومن كتاباتهم هنا فى سان جيرمان وُلدت فلسفة الوجودية، فلسفة لا يفوقها شعبية إلا أدب سارتر. كان لكل جيل من الطلاب مفرداته الخاصة وفقا للأفكار السائدة فى عصره، تكونت مفرداتنا من الوجودية

والماركسية والتحليل النفسى... وفى ذلك الوقت باريس لم يقرأ أغلبية الشبان الذين أطلقوا على أنفسهم "وجوديين" سارتر و كامو، كما لم يقرأ الشيوعيون ماركس، ولكن الأفكار سرت فى الهواء، وقد ساعد جو ما بعد الحرب على انتشارها.

أعطانى بول محاضرة سارتر "الوجودية إنسانية"، وبعدها تقدمت فى مشقة فى قراءة عدد كبير من كتب سارتر، وكذا كامو. تعتمد الخيارات الفلسفية على المزاج والظروف، وقد لاءمت الوجودية ـ كما فهمتها ـ مزاجى وظروفى وقتها. اقترحَت أن الإنسان وحيد "منبوذ" فى العالم، وحر، وأن ثمن الحرية قلق أبدى، وأن ليس هناك قدر محدد سلفا، حيث إننا نختار ما نريد أن نكونه، وعليه نصنع أقدارنا؛ وأن الحياة لا معنى لها عدا ما نسبغه عليها، وأن الفن والأدب بوسعهما أن يصلحا الوجود، فكرة عبثية بالأساس. تقول إن أغلب الناس يرفضون حريتهم ويلجأون للوهم وخداع الذات مما يؤدى بهم إلى "تضليل النفس" و "الزيف." إلا أن الحرية تُمارس فى إطار "موقف" يمكن أن يتغير "بالفعل" (ولا سيما الفعل السياسى) مما يجعل "الالتزام" أمرًا محتومًا.

من العسير العيشة وفقا لمبادئ الوجودية، فهى تضع مسئولية الحياة مباشرة على كتف المرء، دون أن تقدم إليه أى عذر أو عزاء. المدهش أن سارتر نفسه وجدها أكثر مما يطيق؛ حاول أن يوفق بين الوجودية والماركسية، محاولة "لتربيع الدائرة" أفضت إلى تقديم التنازلات و"الزيف" الشخصى. انحاز هو وسيمون دو بوفوار إلى الحزب الشيوعى وأصبحا مناصرين مخلصين، رسخا جوا أشبه بالإرهاب بأن أعلنا أن كل

المعارضين للشيوعية خنازير"، وانفصلا عن أصدقائهما ـ كامو وآرون وكيستلر، حتى المهذب ميرلو بونتى ـ وأحاطا نفسيهما بالرفاق الصغار، والعديد من طلابهما السابقين، وبحلول عام ١٩٥٧ بعد ثورة المجر وتقرير خروشوف ترك أغلب المفكرين الشيوعيين الحزب أو طُردوا إلا أن سارتر لم يكف عن "الإيمان به"، وفى فترة لاحقة عندما سئل عن إخفائه وجود معسكرات الاعتقال فى روسيا التى عرف بوجودها فترة طويلة، أجاب: "يجب ألا يدفع المرء البِلانكورت Billancourt (أى عمال السيارات ماركة رينو) إلى اليأس"؛ استشهاد صار شهيرا منذ حينها كمثال بارز على "خيانة المفكرين". وقرب نهاية حياته، حين كان مريضا ويكاد يكون أعمى، وواصل التاريخ ـ الذى ضحى من أجله بالحقيقة ـ مسيرته وخلفه وراءه، أعلن "لستُ ماركسيا".

لم يكن سارتر وحده فى هذا المسار الفكرى؛ فقد لحقه عدد لا حصر له من مفكرى الجناح اليسارى والمتعاطفين مع الاشتراكية. انكشفت لأعينهم حقيقة روسيا ولم يمسكوا عن العثور على أراض مفقودة فى الصين وكوبا... "هناك شىء فيهم طمح إلى العبودية"؛ هكذا وصف كامو موقفهم.

وعلى العكس منه، ظل كامو شريفا ومتسقا مع ذاته حتى نهاية حياته؛ نشب النزاع بينه وبين سارتر بعد أن نشر كامو مقالة المتمرد The Rebel فى بداية الخمسينيات، نزاع أرخه المؤرخون فى كتب عديدة منذ حينها. يكفى أن نقول إن كامو أظهر الفروق بين التمرد الميتافيزيقى والسياسى للإنسان وتفاهة "الثورة"؛ فالأول رفض للظلم وتأكيد للكرامة الإنسانية، والثانى إرجاء للقيم الإنسانية لصالح "البرنامج"، مستقبل

أفضل افتراضًا. "أنا أتمرد، لذلك نحن هنا" مقابل "الغاية تبرر الوسيلة"، التى تبرر العنف والغش والإرهاب.

فهم طبيعة الديكتاتورية التى صارت مبتذلة منذ ما يزيد على عقد مضى، وشجبها، الديكتاتورية غير العقلانية للفاشية وكذا الديكتاتورية العقلانية للاشتراكية. صوت خفيض يصرخ فى البرية. لم يرغب أن ينحاز إلى اليسار أو اليمين، فانعزل أكثر فأكثر عن الحياة، ثبت على موقفه بكل رزانة وفاز بجائزة نوبل فى عام ١٩٥٨، ثم أدركه الموت فى حادثة سيارة فى يناير ١٩٦٠، وبعدها نصر على مضطهديه! تحققت كل توقعاته، وعندما انهارت أوروبا الشرقية فى عامى ١٩٨٩ و١٩٩٠ لم يكن هناك مفكر واحد له قيمة فى الحزب الشيوعى الفرنسى.

لقد جسد كامو حالة مزدوجة متمردة وصوفية، ولكنها وقفت دوما إلى جانب الحياة والبهجة، لم يستطع أن يصادق على فلسفة تقول إن المرء لا بد أن يضحى بالمبادئ الأخلاقية إلى أن تنبعث فى "مستقبل أفضل"، وجدت نفسى منجذبة أكثر فأكثر إلى موقفه.

على الرغم من أنه كان متزوجا وأبا لطفلين، اشتهر كامو بعلاقاته العاطفية خارج إطار الزواج. ذكر المؤرخون زيجتيه وعلاقاته الأساسية فى سيرته، وكذا فى الروايات المعاصرة المرتكزة على أحداث واقعية romans à clef وأبرزها رواية سيمون دو بوفوار «المثقفون» The Mandarins الصادرة عام ١٩٥٤ كانت "رفيقة" كامو الرئيسية الأساسية الأولى فى ذلك الوقت طالبة سابقة فى فصل ثانيا، ممثلة مشهورة قابلتها وأضمرت لها عظيم الإعجاب. ولكن دخلت جميلات عديدات فى

فلكه؛ فى ممثلات شابات طامحات، وفتيات يرغبن فى أن يصبحن كاتبات، ومضيفات الحفلات الراقية. الواضح أنه لم يجد مشقة فى إحراز غزوات جديدة، وفى هذا المضمار لم يختلف عن عدد لا نهائى من الكُتاب والفنانين؛ فقد حفلت منطقة سان جيرمان دوما بالقيل والقال عن العلاقات الغرامية بين المفكرين.

"هناك حب ثابت وهناك حب مشروط". قال سارتر لسيمون دو بوفوار، مؤكدا أن حبهما من النوع الأول بينما كان حبه للأخريات من النوع الثانى. غدت الصيغة شهيرة وقدمت نموذجا لأتباعهما، علَّق الكاتب الأمريكى نيلسون ألجرين الذى ربطت بينه وبين سيمون دو بوفوار علاقة عاطفية طويلة قائلا: "كيف يمكن للحب أن يكون مشروطا؟ مشروطا على ماذا؟" اتفقت معه فى الرأى؛ كانت هذه ولا شك علاقة مستهجنة غير شرعية متنكرة فى زى فلسفى، ولم تكن مناسبة لى؛ كنت بريئة بحق، ولم أر سببا لتغيير سلوكى، سوف أصبح غير أصيلة!

كانت أنطونيلا واحدة من غزوات كامو، طالبة فى أحد فصول تانيا، كانت أولى صديقاتى فى المكان، كانت من أصل إيطالى وغاية فى الجاذبية، طويلة، نحيلة، ذات بشرة داكنة، لها عينيان خضراوان ضاربتان إلى الرمادى بدتا دائما نديتين بالدموع. درَست الإيطالية فى الجامعة ثم تزوجت بطالب من زملائها وأنجبت ابنا على حين كانت تكتب القصص القصيرة وقصص الجن، وقد نشرت منها اثنتين. كتبت يوما خطاب إعجاب لكامو مما أدى إلى لقائهما، وبعدها بدأت بينهما علاقة غرامية. كانت العلاقة بالنسبة لكامو لقاء قصيرا لا أهمية له مثل انتزاع قطعة شوكولاتة فى طريقك إلى البيت لتناول العشاء، ولكنها كانت علاقة جادة

بالنسبة لأنطونيلا؛ إذ أحبته حبا يائسا، وتركت زوجها وأخذت ابنها الصغير لتعيش مع صديقة تعمل مُدرسة على أمل أن يبدى كامو نحوها أى التزام.

ولكنه أوضح لها برقة وتهذب أن لا نية لديه للارتباط بها، وأخبرها أنه غير قادر على الحب بأى معنى من المعانى، وأنه سوف يظل دوما صديقها كما هو صديق العديد من النساء، ولكن لا شىء أكثر من ذلك. انفطر قلب أنطونيلا، كانت وقتها فى الخامسة والعشرين، وقد شيدت صرحا عاطفيا كاملا على أقل القليل دون أى تعهد على الإطلاق. عاشت من أجل المرات القليلة التى رأته فيها وقد كان امتهان التمثيل أحد الطرق التى سعت بها للبقاء فى حياته.

أسرت إلىَّ بأمرها وبكت بكاء غزيرا، وقد خامرنى الحزن لعجزى عن صنع أى شىء، ورغم تأثرى الشديد بفكر كامو، استأت منه لأنه السبب فى معاناتها. وبعدها عهدت ثانيا، مدرسة الدراما، إلىَّ بدور أولجا، البطلة الثورية فى مسرحيته العادلون The Just وبعدها عندما أتى ليتفرج على مسرحية منزل بيرناردا ألبا The House of bemarda Alba، تعرفت إليه. اتسم بالتهذب والجاذبية، قدم لى المجاملات المعتادة، وأضاف تعليقات محددة صدقتها. قال لى إنه يتمنى أن يؤسس فرقة مسرحية خاصة به، واقترح أن أجرى اختبار أداء له. إن كون المرء جزءا من مجموعة ممثلين تحت إشرافه معناه ضمان أن يقوم بعمل ذى قيمة وفى نفس الوقت كسب أموال معقولة، كان حلما! ولكن بسبب مشاعرى تجاه ما فعله بأنطونيلا لم أستجب لعرضه بإجراء تجربة الأداء، وفى النهاية غادرت باريس قبل بضعة أيام من وفاته. كانت واحدة من تلك

"الفرص الضائعة" التى تغص بها الحياة، جزء من ذلك الندم اللا نهائى الذى نراكمه.

وليس معنى ذلك أننا لم نتقابل مرة أخرى، مرة اتفق أن التقيت به فى جادة سان جيرمان وهو يخرج من مقهى قريب من مكاتب ناشريه، فوقفنا لنتجاذب أطراف الحديث بلا كلفة، قال إنه مرتبط بموعد، ولكنه سيقابلنى فى الأمسية التالية، فى الساعة السادسة، فى نفس المكان.

اعتقدت أننا سوف نتحدث عن المسرح وخططه والأفكار والكتب، ولكنى عندما أخبرت بيير أرسل ضحكة قائلا: "كيف بقيت على قيد الحياة وأنت بهذه السذاجة؟ أليس محتملا أنه يريدك ممثلة ومغامَرة؟" وأعطانى محاضرة عن فلسفة كامو وكيف انطبقت على حياته بهجة الحياة Joie de vivre، وتعددية التجربة، والتوازن والوضوح المتوسطى، وكلها أدوية للقلق ومشاعر العبث، لذا لم أذهب إلى الميعاد، ولم أر كامو من جديد، ولكنى كتبت له رسالة وقلت له بصراحة إنى خائفة منه وإن أحدهم حذرنى منه. أرسل لى رسالة رقيقة ودود، وتبادلنا رسالتين أخريين، رميت أغلب رسائلى ومذكراتى وملحوظاتى عندما غادرت باريس، ولكن رسائله كانت من بين القلة القليلة التى احتفظت بها.

قيل لى إن العديد من "الأرامل" المجهولات ظهرن عند وفاته، غير أرملته الشرعية والممثلة رفيقته المعترف بها، ادعين كلهن أنهن حب حياته الأعظم، وقد كانت أنطونيلا من بينهن.

أضحيت زائرة معتادة لحى سان جيرمان دو برى فى آخر ثمانية عشر شهرا فقط قضيتها فى باريس، ظل بعض الأصدقاء الذين

صادقتهم مقربين إلىَّ منذ وقتها، وتضفى ذاكرتهم وهجا ورديا على أيام كانت فى الغالب كئيبة سوداء. كانت العلاقات الأخرى سعيدة غير أنها كانت وجيزة، تشكل هذه العلاقات جانبا مهما من تعليم الحياة، وقد مضيت إلى باريس كى أتعلم! كان أحدهم خوزيه بيرجامن، الشاعر والحكيم الإسبانى المغترب، انتسب إلى تلك المجموعة المتألقة من الشعراء الإسبان المعروفين باسم "جيل ٢٤" الذين من بينهم لوركا وألبرتى وهيرنانديز وآخرون كثيرون، انحازوا إلى الجمهوريين فى الحرب الأهلية. تم اغتيال لوركا، وعندما فاز فرانكو نُفى العديد منهم، فى الأغلب إلى دول إسبانية فى أمريكا الجنوبية، اختار بيرجامن المكسيك حيث درَّس فى الجامعة وكتب كتبه فى الشعر والمقالات والنقد. وفى منتصف الخمسينيات تقاعد من التدريس وجاء للعيش فى باريس كى يكون قريبا من أطفاله الذين ظلوا فى إسبانيا.

عاش الآن فى المنزل المكسيكى بالمدينة الجامعية، ما قدر أن يتحمل تكلفة منزل خاص به، وقد كان شرفا كبيرا للمنزل المكسيكى أن يضمه. طيب، رقيق، أنيق، وكان أيضا غاية فى الكرم رغم موارده المحدودة؛ ما سمح لأحد أبدا أن يدفع الفاتورة فى مقهى فلور حيث يقابل أصدقاءه فى أغلب الأوقات، وعندما عجز عن مساعدة رفقائه المغتربين ماديا، استخدم صلاته لمساعدتهم، مع الناشرين أو مخرجى المسرح والسينما، وأى شخص يتولى منصبا كى يوظفهم.

أحيانا ما دعانى بيرجامن لتناول غداء خفيف وشاى إنجليزى فى مقهى فلور، وهناك ينضم إلينا أصدقاء آخرون فى كثير من الأحيان.

الاستماع إليهم وهم يتحدثون جعلنى مدركة لورطتهم، مبعثرون فى كل أنحاء العالم، يحاولون ألا يفقدوا الصلة بجذورهم ولغتهم وأزيائهم حتى يأتى وقت رحيل فرانكو وعودتهم إلى إسبانيا.

علمنى مبادئ الأدب الإسبانى بالحديث عنه، ومنحنى كتب شعر للوركا وماشادو وهيرنانديز وألبرتى، قائلا إن الشعر والأغانى هى أفضل طريقة لتعلم أية لغة، من خلال الاستمتاع. شجعنى على العودة إلى إيران: "الغربة هى أفظع المحن، عندما تكونين صغيرة ومشغولة بالتكيف مع العالم، لا تلاحظين ذلك كثيرا، ولكنك حين تكبرين فى السن، "يزداد الأمر سوءا". لم تكن هناك عوائق سياسية لإقامته فى إسبانيا، فهو على عكس ألبرتى لم يكن شيوعيا قط، كان ديمقراطيا، متسامحا تسامحا عميقا ومتحضرا، وبطبعه كان صوفيا مسيحيا، ولكنه قطع على نفسه عهدا ألا تطأ قدماه هناك ما دام فرانكو حيا، وقد التزم بعهده متحملا الصعوبات والحنين حتى عاد أخيرا عجوزا واهنا كى يصبح رجل دولة مبجلا فى الآداب الإسبانية فى الجمهورية. أردت أن أذهب للقائه، والحق أنى رتبت رحلة إلى مدريد، ولكنه مات قبل أن أتمكن من الرحيل، مغطىً بالأوسمة ومحاطًا بآيات الحب. احتفظت بالكتب القليلة التى منحها إياى، رباعيات Quatrains لوركا، والقديس جون التابع للصليب، والقديسة تيريزا من مدينة أفيلا؛ لم يعتقد أحد منهم فى الموت.

كان الكاتب المصرى ألبرت قُصرى أحد مرتادى habitué مقهى فلور. قابلته من خلال صديق إيرانى. كان قبطيا كتب باللغة الفرنسية، كان قد جاء إلى باريس بعد الحرب ومعه مخطوطته الأولى، كى يتبين الأحوال

فقط لا غير"، ولم يغادرها قط. وكما هو الحال مع سارتر وسيمون دو بوفوار والعديد من الكُتاب الفرنسيين والمنفيين وجد غرفة فى فندق لويزيان فى شارع السين، ولكنه على العكس منهم لم ينتقل منه قط. رغم تجديد الفندق الآن وغلو سعره، واستمتاعه بمقام سكانه السابقين الرفيع، يُحسب للإدارة أنها لم تطرد قصيرى، الحق أنها كانت فخورة بوجوده.

لم يكن قصرى كاتبا غزير الإنتاج، واستندت سمعته إلى ثلاث روايات تدور كلها حول القاهرة مسقط رأسه. رحب به النقاد باعتباره هنرى ميلر فرنسا، كان قد أطرى على كتبه وساهم فى سمعتها العالمية، ولكن المقارنة كانت ظالمة لقصيرى؛ فقد اتسمت رواياته - على النقيض من ميلر - بالقصر والإيجاز والبنية الكلاسيكية، لم تشتمل على فجور لفظى ولا فحش ولا كراهية للنساء ولا جدية خالية من الفكاهة، الحق أنها تشربت بفكاهة وسخرية تخففهما العواطف.

كانت فلسفته الجنسية هى أن الهدف من النساء هو تحقيق المتعة والراحة ليس إلا، لا الاتصال الفكرى، إنهن يجب أن ينلن الإعزاز والعناية، وإن من يتوقع منهن كسب العيش هو رجل منحل أخلاقيا. كانت تلك المواقف يمكن أن تجلب له حكما بالإعدام من قِبل أكثر النسويات اعتدالا لولا أن أنقذته فكاهته. كان مستفزا ومضادا عابثا للامتثال للأعراف، بالطبع لأنه فى الحقيقة استوعب المرأة الذكية وقدّرها عظيم التقدير، مفضلا صحبتها على صحبة أى رجل. تزوج بممثلة لفترة قصيرة - فقط فترة طويلة بما يكفى كى يكتشف أن الزواج لا يناسبه -

ومنذ حينها أحبته سلسلة من النساء الجميلات دون أن يتوقعن أى التزام دائم، ماتت علاقاته ميتات طبيعية، فى الفراش مثلما يقولون، ثم تحولت كلية إلى صداقات.

أمَّا اللغز فهو كيف كان قصرى يكسب قوته، وعندما كان المرء يسأل، كان يجيب: "ولكنى لا أكسب قوتا!" كان إنتاجه الأدبى ضئيلا، وكانت الصحافة عملا شاقا لا يَقدر عليه، وكذا التدريس، ومع ذلك "جاءت" أموال كافية بصورة من الصور. حكى لى قصصا عديدة عن مرات تنفد فيها أمواله بالكامل، وفجأة يتحقق شىء من حيث لا يدرى، مثل شيك من معجب أمريكى حثه هنرى ميلر على "أن يرسل بعض النقود لقصرى". "أعاره" أصدقاؤه الأغنى بعض النقود أيضا، وقد كان فى المقابل سخيا حيال الآخرين، فقد تصرف مثل النبيل الشرقى، وإنما بدون قرش Sou! أضمر احتقارا عميقا للسعى وراء الكسب المادى، وكان انحرافه الوحيد عن مذهب المتعة هو الكتابة أو تعديل سيناريوهات الأفلام من حين لآخر، مهمة كان يبرع فيها، وكان من الممكن أن يغتنى منها لولا أنه وجد الانشغال بالمال غير مستحق، تلهية عن العمل الجاد المتمثل فى استمتاع المتسلى S'amuser.

وكما هو متصور، كانت صحبة قصرى مُرضية ككتبه، كان سريع الملاحظة خفيف الدم، وخلف فكاهته اللاذعة سرى داخله شعور بالشفقة على رفقائه من البشر. كان يدخن بشراهة ولكنه لم يستنشق الدخان (أو هكذا ادعى). عندما أصيب فى سن السبعين بسرطان الرئة، أمره الجراح أن يمتنع عن التدخين، نصيحة تجاهلها؛ "سوف يقول الأطباء أى شىء كى يمنعوك من الاستمتاع!" أخبرنى حين وبخته.

بمقدورك أن تجده أيامها فى نحو الثانية ما بعد الظهر وهو يتناول الإفطار فى مقهى فلور، وحده أو برفقة أصدقاء. "اجلسى وتناولى شيئا". كان يقول بصوت عميق ذى لكنة عربية واضحة، يمكن أن يقضى ساعة أو عدة ساعات فى تناول الإفطار وفقا للجالسين. أكَنَّ الاحترام الشرقى التقليدى للموهبة والذكاء الأصيل، ولكن بإمكانه أن يتحلى بسخرية مضحكة جدا لا ترحم، كان المدعى والمزيف والمفكر المتمر فى الغالب هم أهدافه الأساسية، مع الوضع فى الاعتبار الجمهور الملائم. ذهب فى الأمسيات إلى العشاء مع أصدقائه، وانتهى به الأمر أحيانا إلى قضاء ساعات فى الحانات أو العودة إلى مقهى فلور.

متى كان يكتب؟ الحق أنه لم يكن لديه الوفرة من الوقت كى يكتب، ومن هنا كان دخله ضئيلا. انقضت عدة سنوات بين الكتب، بيد أنها عندما ظهرت لاقت مراجعات نقدية جذِلَةً، واليوم تنامت شهرته فى كل أنحاء العالم اعتمادا على قوة بضع روايات، قد تُرجمت كتبه إلى ما يربو على اثنتى عشرة لغة، وتحول بعضها إلى أفلام. وفى فرنسا حيث استمتع دوما بملاحقة المعجبين، نال الاعتراف الرسمى وحصل على جوائز أدبية مهمة، وفى مصر مسقط رأسه كان موضع تبجيل وكبرياء، رغم أنه لم يكتب باللغة العربية. أقابله كلما أزور باريس، إنه فى نهاية السبعينيات، غير أن العمر لم يغيره كثيرا ولا أضعف خفة دمه؛ فأحكامه على الموضة والأهواء الشائعة لا تزال فى منتهى الإضحاك مثلما كانت. يكمن أسفل كل هذا الظَّرف كاتب محترف ساعٍ إلى الكمال صعب الإرضاء، يرى الأدب أمرا جادا كل الجدية حقا، حتى إنه من العسير خلطه بأمور كسب العيش المبتذلة.

كان لوسيان جولدمان واحدا من الكتاب الذين قد تبصرهم يتحدثون إلى قصرى، ولد فى رومانيا وعاش فى فيينا وسويسرا وبروكسل قبل أن يستقر فى منطقة سان جيرمان دو برى مع زوجة فرنسية. كاتب عالمى بحق، بوسعه أن يتكلم عدة لغات فى شتى المواضيع، بما فى ذلك النقد وعلم الاجتماع وتاريخ الثقافة والفلسفة. ذاعت شهرته فى الدوائر الفكرية لذكائه الحاد ومعرفته الواسعة قبل أن يكتب سطرا واحدا، ما كان منه إلا أن يتحدث! وفى يوم من الأيام أخبره أحدهم أنه بدلا من إهدار ذكائه فى الهواء، لا بد من أن يكتبه على الورق، وقد كتب، ومن وقتها كتب كمية كبيرة تاركا مجموعة أعمال مبهرة عند وفاته.

كان جولدمان تلميذا للناقد المجرى الماركسى جورج لوكاتش الذى ساعد على نشر نظرياته فى فرنسا، واليوم يوصف بأنه "ضليع فى الجانب النظرى من النقد البنيوى الماركسى الفرنسى"، ولكن البنيوية لم تكن فى تلك الأيام آخر صيحات "النظريات"، فقد حدث ذلك فى الستينيات، وما قرأنا كتاباته إلا للاطلاع على أفكاره المبتكرة نافذة البصيرة فى عالم نعلم عنه القليل. كانت رائعته «الإله المختفى Le Dien Caché» دراسة عن مذهب الينسينية(*) وعلاقته بكتاب باسكال الأفكار Pensées ومسرحيات راسين التراجيدية، وبعدها جلب له كتاب أقصر وأسهل عن راسين والينسينية قراء أكثر، وقد تأثر عديد من الطلاب بنظرياته.

* الينسينية: مذهب لاهوتى يقول بفقدان حرية الإرادة وبأن الخلاص عن طريق موت المسيح مقصور على فئة قليلة. (المترجمة)

أصبحتُ مهتمة بمذهب الينسينية، أولا بسبب الاضطهاد الذى لاقاه أتباعه على أيدى الكنيسة والدولة، وبعدها بسبب رؤيتهم التراجيدية للحالة الإنسانية، الطبيعة الاعتباطية للنعمة الإلهية، وظلم الخطيئة، ومركزية الذنب، بدت منطقية على ضوء كل ما عانيتهُ وشهدتهُ من معاناة إنسانية. أى حل سياسى بإمكانه أن يغير هذا الوضع؟ كيف يمكن أن يتحول العالم كيلا يموت الأطفال الأبرياء من الأمراض؟ كى يُقابل الحب بالحب على الدوام، وتُجازى الفضيلة؟ لا يعنى ذلك أننا ينبغى أن نمسك عن الكفاح من أجل تخفيف عبء المعاناة الإنسانية، ولكننا لا بد أن نتذكر دوما أين نقف. لخص باسكال المنتمى إلى مذهب الينسينية المسألة بأن قارن بين البشر وسجناء محكوم عليهم بالإعدام "يتبادلون نظرات الأسى، بدون أمل، فى انتظار دورهم".

قدَّمنى قصرى: "ها هو شخص قرأ كتبك". كان جولدمان طيب القلب؛ بدلا من إظهار الملل بسبب "الفلسفة" غير الناضجة لمجرد طالبة، كشف لى عن أحدث أفكاره، ومتى التقينا بعدئذ كان يبدى انتباها غير منقوص لأى موضوع ناقشناه أيا كان، كان هو الذى يتحدث على الدوام، حديثه تنويرى لا يعدم الإمتاع. ثم فقدتُ الاتصال به، ثم قرأتُ وكلى أسف خبر موته فى الصحف بعد أن غادرت باريس. عندما نبذت المجر الاشتراكية بصورة رسمية، تفكرت فيه وفى صديقه لوكاتش، وتساءلت عن رد فعلهما؛ ينبغى أن أفكر بتهيدة دالة على شعور بالراحة.

تضم سان جيرمان عددا ضخما متنقلا من الممثلين والممثلات، حقق عديد منهم وقتذاك مسيرات مهنية ناجحة، ومن بين من قابلتهن صارت

إحداهن صديقة مدى الحياة رغم الفارق السنى بيننا. كانت لوليه بيلون تُعتبر واحدة من أفضل ممثلات المسرح فى جيلها، محط إعجاب خاص من الجمهور بسبب أسلوب تقديمها للكلاسيكيات الروسية ـ تشيكوف، وتورجينيف،و دستويفسكى ـ وكذلك بطلات راسين وكلوديل. رأيتها لأول مرة فى مسرحية تشيكوف «إيفانوف» Ivanov وهى تلعب دور زوجة البطل الضحية المسلولة. غلبت الجمهور إثارة لقوة تمثيلها الدرامى، وتأثر غاية التأثر بما خالج وجودها من حزن وألم، حتى إن كل الأعين كانت دامعة مع غلق ستارة المسرح. ولأنى كنت مع صديق كان يعرفها قصدنا كواليس المسرح لتهنئتها، وبدلا من البطلة المهتاجة التى رأيناها منذ بضع دقائق وجدنا امرأة جميلة مرحة نشيطة تضحك مع الأصدقاء. كانت مضطرة إلى أن تهرع إلى بيتها، إلى ابنها الصغير، ولكننا اتفقنا على اللقاء فى مقهى فلور لاحتساء الشاى فى اليوم التالى، رغم أنها أقامت فى الضفة اليمنى ولم تأت إلى المنطقة كثيرا، وهكذا أصبحنا أصدقاء.

كانت أكبر منى سنا، يجلها النقاد والجمهور على حد سواء، ذات اهتمامات متعددة المدى خارج إطار المسرح، كانت قدوة مثالية. تزوجتْ فى سن صغيرة كاتبا إسبانيا مغتربا، جورج سيمبرون (وزير الثقافة الإسبانى الحالى) ورغم قصر عمر الزواج فقد أنتج ابنا، والآن عليها أن تعيل نفسها وابنها. ذلك القلق المصاحب لعمل الكثير من المهام فى نفس الوقت، التمثيل فى الأمسيات، والعمل أيضا نهارا فى المسرحيات الإذاعية والتلفزيونية، والعناية بطفلها، قلق عهدتُه بعد عقد من الزمان عندما اضطررت أن أكسب عيشى بطفلين صغيرين مسافرة فى أنحاء

البلد. كانت مثل معظم الممثلات بلا عمل رغم شهرتها، ومع ذلك لم تفقد قط تفاؤلها أو مرحها أو عقلها المنفتح، أيا كان من تصاحبه، كانت تصر على أن تكون المضيفة، تقاتل من أجل الفاتورة، وغالبا ما تنتصر. يكافئ القدر مثل ذلك الكرم، وقد تمكنت بطريقة أو بأخرى أن تكسب ما يكفيها.

انضمت إلى الحزب الشيوعى فى سنوات المراهقة بعد الحرب، وباعتبارها ممثلة شابة ناجحة سرعان ما أصبحت واحدة من مصادر قوته على المسرح. كان بمقدورك أن تراها على المنبر فى الاجتماعات، بصحبة شخصيات أخرى مشهورة تفاخر بها الحزب، تسمعها وهى تقرأ الشعر وتوقع اسمها للمعجبين، وتعزز بوجه عام مكانة الحزب بوجودها. تتعرف على صوتها العميق الدافئ المميز فى المذياع، وترى اسمها على الملصقات الإعلانية، ولكن عندما قابلتها كانت هى الأخرى قد تركت الحزب.

كانت أمها يهودية، بيد أن عائلتها تأقلمت تمام التأقلم، حتى إنها لم تع أصولها إلا عندما أُرغم أعمامها على ارتداء نجمة صفراء خلال الاحتلال الألمانى. تعلمت منذ حينها أن تميز معاداة السامية مهما أحسنت التخفى، وبدأت الشكوك تساورها لأول مرة فى الاتحاد السوفيتى، أثناء مؤامرة الأطباء اليهود التى كشفت عن معاداة ستالين للسامية. ولكن لأن الإيمان أقوى من العقل أصرت على معتقداتها، حتى سددت ثورة المجر وتقرير خروشوف الضربة القاضية Coup-de-grâce لهذه المعتقدات .

كان احتساء الشاى مع لوليه فى مقهى فلور فرصة للقاء ممثلين وكُتاب آخرين، من بينهم كلود روى، وهو كاتب غزير الإنتاج، كان أحد رفقاء أراجون المقربين، كان ارتداده عن الحزب ضربة قاسية للحزب. كنت قد قرأت قصائده ومقالاته، وأبصرته من بعيد فى المهرجانات ومعارض الكتب الشهيرة. كان إنتاجه هائلا فى المدى والتنوع؛ شعر، ونقد، ونثر، ورحلات...كان الأصدقاء يقولون: "لقد قرأ كل شىء". ومع ذلك بدا ذلك كله عفويا تلقائيا، وكان لديه دوما الوقت للاختلاط بالناس. لم أندهش لصداقته بلوليه ثم زواجهما وتأسيسهما بيتا فى سان جيرمان، ولحسن الحظ أن زواجهما انطبق عليه القول: "وقد عاشا سعيدين إلى الأبد".

لأنى تزوجت رجلاً إنجليزيّا، وعشت فى الريف الإنجليزى بطفلين صغيرين، كان من المحتوم أن أفقد الاتصال بكثير من الأصدقاء والمعارف الباريسيين خلال الستينيات، ولكن لوليه وكلود حافظا بشكل من الأشكال على الاتصال؛ أتيا إلى إنجلترا لرؤية الأصدقاء ومشاهدة المسرحيات، وقد ترجم كلود بعضها إلى الفرنسية، وفى يوم من الأيام كتبت لوليه مسرحية. عُرضت المسرحية ولاقت استحسانا هائلا من النقاد، واستمرت عامين، وتبعت المسرحية مسرحية أخرى، وبعدها مسرحية ثالثة. فازت بجوائز، وعُرضت مسرحياتها فى القارة بأسرها. كان انتقالها فى منتصف العمر من ممثلة إلى كاتبة مسرحية انتقالا سلسا تخيم عليه السعادة، ولم تنظر إلى الوراء.

جذب حى سان جيرمان دائما الفنانين والكتاب المغتربين والمنفيين من جنوب أمريكا والشرق الأوسط وإفريقيا باعتباره مركز الحياة البوهيمية،

... تتبعوا خطوات أسلافهم اللامعين ـ جويس، وهيمنجواى وفيتزجيرالد، وجيرترود شتاين ـ الذين لا تزال أشباحهم ترتاد الجهة اليسارية، والمطاعم التى شهروها، إذ جاء عدد من الكتاب والفنانين من بريطانيا وأمريكا للعيش والعمل فى باريس بعد الحرب. لقد ألَّف الأنجلوسكسون (كما سُمى البريطانيون والأمريكيون إذا اجتمعوا معًا) جماعة ضخمة وتجتمعوا فى مقاهيهم ومطاعمهم، وفضلوا مقهى تورنون فى شارع يحمل الاسم نفسه يمتد من جادة سان جيرمان إلى مسرح أوديون.

أخذنى أحد معارفى فى باريس، هشام شاهينى، إلى مقهى تورنون لأول مرة فى أمسية من الأمسيات. كان ناشطا "محترفا" فى الحزب الشيوعى، إلا أنه كان الآن متقاعدا بسبب مرض فى القلب أودى به فى النهاية. ظل شيوعيا حتى بعد المجر، أقر "بأخطاء" ستالين، غير أنه استخدم المبرر الشهير القديم: لا يمكن طهى عجة بدون كسر البيض. لم يستطع أحد أن يتنبأ وقتها أن التحلل سوف يبدأ بحلول عام ١٩٩٠، وأن البيض يجب استعادته من العجة، وأن هذه الاستعادة سوف تكون أصعب كثيرا من "الطهى" الأول.

حيانى أنا وشاهينى جماعة من الأصدقاء الجالسين فى نهاية المقهى، حيث اتحدت مائدتان صغيرتان معا لصنع دائرة أوسع: كاتب أمريكى، عالم رياضيات من الهند الغربية وزوجته، وممثل من شرق إفريقيا، وشاعر إنجليزى، وكذلك معجبات مفكرات شابات لتجميل الجلسة. كانت مناقشة حامية جارية بالإنجليزية؛ فلم يسهل علىَّ الانضمام إليها، لأنى

لم أكن أعرف اللغة جيدا، ولكن باعتبارى وافدة جديدة أثرت الانتباه، وقد بذلوا مجهودا فى تكرار كلمات لم أفهمها بالفرنسية.

كان الكاتب الأمريكى هو ريتشارد رايت، كان من أول الأنجلوسكسون الذين وصلوا سابقا عام ١٩٤٨. كان تلميذ جيرترود شتاين النجيب، كانت روايته التى حققت أفضل المبيعات **الفتى الأسود** قد عُرضت على نحو مسلسل فى عرض سارتر المسرحى **الأوقات المعاصرة** Les Temps Modernes، وقد شجعه سارتر على المجىء إلى باريس، حيث تم استقباله بأذرع مفتوحة. غالبا ما يكون هذا الافتتان قصير العمر، وعندما كتب سارتر كتيبا مضادا للعنصرية ذكر فيه أن البشرة البيضاء داعرة، حذره رايت من "**العنصرية المعكوسة**" ففترت علاقتهما.

رغم أن رايت كان شيوعيا فى الثلاثينيات، فقدتحرر من الشيوعية بالتدريج وترك الحزب. وقد كان من المحتوم أن يتم اتهامه "بالبرجوازية" والرجعية Passe، ولم يساعد موقفه أن كتبه الأخيرة لم توازِ نجاح روايتيه الأولى والثانية الشهيرتين، ولكنه لم يزل محترما تستمع إليه الحاشية المخلصة، حتى عاد فى النهاية إلى أمريكا وتوفى عام١٩٦٠.

كثيرا ما جلس رايت وجيمز بولدوين فى مقهى تورنون، يحيط بهما مواطنوهم وأصدقاؤهم ومعجبون من جنسيات أخرى، كان من بينهم أمريكيان شابان، روبرت سيلفر وجورج بليمبتون اللذين أسسا مجلة أدبية سمياها اسما ملائما، **ذا باريس ريفيو** The Paris Review. كثرت الدوريات الأجنبية، وبخاصة الإنجليزية، ولكن كان عمرها قصيرًا فى أغلب الأحيان، إذ تفتقر حتى الموت بسبب نقص الأموال والأسباب العملية الأخرى. لم يحدث هذا مع **ذا باريس ريفيو**. والفضل يرجع إلى

حماسة مؤسسيّها وإدراكهما، فقد تمكنا من إيجاد داعمين وأقنعا مؤلفين ذوى اعتبار بالمساهمة مقابل مكافآت بسيطة، وهكذا وطدت المجلة أقدامها. تعمقت حواراتها الصحفية مع كُتاب مشهورين مثل هيمنجواى وفوكنر ورايت وآخرين فى أصل أعمالهم وحيواتهم، وسرعان ما كسبت المجلة قطاعا عريضا من القراء، وبعدها تم اختيار أفضل هذه الحوارات ونشرها على شكل كتاب. انتقل سيلفر وبليمبتون عائدين إلى نيويورك فى عام ١٩٥٦ وأخذا ذا باريس ريفيو معهما، محتفظين بإصدارها الفصلى وأسلوبها. أصبح سيلفر فى مرحلة لاحقة رئيس تحرير مجلة نيويورك ريفيو أوف بوكس New York Review of Books بينما ظل بليمبتون رئيس تحرير ذا باريس ريفيو وألف كتبه الخاصة به، انتقل بولدوين هو الآخر. ولكن حدثت كل هذه الأحداث قبل أن أختلف إلى مقهى تورنون.

هيمن الشاعر الإنجليزى كريستوفر لوجو على المناقشة فى تلك الأمسية الأولى، كان يتحدث بصوت أجش غير معتاد، ولكن بإلقاء واضح مما سهل علىَّ الفهم. كان قد نشر مجموعتين شعريتين تلقاهما القراء بشكل طيب، وقد ساهم بالقصائد، قصائده وقصائد مترجمة من الفرنسية والإسبانية، فى عدد من الإصدارات. المفارقة هى أن لغته الفرنسية كانت هزيلة ولغته الإسبانية غير موجودة، ولكنه ترجم النصوص الأصلية، الكلمة تلو الكلمة، لينتج نسخا بليغة من شعر فييون ونيرودا من بين آخرين. كانت هناك مقدمات لمشروعه الضخم - لم تتحقق إلا بعد عقدين - الخاص بترجمة الإلياذة لهوميروس، وعندما صدرت عدها النقاد أفضل ترجمات الإلياذة على الإطلاق، ولكنه كان

فى ذلك الوقت شاعرا شابا فى بداية مسيرته المهنية. كان أيضا معنيا بالمسرح، وسافر إلى برلين ليتفرج على الفرقة البرلينية، حيث صادق بريخت وزوجته هيلين ويجيل، ونتيجة لهذا كان واحدا من أوائل مريدى بريخت فى بريطانيا، وتكلم مطولا وفى حماسة عن نظرياته حول الاغتراب.

جلب لى ريتشارد رايت فى زيارتى التالية نسخة من روايته **الفتى الأسود**، ومنحنى كريستوفر مجموعته الشعرية، وقد احتفظت بالاثنتين. رفضت دعوة رايت إلى العشاء - فقد عرفت وقتها أن مثل تلك التعابير عن الاهتمام مقدمات لمطالب أخرى، كانت عملية الرفض الضمنية أو الصريحة كريهة، ويجب تحاشيها. إلا أن كريستوفر طلب منى نفس الطلب بعدها، ووافقت لأنى شعرت معه بالأمان، بعد أن علمت أننا الاثنين خرجنا من علاقات مهشمة، وأننا محطمان عاطفيا، حتى إننا لن نطلب إلا صداقة رقيقة حنونا.

تفكر كلانا فى الانتحار، وكاد أن ينجح فى تحقيقه. تناهت إلىَّ القصة من شاهينى: البادى أن كريستوفر عاش وقتها فى نفس الفندق المتداعى الذى عاش فيه واحد من أصدقائه، ادعى أنه عدمى يؤمن بفلسفة نيتشه، وروج للانتحار بوصفه الحل الوحيد "الأصيل" للوجود، ولكن بدلا من أن ينتحر هو نفسه شجع كريستوفر على الانتحار. استولى على كريستوفر اليأس من الإخفاق التام فى علاقته الغرامية، فوافق وذهب إلى برشلونة ليتأمل الأمر تاركا زميله المبتهج فى الغرفة وهو يفرك يديه لنجاح "فلسفته" ويخبر الجميع! دب الذعر فى نفوس جورج

بليمبتون واثنين من الأصدقاء بعد أن سمعوا الأخبار، عثروا على الأموال وأرسلوا شخصا إلى برشلونة، عثر على كريستوفر جالسا على شاطئ مهجور تذروه الرياح، على وشك أن يسير صوب البحر. أثناه بلهجة رقيقة عن عزمه وأعاده إلى باريس، ومنذ حينها ساعد الوقت ونشر كتبه، بالإضافة إلى نجاح أصدقائه وحبهم، على عملية الشفاء البطيئة. أخبرنى بعد سنوات أن القصة تشوهت أثناء الحكى، لأن صديقه هو الذى انتابه الذعر وحذر الجميع، وعليه أنقذ حياته.

كان كريستوفر مهتما بغنائى وتمثيلى، إذ كان متقد الحماسة إزاء المسرح وكتابة الأغانى، سجلت واحدة من أغانيه بعد مضى عشرين عاما فى ألبوم يضم أغانى الشعراء.

كان بعض المغتربين الأنجلوساكسون أغنياء، فقد كان الدولار قويا وكانت الحياة نسبيا رخيصة، إلا أن كريستوفر لوجو لم يكن واحدا من هؤلاء الأغنياء، لم يمتلك نقودا. ورغم ذلك كان ينفق بسخاء الشاعر وبإسراف أى مبالغ صغيرة جناها. كان يقول بمجرد أن يصل ويأخذنى إلى مطعم قريب: "لقد بعت قصيدة، يمكننى أن أدعوك إلى العشاء،" كان يطلب لى وجبة عامرة بينما يعبث هو نفسه بقدر يسير من الطعام، فقد انكمشت معدته بسبب فترات طويلة من افتقار الطعام. جاء لرؤيتى ذات يوم معلنا أنه سوف يعود إلى لندن إلى الأبد، ساورنى الحزن لفقد انه، بيد أنى كنت أعلم أنه محق فى الذهاب؛ فقد انهمك فى الغراميات وكابد الشدة وانفطار القلب، والآن يجب أن يعود إلى بيته ويبدأ عملا جادا ويكسب عيشا. ذهبت لتوديعه فى محطة جار دو نورد، ووجدته

ينتظرنى عند الحاجز. كان هناك شخص آخر جاء لتوديعه، ولكنه كان متأخرا، وطفقنا نهرع عبر الرصيف نحو الحافلات. نادى صوت: "كريستوفر! كريستوفر!" كان هناك رجل طويل نحيل يهرع خلفنا؛ شعره قصير رمادى، هيمنت عيناه الزرقاوان الحادتان البراقتان على وجهه الهزيل الأخاذ؛ صمويل بيكيت. لقد جعله نجاح فى انتظار جودو Waiting For Godot ومسرحيتيه التاليتين مشهورا، ولكن لم يكن قد حقق وقتها مكافآت مادية ملموسة. ومع ذلك ساعد كريستوفر على المغادرة والاستقرار فى لندن بمنحه بعض الأموال (سمعت لاحقا أن بيكيت رغم انعزاله وحيائه اعتاد إبداء مثل هذه الإيماءات السخية)، وكان الوحيد من بين أصدقائه، بالإضافة إلىَّ، الذى أتى ليودعه، إذ ودعه الآخرون فى مقهى تورنون.

كان لدينا وقت لتبادل حوار قصير قبل أن تنطلق الصفارة ويضطر كريستوفر أن يستقل القطار، ودعه بيكيت وسار مبتعدا بخطى واسعة، ثم التفت عند نهاية الرصيف ليلوح بيده إليه، ولكنى لبثت فى مكانى: "عدينى أن تأتى إلى لندن قبل الرجوع إلى إيران، من فضلك؟" وعدته. ثم ارتفعت الصفارة وانطلق صوت عال حاد من القطار وأخذ يتحرك، لوحت بيدى حتى انحرف القطار عند انعطافة ليمكننى من أن ألمح كريستوفر من نافذة مقصورته قبل أن يختفى عن الأنظار.

٢٧- الرحيل

أحيانا ما يفصل بيننا وبين الموت

مسافة

بعرض شخص واحد فقط لا غير.

مارجريت يورسينار

استيقظت ذات صباح على صوت المنبه، وللحظة لم أعِ مكانى. غالبا ما يستمر فقدان الذاكرة المؤقت الشائع بين المسافرين، عدة ثوان، ولكنه يستثير وعى طبقات أعمق من الحالات المؤقتة. أتى شعاع من النور عبر شق المصراع المغلق تقريبا، وحرفته رفوف الكتب ليستقر على الفراش فوق قدمىَّ، ثم اكتشفت أنى فى شقتى الاستوديو الجديدة فى شارع سان جاك. كانت فى الطابق الأرضى، تطل على فناء معبَّد بالإسمنت، وتكونت من غرفة مستطيلة واسعة قليلا ومطبخ صغير ومدخل ضيق، سيتسع بغرفة تكفى لتركيب «دش» حمَّام فى الوقت المناسب. كان المكان جنة من الهدوء بعد ضوضاء المدينة الجامعية، ومن هنا كان إحساسى بفقدان المكان.

حازت المبنى شركة إسكان تدعمها الحكومة، شركة تمتلك أملاكا تتبعثر فى أنحاء المدينة، تملك الشركة قائمة انتظار طويلة، والأولوية بالطبع للحالات اليائسة ـ الأزواج اليائسين ومعهم أطفال، وكبار السن ـ مما يعنى أن المعجزة وحدها هى التى أمنت لى هذه الشقة. أتى أحد أصدقاء عائلتى إلى باريس، وأحضر صاحبه القديم، ماركيز سى، رئيس شركة الإسكان، ليرانى فى مسرحية منزل بيرناردا ألبا The house of Bernarda, Alba. مضينا بعدها لاحتساء مشروب، وعرف الماركيز العجوز أنى فى حاجة ماسة إلى شقة لأعيش فيها، وطلب منى أن أقابله فى مكتبه لنناقش كيف يمكنه مساعدتى.

وصلت فى اليوم المحدد إلى أرض شركة الإسكان، ورحبت بى سكرتيرة قادتنى إلى مكتب السيد الرئيس، غرفة طويلة مزودة بتحف وسجاجيد إيرانية تنتثر فوق السجادة المنطبقة على الأرضية، ولوحات للأساتذة القدامى معلقة على الحائط، وإطلالة على جادة الأوبرا ودار الأوبرا. وقف الماركيز ـ فى عقده السابع، طويل، نحيل، منحنى الظهر قليلا ـ خلف مكتبه الإمبراطورى الملون بالذهبى والبنى الضارب إلى الحمرة. أرجع شعره الخفيف إلى الوراء بفارق خفيف من المنتصف وكأنها خدعة متعمدة من المشط قسمت شعره القصير الخفيف إلى أحد الجانبين. دار حول المكتب ليُقبل يدى وقدم لى مقعدا، تحدث بصوت خافت خليق بالنبلاء سائلا عن صديقنا الفارسى المشترك، وتحدث عن المسرح الذى اعترف أنه يكن حساسية خاصة نحوه، وقال لى أخيرا إن هناك استوديو ضيقًا متاحًا فى الطابق الأرضى فى منطقة كارتييه

quartier ولكنى قد لا أجدها فى مقامى. لم أخبره أن غرفة خاصة بى فى منطقتى ـ بعد بيت الطالبات والمدينة الجامعية ـ أمر يفوق أحلامى.

قلت: "لا بأس بها، فى الوقت الحالى". محاولة ألا أفشى حماستى وأن أزرع فكرة عرض أفضل فى المستقبل. وعندما نهضت لأغادر، سايرنى إلى الباب وهز يدى، ولكن بدلا من تركها، قبض عليها ثم أمال ذقنى باليد الأخرى وأرسل لى قبلة فى الهواء.

تولانى الذعر، تجنبت الحركة بأن تظاهرت بعدم حدوثها، إذ ابتعدت ضاحكة: "لا، شكرا!" رد فعل سيئ. اندفعت حول المكتب على الفور محاولة ألا أجرى، ولم أزل أتعامل مع الموقف كأنه نكتة. استسلم فى النهاية وقال: "حسنا يا آنسة، حظا طيبا". فتح الباب وانحنى مرة ثانية فوق يدى ليطبع قبلة baise- main أووف! Oof.

سرت على الجسر إلى سان جيرمان حيث كان بيير ينتظرنى فى أحد المقاهى، خالجتنى الراحة وإن شعرت بالغثيان والقنوط.

"حسنا Alors؟" سأل.

"لا أعتقد أنى سآخذ الشقة، القصة المعتادة!" ثم حكيت له ما جرى.

"مَن العالِم، قد تأخذينها مع ذلك، لكن ربما لم يكن من الواجب أن تذهبى على شكل حمار وحشى مخطط صغير مغريةً المفترسين".

"ذلك كل ما أملك، على أية حال ربما كانت فرصتى تقل إن ارتديت ملابس راهبة ،إلا إذا كان غريب الأطوار جنسيا!"

"ربما حسب أن يجربك بالاستوديو قبل أن يضعك فى شقة ملائمة بصفتك عشيقته".

"يا للفضيحة!" Quelle horreur.

ولكن اتضح أن الماركيز رجل مهذب، فلدهشتى حصلت على الاستوديو ولم أره قط مرة أخرى. ترك الساكن السابق سريرا نظيفا مريحا يمكن أن يُطوى ليصبح أريكة، كان السرير ومائدة صغيرة وصندوق للثياب مغطى بقماشة فارسية مطبوعة ووسادة مغربية أسهمت بها صديقتى إلينا لتكوين أثاثى بأكمله. تم استخدام طوب جُمع من مواقع للتشييد وألواح خشبية لعمل رفوف كتب واسعة، فى مثل صلابة الرفوف جاهزة التصنيع، كانت أكثر جاذبية، فالطوب الأحمر والألواح بلون القشدة والكتب كونت شكلا غنيا بالألوان أمام حوائط بيضاء عارية. كان مذياعى الصغير ومسجل الأسطوانات الرخيص وبعض الأسطوانات إرثى من سايرِس الذى عاد إلى بلده وزودنى بالموسيقى، كان لدى كل ما أحتاج إليه، وكنت راضية.

جرى كل ذلك قبل عدة شهور من فقدانى المؤقت للذاكرة عند استيقاظى، وفى خلال ما تخلل الحدثين من وقت انتهت المسرحية ونفدت أموالى وبدأت أقوم بمهن غريبة: عروض الأزياء، والترجمة، وكتابة الملحوظات لمنتج أسطوانات إسبانى ـ مغترب عطوف متزوج بامرأة فرنسية كان يخلق دائما الوظائف للشبان الذين يحتاجون إليها ـ وفى نفس الوقت كنت فى انتظار مسرحية أخرى كانت تانيا تخطط لإنتاجها، وفيها وعدتنى بدور كبير. أيا كان ما سيحدث، سرعان ما سأحصل على دخل منتظم ـ لفترة من الوقت ـ بالغناء فى ملهى ليكلوز. ولكن أياما طوالا مرت فى تكاسل وحال من الشك، أو مختبئة مثل قطة مريضة أتأرجح بين الابتهاج والسوداوية.

لأن بيير مضى، لم يخفف ألمى أنها "غلطتى"، وأنى التى فسخت العلاقة، ولا قلل من الخوف والقلق، علاوة على هاوية الوحدة المنفرجة. "من أين تأتى الدموع؟" سألت أمى ذات مرة على ما يبدو، لأنها بدت لا تنضب على العكس من ينابيعِ المياه الموجودة فى إيران التى تتفجر يوما من تحت الصخور ثم تجف تاركة الشوك والأحجار، الآن أقف على الإجابة.

"إننى ذاهبة إلى بلدى". تفكرت فى ذلك الصباح وأنا أفتح مصراع النافذة، وتتدفق أشعة الشمس مثل العسل السائل. ارتفع فجأة حجاب قاتل كثيف، ومضت سماء الشتاء الشتوية البعيدة بلون أزرق، هائلة لا تشوبها شائبة. تألق الفناء الرمادى المعبد بالإسمنت بلون أصفر، بل إن الهواء البارد الواخز كان لطيفا مثل يد باردة تداعب جبينا محموما. هبت من كابينة البواب المقابلة رائحة الطهى لتثير قطا مخططا رماديا يموء متوقعا لقمة رطبة، ترك الموقع المشمس فوق عتبة النافذة، وانسل خلسة نحو ربة المنزل.

مثل عائم فى بحر من الأسى يرى بغتة حدود جزيرة، كنت أعلم أنى أدنو من اليابسة مهما كانت جرداء، "إننى ذاهبة إلى بلدى". كررت بصوت عالٍ، كمن يتحدث إلى القط المتراجع.

انتهى عقد من الزمان، تولى ديجول السلطة وأسس الجمهورية الخامسة فى عامى ١٩٥٨و١٩٥٩ ، وكانت "الستينيات" بتجلياتها المختلفة على الأبواب. رجع كل أصدقائى الإيرانيون إلى وطنهم، وكانوا ينجحون فى مجالاتهم المختلفة، نخبة جيلهم. كتبوا إلىَّ كى يحثونى على أن أعود

قائلين إن كل شىء فى الوطن يتغير، وإن البلد تخطو خطوات طويلة سريعة نحو الليبرالية الثقافية مشجعة على الإبداع فى كل المجالات الفنية، وإن هناك احتمالات لا نهائية للقيام بعمل يستحق العناء المبذول.

كانت إيران دولة "نامية"، كما أكد لى أصدقائى (وجد بعض الأشخاص رقيقى الشعور تعبير "متخلفة" مهينا، وتم تغييره إلى تعبير أخف وطأة). كتب هورموز يقول لى: "أوروبا مضغوطة تماما، وكل الفرص مستنفدة، لأن آلافًا من الأشخاص الآخرين يريدون نفس ما تريدينه، بينما هنا كل شىء فى انتظار أن يخلقه أحد، المسرح، والأفلام، والتليفزيون". ضمنت له شهادة بمرتبة الشرف من كلية الفنون الجميلة وظيفة ترميم مدينة عتيقة وتطويرها المعمارى. "لو كنت فى باريس لانحنيت سنوات فوق لوح رسم فى مكتب مهندس معمارى شهير وانتهى بى الحال أشيد فيلا فى الضواحى، ربما! هنا لدىَّ بلدة بأكملها لترميمها وتوسيعها بمبانٍ وجديدة، وجامعة، مستشفيات..."

لن يكون تطرفى السياسى الماضى عائقا، فبعد اعتقال مبدئى للشيوعيين والمتعاطفين معهم بعد مضى سنوات، اجتذب الشاه النخبة المتعلمة من كل الألوان السياسية، وكانوا فى مواقع المسئولية، يعملون فى حماسة فى مجالاتهم.

كانت الصورة مغرية، حتى لو كانت نصف الحقيقة ليس إلا، وكنت أفكر فيها منذ برهة من الوقت، وهكذا قررت فى ذلك الصباح أن أعود إلى وطنى وأن أواجه الموسيقى. وعلى الرغم من استحالة أن أغنى بأية طريقة من الطرق، تم إحراز بعض التقدم الذى سمح بأن تعمل فتاة لها

خلفيتى الاجتماعية مخرجةً أو منتجةً. كان أحد أقرب أصدقائى يدير الآن قسم الفنون فى التلفزيون العام الجديد، وقد كتب لى رسالة يقول إن بمقدورى أن أعمل فى قسم الدراما والموسيقى، وأعرض ما أريده من برامج. دار ببالى أن بوسعى أن أؤسس فرقة ذخائر، وأعرض كل المسرحيات التى أعجب بها.

وبعد اتخاذ القرار كان أول اتصال هاتفى بأخى ناصر الذى كان قد جاء حينها للعيش والعمل فى باريس، كان يُعتبر دوما أكثر الأطفال الأربعة لوالدىَّ موهبةً، كان منذ طفولته المبكرة يرسم الرسوم ويرمى بالأصباغ وينتج الرسوم الكاريكاتورية ويصنع المخرمات (الأرابيسك) بألواح الخشب الرقيقة. وفى سن السادسة عشرة رسم لوحة لأبى (معلقة الآن فى غرفتى، واحدة من تذكارات الماضى)، لوحة أكد أكبر الرسامين الأكاديميين فى البلاد أنها رائعة. كان قد أخذ ناصر حينذاك تحت جناحه باعتباره طالبا خاصا، كان بالفعل معروفا وقتها بوصفه فنانا عندما التحق بمدرسة الفنون الجميلة فى الجامعة، ومن حينها تفرقت سبيل الأستاذ والطالب، إذ ظل الأول تقليديا وغدا الثانى معاصرا، إلا أن إخلاصهما لبعضهما البعض ظل قويا.

وفد إلى باريس بعد بضع سنوات من انتهاء الجامعة، لأنه وقتها لم تكن هناك فرصة للعمل فنانًا محترفًا فى إيران؛ كان يجب أن "تفعل" شيئا آخر، وترسم فى وقت فراغك. تغير الموقف فى منتصف الستينيات، بإنشاء صالات للعرض وسوق للفنون، ولكن الفرص كانت وقتها محدودة، و"العمل فنانًا" أمر لا مغزى له.

كانت باريس وقتها عاصمة الفن فى العالم الغربى، عاش فيها أعظم فنانى القرن وعملوا فيها، وقد كان العديد منهم مغتربين ومنفيين، كانوا كمثل حجر المغناطيس والقدوة للجيل الأصغر. لم يكن ناصر يمتلك أموالا أو مكانا للعيش، عمل جاهدا وعانى الكثير، وقد دمر صحته فى أثناء العمل حتى أقام فى النهاية معرضه الفنى الأول، وتلاه الاعتراف به فنانًا. ما لبث أن أعلن النقاد أنه قائد جماعة "النواجيست"(*) nuagistes، جماعة صغيرة من الرسامين أدت صورهم "الغائمة" إلى اسمهم. وفى غضون بضع سنوات كان يمثل فرنسا فى المهرجانات الدولية ويقيم المعارض بانتظام، ولكن المحزن أنى فى تلك الأيام الأولى فى باريس لم أتمكن من مساعدته.

يمكننى الآن أن أعطيه شيئا؛ شقتى الصغيرة، رغم أنها أصغر من أن تكون عرضا طويل الأمد (والحق أنه انتقل إلى استوديوهات رحبة بعد فترة)، كانت الشقة شقته طالما أرادها.

كانت تعبئة الحقائب سهلة، فلم أمتلك إلا القليل من المتعلقات عدا الكتب والأسطوانات، وقد عبأتها فى صندوقين كى تشحنها شركة نقل بحرية. وسعت حقيبتا سفر صغيرتان ملابسى وممتلكاتى الخاصة، ولكن أمتعتى الحقيقية كانت حبى لفرنسا ولغتها، ولا يمكن أن يُسرق الاثنان أو يضيعا.

أنفقت الأيام القليلة التالية فى توديع الجميع، تراوحت ردود أفعال أصدقائى ومعارفى على رحيلى من الإنكار إلى تثبيط الهمة؛ قال أغلبهم:

(*) النواجيست كلمة فرنسية تعني «الغائمون». (المترجمة).

"آه، سوف تعودين! لقد اعتدت الحرية الآن، لن تندمجى هناك". وتساءل بريفير: "كيف يمكن لفتاة عصرية أن تعيش فى مجتمع مسلم بكل قيوده؟" طمأنته: "لستُ عصرية إلى تلك الدرجة، ولم تعد إيران مسلمة إلى تلك الدرجة". لم أجد تشجيعا إلا من تانيا: "احتفظى بشقتك، وارجعى إن لم يعجبك الحال، ولكنك قد تتمكنين من تأسيس شىء مفيد هناك".

أبقت بضعة أحداث ولقاءات بالصدفة هذه الأيام القليلة الأخيرة جلية تمام الجلاء فى ذاكرتى، بدا بعضها عند التطلع إليها بعد انتهائها وكأنها "مُرتبة". مرت خمس سنوات وأنا بعيدة عن الوطن وعن والدىَّ اللذين كانا يضغطان علىَّ فى قلق وإنما فى رقة كى أعود إلى بيتى، طلبا من رجل أعمال إيرانى أن يبتاع لى تذكرة طيران متى أطلبها منه، "تذكرة ذهاب فقط!" اتفقنا أن أسافر أولا إلى لندن بالمركب كى ألتقى بأختى ثم أستقل الطائرة من هناك (كانت قد تزوجت بدبلوماسى شاب، ووصلا هناك حديثا فى أول تعيين له، ومعها صبيان صغيران، واحد فى شهره الثامن عشر والثانى فى شهره السادس، لم أكن قد رأيتهما بعد)، كان مكتب رجل الأعمال فى شارع متفرع من شارع الشانزلزيه، وبعد يومين ذهبت إلى هناك لأخذ التذاكر.

كان يوما شتويا مشرقا منعشا، يَحمل بالفعل وعدا بقدوم الربيع فى الهواء الساكن، وجعل صقيع الليل الأرصفة تلتمع مثل ألف من القطع المرآوية اللامعة. حلقت النوافير فى الطرق الملتوية عاليا، وسقطت كما الشلالات فى أحواضها بثريات من الكريستال مرسلة رشاشا جميلا من قوس قزح. وفى الحدائق المحيطة ارتعشت أغصان الأشجار والشجيرات

الجرداء بوعد نمو جديد وبروز وشيك للبراعم، وسار الناس على مهل وهم يتفرجون على نوافذ المحال.

"يا آنسة!... يا آنسة، من فضلك..." كان احتمال أن أقابل شخصاً أعرفه فى منتصف النهار فى الضفة اليسرى بعيدا، ولكنى التفتُّ وأبصرت رجلا أسود عجوزا يدنو منى وهو يبتسم، كان وجهه مألوفا، "من فضلك يا آنسة، هل تتناولين فنجانا من القهوة معى؟ أنا سيدنى بيشيه". ومد يده؛ كنت فى مزاج متفائل كل التفاؤل فلم أرفض ـ وماذا يهم؟ بما أنى راحلة بعد يومين؟ ـ هذا غير أننى كنت معجبة بموسيقاه التى كانت تُسمع فى كل فونوغراف آلى فى كل مكان. لم يخل المقهى المواجه للمدينة الجامعية ـ حيث احتمينا أحيانا من طعام الكافيتريا ـ أبدا من شخص يضغط زر أغنية "زهور صغيرة"، لحن جميل، وأغنية راجت لمدة سنوات، عزفها بيشيه على الكلارنيت. وجدنا نحن التلاميذ معبودا بعيد المنال، دوت موسيقاه فى المقاهى وانسلت عبر الجادة المزدحمة إلى غرفنا فى المدينة الجامعية. كانت صورته فى كل مكان، وهو يلعب الكلارنيت أو يبتسم إلى الكاميرا بعين جفنها ثقيل وأنف مسحوق وخد ممتلئ، مما يعطيه تعبير الطفل المؤذى. ومثل لويس أرمسترونج تمتع بجاذبية تفوق أغلب عازفى موسيقى الجاز فى ملاهى الضفة اليسرى.

منعت حكومة فيشى الجاز خلال الحرب بصفته تعبيرا عن الانحطاط، ونتيجة لذلك بات الجاز رمزا مضادا للبرجوازية للشباب بعد انتهاء الحرب، وكانت معرفة الجاز والاستماع له موضة بين مفكرى

الضفة اليسرى. الحق أن بعضهم صاروا عازفين محترفين، من أبرزهم الكاتب بوريس فيان الذى قيل إنه جمع مجموعة من أسطوانات الجاز من أجل سارتر ودو بوفوار. كان العازفون السود محل تقدير خاص نظرا لأن الكفاح من أجل المساواة العرقية على أجندة اليسار، وتمت دعوة العديد من موسيقيى الجاز الأمريكيين للعزف فى الناحية اليسارية فى الأربعينيات والخمسينيات، إلا أن بيشيه استقر فى باريس حيث لبث حتى نهاية حياته فيما أعتقد.

قادنى إلى أول مدخل فى أحد مقاهى شارع الشانزلزيه، أخبرته أنى أسمع أسطواناته كل يوم، وأن كل الطلاب يحبون موسيقاه. ولكنه كان يفكر فيما ما هو أكثر من إعجاب المعجبين، ولم يكترث لمناقشة التفاصيل الدقيقة للارتجال فى الجاز والموسيقى الكلاسيكية والشرقية، وقد تصور أنه التقطنى؛ حيث إننى قبلت دعوته للقهوة. قلت له إنى مسرورة للقاء أسطورة بشحمه ولحمه، إلا إننى على وشك مغادرة أوروبا ولن تسنح لى الفرصة قط لمثل هذا اللقاء السعيد. عندما أدرك أن مجاملاته لم تستملنى، غيَّر الطريقة وعرض المزيد: "هل ترين هذه الكاديلاك؟" سألنى مشيرا إلى سيارة أمريكية فى مثل ضخامة ونعومة الزورق. "سوف أشتريها لك!" قلت متجنبة العرض: "لا أحب السيارات الأمريكية!" قال: "حسنا Ar" right"، سوف أشترى لك سيتروين ديز" Citroen Déesse قال وهو ينطق الكلمة الأخيرة "دى-ييز" 'day-yes وبعدها عرض علىَّ منزلا ورحلات إلى أمريكا وجنوب أمريكا...

كنت متأخرة عن موعدى، والضجر يستبد بى، لذا ودعته وتركته ليبحث عن فريسة أخرى، ولم أستحضر هذه الواقعة إلا منذ وقت قريب عندما تناهى إلىَّ صوت رجل فى الشارع يقول لابنته التى تدرج فى الشارع: "تعالى يا زهرتى الصغيرة..." الذاكرة، مثل الإله، تعمل بطرق غامضة. ولكن لقائى التالى، على بعد عدة ياردات فى الجادة، بدل كل خططى ومسيرة حياتى التالية.

التقيت بكيرتس، الأمريكى الوحيد بين معارفى من المغتربين الأنجلوساكسون الذى عاش فى الجانب اليمنى فى بيت والديه الباريسى، من عائلة معروفة من نيو إنجلاند، جاء إلى أوروبا بعد أن تخرج فى أمريكا وقضى سنتين لدراسة الدراسات العليا فى أكسفورد، حيث صادق عددا من الأصدقاء البريطانيين، وبعدها فى منتصف الخمسينيات استقر فى باريس كى يكتب، بينما ساهم من حين لآخر بالقطع الأدبية فى عدد من المنشورات الأدبية الأمريكية، وأجرى الأبحاث لتأليف كتاب. كنت قد قابلته فى إحدى الحفلات فى شقته الفخمة منذ عام خلا، ولكنى لم أره منذ حينها. ها هو الآن، يسير فى الشانزلزيه! حينما أنبأته أننى سوف أعود إلى إيران عن طريق لندن، كتب فورا على ورقة اسمى وعنوانى ورقمى اثنين من أصدقائه فى أكسفورد، كانا يعيشان فى لندن، ووعد أن يكتب لهم خطابا فى نفس اليوم ليخبرهم بتوقع قدومى.

خالجنى الشك أن أجد وقتا بما أن إقامتى ستكون وجيزة، وسوف أستغرق فى صحبة عائلتى، وأردت أن يسع وقتى صديقى الإنجليزى الوحيد، كريستوفر، ولكن يمكننى على الأقل أن أتصل بهما وأنقل إليهما

تحياته. كان أحد صديقيه دبلوماسيا ألمانيا، أحد تلاميذ تشرشل النجباء بسبب معاداة النازية التى أبدتها أسرته خلال الحرب، والتى عانوا من جرائه، والآخر إنجليزى "حاولى أن تقابليه على الأقل إن أمكنك؛ فهو مستكشف وشخص نادر، سوف يعجبك، إنه فى جمال الشيطان("Il est beau comme le Diable

اكتظ المركب لأن عدد الرحلات البحرية يقل فى أشهر الشتاء، وفى الداخل كانت النوافذ المستديرة غائمة بفعل البخار المنبعث من الحرارة والأنفاس؛ كان لا بد من أن تمسح اللوح الزجاجى كى تطل منه. انتشرت فى الهواء المحبوس رائحة كريهة من الطعام المقلى والجعة والقهوة ممزوجة بالروائح الآدمية؛ عدا الأطفال المبتهجين فى كل مكان يتبعهم كبار بأصوات عالية. على ظهر المركب المبتل أرسلت رياح بحرية باردة بمياه مالحة مثلجة رشاشها على الركاب القليلين المغامرين بالخروج، ارتطمت بالوجه واخترقت العظام لتدفعهم إلى الدخول. سرعان ما توارت أنوار ميناء كالى خلف ستار من السديم، وجرى المركب بسلاسة فوق مياه مظلمة ضاربة إلى الخضرة تلفها سحب رمادية مثل شبح فى حلم؛ دخل الركاب القليلون الباقون الواحد تلو الآخر، وتركونى وحدى فوق ظهر المركب أطفو مخدرة الحواس فى أفكارى.

على الرغم من أن قلقا اعترانى من إيران، كنت تواقة للوصول إلى هناك بسرعة، وكدت أندم على رحلة إنجلترا المشتتة، ولكن دار ببالى أن أسبوعا سوف يمر بسرعة، وبعدها سوف أرى... لم أعلم أن القدر يرتب لى خططا أخرى، وأن ساعته كان تتكتك صوب ساعة معينة.

لم تتضح أنوار ميناء دوفر إلا عندما كنا تقريبا فى الميناء، فقد كان الضباب كثيفا للغاية، كانت رحلة القطار إلى لندن معتمة هى الأخرى، ولم تخلف انطباعا قويا فى ذاكرتى، ولكنى أتذكر تغير الجو عندما ترجلنا فى البلدة الجديدة، بدا الإيقاع أبطأ وأكثر استرخاء، كان الحمالون وقاطعو التذاكر والركاب مهذبين وفى نفس الوقت محافظين. أخذت أنا وزوج أختى السيارة من فيكتوريا إلى كينسينجتون، كنت أتطلع من النافذة لأتفرج على المدينة المختلفة تمام الاختلاف عن باريس وعما تخيلته عن طريق النظر إلى الملصقات الإعلانية.

كانت ليلة سبت، وكانت أختى وزوجها مدعوين إلى عشاء رسمى ما، وعليه عرضت عليهما أن أجالس الطفلين بما أن ابنى أختى كانا السبب الحقيقى لتوقفى فى لندن.

بعد أن أنمتهما اتخذت مجلسا ومعى كتاب، ولكن ساورتنى إثارة ولهفة حالا دون أن أقرأ، وعليه قررت أن أتصل بكريستوفر وصديقى كيرتس رغم أنه ليس محتملا أن يكون أيهم فى البيت ليلة السبت. لم يجب الأولان، ولكن "المستكشف" قال إنه تلقى حقا رسالة من كيرتس ويتوقع مكالمتى، وإنه يستطيع أن يأتى ويرانى لأنه كان يغادر المدينة بضعة أيام فى الصباح.

"فلنذهب لنشترى بعض الهدايا للأسرة". اقترحت أختى فى الصباح التالى أثناء الفطور.

- "لن أرجع إلى البيت، سوف أتزوج".

- "ماذا تعنين؟ بمن تتزوجين؟"

- "برجل إنجليزى، قابلته ليلة أمس".

- "أين؟ من هو؟ ماذا يعمل؟"

- "جاء ليقابلنى هنا هنيهة، لا أعلم الكثير عنه عدا أنه كان مستكشفا وألَّف كتابا، يعمل الآن فى شىء آخر".

- "ماذا يعمل لكسب قوته؟ هل لديه وظيفة؟ أى أموال يعيش منها؟"

-"لا أعلم، ولا يهم، يمكننى دوما أن أغنى لكسب القوت! الأرجح أنه يعيش فى علية".

كان زوج أختى يضحك على أختى لتصديقها نكتتى، فمن المؤكد أنى لست جادة.

قالت أختى هازئة: "حسبتُ أن الزواج مؤسسة برجوازية، وأنك لن تتزوجى قط!"

- "غيرت رأيى".

- "كيف طلب منك الزواج؟ لا بد أنه مجنون هو الآخر!"

- "آه، لم يطلب منى الزواج، ولكنه سوف يطلبه، إنه وسيم للغاية ودمه خفيفو سوف تعجبين به."

- "إنه حسن الطلعة، لذا سوف تتزوجه، ولا يهم إن اتضح أنه قاتل متسلسل!" وجهت أختى الكلام لزوجها مقررة أن تتعامل مع الموضوع برمته وكأنه مهزلة، أو ربما كانت قد فقدت الأمل فىَّ.

- "سوف أنجب أطفالا أيضا، صبيان وبنات".

- "لقد قلت إنك لا تحبين إلا أطفال الناس، وإنك لن تُبلى أى شخص بعبء الوجود!"

"غيرت رأيى فى هذا الأمر أيضا، غالبا ما يتصف الأطفال من دم مختلط بالجمال والذكاء. أظن أننى سأحب المكان هنا، فالناس يبدون فى منتهى الظرف؛ ففى دوفر ابتسم لى ضباط الهجرة والجمارك وقالوا لى 'أهلا' ودعانى الحمال بـ 'حبى'!"

عرفت فى وقت لاحق أن مشهدا مشابها جرى بين زوجى فى المستقبل وأمه، عدا أنها كانت تتحلى برومانسية خليقة بعهد الملك إدوارد، لذا لم تجد ما قاله غريبا، بل "واحدا من تلك الأحداث اللطيفة التى تقع فى بعض الأحيان".

سوف تتجمد الصورة وتبدأ الأسماء فى الحركة عند تلك اللحظة فى أى فيلم، بينما سوف ترتفع الموسيقى تصاعدية لتنبئ بالنهاية السعيدة؛ ما تساءلنا قط ماذا جرى للبطلين فى السنوات التالية على قبلة النهاية. ولكن الواقع مختلف؛ فالوقت يكسر كل شىء وينحته حتى "تتحطم سفينة الحب مقابل صخور الحياة اليومية"، إلا أن تحطم السفينة لا يجعل الرحلة غير ذات قيمة. على العكس، إن مباشرتها بكل تهور وفقا لأوامر القلب ثم الوصول إلى مرفأ فى النهاية - حتى لو وصلتَ مسحوقا مليئا بالكدمات - سبب يدعو إلى الامتنان والشكر الوافر لنعمة الله.

٢٨ ـ الخاتمة

لن نكف عن الاستكشاف

وفى نهاية كل استكشافاتنا

سوف نصل إلى نقطة البدء

ونعرف المكان للمرة الأولى

تى. إس. إليوت

صباح سبت دافئ مشمس فى منتصف أكتوبر، يقولون إن باريس لم تشهد خريفا أروع من هذا الخريف "فى ذاكرة الأحياء"... ولكنى أتذكر فصولا مشابهة عندما تتابعت الأيام المشمسة اللطيفة، لا يقطعها إلا مطر ليلى من حين لآخر كى ينعش الهواء ويغسل أحجار الطريق، عندما كانت السماء دائمة الصفاء، وتذبذب كل شىء والتمع متألقا، وتراءت المدينة بأكملها وكأنها تطفو فى فقاعة ذهبية.

اليوم تكتظ شرفات المقاهى والمطاعم فى الهواء الطلق بأشخاص فى ملابس خفيفة، وقد وُضعت موائد إضافية على الأرصفة استعدادا للغداء. وعند كل مفترق طرق انتشرت فى كل مكان رائحة الفانيليا

والفحم النباتى الصادرة من أكشاك باعة اللوز بالكراميل وجوز الكستناء، بينما ملأ الهواء هنا وهناك أرغن يدوى أو جيتار لأحد عازفى الشوارع بخيوط من ألحان رائجة تستثير الذكريات.

أقبلت آن من الجنوب كى تلتقى بى، تمشينا فوق جسر بونت نوف إلى الجزيرة الواقعة فى المنتصف ثم توقفنا لنمد أبصارنا إلى ميدان فير جالان Vert Galant بالأسفل، حيث انتثرت فوقه الأوراق رغم أن أشجار الصفصاف كانت لا تزال خضراء. راقبنا حركة المرور، المشهد البانورامى فى كل الاتجاهات، ثم واصلنا فى متاهة الشوارع الضيقة فى "منطقتنا" سان جيرمان، الزاخرة بمتاجر الكتب والمقاهى. كان الأمر أشبه بمشاهدة إعادة تصوير فيلم قديم؛ نفس الحبكة والموقع، ولكن بطاقم ممثلين مختلف، بوجه أو وجهين مألوفين بالكاد، وكأنهما كبرا فى السن بمستحضرات التجميل للإشارة إلى مرور الزمن. تغطى العمود الرئيسى فى أحد المتاجر بصور قديمة لكُتاب وشعراء رحل بالفعل العديد منهم عن الحياة، وآخرون أكبر بعقود من تلك الفترة التى التقطت فيها الصور إلا أنهم لا يزالون منتجين كما يبرهن على ذلك أحدث كتبهم المعروضة فى المتجر.

تعج حدائق لوكسمبورج بأناس من كل الأعمار إلا أن الأطفال الصغار يسودون الهواء بأصوات المرح. هنا يولى الكهول كل انتباههم للكوتشينة، وهناك تلعب مجموعة أخرى البولنج على العشب بجوار صف من المتفرجين، وبعيدا زوجان كهلان يرتديان قبعتين غريبتين يغلبهما النعاس على مقعد وذراعاهما متشابكان. اكتسى العشب بالشبان، فى مجموعات

صغيرة أو أزواج، تجردوا من الملابس الخارجية لالتقاط الشمس قبل سبات الشتاء. غصت أشجار جوز الكستناء بدرجات الأخضر اللامع والخمرى والأصفر والأرجوانى، كلها تتوهج، وكُنست الأوراق الميتة فى أكوام بالحارات وإن لم تزل الأرض ترسل صوتا طاحنا تحت الأقدام مع محصول جديد سقط مع نسيم الليل. تبصر من الطريق الرئيسى منظرا على الحديقة، لها جمال مثير للمشاعر مميز لنهاية الأشياء.

دائما ما تنصرف الحوارات مع الأصدقاء القدامى إلى السياسة، وكذا الأمور الشخصية، إلى الأحداث الدرامية فى أوروبا الشرقية قبل كل شىء "من كان ليصدق أن هذا ممكن؟" هتف الجميع فى رهبة، لم يكن الصرح السوفيتى الواحد المتناغم إلا منزلا من أوراق الكوتشينة، وقد قضينا جانبا من شبابنا مؤمنين أنه يخلق الفردوس على الأرض! وقد أسهمنا بدون قصد فى معاناة الضحايا من خلال أوهامنا. تحطمت آن حين ذهبت للحياة فى روسيا، ونبع "التزامى" قصير المدى مما تعرضت له فى طفولتى من مناظر الفقر والأسى. لقد استثارت فى نفسى شفقة أى شفقة، رغبة لافحة فى المساهمة بنصيبى، مهما كان ضئيلا، فى تخفيف الأسى البشرى. الحقيقة هى أننى لم أنحز إلى جانب آخر رغم أن الجوانب نفسها بدت وكأنها تغيرت. ومع ذلك خير لى أن أخطئ فى جانب الحق، أن أتمرد، لأن الحالة الإنسانية ظالمة، أن أردد كلمات سانشو بانزا: " حيث إننا لا نستطيع أن نقيم عدلا محضا، فلنحتكم على الأقل إلى الرحمة."

تتوجه أصابع اللوم اليوم إلى المفكرين الفرنسيين لموقفهم "غير المبالى" بالسياسة مقارنة بانهماكهم المتقد فى الماضى. مع الاحتفال

بالذكرى المائتين للثورة الفرنسية، عاد كثيرون إلى ولائهم لمبادئ حقوق الإنسان - حقوق تم شجبها فى الماضى باعتبارها "برجوازية" - لأنها ترتكز على قيم مطلقة عوضا عن المصلحة الشخصية المنحازة.

عاد تقريبا كل أصدقائى الإيرانيين من أيام الدراسة إلى باريس، مغتربين من جديد فى ظروف مقيدة من جراء تغيرات عنيفة خارجة عن إرادتهم. ولكن لديهم مجتمعا، إحساسا بالانتماء لا يسعنى أن أدعيه، فاغترابى له جذور مختلفة. نلتقى ونستعيد الذكريات، نضحك كثيرا، بل وأحيانا ما نبكى. إن عقدنا هى عقد الاغتراب، من التاريخ والطغيان والمجاعة والحياة بل والحب، وكل اغتراب اليوم مختلف عن الآخر.

أذهب إلى باريس كل خريف لقضاء بضعة أيام والتقاء الأصدقاء ومتابعة الأحداث، ولكنى أعلم الآن أن ما يغمرنى من إحساس بالحنين ليس من أجل أى شىء، ولكن لا هدف له، وينبع من اشتياق لا ينطفئ لذلك "المكان الآخر" الأصيل، مكان يرجع أصله فيما وراء الذاكرة إلى فقدان الفردوس. يسعدنى دوما أن أعود وأشعر بالشباب مرة أخرى وآخذ بأسباب حياة طالبة لا تحمل هما، حتى لو كان لوقت وجيز. ومع ذلك بعد بضعة أيام أرغب فى العودة إلى "بيتى"، وهو ما يعنى الآن إنجلترا، أرض الحماية لأجيال من المغتربين عبر القرون فى سعيهم إلى التسامح والطيبة. ومع ذلك ليست المدن نفسها وإنما شعورى تجاه أفراد بعينهم هو الذى جذبنى إلى باريس ثم شدنى إلى لندن، لأن الحقيقة هى أن الأشخاص الآخرين - حبى لهم وحبهم لى - هم الدافع الدائم لحياتى. الحب، تلك البوتقة الغامضة الحاوية لأصل كل البشر والمجسدة لخلاصنا.

المؤلفة فى سطور:
شوشا جوبى

ولدت شوشا جوبى فى إيران ونشأت فيها. انقلت إلى باريس فى عمر السابعة عشرة؛ كى تدرس اللغات الشرقية والفلسفة فى جامعة السوربون. كانت محررة مجلة «ذا باريس ريفيو» فى لندن، صحافية ذائعة الصيت وموسيقية ومؤلفة نالت الجوائز عن «كتاب الحصان معصوب العينين» (كتاب ورقى الغلاف صادر عن دار توريس بارك للنشر) وكتاب «سر الضحك» (دار آى. بى. توريس للنشر).

المترجمة فى سطور:

هالة صلاح الدين حسين

مترجمة مصرية تخرجت فى كلية الآداب جامعة طنطا، أصدرت ترجمت كتاب تناسخ الأرواح في بارك أفينو تحرير الكاتب الأمريكي إى. إل. دوكتورو، عن سلسلة شرق وغرب، أخبار اليوم، عام ٢٠٠٦ ، وترجمت رواية فنان من العالم الطليق للكاتب البريطانى كازو إيشيجورو عن المركز القومى للترجمة عام ٢٠٠٩.

تشرف على تحرير مجلة البوتقة - فصلية إلكترونية مستقلة تعنى بترجمة آداب اللغة الإنجليزية - منذ أبريل ٢٠٠٦، وقد أصدرت حتى تاريخه ستة وعشرين عددا من المجلة.

التصحيح اللغوى: نهلة فيصل
الإشراف الفنى: حسن كامل

تركت شوشا جوپی إيران وأسرتها فی سن السابعة عشرة؛ كی تدرس اللغات الشرقية والفلسفة فی جامعة السوربون بباريس. اندفعت شوشا إلى المجهول - عالم من حريات غير متخيلة وآفاق غير مكتشفة - وانهمكت فی الحياة الفنية النابضة بالحيوية للضفة اليسرى من نهر السين فی باريس، وهناك التقت بصامويل بيكيت وسيدنی بيكيت وألبير كامو، وشجعها جاك بريفير على الكتابة وتسجيل أغانيها الأولى. وبنفس ثراء الشعر والموسيقى الفارسية وعواطفهما تُعتبر المذكرات المتألقة لشوشا جوپی - تتمة كتابها المحتفى به "الحصان معصوب العينين" - صورة مشرقة لباريس إبان العقد السادس من القرن العشرين وتصويرا ذكيا كل الذكاء للمواجهة بين الشرق والغرب، وسردا مثيرا لوجع النفی.

تصميم الغلاف: عبد الحكيم صالح